العتبة العباسية المقدسة
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

سلسلة الدراسات الغربيّة 12

ميثولوجيا الحداثة

الأصل الإغريقي لأسطورة الغرب

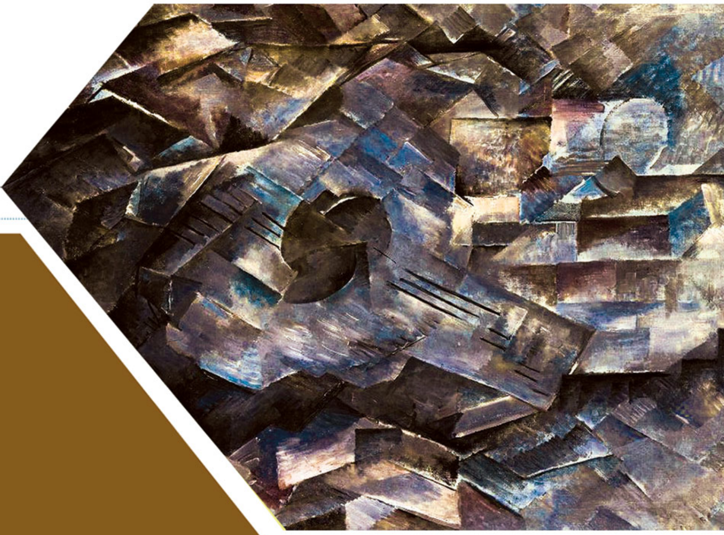

تأليف: مريم صانع بور
ترجمة: أسعد مندي الكعبي

ميثولوجيا الحداثة

الأصل الإغريقي لأسطورة الغرب

د. مريم صانع بور

ترجمة: أسعد مندي الكعبي

بسم الله الرحمن الرحيم

صانع بور، مريم
ميثولوجيا الحداثة، الأصل الإغريقي لأسطورة الغرب/ تاليف الدكتورة مريم صانع بور.- الطبعة الاولى.- النجف، االعراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٠ هـ = ٢٠١٨.
٣٣٤ صفحة ؛ ٢٤ سم
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية ؛ صفحة ٣٢٠-٣٣٤.
ISBN9789922604213
١. الاساطير اليونانية -- تاريخ ونقد. ٢. الحداثة – فلسفة. الف. العنوان.

BL783 . B87 2018
مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الفهرس

مقدمة المركز 7

المقدمة 9

الفصل الأول: حقيقة الأساطير 31

أوّلاً: النظريّة الدينيّة 41

ثانياً: النظريّة التأريخيّة 42

ثالثاً: النظرية الباطنية 42

نتيجة البحث: 49

الفصل الثاني: حقيقة الحداثة الغربيّة 53

أوّلاً: تعريف الحداثة 54

ثانياً: تأثير الحركة الإنسانويّة على تيّار الحداثة 55

الفصل الثالث: الحداثة الغربيّة في دوّامة الأساطير الإغريقيّة القديمة 61

المبحث الأوّل: الحركة الإنسانويّة والأساطير الإغريقيّة 62

خلاصة البحث: 72

المبحث الثاني: الإبستيمولوجيا والأساطير الإغريقية 75

خلاصة البحث: 90

المبحث الثالث: علم النفس 92

نتيجة البحث: 105

المبحث الرابع: علم اللاهوت 107

أوّلاً: جينيالوجيا الآلهة الأسطورية في بلاد الإغريق 107

ثالثاً: بصمات الأساطير الإغريقية في اللاهوت الغربي 123

نتائج البحث 129

المبحث الخامس: اللغويات «الفيلولوجيا» 132

أوّلاً: نظرية جيامباتيستا فيكو 133

الفهرس

ثانياً: نظرية كلود ليفي شتراوس 138
ثالثاً: دور الأساطير الهرمسية في اللغويات المعاصرة 140
رابعاً: تحليل النظريات التي ذكرت 145
خامساً: سيادة الرجل 147
1) جينيالوجيا الإلاهات 147
نتيجة البحث: 161
سادساً: الأخلاق 164
1) أخلاق أبطال أساطير هوميروس 164
2) تأثير أخلاق البطولات الأسطورية الإغريقية على أخلاق عصر الحداثة 168
3) تأثير الأساطير الإغريقية على رواج علم الجمال في فكر التجدّد الغربي 176
نتيجة البحث: 179
سابعاً: الفنّ والأدب 182
1) الأساطير الإغريقية في رحاب الفنّ والأدب 182
2) تأثّر الفنّ والأدب في عصر الحداثة بالأساطير الإغريقية 187
3) المدرسة الرومنطيقية والأساطير الإغريقية القديمة 191
نتجة البحث: 193
ثامناً: العلم الحديث 194
1) نظرية جيامباتيستا فيكو 194
2) تأثّر العلم الغربي الحديث بالأساطير الإغريقية القديمة 200
نتيجة البحث: 203
تاسعاً: الأنثروبولوجيا 205
1) البُعد البيولوجي 206
2) البُعد الثقافي 211

نتيجة البحث: 216
عاشراً: علم الاجتماع 219
2) نظرية جورج سوريل 223
3) علم الاجتماع الحديث في رحاب الأساطير الإغريقية 225
نتيجة البحث: 229
حادي عشر: الحضارة والمدنية 231
1) نظرية جيامباتيستا فيكو 232
2) الحكومة المدنية الأسطورية 244
نتيجة البحث: 254
ثاني عشر: السياسة 258
1) السياسة الداخلية في الأساطير الإغريقية 258
2) السياسة الخارجية في الأساطير الإغريقية 261
3) الأساطير الإغريقية تفرض نفسها على سياسة العالم الحديث 267
نتيجة البحث: 280
ثالث عشر: محورية أوروبا 282
1) أسطورة أوروبا في بلاد الإغريق القديمة 282
2) أسطورة أوروبا تبسط نفوذها على أوروبا الحديثة 284
نتيجة البحث: 286
الفصل الرابع: الميثولوجيا المقارنة برؤيةٍ غربيةٍ 289
1) لِمَ الميثولوجيا المقارنة؟ 290
2) منشأ الميثولوجيا المقارنة 292
3) المواضيع البنيوية في الميثولوجيا المقارنة 294
نتيجة البحث: 314
مصادر الكتاب 320

مقدمة المركز

ما فتئ جدل التراث والحداثة يغادر الأندية الثقافيّة في العالم الإسلامي منذ 200 سنة، حيث نرى كمّاً هائلاً من الدراسات والبحوث والمؤتمرات والندوات وغيرها من الأعمال الفكريّة والثقافيّة، التي تطرّقت إلى هذا الموضوع وأولته اهتماماً بالغاً، ولو تم تدوين ببليوغرافيا حول ما كتب في هذا الجدل لبلغ مجلدات عدّة.

إنّ السبب الرئيس في احتدام هذا الجدل، هو محاولة التمّلص من الماضي للالتحاق بالغرب، زعماً من دعاة التغريب والحداثة في العالم الإسلامي أنّ الغرب أصبح غرباً عندما تخلّص من ماضيه وتراثه وأحدث قطيعةً معه.

ولكن لو ألقينا نظرةً فاحصةً إلى الغرب لرأينا أنّ الغرب لم يقطع مع ماضيه، وإنْ كانت ثمة قطيعةٌ فهي مع الدين ومع الحقبة المسيحية، جرّاء ما حصل بين الكنيسة والعلوم الجديدة، أما ماعدا هذا فالغرب لم ينفك عن ماضيه وقد استمد منه الأسس والمباني، فالحضارة الغربيّة والحداثة الغربيّة تراثيّةٌ في جذورها وأسسها ومبانيها.

وقد جاء هذا الكتاب ليلقي نظرةً على هذا الإنبناء الماضوي للحداثة والحضارة الغربيّة، ويوصل رسالةً واضحةً إلى دعاة التغريب والحداثة في العالم الإسلامي بأّن الغرب علمانيٌّ في جذوره وأسسه وقد رجع إليها، كما أنّ العالم الإسلامي إيمانيٌّ وإسلاميٌّ في جذوره وأسسه فلا بد من الرجوع إليه. إنّ الماضي الإغريقي يشكل هويّة

الغرب وقد تمسك به أشدّ تمسّك، كما أنّ الماضي الإسلامي والإيماني يشكّل هويّة العالم الإسلامي، فلا بد من الاهتمام والتمسك به.

ونحن إذ نقدم ترجمة هذا الكتاب القيّم إلى الساحة العربيّة، نتقدم بالشكر للدكتورة مريم صانع بور حيث سمحت بترجمة هذا الكتاب مشكورة ونتمنى لها دوام التوفيق والعطاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الامين وآله الميامين.

النجف الأشرف

ربيع الأول 1440 هـ

مقدّمة المؤلف

لو أردنا الاطّلاع على المعالم الأساسية لكلّ ثقافةٍ فلا محيص لنا من الإلمام بمبادئها التي تبلورت في رحابها، وفي هذا السياق يمكن اعتبار الأساطير القديمة بأنّها خلفياتٌ ارتكازيّةٌ للحضارات البشريّة التي ازدهرت على مرّ العصور، لذا وصف الباحثون المختصّون الأساطير الإغريقية بكونها ركيزةً أولى للثقافة المدنية الأوروبية، حيث بادر الإنسانيون (Humanists) الأوروبيون في عصر تجدّد الثقافة الأوروبية الذي عرف بعصر النهضة (Renaissance) إلى دراسة وتحليل هذه الأساطير بهدف إحياء القابليات والطاقات الفكريّة لأسلافهم الإغريق وتوسيع نطاقها في المجتمع.[1]

الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر قال حتّى وإن اقتضت ظروف العالم المعاصر تهميش الأساطير وحذفها بداعي عدم فاعليتها، إلا أنّ الرموز الأسطوريّة لم تضمحلّ من الفكر البشري مطلقاً، بل كان لها دورٌ في نشأة العالم المعاصر وما زالت إلى الآن مطروحةٌ في رحابه.[2]

الإنسان بحسب الأساطير الإغريقية مرتبطٌ ارتباطاً وطيداً بالطبيعة، أي بالأرض والبحر والشجر وسائر المظاهر الطبيعية الأخرى، وهذا الأمر على خلاف ما يطرح في العالم الغربي المعاصر؛ فالأساطير كانت وليدةً للتصوّر البشري بينما العقل لم يكن له دورٌ في هذا المضمار، ومن أمثلة ذلك أنّ مبدعي الأساطير في تلك الآونة كانوا يصوّرون حوريات الجنّ في أساطيرهم وكأنّهنّ جالسات على حافّة حوضٍ ماؤه زلال وهنّ يشربن الماء، أو كأنّهنّ يهربن من البشر بين أشجار الغابة والرياح تهبّ هنا وهناك؛

---

[1]- See: Abbagnano, Nicola (1976) “Humanism”, Encyclopedia of Philosophy, Ed. Paul Edwards New York, Mc Millan.

[2]- إرنست كاسيرر، افسانه دولت (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية نجف دريا بندري، إيران، طهران، منشورات «خوارزمي»، 1983م، ص 376.

كما صوّروا إحدى الإلاهات وهي تقطن في أعماق المياه الجارية، حيث كانوا ينظرون إلى الطبيعة في أساطيرهم من زاويةٍ حيّةٍ مليئةٍ بالأعاجيب.

الميثولوجيا الإغريقية ابتدأت من أسطورة الإلياذة (Iliad) التي دوّنها هوميروس (Homer Homeros) في إطارٍ أدبي ومعبّرٍ زاخرٍ بالصور البلاغيّة والفنون البيانيّة، حيث وصف فيها الآلهة وأسلاف الإنسان الغربي بأنّهم بلغوا الذروة في العقل وارتقوا قمم الثقافة وامتازو بالحنكة السياسية[1]؛ والجدير بالذكر هنا أنّ الأوديسة (Odyssey) هي الأخرى من جملة الأساطير التي دوّنها وذلك بحدود 800 سنة قبل الميلاد.

كما أنّ آثار الشاعر هسيود (Hesiod Hesiodes)-الذي عاش قبل الميلاد بما يقارب 700 سنة- تعتبر من أهمّ الأساطير الإغريقية، وهو على خلاف سلفه هوميروس الذي كانت حياته مرفّهةً، حيث كان فلاحاً فقيراً يعيش من عرق جبينه وكدّ يمينه، وفي أسطورته الشعريّة «الأعمال والأيام» (Works and Days) وضّح كيف أنّ الإنسان له القدرة على التمتّع بحياةٍ هانئةٍ حتّى وإن عاش في عالمٍ زاخرٍ بالمصاعب؛ وتنسب له أيضاً أسطورة أنساب الآلهة (Theogony) التي دوّنها حينما كان مقيماً في مزرعةٍ نائيةٍ بعيدةٍ عن ضوضاء البشر، حيث ذكر فيها إعجابه ممّا يجري في هذه الحياة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا الشاعر الإغريقي تحدّث في أساطيره عن خلقة العالم ونشأة ذراري الآلهة، وهذا الأمر يعدّ واحداً من أهمّ المواضيع المطروحة في الميثولوجيا.[2]

الأساطير القديمة غالباً ما تتمحور مواضيعها حول العهود التي سبقت نشأة الكون، ومراحل نشأته، وظهور الآلهة، والأبطال الذين عاشوا في مرحلة ما قبل

---

[1]- Hamilton, Edith, 1969, Mythology, Doris fielding Reid, p. 13 - 14.

[2]- Ibid, p. 21 - 22.

التأريخ، كما تتطرّق إلى النظام المدني للبشرية؛ لذا تتضمّن مفاهيماً في ما وراء الزمان وذات طابعٍ تصويري بالنسبة إلى الإنسان المتجدّد، ومن هذا المنطلق أكّد مؤرّخ الأديان المعاصر والخبير في الميثولوجيا والفلسفة الرومانية ميرتشا إلياده (Mircea Eliade) على أنّ احتمال وقوع الإنسان البدائي بالأخطاء جرّاء اتّباعه فطرته الخالصة في الجنّة الحيوانية بعيداً عن حكم العقل، مطروحٌ على مرّ التأريخ، كما أنّه مطروحٌ أيضاً بالنسبة إلى الإنسان المتحضّر، وذلك بحسب طبعه البشري الثابت ونزعته إلى الحرّية والاختيار والإبداع؛ فهو على ضوء هذا الخطأ المحتمل يتمكّن من الغلبة على ما يتعرّض له في العصر الحديث من اضطرابٍ وغربةٍ عن النفس عن طريق توجيه نقدٍ للخوف والمعاناة المشار إليهما في الأساطير القديمة، ولربّما يستطيع من خلال ذلك استعادة الطمأنينة التي افتقدها واستعادة اتّزانه الذي كان يتمتّع به في الطبيعة النقية التي عاش في رحابها إبّان عهود ما قبل التأريخ[1].

إذاً، يمكن القول بحسب رأي إلياده، أنّ الإنسان الغربي المتجدّد الذي كان يبحث في عصر النهضة والحداثة عن دعائم ثقافته الجديدة بالرجوع إلى العصر الإغريقي الذهبي، قد بادر إلى مقارعة الخوف والمعاناة والاضطراب الذي واجهته البشرية على مرّ التأريخ اعتماداً على فطرته السليمة غير الملوّثة التي اتّصف بها أسلافه في فترة ما قبل التأريخ، لذلك حاول إحياء قابلياته الإنسانية الكامنة في ذاته، والتي أُشير إليها في الأساطير الإغريقية القديمة بهدف نيل حقوقه المتمثّلة بالحرّية والاختيار والإبداع، والتي سلبت منه جرّاء استبداد أرباب الكنائس في القرون الوسطى[2].

الأساطير الإغريقية تمّ تناقلها من جيلٍ إلى آخر حتّى وصلت إلى الإنسان المعاصر،

---

[1]- Eliade, Mercea, 1959, Cosmos and History (the Myth of Eternal Return, Trans. From the French by Willard R. Trak, Haper Torch Books, New York, p. 155 - 157.

[2]- للاطّلاع أكثر، راجع: مريم صانع بور، نقدي بر مبناي معرفت شناسي اومانيستي (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «دانش و انديشه معاصر» - مركز دراسات الثقافة والفكر الإسلامي، 1999م، ص 17 - 21.

لذا فهي تعدّ من أهمّ أنواع التراث الثقافي، ولو تأمّلنا بها ندرك أنّ مختلف القوميات البشريّة حتّى وإن كان مصيرها التغيير والتحوّل إثر مختلف العوامل الداخلية والخارجية، إلا أنّ مجتمعاتها امتلكت أصولاً ميثولوجيةً ثابتةً وراسخةً رغم التغييرات التدريجية التي طرأت على بنيتها الاجتماعية خلال مرّ الأيام؛ وفي هذا السياق، أكّد الفيلسوف وعالم الميثولوجيا الأميركي إديث هاملتون (Hamilton Edith) على أنّ الأصل الثابت للدراسات الميثولوجيّة الإغريقيّة، هو عبارةٌ عن حركتها الدقيقة والشمولية نحو عالمٍ عقلانيٍّ بحيث أسفرت عن ظهور الإنسان الغربي المتجدّد على هيئة حيوانٍ اجتماعيٍّ يسعى إلى تحقيق أهدافٍ لا يحدّها حدٌّ معيّنٌ ولا يقيّدها قيدٌ وضابطةٌ، لذلك ساعد هذا السعي المصحوب بتطوّرٍ ملحوظٍ على تجريده بشكلٍ تدريجيٍّ من طبيعته الإنسانية فجعله غريباً عن ذاته، ومن ثمّ بدأ يشعر مرّةً أخرى أنّه بحاجةٍ إلى تشذيب الأساطير الطبيعية والسير على نهجها وكأنّها تراثٌ يجب إحياؤه من جديدٍ؛ والجدير بالذكر هنا أنّ فكرة إعادة قراءة الأساطير القديمة والعمل على إحيائها أسفرت عن التفكير بجدٍّ للعيش في رحاب عالمٍ من نمطٍ جديدٍ مليءٍ بالمغامرات.

وأمّا الفيلسوف السياسي الإيطالي والمؤرّخ والحقوقي والخبير بالميثولوجيا جيامباتيستا فيكو (Giambattista Vico) الذي عاش في القرن السابع عشر والمعروف بدعوته إلى النزعة العقلانية الحديثة، وصف الأساطير الإغريقية بكونها البنية الأساسيّة للحداثة الغربية؛ وممّا قاله في هذا المضمار ما يلي:

1) من المستحيل بمكانٍ ولادة حضارةٍ في طرفة عينٍ، بل كلّ حضارةٍ لا بدّ وأن تتقوّم على الخلفيات الثقافية للمجتمع الذي تنشأ فيه على ضوء مسيرةٍ تكامليّةٍ.

2) أساطير كلّ مجتمعٍ حيةٌ وفاعلةٌ في جانبه الاجتماعي اللاشعوري، وهذا اللاشعور هو الذي يصوغ نظامه الذي يتقوّم عليه في جميع أبعاده الوجوديّة.

3) الحداثة الغربيّة خلال عصر النهضة إضافةً إلى أنّها تأثّرت بشكلٍ قهريٍّ

ولاشعوري بالأساطير الإغريقية التي ظهرت في العصر الإغريقي الذهبي، فقد أقبلت أيضاً عليها بشكلٍ إراديٍّ ليتمخّض عن ذلك ظهور ثقافةٍ وحضارةٍ بمحوريّة الإنسان والفكر الإنساني في شتّى جوانبهما.

4) الإنسان الحديث اعتمد على ذاته في صياغة جميع قضاياه الفرديّة والاجتماعيّة، وهذا الأمر أسفر عن إيجاد حاجبٍ يحول بينه وبين منشئه؛ بمعنى أنّه انعزل عن الطبيعة الأمّ.

هذا الحاجب تسبّب في تشويش فكر الإنسان وشعوره بالغربة عن ذاته، لذا وجد نفسه مضطرّاً للعودة إلى الأساطير الإغريقية كي يتمكّن من استعادة هويّته الأصيلة المفقودة على ضوء التفاعل مع الارتباط الوثيق للإنسان اليوناني القديم بالأرض والسماء ومختلف المعالم والأحداث الطبيعية التي يشهدها البشر طوال حياتهم.

مؤسّس علم النفس التحليلي المفكّر السويسري كارل يونج[1] (Carl Jung) اعتبر الإنسان في دراساته وبحوثه ظاهرةً تأريخانيّةً احتفظ في جانبه اللاشعوري بالمراحل الأولى للتطوّر النفسي الاجتماعي الذي ورثه من أسلافه، وهذا اللاشعور الموروث يتجلّى بشكلٍ رمزيٍّ على ضوء ميزاته النفسانيّة في جميع مراحل حياته؛ كما اعتبر الأحلام التي يراها في منامه أنموذجاً يثبت ادّعاءه هذا، فهي برأيه تعكس ما يجول في باطنه اللاشعوري، فكلّ إنسانٍ يعلم أنّ الأشياء والأحداث التي يشاهدها في عالم المنام خارجةٌ عن نطاق اختياره في التفكير، ويعرف أنّ بعضها متأثّرٌ بالجانب اللاشعوري الجماعي (Collective Unconscious The) المكنون في باطنه، وهذا الكلام يعني أنّ الرؤيا المناميّة تراثٌ نفسيٌّ مشتركٌ بين البشر، حيث يضرب بجذوره في العهود القديمة؛ والإنسان الحديث جاهلٌ بمدى قدمه ولا يعرف تأريخه المحدّد، لذا لا يمتلك القابلية على فهم الرموز التي تكتنف نفسه في عالم اللاشعور دون واسطةٍ. وأضاف هذا الخبير

---

[1]- 1875 - 1961.

النفساني أنّ الرموز السائدة بين الناس في العالم المعاصر تعدّ تبلوراً وانعكاساً للاشعور الجماعي الذي ورثوه من معتقدات أسلافهم والتقاليد التي كانت سائدةً بينهم في العهود القديمة؛ فعلى سبيل المثال نلاحظ أنّ الإنسان الأوروبي المعاصر يتأثّر بشكلٍ كبيرٍ بالأساطير الملحميّة القديمة كالإلياذة والأوديسة رغم عدم وجود أيّ وجه شبهٍ في قواعد الاشتباك العسكري بين حرب طروادة والحروب الشرسة والمدمّرة الحديثة، وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ الأساطير الإغريقيّة تعتبر وقائع في ما وراء الزمان والمكان بالنسبة للمجتمع الأوروبي المعاصر،[1] لذا تنشأ وتتنامى الفكرة الرمزيّة للأساطير عن طريق اللاشعور الجماعي الكائن في نفس الإنسان الحديث.

العلاقة بين الأساطير والرموز التراثية في الوجدان اللاشعوري للإنسان، ساعد الباحثين على تفسير الرموز وفكّ شفراتها وفق رؤيةٍ تأريخيةٍ، كذلك ساعدت الخبراء في علم النفس التحليلي على بيان طبيعة الرموز التي يشاهدها الإنسان في عالم المنام وفق أساليب ومبادئ علم النفس.[2]

إضافةً إلى الدور الذي لعبه اللاشعور الجماعي في نشأة العالم الغربي الحديث، فالأساطير الإغريقية هي الأخرى لها تأثيرٌ في هذا المضمار، حيث أقبل روّاد حركة النهضة الحديثة على تحليل هذه الأساطير وبيان جزئياتها، ومن هذا المنطلق طرح العلماء والباحثون الأوروبيون نظرياتٍ إنسانيةً في شتّى الصعد المعرفية الحديثة؛ وبهذا الأسلوب جرّدت أساطير ما قبل التأريخ من رمزيتها القديمة التي كانت سائدةً في بلاد الإغريق.[3]

[1]- Jung. C. G. 1964, Man and his symbols. Joseph L. Henderson Jolande Jacobi. Aniela Jaffel Atdus Book, p. 107.

[2]- Ibid, p. 109.

[3]- Antoin. Faiver, 1995, The Eternal Hermes from Greek God to the Alchemical Magus with thirty nine plates, trans by Joscleyn Gdowin, Phanes press, p. 69.

فضلاً عن أنّ العلماء والمفكّرين الأوروبيين اعتبروا العلوم الحديثة متأخّرةً رتبةً عن الأساطير الإغريقية من الناحية التأريخية، فقد قال عالم الميثولوجيا المقارنة الأمريكي جوزيف كامبل(Joseph Campbell)[1] إنّ هذه الأساطير مسبوقةٌ بالأساطير الفارسيّة الزاخرة بالمفاهيم وكذلك سبقتها الأساطير الصينيّة والهنديّة، كما أكّد على أنّ الأساطير الشرقية أثّرت إلى حدٍّ كبيرٍ على التجارب العملية للإغريق وفهمهم لشتّى الأمور في الحياة البشرية.[2]

وبشكلٍ عامٍّ يمكن القول بأنّ ميزتين أساسيّتين تشترك فيهما كلٌّ من الميثولوجيا باعتبارها علماً شاملاً والميثولوجيا الإغريقية (علم الأساطير اليوناني)، وهاتان الميزتان كالتالي:

الميزة الأولى: ارتباط الأساطير بعالم الطبيعة بصفته أمراً كلّياً وشمولياً، وبالإنسان بصفته جزءاً منه.

الميزة الثانية: ارتباط الأساطير بواقع الحياة الاجتماعيّة، أي إنّها ذات صبغةٍ اجتماعيةٍ.

جوزيف كامبل بدوره أكّد على وجود هاتين الميزتين في الأساطير الغربية أيضاً،[3] ومن هذا المنطلق اعتبر الأساطير التي كانت سائدةً بين مختلف الشعوب والأمم أساساً لحضاراتها وحياتها المدنية، وأمّا الباحث كارل جوستاف يونج فهو يعتقد بعدم إمكانية تفسير الأساطير بصفتها قضايا خبريّة، لذا لا يمكن وصفها بالصدق والكذب، بل لا بدّ للباحثين من التطرّق إلى شرحها وتحليلها من حيث مدى تأثيرها أو عدم تأثيرها في الحياة البشرية، أو تناولها بالنقد باعتبارها آفاتٍ عانت منها المجتمعات على مرّ العصور.

---

[1]- 1904 - 1987.

[2]- Campbell, Joseph 1973, Myth to live by, Bantam Books, p. 13 - 14.

[3]- Campbell & Bill Moyers 1988, The Power of Myth, ed. Bety su. Flowers, Double day, p. 22.

جوزيف كامبل على ضوء دراساته وبحوثه التي أجراءها حول الميثولوجيا باعتبارها انعكاساً طبيعياً أو اجتماعياً يتجلّى في السلوك الإنساني، حذا حذو كارل يونج وادّعى أنّ التأثير اللاشعوري للأساطير القديمة يعدّ أمراً ملموساً في التوجّهات النفسيّة من الناحيتين الاجتماعيّة والثقافيّة، وهذه الرؤية بطبيعة الحال تُخرج الميثولوجيا من إطارها الطبيعي ومن طابعها البيولوجي لتسوقها في حيّزٍ ثقافيٍّ تأريخيٍّ بحيث تصبح ذات طابعٍ معرفي، حيث أكّد على الأهمّية البالغة لهذا الأمر في مجال دراسة وتحليل واقع المجتمعات البشرية المعاصرة.[1]

الفيلسوف والمؤرّخ الإيطالي جيامباتيستا فيكو (Giambattista Vico) قال: إنّ كلّ مفهومٍ مرتبطٍ بالطبيعة الإنسانية، له القابلية على إيجاد تغييراتٍ في تأريخ المجتمع الذي يطرح فيه. ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار الأساطير القديمة بمثابة أمثالٍ تجلّت إلى الوجود على هيئة مفاهيمَ صاغها العقل البشري، لذا يتمكّن باحثو كلّ عصرٍ من القيام باكتشافاتٍ جديدةٍ حول التأريخ عن طريق دراسة وتحليل أساطيرَ مختلف الشعوب والأمم. بناءً على ما ذُكر يجب تفسير الروايات الأسطوريّة وفق الظروف التأريخية التي نشأت في رحابها، وهذا هو الأسلوب الذي اتّبعه فيكو في فكّ الرموز الأسطوريّة وتحليل مفاهيمها الغامضة.[2]

الخبير بالدراسات الأدبيّة الإغريقيّة والرومانيّة فيرنر جايجر (Werner Jaeger) المولود سنة 1888م في بروسيا، كان منحازاً للحضارة الإغريقية بشكلٍ مبالغٍ فيه، حيث قال في كتابه الشهير «بايديا» (Paideia) الذي ألّفه تعصّباً للتراث اليوناني: إنّ التأريخ الواقعي للمجتمعات الأوروبية ابتدأ من بلاد الإغريق، وذلك أنّ اليونانيين

---

[1]- Campbell, Joseph 1972, The Flight of the Wild Gander Explorations in the Mythological Dimension, Henry Regnery company, Chicago, p. 5 - 7.

[2]- Berlin, Isiah 1976, Vico and Herder: Two studies in the History of Ideas, London, Hogarth, p. 35 - 36.

القدماء خلّفوا تراثاً ثرياً لسائر الشعوب القديمة في إطار إنجازٍ ثقافي، ولولا هذا التراث القديم لما ولدت الثقافة الغربية في تلك الحقبة القديمة. كما أكّد هذا الباحث على أنّ المقوّمات التنظيميّة الاجتماعيّة، والنظام التربوي للشعب اليوناني القديم، يختلفان بالكامل عن شرائع بني إسرائيل، والتوجّه الكونفوشيوسي الصيني والديانة الدارمية الهندية من حيث طبيعتهما ومبادئهما المعنوية، فهذا الأمر متحقّقٌ رغم امتلاك جميع الشعوب والأمم نظاماً تربوياً؛ مثلاً هناك تعارضٌ بين الأساطير الإغريقيّة والشرقيّة، فالأولى تدعو إلى النزعة الفردانيّة وحرّية الإنسان، في حين أنّ الأساطير الشرقيّة التي شاعت على مرّ التأريخ تؤكّد على تهميش الذات الإنسانية ولا تمنحها تلك الأهميّة التي أعارتها لها الأساطير الإغريقية، فضلاً عن ذلك لا نلمس لدى الشرقيين توجّهاتٍ ميتافيزيقيّةً في أساطيرهم القديمة، إلا أنّ الغربيين يعتبرون روح كلّ إنسانٍ بحدّ ذاتها غايةً خاصّةً وذات قيمةٍ لا حدود لها. وفي هذا السياق أكّد فيرنر جايجر على أنّ الديانة المسيحيّة كان لها دورٌ ملحوظٌ في توسيع نطاق هذه التوجّهات الغربية، الأمر الذي تمخّض عنه إحياء الثقافة الغربية الأوروبية، ومن ثمّ ترسيخها وتأصيلها في المجتمع. وقال في كتابه الذي أشرنا له سابقاً «بايديا» (Paideia): إنّ مفهوم الطبيعة طرح لأوّل مرّةٍ من قبل العقل اليوناني. وهذا الأمر برأيه ينمّ عن توجّهاته الذاتية وأسلوبه الفكري الخاصّ، وعلى ضوء نزعته العنصريّة ادّعى أنّ الشعب الإغريقي نظر إلى الدنيا بصفتها وجوداً متكاملاً بحيث لا يوجد فيها جزءٌ منفصلٌ عن سائر الأجزاء، وعلى هذا الأساس وصفوا جميع عناصرها بأنّها أجزاءٌ من أمرٍ متكاملٍ مفعمٍ بالحياة بحيث يكتسب كلّ عنصرٍ فيها منزلته الخاصّة ودلالته المحدّدة من هذا الكلّ الذي يُكمل بعضه بعضاً. ومن جملة آرائه أنّ كلّ أمّةٍ حتّى وإن وضعت لنفسها قوانين وقواعد لنظم أمورها، إلا أنّ الإنسان اليوناني كان يبحث عن قوانين وقواعد موحّدةٍ تصوغ نظم جميع مقوّمات الحياة في باطنه، وتؤثّر على كلّ شيءٍ يواجهه في حياته،

وعلى هذا الأساس سعى إلى تنسيق الحياة والفكر الإنسانيين مع القوانين والقواعد.[1]

نستشفّ ممّا ذكر أنّ فيرنر جايجر اعتبر الجنس اليوناني فريداً من نوعه لكونه أفضل ذاتياً من سائر الأجناس البشرية القديمة، إلا أنّ الشبهة التي ترد على رأيه هذا أنّ بعض الميزات التي نسبها إلى الإغريق قد دوّنت في تأريخ البشريّة ضمن الأساطير الشعبيّة القديمة ببلاد ما بين النهرين، التي من جملتها الأصول التربويّة الصحيحة والفكر الماورائي المطروحان على ضوء مفهوم الطبيعة والإيديولوجيا الشمولية، ومنها سنّ قوانين متناغمة مع بعضها بحيث تنسجم مع الوحدة الذاتية للأشياء ومع الوحدة الكائنة بينها وبين نظائرها من أشياء أخرى، ونحن هنا لا نتطرّق إلى تفنيد رأي فيرنر هذا، بل سنوكله إلى المباحث اللاحقة.

وأمّا بالنسبة إلى تأثير الأدب الأسطوري على الفلسفة الإغريقية، فقد تبنّى هذا المفكّر الغربي فكرة أنّ النظريات الفلسفية التي طرحت في الأوساط العلمية ببلاد الإغريق، ذات ارتباطٍ وطيدٍ بالشعر والفنّ الإغريقيين، وذلك لأنّ الفلسفة لا تقتصر على العناصر العقلية فحسب، وإنّما تعتبر كلّ موضوعٍ أمراً عامّاً ذا طابعٍ كلّي، وهذا يعني أنّ كلّ إنسانٍ يدرك في ذاته فكرةً معيّنةً، أي يشاهد نموذجاً مرئياً.

كما اعتبر الشعب الإغريقي أنموذجاً فردياً يفوق الشعوب الأخرى ويُرجَّح عليها، وعلى هذا الأساس أكّد على أنّ أبناءه حاولوا تصوير كلّ شيءٍ بكونه تبلوراً لجزءٍ من وجودٍ كلّي مثالي، وهذه الرؤية الشمولية والتجسّم يتجلّيان في جميع شؤون الحياة ابتداءً من الحكومة المدنيّة وصولاً إلى النظام التربوي والثقافي، كما أنّ اللوغوس (Logos) الذي اعتبروه حقيقةً مشتركةً في أذهان جميع البشر، بات كالقانون المشترك بين جميع المواطنين، وهو يدلّ بكلّ وضوحٍ على الرؤية الكلّية والشمولية وتجسّم

---

[1]- فيرنر جايجر، بايديا (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية محمّد حسن لطفي، إيران، طهران، منشورات خوارزمي، 1997م، ص 20 - 30.

الأشياء في رحاب الفكر الإغريقي. أضف إلى ذلك فإنّ أساطيرهم تحكي عن نزعتهم الإنسانية، ومن هذا المنطلق صوّروا آلهتهم وكأنّها كائناتٌ تمتلك أجساماً ووجوهاً بشريّةً،[1] وهذا التجسيم يعتبر أهمّ ميزةٍ لفنّ النحت والفنّ التشكيلي في تلك الديار.

هذا التجسّم البشري في التراث الأسطوري الإغريقي، أثّر بشكلٍ كبيرٍ على الفلسفة القديمة في تلك الديار، والتي تنامت بأسلوبٍ منطقيٍّ ابتداءً من علم الكون - الكوزمولوجيا - ثمّ اتّجهت نحو علم الإنسان - الأنثروبولوجيا - وقد بلغ هذا الأمر ذروته في التوجّهات الفكريّة لكلٍّ من سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أشعار أبرز شعراء تلك الآونة ابتداءً من هوميروس وصولاً إلى آخر عهدٍ في الثقافة الإغريقيّة، قد تمحورت حول بيان طبيعة ابن آدم ومصيره الذي سيؤول إليه. وممّا طرحه فيرنر جايجر في هذا المضمار أنّ المفكّرين اليونانيين القدماء لم يتبنّوا نزعةً فردانيةً في مختلف نظرياتهم وأشعارهم، وإنّما كانت نزعاتهم ذات طابعٍ فكريٍّ عامّ، ومثال ذلك أنّ الـ «بايديا» كانت فكرةً وليست فرداً، وهذا هو النموذج والمثل الأعلى الذي طمح إلى بلوغه معلّموهم وشعراؤهم وفنّانونهم وفلاسفتهم طوال مسيرتهم الفكريّة ونشاطاتهم العلميّة على المستويين النظري والعملي.[2]

أمّا المؤرّخ الإيطالي جيامباتيستا فيكو فقد جرّد الأساطير من قدسيتها في إحدى أطروحاته الفكريّة، ومن هذا المنطلق وصف الآلهة الأسطوريّة القديمة بكونها تبلوراً لحالةٍ من الفكر البشري بحيث تتجلّى فيها الضرورات والخصال الإنسانية بشكلٍ رمزي، كما اعتبر الأساطير البطوليّة انعكاساً لشخصيات أسطوريّةٍ إنسانيّةٍ واقعيّةٍ وقال أنّها صورةٌ للأعراف التي سادت بين البشر، وفي هذا المجال تبنّى فكرة أنّ أشعار هوميروس تضمّنت أطروحات تأريخيّةٍ للحقّ الطبيعي، لذلك أكّد على الأهمّية

---

[1]- http://www. Theoi.com / georgikos / pan.html pan - God.

[2]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 32 - 39.

البالغة لعلم اللغة ففي رحابه يتسنّى لنا اعتبار الأساطير كوثائق تأريخية كما يمكننا تفسيرها على ضوء النظريات الفلسفيّة العامّة، وعلى هذا الأساس توصّل إلى نتيجةٍ فحواها أنّ الأساطير لا تدلّ على قضايا ماورائية بحتة ولا تقتصر على زمنٍ معيّنٍ.

من جملة ما أكّد عليه هذا المؤرّخ، أنّ ميثولوجيا الفنّ لو تمّ تحليلها في إطارٍ نقدي، سوف يتسنّى لنا استكشاف بعض أصول الفهم العرفي أو الشعور المتعارف بين مختلف الشعوب والأمم، فتصوّر وجود عددٍ من الآلهة والاعتقاد بربوبيتها ومن ثمّ عبوديتها في شتّى العهود القديمة، ينمّ عن كون العبوديّة أمراً فطرياً لدى بني آدم، ناهيك عن أنّ ضرورة الميثولوجيا تأخذ بيد المفكّر والمؤرّخ نحو معرفة واقع التأريخ المثالي الخالد (Ideal eternal history).

الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج (Caren Armstrong) التي دوّنت العديد من الكتب والمقالات في الدراسات المقارنة حول الأديان، سعت في كتابها الذي ألّفته تحت عنوان «تأريخ قصير للأسطورة» إلى استنباط جوانب أنثروبولوجيّة من الأساطير القديمة، وفي هذا السياق ذكرت لها أربع ميزاتٍ أساسيةٍ هي كالتالي:

1) حياة البشر الأوائل ذات ارتباطٍ وثيقٍ بالطقوس والمناسك العبادية.

2) الميثولوجيا تعين الباحثين على استكشاف قضايا في ما وراء التجربة.

3) أساطير كلّ ثقافةٍ تعتبر مصدراً تعليمياً للقيم التي يتبنّاها أبناء تلك الثقافة.

4) جميع الأساطير تعدّ تبلوراً لشعور البشر الأوائل بالهيبة والخشية من عالم الآلهة.

وهذه الباحثة الغربية حذت حذو جيامباتيستا فيكو ووصفت الرؤية التأريخية بكونها متقوّمةً على التوالي الزماني، ومن هذا المنطلق تطرّقت إلى دراسة وتحليل طبيعة كلّ واقعةٍ ضمن نطاق زمان حدوثها، في حين أنّ نمط دراسة الأساطير يمنح الباحث رؤيةً في ما وراء التأريخ والزمان كي يتمكّن من فهم كلّ أسطورةٍ في رحاب معناها المتعالي.[1]

---

[1]- see: Armstrong, Karen 2005, A Short History of Myth, Conongate Myth Series.

استناداً إلى ما ذكر يتّضح لنا أنّ الأساطير برأي علماء الميثولوجيا تحكي عن مختلف الجوانب الشعورية المتعارفة بين البشر وشتّى طباعهم الفرديّة والاجتماعيّة، وهذه المسائل انتقلت في ما بعد إلى الحضارات اللاحقة باعتبارها قضايا تتعدّى نطاق التأريخ والزمان، لذا لا محيص من الإذعان إلى حقيقةٍ فحواها أنّ الثقافات قد تأثّرت بشكلٍ كبيرٍ بمعتقدات الأسلاف والقدماء سواءً من الناحية اللاشعوريّة الجماعيّة أو من ناحية الإدراك العرفي للأشياء أو المآثر الأدبية، وهذا يعني أنّ الحداثة الغربية تأثّرت بشكلٍ مؤكّدٍ بالأساطير الإغريقية. وفي هذا الصدد قال الباحث فيرنر جايجر: إنّ الإنسان المذكور في التراث الإغريقي هو إنسانٌ سياسي. كما استنتج أنّ الأصول التربويّة الحديثة في العالم الغربي ورثت هذه الخصلة الإنسانيّة من الحضارة الإغريقيّة التي أكّدت على كون السياسة والنظام الحاكم لهما مكانةٌ عليا في المجتمعات البشريّة، وهذا الأمر يدلّ بوضوحٍ على تلك المكانة المرموقة التي امتلكها الشعراء والساسة والحكماء بحيث يمكن اعتبارهم أرقى الشخصيات الاجتماعيّة في مجال القيادة والتعليم آنذاك وأفضلهم منزلةً بين سائر الناس.

والجدير بالذكر هنا أنّ المبادئ الأخلاقيّة التي كانت سائدةً في المجتمعات البشريّة البدائيّة والتي انتقلت إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الأساطير، تمحورت حول السلوكيات المناسبة تجاه الآلهة والوالدين وسائر الناس، وفي المراحل التأريخية التالية تمّ تدوينها على هيئة قوانين في مختلف المجتمعات التي توالت في بلاد الإغريق، حيث أكّد علماؤهم ومفكّروهم على وجود ارتباطٍ وثيقٍ بين القوانين والأخلاق، لذلك دوّنوا جوانب هذا الارتباط في مختلف آثارهم.[1]

إضافةً إلى ما ذكر فقد اعتبر فيرنر جايجر نشأة الثقافة الوطنية الهيلينية التي صوّرت الإنسان بطابعٍ خاصٍّ ضمن الحياة المرفّهة في بلاد الإغريق، بأنّها نقطةُ انطلاقٍ لتأريخ التربية الإغريقيّة، وعلى هذا الأساس يمكن وصف التربية بكونها تبلوراً لأهداف

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 32 - 39.

الطبقة المرفّهة في اليونان القديمة حيث تتواكب مع الأمور الروحيّة والمعنويّة. يذكر هنا أنّ الـ «بايديا» ظهرت لأوّل مرّةٍ في الأساطير الحماسيّة لهوميروس، وهذه الأساطير تعدّ مصادر تأريخيّةً مناسبةً لمعرفة طبيعة الحياة في العهد الإغريقي، فهي الركيزة الأساسية في خلود القيم التي كانت سائدةً إبّان العهود الأسطورية القديمة.

الجدير بالذكر هنا أنّ مفهوم الفضيلة -أريتي Arete- في التراث الإغريقي اتّسع نطاقه وتشعّبت معانيه ودلالاته في المراحل الزمنيّة اللاحقة وكذلك في الملاحم الحماسيّة التي دوّنها هوميروس، لذا لم يقتصر بعد ذلك على بيان خصائص أبناء الطبقة الأرستقراطية وأفضليتهم على غيرهم، وإنّما شمل نطاق دلالاته المعنى الكمالي لسائر الكائنات غير البشرية مثل الآلهة وحركة الخيول الأصيلة وخفّتها، إلا أنّه لا يطلق على عوامّ الناس لكونهم في خدمة الطبقة الأرستقراطية، وحتّى لو أنّ أحد أبناء هذه الطبقة انطبقت عليه بعض ميزات العبوديّة للآلهة، فربّ الأرباب زيوس يجعله مشمولاً بمقدار النصف من الأريتي.[1]

إذاً، نستشفّ من ذلك أنّ الأريتي تُعتبر صفةً مائزةً لأبناء الطبقة الأرستقراطية،[2] وترتكز على القيم والمبادئ المذكورة في الأساطير الإغريقيّة التي تتقوّم عليها العديد من الأصول الأخلاقيّة المطروحة من قبل أفلاطون وأرسطو. وعلى الرغم من أنّ المفاهيم الأسطوريّة القديمة افتقدت طابعها الطبقي جرّاء انخراطها في المبادئ الفلسفية العامّة، إلا أنّها بقيت متّسمةً بطابعها الأساسي الذي ولدت من رحمه بحيث لم تُمحَ هويتها السابقة.[3]

---

[1]- هذا الكلام يشير إلى المقطوعة السابعة عشرة من ملحمة الأوديسة التي أنشدها هوميروس والتي أكّد فيها على أنّ كلّ إنسانٍ يبتلى بعبوديةٍ كبرى، سوف يحرمه إله الكون من نصف الفضيلة. وهذا النمط الفكري نلمسه جلياً في المبادئ الأخلاقية التي تبنّاها المفكّرون الذين تأثّر بهم الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه.

[2]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 40 - 41.

[3]- المصدر السابق، ص 50 - 51.

وممّا أكّد عليه فيرنر جايجر أنّ مفهوم «الخير» المطروح في فلسفة أفلاطون قد تأثّر بشكلٍ مباشرٍ بفضيلة الشجاعة التي كانت سائدةً في العهد الإغريقي، وقال إنّ الجانب الروحي والمعنوي للتربية الهوميروسية انتقل إلى فلسفة أفلاطون عن طريق أفكار الشاعر الغنائي الإغريقي بندار «بنداروس» (Pindar[1]) إلا أنّ هذا الانتقال لم يكن تدريجياً وتكاملياً، بل تزامن مع شتّى مراحل ازدهار وحيويّة الذهن الإغريقي على مرّ العصور القديمة[2] رغم أنّ تعيين نقطة انطلاق الفكر العقلاني في هذه الحضارة يعدّ أمراً في غاية الصعوبة، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المجتمع الهوميروسي قد انخرط في هذه المسيرة الفكرية، وأمّا اندماج العناصر العقلية بالفكر الأسطوري في بادئ الأمر كان عميقاً بحيث استحال آنذاك الفصل بينهما، لكن رغم كلّ ذلك لو قمنا بتحليل الملاحم الحماسيّة الإغريقيّة من هذه الزاوية، لاستطعنا معرفة طبيعة الارتباط الجذري بين الفكر والعقل في تلك الأساطير، وعلى سبيل المثال يمكن وصف النزعة الفكريّة لهوميروس والتي تعتبر البحر مصدراً لجميع الأشياء بأنّها الركيزةُ الأساسيّة لنظريّة طاليس والتي أكّد فيها على كون الماء هو المبدأ لهذا الكون، كما تعدّ المرتكز الأساسي لنظرية ولادة الآلهة التي طرحها الشاعر هسيود في ملاحمه الشعريّة، وهذه النظريّة تتقوّم على أصولٍ عقليةٍ وهي ثمرةٌ للتحرّي الواعي عن المبدأ لهذا الكون، لذلك أصبحت البنية الأساسيّة للفلسفة العلميّة المطروحة من قبل الفلاسفة الأيونيين.

يشار هنا إلى أنّ فيرنر جايجر أكّد في نظريّته على أنّ بعض أصول فلسفة أفلاطون وأرسطو عبارة عن مفاهيم أسطورية، مثلاً هناك جذورٌ أسطوريّةٌ إغريقيّةٌ في نظريّة «النفس» الأفلاطونية ونظرية «المحبّة» الأرسطويّة التي تحكي عن المحبّة الكامنة في ذات المتحرّك لمحرّكه المنزّه عن الحركة.

---

[1]- 443 - 522 B. C.

[2]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 79.

فضلاً عمّا ذكر فالفيلسوف الألماني المعاصر إيمانوئيل كانط (Immanuel Kant) هو الآخر اعتبر العقلانيّة الحديثة بحاجةٍ للأساطير القديمة، ومن هذا المنطلق يقال أنّ الفكر الأسطوري على غرار الفكر التجريبي، فهو أعمى في ما لو لم يرتكز على العنصر العقلي - الإدراك البشري - كما أنّ النظريات العقلية التي تخلو من منطلقات أسطوريّةٍ حيّةٍ قديمة، تعدّ خاويةً ولا مضمون لها.[1]

الباحث النفساني المعاصر كارل جوستاف يونج[2] أكّد على وجود إحدى الأساطير الخفيّة في ما وراء كلّ نشاطٍ عقليٍّ ومبادئ فلسفيّةٍ تنويريّةٍ ونظامٍ عقليٍّ دينيّ، وهذه الأسطورة برأيه إمّا أن تتقوّم على مبادئ تأريخيّةٍ أو أنّها ليست سوى تصوّرٍ بحتٍ، لكنّها في جميع الأحوال تُطرح في نهاية المطاف باعتبارها حقيقةً عينيّةً وواقعاً ملموساً، لذا من المستحيل بمكانٍ تجريد الثقافات والحضارات عن الأساطير التي شاعت بين أبنائها، فضلاً عن ذلك فهي تعدّ ركائز أساسيّة في الأنظمة الاجتماعية الحديثة ولها تأثيرٌ ملحوظٌ عليها، كما أنّها ذات دورٍ فاعلٍ في الوجدان اللاشعوري لكلّ إنسانٍ بحيث تتجلّى على أرض الواقع في الوقت المناسب على هيئة مبادئ مثالية، لذا يمكن القول أنّ اللاشعور هو الجسر الذي يربط البشر ومجتمعاتهم مع الحضارات والثقافات السالفة، وهو موروثٌ من الأساطير القديمة، وعلى هذا الأساس مهما حاولت العقلانيّة الغربيّة الحديثة ترسيخ أُسس النزعات العقليّة الفرديّة والجماعية والتصدّي للفكر الأسطوري، فهي ستفشل في مساعيها هذه لأنّ انقطاع كلّ قومٍ عن أساطيرهم القديمة يسفر عن تجريد كلّ ما يدركونه عن جذوره الأصيلة، ومن ثمّ يخسرون مرتكزاتهم الموروثة وتراثهم الأصيل

---

[1]- المصدر السابق، ص 323.

[2]- كارل جوستاف يونج طبيب نفساني سويسري توفيّ في عام 1961م، وقد عرف بدراساته النفسية التحليلية بخصوص الفلسفتين الشرقية والغربية، كما كانت له دراسات في علوم الكيمياء والفلك والمجتمع والآداب؛ وهو الذي طرح نظرية اللاشعور الجماعي التي لها ارتباطٌ مباشرٌ مع الأساطير القديمة.

ويفقدون هويتهم بحيث لا يبقى لكيانهم أيّ معنى وفي نهاية المطاف يكتنفهم شعورٌ بتحقيرٍ ثقافي.[1]

الروائي والناقد الاجتماعي الألماني توماس مان المتوفّى سنة 1955م، هو الآخر رأى ضرورة سعي الباحثين والعلماء لاستكشاف العلاقات المتبادلة بين التجربة الأوروبية الحديثة والأساطير الإغريقية حتّى وإن اعتبرت الحداثة أمراً مبتدعاً، فالحداثة برأيه ليست سوى كاريكاتيرٍ مرسومٍ في كمٍّ هائلٍ من الكتب تمّ تدوينها بخصوص الحضارة الغربية فيما لو انقطع ارتباطها عن الأساطير القديمة. والحقيقة أنّ الرؤية المنطقية الدقيقة تؤكّد على وجود تناسبٍ بين العالم الغربي المعاصر وبين ماضيه وأساطيره بصفتها أصولاً حديثةً، وعلى ضوء هذا التناسب تتسنّى لنا معرفة واقع الإنسانية الغربية وجوهرها.[2]

ويرى الباحثان ثيودور أدورنو[3] وماكس هوركهايمر[4] أنّ المعرفة حتّى وإن كانت أساساً للتنوير الفكري ومقارعة الخرافات وتفنيد الأساطير وإزالة جميع الأفكار والتصوّرات الوهمية من المجتمعات البشرية، إلا أنّ الأساطير الإغريقية منذ العهود السالفة تضمّنت بحدّ ذاتها برنامجاً تنويرياً يناظر البرنامج التنويري الغربي؛ ناهيك عن أنّ التنوير بذاته في كلّ خطوةٍ يخطوها يلج في الوقائع الأسطورية أكثر وأكثر، ورغم أنّه سخّر المبادئ الميثولوجية واتّخذها وسيلةً للقضاء على الخرافات الأسطورية بهدف تفعيل دور النزعة العقلانية الحديثة في مختلف الأوساط البشرية، لكنّه مع ذلك ارتكز على الأساطير حتّى في مهمّته التي حملها

[1]- Jung, Carl G. & Kereny 1, 1973, Essays on a science of Mythology, the Myth of the Divine Child and the Mysteries of Elersis, Boollingen Series / prenceton university press, p. 76 - 77.

[2]- see: Hollwack, Thomas 2006, Thomas Mann1s work on Myth: The uses of the past.

[3]- ثيودور أدورنو ولد في ألمانيا سنة 1903م، وهو فيلسوف وعالم اجتماع وكان أحد أعضاء مدرسة فرانكفورت.

[4]- ماكس هوركهايمر ولد في ألمانيا سنة 1895م، وقد عرف بدراساته الفلسفية التنويرية، واشتهر بنظرياته الاجتماعية والنقدية.

على عاتقه بصفته ركيزةً أساسيةً للبتّ بما هو صائب أو خاطئ في شتّى جوانب الحياة.[1]

بعد هذه المقدّمة الطويلة نسبياً، نرى من الضروري ذكر بعض النقاط الهامّة التي ترتبط بموضوع البحث ضمن المحورين التاليين:

أوّلاً: الأساطير تصنّف إلى دينيّةٍ وغير دينيّةٍ، وفي هذا الكتاب سوف نسلّط الضوء على الأساطير الإغريقيّة غير الدينيّة بهدف بيان مدى تأثيرها على تيار عصر النهضة والحداثة.

ثانياً: الضرورة تقتضي معرفة الجذور الأسطورية للتجدّد الغربي، وفي هذا المضمار لا بدّ من البحث عن الوجهة المشتركة بين الأساطير والحداثة باعتبارهما متضادّين في ظاهرهما، ويمكن القول بهذا الخصوص أنّ نقطة التلاحم والاشتراك في ما بينهما تكمن في التوجّه الإنساني الذي شاع في رحابهما؛ فالنخبة العلمية والثقافية وروّاد عصر النهضة والحداثة، امتعضوا من استبداد رجال الدين آنذاك، وحاولوا إرساء دعائم حضارةٍ تتقوّم على القيم والقابليات البشرية، وقطع الطريق على أرباب الكنيسة بغية عدم إتاحة أيّ فرصةٍ لهم للتدخّل والمساهمة في الحركة التغييرية الواسعة، ومن هذا المنطلق بادروا إلى إعادة قراءة الأساطير الإغريقية واستلهموا منها مبادئاً وقيماً ساروا على نهجها.

بناءً على ما ذكر، يمكن تلخيص القواعد والأصول الإنسانية التي اتّسم بها عصر التنوير الفكري وحركة النهضة الأوروبية، بالنقاط التالية:

1) الإنسان هو المعيار الثابت والمرتكز الأساسي لكلّ شيءٍ في الحياة.

2) الضرورة تقتضي إعادة قراءة الأساطير القديمة لأجل استثمار القابليات الفكريّة للأسلاف وتفعيل دور طاقاتهم المعرفية.

---

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 43.

3) الضغوط والممارسات القاسية التي واجهها المجتمع الغربي إبّان القرون الوسطى، جعلت دعاة التحرّر والتجدّد يصرّون على ضروة تفعيل دور الحرّية والإرادة الإنسانية في شتّى المجالات.

4) عدم الإذعان مطلقاً بوجود أيّ وساطةٍ بين رجال الدين والإله.

5) الإنسان هو صاحب الحقّ المطلق في تعيين مصيره، وجرّاء هذه الفكرة انقلبت الصورة التي كانت سائدةً آنذاك وتحوّلت العقيدة الجبرية المتعارفة إبّان القرون الوسطى إلى اعتقادٍ قوامه حرّية الإنسان وإرادته المطلقة.

6) الإنسان هو المحور الارتكازي والأساس في هذا الكون.

7) العقل الإنساني متكافئٌ مع العقل الإلهي ولا ينقص عنه بشيءٍ مطلقاً.

8) تفنيد صواب الاستدلالات الانتزاعية التي كانت تطرح حول القيم والأصول الإنسانية.

9) معارضة الممارسات الدينية والروحية التي يراد منها ترويض البدن، وفي الحين ذاته التأكيد على ضرورة الاهتمام بتنمية البدن وتوفير جميع الملذّات التي هو بحاجةٍ إليها.

10) العقل البشري هو الزعيم الأوحد في الكون وصاحب القول الفصل في كلّ شيءٍ، بينما الدين ليس له أيّ دورٍ رياديٍّ في المجتمع، لذا اقتضت الضرورة تهميشه بالكامل من حياة البشرية.

11) لا بدّ من العمل على تمهيد الأرضية المناسبة للرفاهية في الحياة باعتبار أنّ الهدف من كلّ نشاطٍ وحركةٍ هو تلبية الملذّات البدنية لكلّ إنسانٍ.

12) الإنسان ليس سوى أداةٍ سياسيةٍ.

13) عالم السياسة نأى بنفسه بعيداً عن التوجّهات والنظريات الميتافيزيقية

والشؤون الروحية والدينية قاطبةً، واعتُبر الإنسان بكونه الحاكم المطلق على كلّ شيءٍ وصاحب الإرادة الحرّة في عالم السياسة.

14) القوانين الانتزاعية العامّة لم يعد لها أيّ دورٍ عمليٍّ من الناحية النفسية.

15) تسليط الضوء على شخصية كلّ إنسانٍ بشكلٍ مستقلٍّ باعتبارها متميّزةً عن غيرها.

16) الإنسان هو الذي ابتدع البيئة الاجتماعية التي يعيش في رحابها، ومن ثمّ لا يمكن اعتباره ثمرةً لها.

17) الإنسان كائنٌ مستقلٌّ بذاته بنحوٍ مطلقٍ، لذا بإمكانه تفعيل طاقاته الخلاقة وإبداعاته دون الحاجة للإيمان.[1]

نستشفّ ممّا ذكر أنّ التوجّهات العقلية التي سادت في حركة التجدّد الفكري، اتّصفت بنزعةٍ إنسانيةٍ مبالغٍ فيها، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّها انطلقت من النظريات الفلسفيّة لروّاد الفكر الغربي الحديث من أمثال رينيه ديكارت وباروخ سبينوزا وإيمانوئيل كانط، فهؤلاء الثلاثة هم الذين أرسوا دعائمها، وإثر ذلك ظهرت مدارسٌ فكريّةٌ عديدةٌ كالشيوعيّة والبراغماتية والشخصانية والوجودية، حيث تجلّت أطروحاتها الفكرية ضمن أطرٍ معرفيّةٍ متنوّعةٍ قوامها النزعة الإنسانية البحتة.

إذاً، يمكن اعتبار التجدّد الفكري الغربي المعاصر بأنّه حركةٌ جسّدت ردّة فعلٍ تجاه التقاليد والأعراف التي كانت سائدةً إبّان القرون الوسطى، حيث تمخّض عنه تأسيس حضارةٍ متقوّمةٍ على مبادئ وأصولٍ رأسماليةٍ وصناعيّةٍ تختلف بالكامل عمّا كان عليه حال المجتمعات المسيحية في فترة القرون الوسطى؛ لذلك أكّد عالم الاجتماع البريطاني

---

[1]- Abagnano 1976, Humanism, Encyclopedia of philosophy, ed. Paul Edwards, New York, McMillan, IV. 70.

راجع أيضاً: مريم صانع پور، نقدي بر مباني معرفت شناسي اومانيستي - دانش و انديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامي»، 1999م، ص 9 - 33.

أنطوني جيدنز (Anthony Giddens)[1] على أنّ الحداثة هي العامل الأساسي لشتّى التغييرات التي شهدتها البشرية في العصر الحديث، والسبب في فاعليتها المؤثّرة هذه أنّها تتمحور على الدور البشري والقيم الإنسانية.[2]

وفي الختام ننوّه إلى أنّ محور البحث في هذا الكتاب هو بيان العناصر الأساسيّة للعقل الاستدلالي (Reason) الذي يرتكز عليه الفكر الإنساني (Humanistic) في رحاب العصر الحديث، وتسليط الضوء على الإبستمولوجيا الإنسانية لهذا العصر إلى جانب طرح مباحث حول عناصر الحداثة والأفكار الأسطورية الإغريقية ذات الطابع الإنساني.

---

[1]- 1938 .

[2]- Giddens, Antony 1998, The third waym The Renewal of social Democracy, Cambridge: Polity (publisher), p. 94.

الفصل الأول

حقيقة الأساطير

الفيلسوف الروماني ميرتشا إلياده الذي تخصّص بالميثولوجيا وتأريخ الأديان والذي يعتبر واحداً من أبرز مفكّري القرن العشرين، وصف الأساطير القديمة بأنّها صورٌ ثقافيّةٌ ونتاجاتٌ روحيّةٌ بشريّةٌ تبلورت على ضوئها مسائلٌ باثولوجيّةٌ للسلوك الغريزي الإنساني أو لما يسمّى بعهد طفولة البشرية، لذا لم يكن هناك أيّ بديلٍ لها في فترة ظهورها.

أكّد هذا المفكّر الغربي على أنّ الأساطير الموروثة من الأسلاف تحكي عن حقائق ثقافيّةٍ معقّدةٍ لا يمكن لنا التعرّف على مكامنها في إطار تعريفٍ موحّدٍ وشاملٍ، وعلى هذا الأساس لا بدّ من تفسير دلالاتها وفكّ رموزها وفق آراءٍ متنوّعة، والأساطير القديمة تحكي عن كيفيّة نشأة عالم الطبيعة بواسطة كائناتٍ ماورائيةٍ كانت موجودةً وفاعلةً بشكلٍ طبيعيٍّ في ما وراء العصور التأريخية الأولى، لذا يمكن تعريف الأساطير بأنّها أخبارٌ مقدّسةٌ تحكي عن تأريخٍ حقيقي.[1]

ثمّ ذكر نقاطاً شاملةً بخصوص حقيقة الأساطير وبنيتها وجوانبها العملية، وذلك كما يلي:

1) الأساطير تحكي عن أفعال الكائنات الماورائية في التأريخ.

2) التأريخ في رحاب الأساطير ضمن ارتباطه بالحقائق، يعتبر معلولاً للكائنات الماورائية والمقدّسة.

3) الأساطير تحكي عن خلقة الأشياء ونشأة المجتمعات البشرية، وتعكس الأنموذج الأمثل في السلوك البشري والأداء العملي لكلّ إنسانٍ بحيث يمكن اعتبارها البنية الأساسية للأفعال المتقوّمة على الاستنتاجات العقلية.

---

[1]- Eliade, Mircea 1971, The Myth of the Eternal Return: Cosmos and History (trans will ard R. trask) Princeton University - press, p. 1 - 6.

4) معرفة حقيقة الأساطير تُعين الإنسان على معرفة أصول الأشياء وجذورها، إذ يتسنّى له على أساسها امتلاك قدرةٍ تعينه في التحكّم بها، إلا أنّ هذه المعرفة ليست انتزاعيةً ومجرّدةً لكون الأساطير عبارة عن بوّابةٍ نطّلع من خلالها على معارف تجريبيّةٍ مثل التجارب الخاصّة بأداء المناسك العبادية.

5) الميثولوجيا عبارةٌ عن علمٍ يعين الباحث على دراسة وتحليل الأحداث التأريخية في إطارٍ يتجاوز نطاق الزمان.[1]

العالم البولندي برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) الذي يعتبر رائد الأنثروبولوجيا الاجتماعية، أكّد في أحد أشهر مؤلّفاته على أنّ الروايات التي تتضمّن حقائق حول الصور الأولى للطقوس والمناسك الدينية، جسّدت أوامر اجتماعية كما تضمّنت مبادئ علميّة، وقد تمّت صياغتها على هيئة أساطير. وقال بأنّ الثقافة الإنسانية القديمة التي تبلورت في رحابها السلوكيات العملية الأساسية للمجتمعات البدائية، تضمّنت أصولاً وقواعد عملية لهداية الإنسان نحو الوجهة الصحيحة، ومن هذا المنطلق لا يمكن اعتبار الأساطير مجرّد قصصٍ ورواياتٍ عبثيةٍ أو ادّعاء أنّها تجسّد صوراً فنيةً لا غير، بل هي في الواقع عبارة عن جزءٍ فاعلٍ من أجزاء الحضارة الإنسانيّة وقد انتقلت إلى الأجيال اللاحقة على ضوء تطبيقها بشكلٍ عمليٍّ ضمن معتقدات أساسية ومبادئ أخلاقية، لذا يمكننا من خلال دراسة وتحليل الأساطير على ضوء خلفياتها المحلّية امتلاك معرفةٍ تحفّزنا على أداء المناسك الدينية والالتزام بالأصول الأخلاقية.[2]

وأمّا الباحث جيامباتيستا فيكو فمن خلال دراسته وتحليله لحقيقة الأساطير الملحمية مثل أسطورة هرقل (Hercules) وأسطورة الإلهة جونو - يونو– (Juno)

---

[1]- Ibid.

[2]- Malinowski, Bronislow Kasper 1926, Myth in Primitive Psychology, London, p. 101 - 108.

بنت إله الآلهة زيوس - جوبيتر أو جوف – (Jove or Jupiter)، استنتج عدداً من الأصول التي تقوّمت عليها الأساطير الإغريقية، وهي كما يلي:

1) حاجة الإنسان للدعم والرأفة: الأوائل من البشر كانوا يتوسّلون بالإله جوبيتر (جوف أو زيوس) في مختلف أفعالهم وقراراتهم بحيث كانوا يتفاءلون ويشعرون بأنّهم سيحصلون على ما يريدون نيله، وتصوّروا أنّهم بهذا الأسلوب يكسبون مودّته ورأفته.

2) حاجة الإنسان للعدل: الأوائل من البشر كانوا يلجؤون إلى إله الآلهة جوبيتر (جوف أو زيوس) لطلب الأمان من كيد الأشرار والكائنات المرعبة، حيث يرومون من وراء ذلك نيل لطفه ورحمته بعدلٍ وإنصافٍ.

3) حاجة الإنسان إلى مسكنٍ مناسبٍ وحياةٍ آمنةٍ: الإنسان القديم كان يختار زوجةً لأن تعيش معه في الكهف، وكان يتمسّك بالأعمال العبادية والمناسك الدينية حذراً من الظلم والاعتداء.

4) حاجة الإنسان إلى قانونٍ: الأوائل من البشر في عصرهم الذهبي كانوا يسعون إلى كسب قدرةٍ ورفعةٍ، وعلى هذا الأساس شرّعوا قوانين خاصّة كي ينعموا بحياةٍ آمنةٍ وسعيدةٍ.

بناءً على ما ذكر، وصف فيكو الأساطير الإغريقية بكونها روايات تحكي عن قوانين ثابتة أقرّتها الآله،ة وتتضمّن مناسك عباديّةٍ، الهدف منها نيل رحمة إله الآلهة زيوس والنجاة من الحوادث المدمّرة والظواهر المرعبة كالصواعق السماوية، وقال قلّما نجد قوماً كانوا في غنى عن عبادة الآلهة واتّباع أوامرها.[1]

[1]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. by From the Itallian by Max Harold fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London.

المؤرّخ اليوناني بلوتارخ (Plutarch) تطرّق إلى بيان طبيعة أساطير الآلهة في الأزمنة القديمة وأبدى برأيه حول السبب في رواجها آنذاك، وفي هذا السياق أكّد على أنّ واضعي الأساطير الإغريقية كانوا يولون احتراماً بالغاً للآلهة من منطلق أنّ الإيمان بها يجعل الإنسان أقلّ عرضةً للشرور خلافاً للإلحاد الذي لا يجنّبه المساوئ والشرّ في كافّة مجالات حياته،[1] وأمّا المؤرّخ جيامباتيستا فيكو استنتج من جملة دراساته الميثولوجية، أنّ التصوّر كان سبيلاً لإدراك عملية التغيير والتطوّر في المجتمع، ومن ثمّ أسهم إلى جانب القضايا التي ترافقه في انتقال الرمزية وتحوّلها واتّساع نطاقها بشكلٍ متزامنٍ، وذلك لأنّ الأطر الرمزية تدلّ دائماً على حقائق تسبّبت بظهور الرموز، لذا يمكن القول أنّ كلّ رمزٍ حتّى وإن كان تصوّرياً فهو لا بدّ وأن يكون مسبوقاً بإحدى الحقائق.

إذاً، إضافةً إلى مختلف أصناف المعرفة التقليديّة في ذلك الزمان، هناك استنتاجاتٌ متقدّمةٌ ورؤى تجريبيّةٌ متأخّرةٌ متقوّمةٌ على الإدراكات الحسّية، ولكن مع ذلك أسهم الإلهام المتواكب مع التصوّر الأسطوري بدورٍ أساسيٍّ في الجانب المعرفي.[2]

ومن جملة ما ذكره فيكو في هذا المضمار أنّ الأساطير طوت خلال مسيرتها القديمة ثلاث مراحل أساسية هي كالتالي:

المرحلة الأولى: عهد الآلهة (The age of Gods)

في هذه المرحلة خضع الناس لسلطة الآلهة، حيث كانت جميع جوانب حياتهم محفوفةً بالتخرّصات والتكهّنات.

---

[1]- Ibid, p. 187.

[2]- Berlin, Isaiah 1976, Vico and Herder, Tow studies in history of Ideas, London: Hogarth, xix - xxx.

المرحلة الثانية: عهد الأبطال (The age of Heroes)

في هذه المرحلة استحوذت الطبقة النبيلة - الأرستقراطية - على السلطة وخضع عامّة الناس لها.

المرحلة الثالثة: عهد الرجال (The age of men)

في هذه المرحلة أصبح جميع الرجال متساوين في الحقوق نظراً لتكافئهم بطبيعتهم الإنسانية، وعلى ضوء ذلك سادت في المجتمع قيماً مشتركةً ثمّ تأسّست حكومات ملكية.[1]

نلاحظ ممّا ذكر أعلاه أنّ الأساطير القديمة برأي فيكو ذات طابعٍ حضاريٍّ وثقافيٍّ وسياسيٍّ وعلميّ، وامتازت بمختلف جوانب الحياة الإنسانية التي كانت في طور نشأتها البسيطة الأولى، كما أنّ العهود الأسطورية تدلّ على أنّ الإنسان خلال مسيرته التكاملية انتقل من مرحلة الضعف والتأثّر إلى مرحلة القوّة والتأثير، لذلك يقال أنّ دراسة الأساطير القديمة تعرّف الباحث بالخصائص الذاتية للإنسان بصفتها البنية الأساسية لنشأة مختلف المجتمعات البشرية.

عالم الميثولوجيا الأميركي جوزيف كامبل الذي ذاع صيته في القرن العشرين بتدوينه العديد من المؤلّفات حول الدين والميثولوجيا المقارنة، أكّد على أنّ علم الأساطير يعدّ من المقوّمات الأساسية للثقافة البشريّة لكونه بوّابةً يتمكّن الباحث من خلالها معرفة شتّى جوانب الحياة والطقوس العبادية بشكلها البدائي، لذا يقال كما أنّ الإنسان يتحرّك منذ طفولته نحو تحمّل المسؤوليات التي تترتّب على البلوغ ويواجه الكثير من التجارب في حياته، كذلك هو حال الطقوس الأسطوريّة البدائية، فهي طوت مسيرةً تكامليةً لتتّجه نحو طقوسٍ عباديةٍ؛ وفي هذا الصدد اعتبر رينيه

[1]Vico, Giambattista 1908, The new science of Giambattista vice, trans. Thomas G. Bergin and Max H. Fixch, Ithaca: Cornell up, p. 3.

ديكارت الوعي بكونه جزءاً من الوجود الإنساني ويتمّ توجيهه ضمن مسارٍ خاصٍّ نحو أهدافٍ معيّنةٍ، والأساطير بدورها تسوق الإنسان نحو مستوى معيّنٍ من الوعي الروحي.[1]

إذا قارنّا بين ميثولوجيا جيامباتيستا فيكو وجوزيف كامبل، نستنتج أنّ الأوّل سلّط الضوء في دراساته على دور الأساطير باعتبارها مقوّمات أساسيّةً في تكامل مختلف جوانب المجتمعات الإنسانية، في حين أنّ الثاني تطرّق إلى تحليلها من منطلق دورها المعرفي في الحياة البشرية، حيث اعتمد في هذا المضمار على مناهج بحثٍ مقارنةٍ واعتبر الأساطير الإغريقية بشكلٍ عامٍّ بأنّها ذات طابعٍ فينومينولوجيٍّ تمنح الإنسان وعياً وتجعله أكثر قرباً للواقع بينما الأساطير الشرقية برأيه تسوقه نحو التصوّرات والأوهام.[2]

لا شكّ في أنّ ادّعاء كامبل يقتضي إجراء بحثٍ تحليليٍّ مسهبٍ وشاملٍ حول طبيعة الأساطير الشرقية والغربية بشكلٍ محايدٍ من قبل علماء الميثولوجيا الشرقيين.

وأمّا عالم النفس سيجموند فرويد فعلى أساس توجّهاته السيكولوجية تبنّى فكرة أنّ الأساطير تعكس التصوّرات العامّة، والتصوّرات بدورها عبارةٌ عن أساطير شخصية. وكلٌّ من التصوّرات العامّة والأساطير الشخصية مؤشّرٌ على القمع الأوّل في طفولة الإنسانية، إذ يدلان على وجود آلهةٍ أسطوريّةٍ وتشرذم البشريّة وتأزّمها نفسياً في الحياة الاجتماعية.[3]

---

[1]- Campbell, Joseph & Bill Moyers 1988, The power of myth ed. Betty Sunflowers, Double day, p. 11 - 15.

[2]- Campbell, Joseph 1972, The flight of the wild gander explorations in the mythological dimension, Henry Re Gunnery company, Chicago, p. 128.

[3]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollingen series xvll, Princeton university press, p. 12.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ المباحث الميثولوجية غالباً ما يُسلّط الضوء عليها ضمن الجينيالوجيا وعلم الأديان المقارن، حيث يتطرّق العلماء المعنيون إلى دراسة الأساطير وتحليلها بأسلوبٍ بنيوي افتراضي وصوري لكون مواضيعها تتمحور تأريخياً حول الطبيعة وغاية الأشياء؛ فالإله هرمس (هيرميز)[1] Hermes على سبيل المثال عندما غادر جبل الأوليمب ونزل إلى أدنى المستويات الدنيوية، وصف في بعض الأساطير الإغريقية بأنّه إله الطرق المتقاطعة.[2]

قوّة تصوّر الإنسان البدائي انتعشت إلى حدٍّ كبيرٍ في عصر الأساطير القديمة إثر مشاهدة الظواهر الطبيعية، وفي هذا المضمار قال عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد تايلور[3] (Edward Taylor) أينما تشرق الشمس في هذا العالم، توجد أساطير حولها، حيث تطرح بصفتها مصدراً أساسياً لجميع الكائنات وتصوّر على هيئة كيانٍ شبه طبيعي وشبه ماورائي.[4]

المستشرق وعالم اللغويات الألماني ماكس مولر[5] (Max Muller) أكّد في هذا السياق على وجود العديد من آلهة الشمس لدى المصريين القدماء، وهذا الأمر ملحوظٌ بوضوحٍ في أساطيرهم، حيث أُشير فيها للإله «رع» (Ra) باعتباره إله الشمس، وقد كانوا يعبدونه كي يمنحهم نوراً بعد سفرهم إلى غروبها - أي في الحياة الآخرة - لكونه أفضل آلهة ذلك العالم.

وكذا هو الحال بالنسبة إلى الإمبراطورية الرومانية، فالشمس اعتبرت بين أهلها

---

[1]- هرمس في الميثولوجيا الإغريقية القديمة واحدٌ من أشهر الشخصيات وهو رسول الآلهة الإغريق وثاني أصغر آلهة جبل الأوليمب، وإله البحار.

[2]- Antoin, Faiver 1995, The Eternal Hermes from Greek God of Alchemical magus with thirty nine plats, trans. By Joscelyn Godwn, p. 23.

[3]- 1832 - 1912.

[4]- Taylor, Edward 1920, Primitive Culture, New York: J. P. Putnam`s sons, p. 198.

[5]- 1823 - 1900.

إلهاً ذا شأنٍ عظيمٍ، وغالبية عبدتها تصوّروا أنّها ربٌّ حاكمٌ بالحقّ ومشرفٌ بالكامل على أعمال جميع البشر وما يلج في نفوسهم، كما اعتبروها المصدر الأساسي للنظم والقانون، ذلك القانون الذي استلهمه الملك البابلي حمورابي في ما يقارب 2000 سنةٍ قبل ميلاد المسيح.

الجدير بالذكر هنا أنّ الإغريق والرومان كانوا يعتقدون بأنّ إله الشمس ناظرٌ يراقبهم ومشرفٌ وسلطةٌ على أفعالهم.[1]

إذاً، نستنتج ممّا ذكر أنّ الدراسات الميثولوجية تعرّفنا مكانة الإنسان في هذه الحياة ومن ثمّ تتيح لنا معرفة الحقائق وذلك لأنّ البشر على مرّ العصور لديهم رغبةٌ جامحةٌ في الاطّلاع على مبدئهم وعاقبتهم، لذلك اعتمدوا على قوّة تصوّرهم للولوج في رحاب عالم ما قبل التأريخ، فأنشدوا الأشعار الأسطورية حول أجدادهم العظام ليتمكّنوا من خلال ذلك استكشاف واقع بيئتهم والتعرّف على جذورها. وكما هو معلوم فالمجتمعات البشرية البدائية تبنّت أساطير تضمّن بعضها ادّعات فحواها أنّ الخلقة الإنسانية تضرب بجذورها في أسلافٍ على هيئة شجر ونباتات.[2]

معظم الكتب الأسطورية التقليدية تمّ تدوينها من قبل الشاعر الروماني أوفيد - أوفيديوس- (Ovidius) المولود سنة 43 ق. م. في روما، حيث كان واحداً من أبرز الشعراء الأسطوريين في تلك الآونة، فقد انكبّ على كتابة الأشعار والروايات الأسطورية طوال الحقبة التي حكم فيها الإمبراطور أغسطس، وشخصيته بلغت درجةً بحيث لا يمكن مقارنة أيّ شاعرٍ أو كاتبٍ أسطوري معه.

من جملة ما ذكره أوفيد في وصف الأشعار الأسطوريّة ما يلي: «بذلت جهدي لكي

[1]- Muller Max & Palmer Smythe 2003, Comparative Mythology, Kessinger publishing, p. xxiv - xxiii.

[2]- Armstrong, Karen 2005, A Short history of myth, Conon gate myth series.

أغطّي على الأكاذيب المخزية والحماقات التي بدرت من الشعراء القدماء، وحاولت طرح الأساطير بأسلوبٍ مناسبٍ». من هذا المنطلق بادر هذا الشاعر الأسطوري إلى طرح صورة ٍامتزجت فيها الحقائق المجرّدة التي أشار إليها الشعراء الإغريقيون القدماء من أمثال هسيود (Hesiod Hesiodes) وبندار «بنداروس» (Pindar)[1] في أشعارهم، مع بعض الحقائق الدينيّة الدقيقة الموجودة في الحكايات التراجيديّة الإغريقيّة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الشاعر بندار ذكر بعض الأساطير العبثية التي يطغى عليها الابتذال والتسلية والمشاعر في إطار صورٍ لفظيّةٍ أسطوريّةٍ رغم أنّ واضعي الأساطير الإغريقية عُرفوا بعدم اكتراثهم بالصياغات اللفظية والشعورية.[2]

الباحث إديث هاملتون (Edith Hamilton) اعتبر جينيالوجيا الآلهة جزءاً من الميثولوجيا الإغريقية، إذ تحدّث واضعو الأساطير القدماء عن الكثير من الآلهة الذكور والإناث التي صوّروها في أنماطٍ وأشكالٍ عديدةٍ وجعلوها محاور أساسيّةً لأساطيرهم؛ ولكن ليس من الممكن استنتاج أمرٍ مقدّسٍ منها يحكي عن الدين الإغريقي القديم، إذ إنّها تتحدّث فقط عن أشياء غير دينيةٍ موجودة في هذا العالم، فهناك أساطيرٌ ورواياتٌ قديمةٌ جسّدت صوراً تخيليةً حول كيفية نشأة البشر والحيوانات والشمس والنجوم والفيضانات والبراكين والزلازل، ومثال ذلك أنّها أوعزت السبب في حدوث الصواعق إلى غضب إله الآلهة زيوس، واعتبرت البراكين ناجمةً عن حركة أحد الكائنات المرعبة المسجونة في الجبال، حيث يحاول تحرير نفسه من هذا السجن، ونسبت السبب في عدم هبوط الصورة الفلكية للدبّ الأكبر في الأفق إلى إلاهةٍ أمرت بعدم جواز انغماس هذه الصورة في البحر.

[1]- بندار هو شاعر غنائي معروف في بلاد الإغريق، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

[2]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 22.

بناءً على ما ذكر يمكن اعتبار الأساطير الإغريقية بمثابة النواة الأولى للاكتشافات العلمية، فهي تنمّ عن الجهود والمساعي التي بذلها أسلاف بني آدم بهدف استكشاف حقائق الظواهر التي تكتنف حياتهم،[1] ولكن إلى جانب الأساطير الجادّة التي تتقوّم على تصوّراتٍ حول خلقة الكون والآلهة وواقع الطبيعة الإنسانية ومختلف الأشياء الموجودة في هذا العالم والتي تمتاز بطابعٍ استكشافي، هناك بعض الأساطير التي يطغى عليها الجانب الترفيهي بحيث كانت متداولةً بين الناس في أوقات فراغهم مثل أسطورة بيجماليون (Pygmalion) الذي تعلّق بتمثال جالاتيا، فهي لا تمتّ بأدنى صلةٍ لا عن قريبٍ ولا عن بعيدٍ إلى الحوادث الطبيعية أو الحكايات البطولية.

الباحث الأميركي توماس بولفينتش[2] (Thomas Bulfinch) ذكر العديد من النظريات حول طبيعة الأساطير ضمن تصنيفٍ شاملٍ، وذلك كما يلي:

أوّلاً: النظريّة الدينيّة

جميع الأساطير بحسب النظرية الدينية ناشئةٌ في الأساس من القصص والحكايات المذكورة في النصوص الدينية، فالنبي نوح (عليه السلام) سمّي فيها باسم ديوكاليون (Deucalion) وهرقل سمّي شمشون (Samson).

الباحث والشاعر البريطاني السير والتر رالي (Sir Walter Raleigh) الذي عاش في القرن السابع عشر، قال في كتابه «تأريخ العالم» (History of the world) إنّ جوبال - يوبال – (Jubal) هو ذات كوكب عطارد (Mercury)، وطوبال (Tubal) هو ذات الكوكب فولكان (Vulcan)، وطوبال كين (Tubal Cain) هو إله الشمس أبولو (Apollo)، وأمّا التنّين الحارس للتفاحات الذهبية هو ذات الشيطان أو الحيّة التي خدعت حوّاء، وبرج النمرود بحسب هذه النظرية بني بواسطة كائنات عملاقة.

[1]- Ibid, p. 19.

[2]- 1786 - 1867.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ عدداً قليلاً من الأساطير فقط يمكن تفسيره على أساس هذه النظرية.

ثانياً: النظريّة التأريخيّة

الشخصيات الأسطورية بحسب النظرية التأريخية تحكي عن شخصياتٍ إنسانيةٍ حقيقيةٍ، فالإله أيولوس (Aeolus) على سبيل المثال، هو الحاكم العادل والمحسن الذي حكم جزر البحر التيراني (Tyrrhenian) وقد علّم السكنة المحلّيين هناك كيفية صناعة الأشرعة لإبحار السفن، كما أرشدهم إلى معرفة التغييرات الجوّية من خلال اتّجاه حركة الرياح، لذلك اعتبرته الأساطير القديمة إلهاً للرياح.

وفي أسطورة قدموس وصف الإله أيولوس بأنّه زرع أسنان التنّين في الأرض، وإثر ذلك نبتت لينمو منها مقاتلون مسلّحون. وهذه الأسطورة بحسب النظرية التأريخية تحكي عن هجرة قدموس من فينيقيا (Phoenicia) حيث علّم الشعب الإغريقي خلال هذه الهجرة الحروف الهجائية، وهذا الأمر يعتبر الركيزة الأولى للحضارة في تلك الديار.

ثالثاً: النظرية الباطنية

الأساطير الباطنية القديمة اتّسمت بطابعٍ رمزي، ومن هذا المنطلق أشارت إلى القضايا الأخلاقيّة والدينيّة والفلسفيّة وحتّى التأريخيّة بشكلٍ رمزي، حيث تبلورت على هيئة ألفاظٍ مع مرور الزمان، فالإله ساتورن (Saturn) على سبيل المثال الذي التهم أبناءه هو ذات الزمان - كرونوس – (cronos) الذي اعتقد به الشعب الإغريقي، والسبب في اعتقادهم هذا أنّ الزمان يُفني كلّ شيءٍ أوجده.

والجدير بالذكر أيضاً أنّ أسطورة آيو (Io) الإغريقية تمّ تفسيرها بهذا الشكل.

رابعاً: النظريّة الفيزيائيّة

الآلهة المشرفة على الكون بحسب النظرية الفيزيائيّة هي عبارةٌ عن الهواء والنار والماء لكونها العناصر الأساسية للطقوس الدينية، إذ تبلورت في رحابها القوى الطبيعية، لذلك قدّسها الإغريق واتّخذوها آلهةً، وعلى هذا الأساس تحوّلت العناصر الطبيعية إلى مفاهيم ماورائية.

هذا التصوّر كان وسيلةً لتفسير القضايا الماورائية وفق حقائق طبيعيّةٍ ملموسة، فاليونانيون القدماء من خلال إبداعهم في قوّة التخيّل ركّبوا بين العناصر الطبيعية والكائنات الخفيّة الأسطوريّة، لذلك صوّروا كلّ ظاهرةٍ طبيعيّةٍ صغيرةً أكانت أم كبيرةً باعتبارها واحداً من الآلهة، إذ نجد في أساطيرهم آلهةً للشمس والبحر وحتّى للينابيع والأنهار. هذه النظرية وصفها شاعر القرن التاسع عشر الرومنطيقي البريطاني وليام وردز ورث[1] (William Wordsworth) بشكلٍ رائعٍ.

الباحث الأميركي توماس بولفينتش اعتبر هذه النظريات تنطبق على ميثولوجيا كلّ أمّةٍ، أي إنّ أساطير كلّ شعبٍ تنطبق عليها النظريات الأربعة المذكورة أعلاه، واستنتج من ذلك أنّ الإنسان حينما كان جاهلاً بواقع الظواهر الطبيعية، سعى إلى إيجاد وحدةٍ بين ما يشاهده منها على ضوء أساطير تصوّر إلهاً عظيماً لكلّ ظاهرةٍ منها، وعلى هذا الأساس ترسّخت نزعة الإيمان بالآلهة في أذهان البشر الأوائل، حيث تصوّروا أنّها قوى خارقة ومستحوذة على العالم.[2]

المفكّر مايلز انتقد الميثولوجيا القديمة في الأدب الإنجليزي وفق رؤيةٍ أنطولوجيةٍ، وفي هذا السياق أكّد على أنّ الكثير من المواضيع الأسطورية كانت مجهولةً قبل القرن التاسع عشر، لكنّ الكثير من تفاصيل أساطير حضارة البلدان المحاذية للبحر الأبيض المتوسّط اتّضحت بفضل اكتشافات عالم الآثار الألماني الشهير هاينريش شليمان

---

[1]- 1770 - 1850.

[2]- Bulfinch, Thomas 1968, Bulfinch`s mythology, Hamlyn publishing group ltd. P. 211 - 213.

(Schliemann Heinrich)، كما أنّ عالم الآثار البريطاني السير آرثر إيفانز (Sir Arthur Evans) ضمن استكشافاته التي قام بها في القرن العشرين حول الحضارة المينوسية - المينوية – (Minoan Civilization) في جزيرة كريت (Crete) أجاب عن الكثير من التساؤلات التي كانت مطروحةً حول ميثولوجيا الآلهة والأبطال الأسطوريين، وهذه الآراء الاستكشافية التي تعدّ وثائق تأريخيّةٍ قيّمةٍ يمكن الاعتماد عليها لإثبات النظرية الميثولوجيّة التأريخية. فضلاً عن ذلك فالكثير من الآثار الهندسية الموروثة من عهد أسطورة حرب طروادة، تنمّ عن حقائق تأريخية ثابتة.

الباحث مايلز استند إلى بعض الوثائق الأسطورية التي تثبت أنّ تأريخ الميثولوجيا العالمية يصنّف في ثلاث مراحل تأريخية كالتالي:

1) مرحلة الأصول الأساسيّة أو نسل الآلهة، وفي هذه المرحلة تمحور الموضوع حول نشأة الآلهة.

2) مرحلة الآلهة غير الخالدة والبشر الفانين، فالآلهة والبشر في هذه المرحلة كانوا يخالطون بعضهم البعض، حيث ذكرت فيها قصصاً وحكايات عن المراوادات التي كانت تحدث بين الآلهة وأمثالهم وبين البشر.

3) مرحلة الشجعان والأبطال - عهد الحماسات والملاحم - وفي هذه المرحلة ضاق نطاق نشاطات الآلهة، وملحمة طروادة تعدّ أهمّ ملحمةٍ تناقلها التأريخ عن هذا العهد.[1]

نلاحظ من جملة ما ذكر وجود اختلافٍ بين العهود الأسطورية في نظريتي كلٍّ من مايلز وفيكو، فالثاني قال إنّ المرحلة الأسطورية الثالثة في التأريخ تجسّدت في عهد الرجال الأوائل، وحينها نشأت المكوّنات المدنية وبسطت سيادة الملوك. أضف

[1]- Miles Geoffrey 1999, Classical Mythology in English Literature: A Critical Anthology, University of Illinois press, p. 35.

إلى ذلك من الممكن إضافة مرحلةٍ رابعةٍ بعد مرحلة الشجعان والأبطال التي ذكرت في نظرية مايلز، وهي عهد المراكز السياسية والاقتصادية والثقافية للرجال الأوائل.

المستشرق وعالم اللغويات الألماني ماكس مولر بذل جهوداً حثيثةً لفكّ رموز الأساطير المتداولة في الهند والبلدان الأوروبية، حيث تتبّعها في دراساته وبحوثه حتّى جذور الحضارات الآرية، وفي عام 1891م ذكر بعض المصطلحات الأسطورية ضمن العبارات التالية:

ظهرت للإله الأب -الهندي الجرماني- أسماء مختلفة، وهي كما يلي: زيوس (Zeus) وجوبيتر (Jupiter) ودياوس بيتا (Dyaus Pita)، إلا أنّه من الممكن الرجوع بجذور هذه التسميات كلّها إلى كلمة «دياوس» التي تعني «التجلي» أو «الإشعاع»؛ وهي تؤدي إلى: ديفا (deva) وديوس (deus) وذيوس (theos) بوصفها مصطلحات تشير إلى الإله وإلى الاسم المحدّد: زيوس (Zeus) وجوبيتر (Jupiter) بمعنى (deus - pater) أي «الإله - الأب». وأضاف أنّ كلمة جوبيتر اللاتينية هي نفس نورشتاير (Norsetyre) القديمة.

نظرية مولر هذه استند إليها بعض علماء الميثولوجيا لإثبات وجود تراثٍ بشريٍّ مشتركٍ بين مختلف الحضارات القديمة، ومن هذا المنطلق اعتبروا أورانوس (Oranus) بأنّه نفس فارنوا (Varnua) في اللغة السنسكريتية، وقالوا بأنّ مويراي (Moirae) ذات نورنس (Norns).[1]

علماء الآثار والميثولوجيون المعاصرون أثبتوا أنّ الشعب الإغريقي تأثّر بالحضارات التي ظهرت قديماً في آسيا الصغرى وعددٍ من البلدان الشرقية، وعلى هذا الأساس استدلّوا على أنّ أدونيس اليوناني الثاني (Adonis) هو نفس إله الشرق ميراندا، وسي‌بيل

[1]- Allen Douglas 1978, Early Mythological Approaches, structure & creativity in religion, Hermeneutics in Mircea Eliade`s phenomenology and new directions, Walter de Giryter, p. 12.

(Cybele) يضرب بجذوره في الثقافة الأناضولية، والإلاهة أفروديت هي واحدةٌ من الإلاهات التي كانت مقدّسةً لدى الساميين، لذلك نجد في الحضارات القديمة مفاهيم رمزيّةً متشابهةً من الآلهة الأسطورية ضمن مختلف الثقافات البشرية،[1] وإضافةً إلى التلاقح الحضاري المشهود في الحضارات الهندو - أوروبية والشرقية القديمة، فقد أكّد بعض العلماء والباحثين على أنّ الأساطير الإغريقية تضرب بجذورها في بعض الشعوب التي ظهرت قبل الهيلينيين، مثل شعوب جزيرة كريت والحوض المتوسّط وبايلوس (Pylos) وثيفا (Thebes) وأوركومينوس[2] (Orchomenus)، كما أنّ علماء تأريخ الدين نسبوا بعض أساطير الآلهة في بلاد الإغريق مثل بول (Bull) وزيوس (Zeus) ويوروبا (Europa) وباسيفا (Pasiphue) إلى حضارة كريت.

ويرى الباحث راينهولد أنّ المفاهيم الجينيالوجية الخاصّة بآلهة الشرق الأدنى، تغلغلت في الأساطير الإغريقية القديمة عن طريق الحروب التوسّعية،[3] والبروفسور السويدي مارتين نيلسون[4] (Martin P. Nilson) الخبير بالميثولوجيا وعلم اللغويات اعتبر أهمّ الأساطير الإغريقية القديمة ذات ارتباطٍ بالحضارات التي ظهرت في البلدان المحاذية للبحر الأبيض المتوسط، حيث كانت سنداً ومصدر إلهامٍ لبلاد الإغريق، ومن ثمّ أسهمت في صقل حضارتها وبلورتها بهيئتها المعهودة.[5] وأمّا عالم الميثولوجيا الألماني والتر بوركرت (Walter Burkert) فقد سخّر سنين مديدةٍ من حياته لدراسة

[1]- Edmonds Lowell 1980, Comparative Approaches, John Hopkins University press, p. 184.

[2]- Bukert Walter 2003, Prehistory and the Minoon Mycenaen Era, Greek religion Archaic and classical, trns. John Raffan, Blackwell, p. 23.

[3]- Reinhold Meyer, (October 20 - 1970), The Generation Gapin Antiquity, 349 (htt://links. Jstor.org / sici? sici = 0003).

[4]- 1874 - 1967.

[5]- Wood Michael 1998, The coming of the Greeks, in search of the Trojan war, University of California press, p 112.

وتحليل الأساطير الإغريقية، واستنتج من جملة بحوثه بطلان ما ذكر من قبل راينهولد ونيلسون واعتمد في رأيه هذا على ما استدلّه من الصور والنقوش الموجودة في قصر ريتان (Retan Palace Perion).[1]

الفيلسوف الفرنسي جورج سوريل[2] (Georges Sorel) وصف الأساطير بأنّها البنية الأساسية لنشأة مختلف الأنظمة الاجتماعية، وفي هذا المضمار رفض رأي من تصوّر أنّ الأساطير ضربٌ من الإدراك الموهوم، وقال بأنّها قابلياتٌ عقليّةٌ تصوغ نمط الحياة الاجتماعية، وبالتالي يمكن وصفها بالقابليات التي تصوغ التأريخ، ويمكن تلخيص نظريته في النقاط التالية:

1) كلّ أسطورةٍ تجسّد بينةً كلّيةً، فهي كالصورة الواحدة التي لا يمكن تفكيك مختلف أجزائها المكوّنة لها.

2) الأسطورة عبارةٌ عن ظاهرةٍ اجتماعيةٍ يعتقد بها عددٌ من المساهمين في نشاطٍ جماعيٍّ مشتركٍ.

3) الأسطورة تحكي عن أمرٍ سياسي، فهي على غرار حركةٍ يهدف المشاركون فيها إلى تحقيق أهدافٍ على أرض الواقع، حيث يسعون في رحابها إلى إيجاد تغييراتٍ مؤكّدةٍ في مجتمعاتهم.

4) الأساطير ذات طابعٍ فاعلٍ وتوجّهاتٍ عمليةٍ، لذا يمكن القول بأنّها تهدف إلى تغيير الواقع الذي كان سائداً حين ظهورها، ومن ثمّ لا يصحّ ادّعاء أنّها تعكس الواقع بحذافيره.

5) الأساطير تمثّل صوراً سحريّةً تدلّ على تحقّق رغبات الناس، لذلك ليس من الممكن تفنيدها في إطار تحليلٍ نقدي.

---

[1]- Burkett, Walter 2003, Prehistory and the Minoan Mycenaean Era, Greek religion: Archaic and classical, trans. By John Raffan, Blackwell, p. 240.

[2]- 1874 - 1922.

6) كلّ أسطورةٍ عادةً ما تتقوّم بذاتها، وهي بطبيعة الحال ذات تأثيرٍ على غيرها، أي أنّها ليست متأثّرةً، لذا لا يمكن السير على خلاف نهجها.

نستنتج من جملة ما ذكر أنّ جورج سوريل اعتبر الأسطورة بأنّها قابليةٌ خلاقةٌ وأمرٌ حيويٌّ وبراغماتيٌّ ومؤثّرٌ ينبثق بشكلٍ مباشرٍ من أعمق المشاعر الإنسانية، ويمكنها تحقيق ما يطرح فيها في إطار تصوّراتٍ.[1]

وأمّا رائد علم الأنثروبولوجيا البنيويّة كلود ليفي ستروس (Claud Levi Strauss) الذي يحمل الجنسية الفرنسية فقد ذكر الخصائص التالية للأساطير القديمة:

1) الأساطير تتقوّم على بنيةٍ راسخةٍ تمنح الإنسان قدرةً على تحليل الأمور، لذا يمكن اعتبارها مرتبطةً مع بعضها في رحاب أصول وقواعد منطقية.

2) الأساطير متقدّمةٌ تأريخياً على الطقوس والأعراف الاجتماعية، فهي كالطبيعة التي تعتبر متقدّمةً على الإنسان في وجودها.

3) الأساطير بحسب الرأي القائل بأنّ الفكر متقدّمٌ على العمل من الناحية الزمانية، تحظى بأهمّيةٍ بالغةٍ زمانياً، إذ تدلّ على الأفكار التي راودت أذهان من طرحها وتنمّ عن السلوكيات العملية المتقوّمة على الفكر الأسطوري.[2]

[1]- Sorel Georges 1976, Essays in Socialism & Philosophy, Edited and Translated by John and Shallot Stanley with an introduction by John Stainly, Oxford University press, Introduction of the book.

[2]- Levi Strauss Claude 1967, Structural Anthropology, translated by Claire Jacobson and Brooke Grundfest Schoep, F. New Yourk: Doubleday Anchor Books, p. 55.

*** نتيجة البحث:**

نلخّص ما أشرنا إليه في إطارٍ مقتضبٍ:

1) ميرتشا إلياده اعتبر الأساطير القديمة مرآةً تحكي عن جذور المفاهيم والروايات التي تطرح في رحابها، وهذه الظاهرة تدلّ على تأثير المعتقدات الماورائية على الشؤون الطبيعية والتأريخية، والميثولوجيا على هذا الأساس تتمحور حول تحليل الحوادث الزمانية وبيان أسبابها وفق نمطٍ يتجاوز نطاق الزمان.

2) برونيسلاف مالينوفسكي أكّد على أنّ الأساطير تعتبر انعكاساً للواقع العملي في الثقافات البشرية البدائية، حيث تضمّنت الكثير من القواعد والأصول العملية لهداية الناس وتوجيههم نحو المقصد المنشود، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبارها جزءاً من الحضارات القديمة، حيث انتقلت بشكلٍ عمليٍّ إلى الأجيال اللاحقة.

مالينوفسكي استنتج من جملة بحوثه الميثولوجية أنّ الدراسات الأسطوريّة تعتبر بوّابةً لمعرفة الدوافع الأساسية لمختلف الشعوب والأمم السالفة.

3) جيامباتيستا فيكو قال إنّ الميثولوجيا تعين العلماء والباحثين على معرفة الجذور الثقافية للمجتمعات البشرية. وخلال مباحثه التي أجراها في هذا المضمار سلّط الضوء على الخصائص الذاتية للشخصية الإنسانية في كلّ مجتمعٍ باعتبارها البنية الأساسية لإرساء دعائم مختلف المراكز الاجتماعية.

وبعد أن تحدّث عن الظروف المحلّية في نشأة الأساطير والحضارات، تطرّق إلى البحث والتحليل عن المقوّمات المشتركة بين جميع الحضارات البشريّة والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

أ- حاجة البشريّة إلى قوّةٍ ساندةٍ تحفظها وتتعامل معها بلطفٍ، وهذه الحاجة أسفرت عن ظهور مراكز للعبادة ورواج طقوسٍ دينيّةٍ خاصّة في كلّ مجتمعٍ.

ب- حاجة البشريّة إلى العدل أسفرت عن ظهور مراكز مختصّةٍ بمقارعة الظلم والتصدّي للاعتداء بهدف ترويج العدل في المجتمع.

ج- حاجة البشر إلى الأمن حفّزتهم على تشييد منازل للسكن ومراكز خاصّة تضمن إقرار الأمن في النظام المدني.

د- حاجة البشريّة إلى القانون أسفرت عن تأسيس مراكز خاصّة لتشريع القوانين.

فيكو استنتج من جملة النقاط المذكورة أعلاه أنّ التصوّرات الأسطورية تعدّ من جملة العوامل التي ساعدت على نشأة المراكز الاجتماعية واتّساع رقعتها.

4) جوزيف كامبل اعتبر الميثولوجيا علماً هامّاً وأكّد على ضرورته لفهم واقع الثقافات البشرية، واعتبر الطقوس والشعائر الخاصّة بكلّ شعبٍ وأمّةٍ تدلّ على مدى وعيه، كما ادّعى أنّها ذات أساطيرٍ قديمةٍ تكاملت على مرّ الزمان لتتبلور بهذه الصورة.

5) نستدلّ من المقارنة بين نظريتي جيامباتيستا فيكو وجوزيف كامبل أنّ الأوّل اعتبر الأساطير ذات تأثيرٍ في تكامل المراكز الاجتماعية وسائر المكوّنات التي أبدعها الفكر الإنساني، في حين أنّ الثاني أكّد على تأثير الإبستميولوجيا الأسطورية في معتقدات مختلف الشعوب والأمم، وتناسباً مع أسلوبه المقارن في البحث والتحليل بادر إلى بيان مدى تأثير الأساطير الغربية والشرقية على الأصول الإبستيمولوجية الأسطورية، وفي هذا السياق ادّعى أنّ الأساطير الإغريقية القديمة ساعدت على إحياء الوعي البشري والنزعة الواقعية والعقلانية، كما قال: إنّ الأساطير الشرقية ساهمت في إشاعة شتّى التصوّرات والأوهام في المجتمعات البشرية.

لا شكّ في أنّ علماء الميثولوجيا الشرقيين مكلّفون بدراسة وتحليل ادّعاء كامبل هذا بشكلٍ مسهبٍ وشاملٍ لأجل بيان مدى سقمه أو صوابه.

6) سيجموند فرويد على أساس توجّهاته السيكولوجية، اعتبر الأساطير كمؤشّراتٍ على القمع الأوّل للشعور الطفولي لدى الإنسان، كما قال: إنّ جينيالوجيا أساطير الآلهة تعدّ ثمرةً لتشرذم البشريّة نفسياً في الحياة الاجتماعية.

7) كارل جوستاف يونج اعتبر الأساطير أساساً للتوجّهات اللاشعورية الجماعية، وهذا اللاشعور برأيه هو الذي يصوغ الهوية التأريخية للشعوب والأمم، ويعتبر الدعامة الأساسية لثقافاتها.

8) إديث هاملتون اعتبر بعض الأساطير القديمة بمثابة النواة الأولى للاكتشافات العلمية التي توصّلت إليها البشرية، حيث سعى الإنسان منذ سالف العهود إلى بيان شتّى الظواهر التي اكتنفت حياته في بيئته المحيطة به، ومع ذلك وصف بعضها بأنّه مجرّد حكايات للترفيه والتسلية.

9) توماس بولفينتش رأى أنّ الأساطير ليست من نمطٍ واحدٍ، فهي ذات أنماطٍ عديدةٍ دينيّةٍ وتأريخيّةٍ وباطنيّةٍ وفيزيائيّة، وعلى هذا الأساس أكّد على ضرورة تصنيف كلّ أسطورةٍ ضمن النمط الذي تندرج تحته كي يتمكّن علماء الميثولوجيا من دراستها وتحليلها، لكنّه مع ذلك اعتبر السرد الأسطوري للشعوب والأمم السالفة مؤشّراً عامّاً على كون الإنسان منذ بادئ الأمر كان يسعى إلى إدراج شتّى الأمور المتناسقة في إطار مكوّنٍ كلّي وشاملٍ بهدف توحيدها، وهذه الحالة أدّت إلى شيوع فكرة عبوديّة الآلهة، التي اعتبرت آنذاك موجودةً في مختلف الظواهر والحوادث العظيمة بصفتها قوى خارقة للقوانين المتعارفة.

10) ماكس مولر اتّبع أسلوباً مقارناً في بيان طبيعة الأساطير القديمة، واستدلّ من ذلك أنّ المقارنة بين أساطير مختلف الشعوب والأمم تثبت وجود مشتركات في ما بينها الأمر الذي يدلّ على الجذور المشتركة للثقافات والحضارات البشرية، وفي هذا الصعيد أكّد على وجود ظروفٍ خاصّةٍ نجم عنها حدوث اختلافٍ ثقافيٍّ وحضاري، لذا فإنّ تطرّقنا إلى هذا الموضوع بتحليلٍ دقيقٍ سوف يوصلنا إلى نتائج هامّة.

11) بعض علماء الميثولوجيا أكّدوا على أنّ الشعوب تأثّرت بثقافات أسلافها، حيث توارثت مختلف التعاليم والمفاهيم الثقافية عن طريق الأساطير، ومن هذا المنطلق استنتج أنّ الحضارة الإغريقية قد تأثّرت إلى حدٍّ كبيرٍ بالحضارات الهندو - أوروبية والسامية الشرقية، كما تبنّت بعض الطقوس والأعراف من شعوب الأناضول والشعوب التي كان لها كيانٌ اجتماعيٌّ قبل الحقبة الهيلينية مثل قوم جزيرة كريت وبلدان الحوض المتوسّط وبايلوس وثيفا وأوركومينوس.

12) جورج سوريل اعتبر الأساطير القديمة منطلقاً أوّلياً لنشأة مختلف الأنظمة

الاجتماعية، وأكّد على كونها الركيزة الأساسية التي صُنع على إثرها التأريخ البشري باعتبارها ذات تأثيرٍ فاعلٍ، وذلك لأنّها تنبثق من أعمق العواطف الإنسانية ما يعني ضرورة العمل على أساسها وعدم الحياد عنها.

13) كلود ليفي ستروس ضمن بيانه طبيعة الأساطير وميزاتها الخاصّة، اعتبرها متقدّمةً على الطقوس والأعراف الاجتماعية، فهي برأيه على غرار الطبيعة التي تعتبر متقدّمةً على الإنسان.

نستدلّ من جملة ما ذكر في مباحث هذا الفصل أنّ نظريات أشهر علماء الميثولوجيا تؤكّد على وجود ارتباطٍ وثيقٍ بين الأساطير ومختلف الثقافات والحضارات البشرية، ومن هذا المنطلق سوف نتطرّق في المواضيع اللاحقة إلى البحث والتحليل حول طبيعة ارتباط الحداثة الغربيّة مع الأساطير الإغريقيّة القديمة، وذلك على أساس الفرضيات التالية:

الفرضيّة الأولى: الحضارات البشريّة نشأت ضمن مسيرةٍ تكامليّةٍ بحسب الأصول الثابتة التي سبقت التأريخ، وهذه الأصول انتقلت عبر الأجيال عن طريق الأساطير.

الفرضيّة الثانية: الأساطير القديمة أثّرت على الهويّة العامّة للبشريّة، حيث شاعت في شتّى الثقافات وتناغمت مع بعضها لا شعورياً.

الفرضيّة الثالثة: إبستيمولوجيا مختلف الشعوب والثقافات نشأت في رحاب مسيرةٍ تكامليّةٍ على أساس أساطير قديمة.

الفرضيّة الرابعة: تأثير الأساطير القديمة على كلّ ثقافةٍ قد تجسّد في أعمق العواطف والمعتقدات التي سادت بين البشر على مرّ التأريخ وفي جميع المجتمعات ضمن مسيرةٍ تكامليةٍ.

الفصل الثاني

حقيقة الحداثة الغربيّة

أوّلاً: تعريف الحداثة

تيّار الحداثة أو التجدّد الأوروبي انطلق بعد حقبة القرون الوسطى، والعالم الغربي خلال هذه الفترة تجاوز حدود النشاطات الاقتصادية والزراعية ليلج في مرحلةٍ جديدةٍ قوامها النظام الرأسمالي والنشاطات الصناعيّة إلى جانب توجّهاتٍ عقلانيةٍ ذات طابعٍ إلحادي. كما تأسّست حكومات وطنيّةٌ ذات مؤسّسات ودوائر رسميّةٍ تُشرف على جميع النشاطات في البلد.[1] وبهذا الشكل ازدهرت الحركة التنويريّة واتّسع نطاق النزعات الفكريّة التنويريّة التي تقوّمت على الدعوة إلى ضرورة ترويج الاقتصاد الرأسمالي وتوسيع نطاق العلاقات الاجتماعية إلى جانب العمل على تنمية ثقافة النزعات العقلية، وهذه المبادئ باتت خلفيةً أساسيةً لظهور الحركات العلمانيّة بعد الثورة الصناعيّة وعلى رأسها الفكر الماركسي والحركة الوجوديّة - الفلسفة الوجوديّة ـ (Existentialism).[2]

يمكن تقسيم التجدّد أو الحداثة في العالم الغربي من الناحية التأريخية إلى مرحلتين زمنيتين كالتالي:

1) مرحلة التجدّد الأولى (1500م - 1789م).

2) مرحلة التجدّد الثانية (1789م - 1900م).

الطابع العامّ للحداثة الغربية أنّها تتقوّم على مفاهيم إنسانيّةٍ منبثقةٍ من الحركة الإنسانويّة التي اجتاحت العالم الغربي إبّان حركة النهضة، فروّاد هذه الحركة التأريخية أعاروا اهتماماً بالغاً بالآداب اللغويّة والعلوم البلاغيّة الموروثة من الحضارتين

---

[1]- Barker Chris 2005, Cultural Studies: Theory and Practice, London, Sage, p. 444.

[2]- Toulmin Stephen Edelston 1990, Cosmo polis: The Hidden agenda of modernity, New York, free press, p. 3 - 5.

الإغريقية والرومانية، وعلى ضوء ذلك توفّرت لديهم معلومات واسعة النطاق وعلى ضوئها صاغوا مقرّرات إنسانيّةٍ المرتكز اعتمدوا عليها في شتّى آرائهم ونظرياتهم بصفتها معاييرَ أخلاقيّةٍ وثقافيّةٍ يجب وأن تُصاغ على أساسها قوانين المجتمع الغربي وأصوله العمليّة والتربويّة كافّةً، وهذه المعايير أمست في ما بعد مرتكزاً أساسياً للكثير من الحركات الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة التي ولدت من رحم الخطاب التجديدي الغربي وأسفرت عن إيجاد تغييراتٍ في المباني الأوّلية المتقوّمة على النزعة الإنسانية.[1]

ثانياً: تأثير الحركة الإنسانويّة على تيّار الحداثة

يمكن اعتبار الحركة الإنسانويّة محوراً أساسياً للحداثة الغربية، فقد تأثّرت هذه الحداثة بروّاد النزعة الجامحة التي اتّسمت بطابعٍ إنساني بحتٍ، فقد كانت لهؤلاء نشاطاتٌ حثيثةٌ في عصر النهضة على هذا الصعيد، والفيلسوف الوجودي الإيطالي الشهير نقولا أبنيانو[2] (Nicola Abbagnano) قال: إنّ مصطلح (Humanity) مشتقٌّ من مصطلح (Humanitas) الذي شاع في عهد الفيلسوف الروماني الشهير ماركوس توليوس سيسرو[3] (Marcus Tullius Cicero) ومعاصره ماركوس تيرينتيوس فارو[4] (Marcus Terentilus Varro)، حيث كان يدلّ في تلك الآونة على تعليم الإنسان بعض المواضيع التي وصفها الإغريق القدماء بـ «بايديا» (Paideia) التي تعني الثقافة.[5]

[1]- Kristeller Paul Oskar 1950, The Renaissance Philosophy of Man, the University of Chicago press, p. 114.

[2]1901 - 1990.

[3]- ماركوس توليوس سيسرو (43 ق. م.) فيلسوف وسياسي ورجل قانون روماني، وقد عرف بنظرياته السياسية الشهيرة.

[4]- ماركوس تيرينتيوس فارو (26 - 116 ق. م.) هو عالم وكاتب روماني.

[5]- Abbagnano Nicola 1976, Humanism, Encyclopedia of philosophy, edited by Paul Edwards, IV, London, MacMillan, p. 69 - 70.

وأمّا الركائز الأساسية لأصحاب النزعة الإنسانوية فيمكن بيانها كما يلي:

1) الإنسان هو المعيار الأساسي لكلّ شيءٍ.

2) ضرورة الرجوع إلى ثقافة العهود القديمة بهدف تنمية القابليات الموروثة عن الأسلاف وإحيائها، وهذا الأمر إنّما يتسنّى عن طريق الاطّلاع على الآداب التقليديّة.

3) التأكيد على حرّية إرادة الإنسان واختياره، وهذا الأمر اشتدّت أهمّيته حينما واجهت المجتمعات الغربية ضغوطاً إبّان القرون الوسطى، حيث عانى الناس آنذاك من مآسي ومشاكل جمّةٍ فضاقت عليهم الدنيا بما رحبت.

4) عدم الإذعان إلى ما يروّجه أرباب الكنيسة بكون رجال الدين والرهبان وسائط بين الله تعالى والبشر، وذلك للحيلولة دون استغلالهم. هذا الادّعاء الذي اتّكأ عليه المتديّنون المسيحيون كان يهدف إلى تحقيق مآرب خاصّة خارجةٍ عن نطاق الدين.

5) وجوب إيكال السلطة التامّة والكاملة المطلقة للإنسان مع عدم الإذعان إلى فكرة سيادة القضاء والقدر التي روّج لها أرباب الكنائس.

6) الإنسان هو المحور الارتكازي في الكون دون سواه.

7) العقلُ البشريُّ مضاهئٌ للعقل الديني.

8) معارضة الأنظمة الفلسفية المغلقة وعدم صواب الأصول والمعتقدات الدينية والاستدلالات الانتزاعيّة الخاصّة بالقيم الإنسانية.

9) عدم جواز الارتياض الروحاني والتأكيد على أهمّية صيانة البدن وتنمية قابلياته وضرورة التمتّع بجميع الملذّات الجسمانية باعتبارها حقّاً مشروعاً لكلّ إنسانٍ.

10) منح العقل مهمّة قيادة البشرية، وتجريد الدين عن سيادته التي دامت حقبةً طويلةً.

11) التأكيد على المسائل المادّية واعتبارها الهدف الأساسي لكلّ نشاطٍ بشري.

12) تجريد النظريات والنشاطات السياسية قاطبةً من كلّ صبغةٍ دينيةٍ أو ماورائيةٍ، وفي الحين ذاته ضرورة اتّخاذ القيم الإنسانية كمرتكزاتٍ أساسيّةٍ في عالم السياسة.

13) دراسة شخصية كلّ إنسانٍ من زاويةٍ نفسيّةٍ بصفته كائناً فريداً من نوعه وليس كفردٍ ينحدر من أحد الأجناس، وعلى هذا الأساس فهو مخيّرٌ لأن يخضع للنظام الأكسيولوجي الخاصّ به ولا إجبار في هذا الأمر.

14) تحليل شخصية كلّ إنسانٍ من حيث كونها مؤثّرةً في طبيعتها ومن جهة حصانتها وسموّها الذاتيين.

15) الإنسان ليس ثمرةً لبيئته الاجتماعية، وإنّما هو من أوجدها.

16) تمركز الإنسان على تكامله الذاتي هو السرّ في نجاحه.

17) من الممكن تحقّق رفعة شخصية الإنسان وسموّها دون الحاجة إلى الإيمان بإلهٍ أو آلهةٍ.

18) ضرورة وجود دينٍ لترويج القيم الشخصية والاجتماعية باعتبارها مقوّمات أساسيّةً له، وهذا الدين يمكن أن يكون على غرار الدين البشري الإلحادي الذي طرح من قبل أوجست كونت (August Comte).[1]

19) التأكيد على الوحدة بين جميع الأديان بشتّى أشكالها ابتداءً من الأديان الإبراهيميّة وصولاً إلى الأديان الخرافية.

الفيلسوف الإيطالي نقولا أبنيانو أشار ضمن دراساته وبحوثه إلى المدارس الفكريّة التي نشأت وفق متبنّياتٍ وأهدافٍ إنسانيةٍ، وهي برأيه كالتالي:

---

[1]- أوجست كونت (1798 م - 1857 م) فيلسوفٌ فرنسيٌّ وضع الركائز الأساسيّة للفلسفة الوضعيّة التي عرفت أيضاً بالتجريبيّة الوضعية والوضعية المنطقية.

أوّلاً: الشيوعيّة (Communism)

النزعة الإنسانيّة حسب الفكر الشيوعي يمكن أن تُعتمد لمواجهة غربة الإنسان عن ذاته، والغربة عن الذات هذه برأي الشيوعيين تعتبر ثمرةً للملكيّة الخاصّة والنظام الرأسمالي.

ثانياً: العملانية (البراغماتية) (Pragmatism)

هذه النزعة الفكرية تعتبر الإنسان معياراً لكلّ شيءٍ في الحياة، فهي إنسانويّة المحور وعلى غرار نظريّة بروتاجوراس (Protagoras).[1]

ثالثاً: الشخصانيّة (Personalism) أو الروحانيّة (Spiritualism)

أتباع هذه المدرسة الفكريّة يؤكّدون على قدرة الإنسان في التفكّر بالحقائق الأزليّة وإمكانيّة ارتباطه بالحقائق المتعالية.

رابعاً: الوضعيّة - الفلسفة الوجوديّة – (Existentialism)

تؤكّد هذه المدرسة الفكريّة على فردانيّة الإنسان ومحوريّة مشاعره وأفعاله ومسؤولياته وأفكاره.

إذاً، نلاحظ ممّا ذكر أنّ غالبيّة المدارس الفكريّة الفلسفيّة التي انبثقت على ضوء تيّار التجدّد والحداثة الذي انطلق بعد عصر النهضة، متأثّرةٌ بالنزعات التي تتّسم بطابعٍ إنسانيٍّ بحتٍ؛ فالشيوعيّة على سبيل المثال طرحت أكثر النظريات التي تتمحور حول الإنسان والشعب، والبراغماتيّة أكّدت على أصالة الجانب العملي، والشخصانيّة منحت روح الإنسان قدرةً فائقةً ومؤثّرةً في العالم، والوضعية أكّدت إلى حدٍّ كبيرٍ على الوجود الإنساني.

الجدير بالذكر هنا أنّ جميع المدارس الفكريّة المشار إليها اعتبرت الإنسان بمثابة

---

[1]- بروتاغوراس (420 ق. م. - 490 ق. م.) فيلسوف إغريقي سبق عهد سقراط، وقد اعتبره أفلاطون واحداً من رموز الفكر السوفسطائي.

كائنٍ قائمٍ بذاته، فهو بهذه الخصّيصة يعتبر فاعلاً مطلقاً وغايةً بالذات،[1] لذلك كان لها التأثيرُ البالغ على جميع معالم التجدّد الغربي، حيث أصبحت عناصر النزعة الإنسانيّة دعامةً أساسيّةً في كلّ جانبٍ من جوانب العلوم المتعارفة كالإبستيمولوجيا والسيكولوجيا والثيولوجيا والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا، كذلك طغت على الفنّ والآداب والأخلاق.

نستشفّ من جملة ما ذكر في هذا الفصل أنّ النزعة الإنسانيّة تعتبر العنصر الأساسي للفكر الحداثي الذي شاع في العالم الغربي، لذا يمكن تشبيهها بالدم الجاري في عروق هيكل التجدّد الغربي، ولو شبّهنا هذا التجدّد بالشجرة، فالإنسانية تعدّ المادّة الأوّلية التي تغذّي أغصانها وأوراقها وثمارها، وفي المباحث اللاحقة سوف نسلّط الضوء على فروع هذه الشجرة العظيمة والتي تتجسّد في الحداثة الغربيّة لأجل بيان مدى تأثير الأساطير الإغريقية عليها.

---

[1]- إرنست كاسيرر، فلسفه صورت هاي سمبليك (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية يد الله موقن، إيران، طهران، منشورات «هرمس»، الجزء الثاني (الفكر الأسطوري)، 1999م، ص 30 - 32.

الفصل الثالث

الحداثة الغربيّة في دوّامة الأساطير الإغريقيّة القديمة

المبحث الأوّل: الحركة الإنسانويّة والأساطير الإغريقيّة

لو تتبّعنا مسيرة النزعة الإنسانيّة على مرّ العصور لوجدناها تضرب بجذورها في الأساطير الإغريقيّة القديمة، لذا فالحركة الإنسانويّة الحديثة استلهمت مبادئها من هذه الأساطير التي ورثتها البشريّة من بلاد الإغريق.

فيلسوف علم الاجتماع كورلس لامونت[1] (Corliss Lamont) الذي ذاع صيته في القرن العشرين، قال في بحوثه التي دوّنها حول ما تمخّضت عنه الحداثة الغربية أنّ دعاة الفكر الإنسانوي في عصر النهضة والحداثة تمكّنوا من إحداث تغييراتٍ جذريّةٍ في الواقع الثقافي والعقلاني لشعوب القارّة الأوروبية، حيث أكّدوا على قدرة العقل البشري في استكشاف حقائق الكون بأسلوبٍ علمي، وذلك عن طريق المشاهدة العينيّة والفكر الشكوكي؛ وبرّروا هذه القدرة بأنّ الحقّ والباطل غير موجودين على أرض الواقع بذاتيهما، بل يتقوّمان على مسألة الخير في المجالين الفردي والاجتماعي، كما اعتبروا الأمور الميتافيزيقيّة - مثل الوجود والعدم - لا تعكس قضايا أخلاقيّة، وإنّما ترتبط ببعض المفاهيم الخاصّة بالكيان الإنساني.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الباحث حينما يتتبّع جذور النزعة الإنسانية وصولاً إلى مناشئها الإغريقية، يستنتج من ذلك أنّ الطبيعة كانت مرتكزاً أساسياً للأساطير الإنسانية في تلك الحقبة من الزمن، وهذا الخطاب الأسطوري أضفى على الإله خصائص وميزات بشريّة من الناحيتين الفرديّة والاجتماعيّة، ونقطة الاختلاف الوحيدة في ما بينهما أنّ الإنسان يفنى والإله يبقى خالداً، ولكن مع ذلك أكّدت هذه الأساطير على إمكانيّة خلوده إذا ما استطاع اقتناص طعام الآلهة وشرابهم،

[1]- Corliss Lamont 1997, The Philosophy of Humanism, eight edition, Humanist press, Ambers, New York, p. 252 - 253.

وعلى هذا الأساس تحوّل الأبطال الأسطوريون والشخصيات المميّزة بعد الموت إلى آلهةٍ.

الباحث الخبير والمتخصّص بالدراسات الأدبية الإغريقية والرومانية فيرنر جايجر، أكّد على أنّ هوميروس ضمن أساطيره التي وصف بها العالم، اعتبر الإنسان محوراً ارتكازياً لكلّ شيءٍ فيه، وقال: إنّ علماء الطبيعة المحدثين الذين صوّروا الطبيعة بكونها ذات طابعٍ إلهي، قد تأثّروا في آرائهم هذه بعلماء الطبيعة الذين تألّق نجمهم في بلاد الإغريق والذين عرف عنهم أنّهم تبنّوا فكراً ثيولوجياً متقوّماً على أُسس عقلانية، حيث ذاع صيتهم في الأوساط العلمية آنذاك بعد هوميروس وهسيود.[1]

يضاف إلى ما ذكر أنّ علماء الطبيعة تبنّوا نزعةً عقلانيةً ومن الناحية الإبستيمولوجية اعتبروا كلّ شيءٍ في عالم الطبيعة ذا طابعٍ إنساني.

ومن جملة الآراء التي طرحها جايجر أنّ بداية التأريخ الإغريقي أضفى تصوّراً جديداً للوجود البشري ومنح للإنسان قيمةً لم تكن موجودةً سابقاً، وعلى هذا الأساس اعتُبِرت روح كلّ إنسانٍ غايةً خاصّةً وذات قيمةٍ عظيمةٍ بحدّ ذاتها، وهذه الرؤية هي التي تجسّدت على أرض الواقع إبّان عصر النهضة الثقافية في المجتمعات الأوروبية.

أتباع النزعة الإنسانيّة في عصر التنوير الفكري بذلوا قصارى جهودهم لإحياء العناصر الثقافيّة الموروثة من الرومان والإغريق، ومن هذا المنطلق بادروا إلى دراسة وتحليل مختلف آثار علماء وكتّاب عهد ما قبل ميلاد المسيح، ولا سيّما رموز الفكر الإغريقي القديم، إذ قصدوا من ذلك تحقيق الأهداف الإنسانية التي كانت واقعاً ملموساً في حياة البشر.[2]

---

[1]- Jaeger Werner 1960, Humanistische Reden und Vortrage, Walter De Gruyter & Corberlin, p. 378 - 379.

[2]- Ibid, p. 318.

الرؤية الأسطوريّة الإغريقية القديمة للإنسان أثّرت بشكلٍ ملحوظٍ على الثقافة الغربية الحديثة، حيث اعتبرت شخصية الإنسان ذات صبغةٍ روحيّةٍ ومكانةٍ عظيمةٍ لا حدود لها باعتباره الهدف المنشود في هذا الكون، وعلى هذا الأساس فهو مكتفٍ ذاتياً من الناحية الروحيّة ويعتبر بنيةً أساسيةً في الكون، وهذا هو السبب في تأثّره بالقوانين العامّة الحاكمة على الوجود. الجدير بالذكر هنا أنّ الشخصيّة الفرديّة بناءً على هذه الرؤية لا تنفكّ عن المكوّن العامّ والكلّي.

الشاعر والفيلسوف الروماني[1] تيتوس لوكريتيوس (Titus Lucretius) أكّد على أنّ الإنسان خلال مسيرته يرتقي أعلى الدرجات المعرفيّة ليصل إلى المرتكز الأساسي في الكون، وهذا المرتكز وصفه أرسطو في منظومته الفكريّة بالصورة المجرّدة من المادّة باعتباره فعليةً بحتةً.[2]

إضافةً إلى تأثّر إبستيمولوجيا النزعة الإنسانية الحديثة بالأساطير الإغريقية القديمة، فالقوانين والمقرّرات الاجتماعية والسياسية المعتمدة في التجدّد الغربي، قد تأثّرت بها أيضاً، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أفكار الأديب والسياسي الإغريقي بريكليس[3] (Pericles) والتي انتقلت إلى أرباب عصر التنوير الفكري في أوروبا عن طريق السرد الأسطوري، كان لها الأثرُ البالغُ في مجال الحياة المدنية والديمقراطية الإغريقية، لذلك قيل أنّ القيم الإنسانيّة المذكورة في آثار هذا الأديب ولا سيّما في ما يخصّ القيم والمبادئ الحضاريّة والأصول الديمقراطية، كانت متمّمةً للنزعة الإنسانيّة الذاتانية النسبويّة المشهودة في إبستميولوجيا بروتاغوراس، حيث انتقلت إلى ثقافة النهضة والحداثة الأوروبيّة عن طريق التراث الأسطوري.[4]

---

[1]- 55 - 99 B. C.

[2]- Jaeger, Werner (1960) “Humanistische Reden und Vorträge”, walter De Gruyter & Corberlin, p. 303.

[3]- 429 - 495 B. C.

[4]- O`sulivan Neil 1995, Pericles and Protagoras, Greece & Rome, vol. 42 (1), p. 15 - 23.

الفيلسوف الإغريقي هرقليطس[1] (Heraclitus) الذي سبق عهد سقراط، طرح نظريات تقوّمت على مبادئ إنسانويّة، حيث أكّد فيها على أنّ أخلاق الإنسان هي ذات مصيره، وأمّا الشاعر الملحمي هوميروس الذي دوّن أسطورة الإلياذة وابتدع فيها شخصيّة آخيل (أخيليوس) Akhilleus فهو أوّل من سلك هذا النهج الفكري ببلاد الإغريق القديمة، حيث استعرض هذه النزعة الفلسفية الشاملة في جميع تفاصيل ملحمته الشعريّة التي تتضمّن مبادئ حول طبيعة الإنسان والقوانين الأزلية الحاكمة على الكون. وعلى هذا الأساس سادت الأصول السياسية المتقوّمة على الغريزة البشرية لدرجة أنّ النزعة الإنسانية أصبحت صاحبةَ القول الفصل في شتّى النشاطات السياسيّة والاجتماعيّة.[2]

الكثير من المؤرّخين الغربيين اعتبروا حركة النهضة الأوروبية بأنّها الشرارة الأولى للفكر البنيوي الذي تتقوّم عليه الحداثة، وأكّدوا على أنّها المنطلق الأساسي لأهدافه ومفاهيمه ومبادئه الاجتماعية، والباحث ميرتشا إلياده ذهب إلى القول بأنّ كوزمولوجيا أفلاطون تأثّرت إلى حدٍّ كبيرٍ بالرمزيّة الأسطورية، كما اعتبر الرموز المثلّثة علامةً على عملية النظم المثلى في السرد الأسطوري الإغريقي.

الجدير بالذكر هنا أنّ أصول التعليم في المجتمع الغربي المتجدّد وشتّى مفاهيمه ومرتكزاته الفكريّة والثقافيّة هي الأخرى متقوّمةٌ على الأساطير التي كانت شائعةً في المجتمعات القديمة، وقد ترسّخت المفاهيم الأسطوريّة على ضوء النشاطات التعليميّة والتربوية الحثيثة والجادّة التي شهدتها البلدان الأوروبية بعد عصر النهضة والحداثة، وبما أنّ الشعوب والأمم القديمة لم تميّز بين الأسطورة والتأريخ، فقد اتّبع أبناؤها سيرة الآلهة وشخصيات الأبطال الأسطوريين في شتّى شؤون الحياة، لذلك

[1]- 475 - 535 B. C.

[2]- فيرنر جايجر، بايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص98.

نجد الكاتب القسّيس والقاضي الإغريقي بلوتارخ (بلوتارك)[1] (Plutarch) استند إلى الأساطير القديمة لتدوين سيرة الشخصيات الشهيرة (Lives of famous men) ونظراً لعظمة نتاجه الأدبي هذا فقد تحوّل بعد قرونٍ من الزمن إلى ثروةٍ فكريّةٍ متنوّعةٍ تضمّ بين طيّاتها نماذج متنوّعةٍ من السمات الإنسانيّة التي ورثتها الأجيال اللاحقة، حيث بقيت هذه الشخصيات وميزاتها الخاصّة متداولةً على الألسن وفي الأوساط الفكريّة حتّى بعد عصر النهضة والحداثة باعتبارها معايير عليا في مبادئ التعليم والتربية الأوروبية، ودام هذا الأمر حتّى نهاية القرن التاسع عشر بعد أن تأثّر الأوروبيون بالمعايير المتوارثة من الأساطير الإغريقية القديمة، فقد اتّبعوا نهجاً كان أساساً للثقافة الإغريقية اللاتينية. هذه النزعة الفكريّة شاعت بين روّاد الفكر والفنّ الأوروبيين في العصر الحديث، ومثال ذلك النتاجات الأدبية للشاعر والمفكّر الألماني يوهان جوته[2](Johann Wolfgang Von Goethe) إذ تتضمّن نماذج تنمّ عن تقليدٍ ملحوظٍ لما تضمّنته الأساطير الإغريقية من مفاهيم وأصول حول سيرة الآلهة والأبطال ومختلف الشخصيات الأسطورية القديمة، وهذا التقليد لم يقتصر على الأسلوب المعاصر في التعليم، بل شمل جميع جوانب المناهج التعليميّة الرسميّة في القارّة الأوروبيّة بعد عصر التجدّد والحداثة.

نستشفّ ممّا ذكر أنّ الإنسان المتجدّد الغربي حاول اتّباع بعض المفاهيم الأسطورية، لذلك كان للأبطال الأسطوريين سواءً الشخصيات الواقعيّة منهم أو التخيّلية، دورٌ هامٌّ في بلوغ الإنسان الأوروبي وتكامله عقلياً إبّان عصر النهضة والحداثة.[3]

إضافةً إلى ما ذكر فالأساطير الإغريقية القديمة مجّدت الرجال الأبطال من منطلق تأكيدها على سيادة الرجل ومحوريته في المجتمع، كما أنّ مبادئ عصر النهضة

[1]- 46 - 120 C. E.

[2]- 1749 - 1832.

[3]- فيرنر جايجر، بايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 134.

والحداثة منحتهم الفضيلة متأثّرةً بهذه الأساطير بحيث اعتبرت الرجولة رمزاً لقدرة الإنسان وسطوته، وهذا ما نلمسه في مختلف الآثار الفنّية والحروب التي اندلعت في تلك الآونة والسياسات التي اتّبعتها الحكومات إبّان فترة التنوير الفكري، فاقتدار الإنسان اقتصر على الرجال فحسب.

خطاب التجدّد الغربي طرح وفق نهج الأساطير الإغريقية القديمة، وهو كذلك تمحور حول الرجال فقط، فنظريّة الإرادة التي طرحها فيلسوف القرن التاسع عشر الألماني فريدريك نيتشه[1] (Friedrich Nietzsche) على صعيد اقتدار الإنسان، اعتبر فيها الإنسان العظيم متأثّراً بأبطال الأساطير الإغريقية وأكّد على أنّه ذو خصائص رجولية.

الفنون التشكيلية التي شاعت في العصر الحديث طغى عليها طابعٌ عقليٌّ رجوليٌّ، وهذا ما نجده جلياً في آثار الفنّان الإيطالي ليوناردو دافينشي[2] (Leonardo Da Vinci) حيث تمحورت حول الشخصيات الأسطوريّة الشجاعة في بلاد الروم والإغريق، وعكست الفضيلة والعقلانيّة بصبغةٍ رجوليةٍ؛ وكذا هو الحال بالنسبة للآثار الفنّية التي أبدعها الرسام والشاعر الإيطالي مايكل أنجلو[3] (Michel Angelo).

المسألة الجديرة بالذكر هنا أنّنا لو قمنا بإجراء تحليلٍ دقيقٍ ومعمّقٍ حول الآثار الفنّية لعصر النهضة، لوجدنا الطابع الإنساني الذي طغى عليها يتلخّص بالميزات البدنية لجنس الذكور، مثل لوحة ليوناردو دافينشي الموسومة بـ «العشاء الأخير» (The last Supper) التي تصوّر المسيح عيسى (عليه السلام) وحوارييه بهيئة بدنية خاصّة، بينما تجاهل فيها الرسام الطابع الإنساني العامّ والرمزي ولم يصوّر حقيقته

---

[1]- 1844 - 1900.

[2]- 1452 - 1564.

[3]- 1475 - 1564.

المطلقة، وهذا هو حال التجدّد الغربي، إذ إنّ الإنسان في رحابه عبارةٌ عن مرتكزٍ أساسيٍّ ومعيارٍ كلّيٍّ للنظام الرأسمالي الحديث والمنظومة المصرفيّة المعتمدة والاستبداد المحلّي والتوجّهات العلمانية المادّية، وجميع هذه الأمور اتّسمت بطابعٍ رجولي.

إذاً، لا نبالغ لو قلنا أنّ حركة التنوير الفكري التي سادت في الأوساط الأوروبية جرّاء تفعيل النزعة الإنسانية والتي تزعّمتها نخبةٌ لم تكن سوى أقلّيةٍ اجتماعية، قد مهّدت الأرضية المناسبة لظهور عصر الحداثة، والجدير بالذكر هنا أنّ الرجال الإيطاليين الذين تبنّوا النزعة الإنسانية منطلقاً لشتّى نشاطاتهم في عصر النهضة، لم يكونوا رجالَ دينٍ أو كتّاب محاكم، وإنّما كانوا أدباء وكتّاب تأثّروا إلى أقصى حدٍّ بالعصر الأسطوري الإغريقي القديم، وانعكس هذا التأثّر في جميع سلوكياتهم وتبلور في جميع نواحي حياتهم كنوع ثيابهم وطبيعة كلامهم ونمط معيشتهم، حيث قلّدوا أبناء الطبقة الأرستقراطية في بلاد الروم، حتّى إنّهم تخلّوا عن الكتابة باللغة الإيطالية وحذوا حذو أدباء وكتّاب الصنعة اللغويّة البديعيّة اللاتينيّة لمدرسة الفيلسوف سيسرو (شيشرون)[1] (Cicero) الذي كان سياسياً ورجلَ قانونٍ ومنظّراً في بلاد الروم القديمة، وعلى رأس هؤلاء كلٌّ من دانتي ولوكاتشيو. فضلاً عمّا ذكر فالأوروبيون كانوا يعتقدون بأنّ الحركة الإنسانية لم يكتب لها البقاء إلا بفضل جهود المعلّم والأديب اللغوي الإيطالي لورنزو فالا[2] (Lorenzo Valla) لذا كان من الواجب على كلّ شخصٍ ينحدر من الطبقة الأرستقراطية في بريطانيا تعلّم اللغة اللاتينية واليونانية وإتقانها.[3]

قال الباحث ميرتشا إليادة: إنّ روّاد الثورة الراديكالية الأوروبية وصفوا توجّهاتهم الفكرية بكونها تبلوراً للقيم الموروثة من العصور القديمة واعتبروا أنفسهم ورثةً

[1]- 43 - 106 B. C.

[2]- 1406 - 1457.

[3]- Klika, 2000.

لنظريات المؤرّخ الروماني تيتوس ليفيوس[1] Titus Livius والمؤرّخ اليوناني بلوتارخ.

روّاد الفكر الأوروبي الذين انطلقت بفضل جهودهم حركة التجدّد في العصر الحديث اعتبروا أنفسهم ينحدرون من المجتمعات الرومانية القديمة، لذا كانوا يفتخرون بهذا التراث ويذكرونه بمجدٍ وعظمةٍ، ونتيجة ذلك أنّ جانباً من التراث الأسطوري ما زال موجوداً حتّى يومنا هذا، ويدّعي البعض أنّ هذه الظاهرة لا تعني إحياء سيرة الشخصيات الأسطورية وإعادة طرح أفكارها، بل هي علامة على بعض جوانب الفكر الأسطوري وسلوكياته الخاصّة بصفته بنيةً أساسيةً للأجيال اللاحقة[2]. لكنّ واقع الحال على خلاف هذا التصوّر، فالهدف الإنساني في المجتمعات البشرية لا يمكن أن يتوقّف وكأنّه نظامٌ راكدٌ لا حياة فيه دون أن يطرأ عليه أيّ تغييرٍ أو تطوّرٍ، لذا ليس من الصواب بمكانٍ الجمود على نهج الأسلاف وتقليد نمط حياتهم، وهذا ما أكّد عليه المفكّر جوزيف كامبل، فالإنسان برأيه يمضي مسيرة حياته في إطارٍ تكامليٍّ رامياً إلى تحقيق ما لم يتمّ تحقيقه في العهود الماضية، وهو خلال هذه الحركة التكاملية يبقى حيّاً وفاعلاً وتتنامى شخصيته يوماً بعد يومٍ.

كلّ إنسانٍ لا بدّ وأن يمثّل نقطة انطلاقٍ لحركةٍ خاصّةٍ في المجتمع، وهذا هو أساس البنية التحتية للحضارة الغربية الحديثة في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث ظهرت على هيئة حضارةٍ أدبيةٍ إبداعيةٍ بطابعٍ قوامه تغيير واقع المجتمعات البشرية.[3]

كامبل تطرّق إلى بيان واقع الأساطير الشرقية والغربية بأسلوبٍ مقارنٍ، ومن جملة ما أشار إليه في هذا المضمار أنّ الهدف الأساسي في العالم الشرقي هو اعتبار جميع الناس جوهراً واحداً، فالإنسان بحدّ ذاته يجسّد الوجود الكلّي للبشر. أي إنّ

---

[1]- 59 B. C. - 17 A. D.

[2]- Eliade, Mircea (1975) Rites and Symbols of Initiation, Harper, p. 181 - 182.

[3]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton university press, p. 47.

نفس (Self) كلّ إنسانٍ ليست سوى ذلك الوجود والجوهر الكلّي المتعيّن، ومن هذا المنطلق أصبح الهدف المثالي للدين الشرقي انصهار الإنسان بهذا الوجود الكلّي. وأمّا الهدف المحوري في الأساطير الإغريقية، فهو برأي كامبل عبارة عن أمرٍ مستوحى من الجذور الأصيلة للإنسانية، حيث استدلّ على ذلك من مائدة أفلاطون التي خصّصها لأرسطوفانيس.[1]

الأبطال الأسطوريون بحسب النهج الأسطوري المتعارف خالدون، وبعد انتهاء حياتهم تبدأ مرحلةٌ أخرى لا تقتصر على حياةٍ بطوليةٍ واحدةٍ، بل إنّ حالة الموت الظاهرية تعدّ بوّابةً جديدةً للولوج في طريقٍ جديدٍ، وهكذا يبقون أحياءً إلى الأبد.[2] هذه الرؤية المطروحة في الأساطير الإغريقيّة القديمة تمنح الإنسان والإنسانيّة أصالةً فريدةً من نوعها، حيث توحي بأنّ المسيرة الإنسانية تجري نحو الرقي والتكامل، والفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر[3] (Ernest Cassirer) دوّن متبنّياته الإنسانية على أساسها، وفي هذا السياق أكّد على أنّ الموضوع المحوري في ملحمة هوميروس لا يقتصر على مصير الشمس والقمر، بل تمحورت كتاباته حول الإنسان المتكامل الذي يظهر على هيئة بطلٍ أسطوري، فالأبطال الأسطوريون في التراث الإغريقي يمتلكون شخصيات تتفاعل مع حياة البشرية، وبهذا الشكل يواجهون أحداثاً مؤلمةً وحزينةً تصقل شخصياتهم وتكشف عن صلابتهم وقدرتهم الفائقة، الأمر الذي يجعلهم من أعاظم البشر بحيث ينالون درجة الوساطة بين الناس والآلهة، أي أنّ منزلتهم ترتقي إلى أعلى الدرجات بحيث يلجون في عالم الآلهة، ومن ثمّ يحدث نزاعٌ شديدٌ بين هذه الآلهة حول مصير هؤلاء الأبطال، ولكن ليس بصفتهم مراقبين لأعمال البشر، وإنّما هم مقاتلون يواكبون حياتهم ويرافقونهم في الحوادث التي تطرأ عليهم.

[1]- Ibid, p. 80.

[2]- Ibid, p. 135.

[3]- 1874 - 1945.

استناداً إلى ما ذكر يمكن القول أنّ الآلهة في عصر الأساطير تهبط من السماء إلى الأرض على ضوء ارتباطهم بالأبطال الأسطوريين، وبالتالي يلجون في مسيرة حياة البشر بهيئةٍ جديدةٍ، وهذه العملية التي بدأت منذ ولادة الشعر الملحمي الإغريقي، جرت بشكلٍ تكامليٍّ وبلغت مصيرها على ضوء النصوص المسرحية الإغريقية، وإثر ذلك ظهر الفنّ التراجيدي الإغريقي الذي بقي متلازماً مع الفنّ الأسطوري القديم بحيث لا ينفكّ عنه أبداً.[1]

التوجّهات الإنسانية الغربية التي بسطت نفوذها على علم اللاهوت، ربّما تأثّرت بالأحداث الموروثة من عصر الأبطال الأسطوريين القدماء الذين تألّق نجمهم في بلاد الإغريق. وسوف نتطرّق إلى الحديث عن هذا الموضوع بتفصيلٍ أكثر ضمن المبحث المخصّص للاهوت الغربي.

الأساطير الإغريقية القديمة طُرحت على طاولة البحث والتحليل من قبل إيلين سيجال بأسلوبٍ قوامه النزعة الإنسانية الفردانية، وفي رحاب ذلك تمّ التأكيد على عدم وجود تعيّنٍ لـ "الأنا" الشخصية كعنوانٍ للإنسان بصفته فرداً في النظام الفكري القديم، وذلك أنّ التصوّر السائد آنذاك هو عدم كون الإنسان فاعلاً في ما يصدر منه، بل هناك مؤثّرٌ آخر في هذا المضمار. ولكن عندما تمكّن هذا الإنسان من صناعة شتّى الوسائل والمعدّات التي هو بحاجةٍ إليها في حياته، وبعد أن ولج في عالم الأساطير، التفت إلى شخصيته وأخذ الـ "أنا" بنظر الاعتبار رغم عدم تخلّيه عن تلك العقيدة التي جعلته يتصوّر وجود تأثيرٍ للآلهة على حياته واضطرّته لأن يستلهم أفكاره منها. وهذا الأمر أشارت إليه الشاعرة صافو (Sappho) في قصائدها، حيث قالت: إنّ الآلهة قد ألهمتني الشعر والموسيقى، لذلك سوف لا أُنسى أبداً. وقد مزجت في

---

[1]- إرنست كاسيرر، 1378، فلسفة صورت هاي سمبليك (باللغة الفارسية)، الجزء الثاني، الفكر الأسطوري، ترجمه إلى الفارسية، يد الله موقن، إيران، طهران، منشورات «هرمس»، ص 301 - 302.

شعرها هذا بين الفكر القديم والفكر الذي عاصرته، وبهذا الأسلوب صوّرت الشخصية الإنسانية وسموّها بصفتها أمراً فردياً، واعتبرت هذه الشخصية ثابتةً بحيث لا تنفكّ عن صاحبها، وجرت على هذا المنوال فأضفت على الشخصية الإنسانية ميزةً تكامليةً بحيث تتواصل مسيرتها نحو البلوغ وترتقي مع اتّساع نطاق أفق الحياة. الجدير بالذكر هنا أنّ الإنسان وفق هذه الرؤية يُعتبر محوراً للكون، إذ تتنامى شخصيته وتتكامل يوماً بعد يومٍ إلى أن يصبح عملاقاً يبسط نفوذه على كلّ شيءٍ في الوجود.[1]

*** خلاصة البحث:**

نلخّص في ما يلي مجمل المواضيع التي تطرّقنا إلى بيانها ضمن النقاط التالية:

1) الرؤية الإنسانية التي قوامها أنّ الإنسان هو المعيار الأساسي لكلّ شيءٍ في الكون، أي أنّه المرتكز في المعرفة وتقييم الأمور والحركة والإبداع، ربّما تضرب بجذورها في المبادئ الأسطورية الإغريقية التي منحت الأصالة للإنسان. فهذه الأساطير صوّرت جميع الكائنات في الحياة بهيئةٍ بشريةٍ، وهذا الأمر تجسّد في تصوير الآلة وشتّى الظواهر الطبيعية مثل السماء والأرض والنباتات والحيوانات، كما ظهرت تبعاته في المفاهيم الأخلاقية والعاطفية مثل الحبّ ومختلف الأحاسيس التي تكتنف النفس الإنسانية، حيث تمّ تصوير هذه المفاهيم بطابعٍ إنساني.[2]

الهدف من تصوير الآلهة والظواهر الطبيعية بهيئةٍ بشريةٍ في الأساطير الإغريقية، هو إيجاد ارتباطٍ بين الإنسان الأسطوري ومختلف الظواهر الطبيعية في هذا الكون، وعلى هذا الأساس قيل أنّ الحركة الإنسانويّة الحديثة التي اجتاحت العالم الغربي من أقصاه إلى أقصاه قد استلهمت أصولها من الفنّ الأسطوري القديم، حيث طوت

---

[1]- إيلين سيجال، چگونه انسان غول شد (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية آذر آريان پور، الطبعة الخامسة، إيران، طهران، 1975م، ص 286 - 287.

[2]- للاطّلاع أكثر، راجع مقدّمة الكتاب.

مسيرةً تكامليةً على مرّ العصور، وهذا الأمر كان سبباً أساسياً في رواج الاكتشافات والاختراعات العلمية والثقافية والفنّية في العصر الحديث، فقد تمحورت حول الإنسان وأريد منها تحقيق مختلف الأهداف والغايات الإنسانية، كما ظهرت إثرها علومٌ جديدةٌ مثل علم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وهذه العلوم تتقوّم برمّتها على محورية الإنسان.

عقلانيّة الإنسان وعواطفه وشتّى قابلياته الجسمانية بحسب مبادئ هذه النزعة، تعدّ النقطة المحورية للوجود بأسره في الكون.

2) النزعة الإنسانية في العصر الحديث متأثّرةٌ بالأساطير الإغريقية القديمة التي أكّدت على سيادة الرجل باعتباره إنساناً من الدرجة الأولى في حين أنّها اعتبرت المرأة إنساناً من الدرجة الثانية، والرؤية الإنسانية التي انبثقت منها جعلت المرأة مجرّد وسيلةٍ يستثمرها الرجال. كما أنّ النزعة العنصرية اليونانية المشهودة في بعض الأساطير اتّخذت كذريعةٍ لتصوّر أنّ الإنسان الغربي مرتكزاً للنزعة الإنسانية، وعلى هذا الأساس اعتُبر الإنسان الغربي الأبيض بطلاً وعظيماً، وهذا الأمر مشهودٌ في المعايير السياسية الغربية وبما فيها المرتكزات التي استندت إليها الحركات الاستعمارية الغربية الحديثة.

الجدير بالذكر هنا أنّ هذه الرؤية هي التي صاغت المعايير المدنية والديمقراطية والقانونية الحديثة، وباتت بنيةً أساسيةً لسائر المعايير التي شهدها العالم الغربي في العصر الحديث، كذلك اتُّخذت كركيزةٍ ثقافيةٍ ومنطلقاً للتجدّد في جميع نواحي الحياة.

3) النزعات النسبوية والذاتانية التي شاعت في العصر الحديث تعتبر من أهمّ الأمور المكتسبة من التراث الأسطوري الإغريقي.

4) الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه الذي طرح نظرية موت الإله في العصر

الحديث، أكّد على أنّ نهاية عصر الآلهة كانت نقطة انطلاقٍ لعصر الأبطال وبعده عصر الإنسانية في الحضارة الغربية الحديثة.

وفي هذا السياق قال: إنّ أتمّ مرحلةٍ لتبلور إرادة الإنسان وتربّعه على عرش الاقتدار، هي تلك المرحلة التي ينقطع فيها ارتباطه بعالم الماورائيات بالتمام والكمال، ففي هذه الحالة تزدهر قابلياته في العالم المادّي الذي يعيش في رحابه.[1] ومن ثمّ تتجلّى إرادته ويظهر اقتداره للعيان إثر ظهور الإنسان العظيم أو البطل الأسطوري الإغريقي، وهذا هو طموح نيتشه وهدفه المنشود في تحقّق النظريّة الإنسانيّة بكاملها على أرض الواقع في العصر الحديث.

5) النزعة الذاتانية التي تبنّاها الإنسان الغربي المعاصر، يمكن اعتبارها متأثّرةً بشخصيّة أخيليوس الأسطورية التي تمحورت حولها ملحمة الإلياذة للشاعر الإغريقي هوميروس، فهذه الملحمة اعتبرت أخيليوس صاحب اليد الطولى في جميع القضايا السياسية والاجتماعية بحيث كان الأمر والنهي بيده، كما جعلت شخصيّته الإنسانيّة معياراً أساسياً لكلّ حكمٍ وقرارٍ سياسياً كان أو اجتماعياً.

6) الكتابات الأسطورية التي دوّنها المؤرّخ اليوناني بلوتارخ حول سيرة أشهر الأبطال القدماء، تحوّلت إلى أصولٍ موروثةٍ ذات خصائص فرديّة واجتماعيّة بحيث اعتمد عليها المفكّرون الأوروبيون واتّخذوها منطلقاً أساسياً لترويج قوانين المواطنة بعد عصر النهضة والحداثة، لذا كان لها تأثيرٌ بالغٌ في وضع المعايير الخاصّة بالثقافة والتجدّد الغربيين.

7) الآثار الفنّية التي اتّسمت بنزعةٍ إنسانيةٍ في عصر النهضة الغربية، مثل آثار ليوناردو دافينشي ومايكل أنجلو ودانتي ولوكاتشيو ولورنزو فالا، قد تأثّرت بشكلٍ كبيرٍ بالتراثين الإغريقي والروماني، كما أسهمت بشكلٍ جذري في نشأة علم الجمال والآداب والثقافة التجدّدية الغربية.

---

[1]- G. Whitlock 1996, Roger Boscovich Spinoza and Nietzsche: The untold story, p. 207.

8) فكرة خلود الأبطال بحسب النظام الأسطوري الإغريقي تحوّلت إلى خلفيّةٍ أساسيةٍ للنزعة الإنسانية الحديثة، إذ اعتُبر الإنسان في رحابها مرتكزاً محورياً لكلّ تغييرٍ وتكاملٍ في العالم، فهو في حالة صيرورةٍ دائمةٍ وفق هذه الفكرة.

9) رواج النزعة الفردانية في عهد الأبطال الأسطوريين يمكن اعتباره المنطلق الأساسي لـ "الأنا" الإنسانية، وبعد عصر النهضة والحداثة اتّجهت بوصلة دعاة النزعة الإنسانية نحو العصر الإغريقي الذهبي لتبدأ مرحلةٌ جديدةٌ من الأنا، وهذه الرؤية الإنسانية الفردانية جرت في رحاب مسيرةٍ تكامليةٍ وأصبحت نقطة انطلاقٍ لنشأة الحضارة الغربية التجدّدية.

المبحث الثاني: الإبستيمولوجيا والأساطير الإغريقية

في هذا المبحث سوف نتطرّق إلى الحديث عن إبستيمولوجيا الأساطير الإغريقية ونُشير إلى جانبٍ من خصائصها ضمن عدّة نقاطٍ كما يلي:

أوّلاً: الأسس الإبستيمولوجية الحديثة

إبستيمولوجيا عصر التجدّد والحداثة ابتدأت بطرح مبدأ «أنا أفكّر، إذاً أنا موجودٌ» من قبل الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت[1] (Rene Descartes) الذي سخّر جانباً من حياته الفكريّة للبحث حول وجود الله، وفحوى هذا المبدأ أنّ الله موجودٌ ما دمت أنا الإنسان موجوداً.[2] وقد أكّد هذا الفيلسوف على الذاتانية الإنسانية بحيث اتّخذها كمبدأ ومعيارٍ أساسيٍّ لآرائه الفلسفية.

الفيلسوف والمؤرّخ الفرنسي إتيان جيلسون[3] (Etienne Gilson) الذي تبنّى

[1]- 1596 - 1650.

[2]- رينيه ديكارت، تاملات در فلسفه اولي (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية أحمد أحمدي، إيران، طهران، منشورات «مركز نشر دانشگاهي»، 1990م، التأمّل الأول حتّى الثالث.

[3]- 1888 - 1978.

نهجاً توماوياً، أكّد على أنّ ديكارت هو المسؤول عن الترويج للنزعة المادّية في القرن الثامن عشر.[1]

وأمّا الفيلسوف البريطاني برتراند راسل[2] (Bertrand Russell) الذي برع في علوم الرياضيات والتأريخ والاجتماع، فقد اعتبر ديكارت مؤسّساً لعهدٍ جديدٍ في المنظومة الإبستيمولوجية، وذلك من خلال منحه الأصالة للفكر البشري واعتباره مقدّماً على كلّ شيءٍ وفق مبدأ أنا أفكّر، إذاً أنا موجودٌ؛[3] وهذه الوجهة الفكريّة هي ذات الإبستيمولوجيا الإنسانية التي تعتبر الأنا الإنسانية مقدّمةً على الوجود.[4]

الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا[5] (Baruch Spinoza) هو الآخر تبنّى نزعةً إنسانيةً ولعب دوراً هامّاً في إرساء دعائم الإبستيمولوجيا العقلانية المعاصرة، وقد بادر إرنست كاسيرر إلى تحليل نظرياته الإنسانية وقال أنّه وصف رسالات الأنبياء بأنّها انعكاسٌ لآرائهم الشخصية وما يجول في بواطنهم من خلجات نفسيّةٍ وتصوّرات ذهنية،[6] وعلى هذا الأساس اعتبر الرسالات الدينية ذات طابعٍ إبستيمولوجيٍّ إنسانيٍّ المحور لكونها متقوّمةً على شخصية من يأتي بها.[7]

---

[1]- إتيان جيلسون، نقد تفكر فلسفي غرب (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية أحمد أحمدي، إيران، طهران، منشورات «حكمت»، 1994م، ص 167 - 168.

[2]- 1872 - 1970.

[3]- برتراند راسل، تاريخ فلسفه غرب (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية نجف دريا بندري، إيران، طهران، منشورات «فرانكلين»، 1974م، ص 107.

[4]- إرنست كاسيرر، فلسفه صورت هاي سمبليك (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية يد الله موقن، إيران، طهران، منشورات «هرمس»، الجزء الثاني (الفكر الأسطوري)، 1999م، ص 59 - 68.

[5]- 1632 - 1677.

[6]- إرنست كاسيرر، فلسفه وفرهنگ (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية بزرگ نادر زاده، إيران، طهران، منشورات مؤسّسة الدراسات والبحوث الثقافية، 1981م، ص 247 - 248.

[7]- مريم صانع پور، نقدي بر مباني معرفت شناسي اومانيستي - دانش و انديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامي»، 1999م ، ص 69 - 78.

والفيلسوف الألماني الشهير إيمانوئيل كانط[1] (Immanuel Kant) المعروف بنظرياته الإبستيمولوجية والأخلاقية، والذي وصف بأنّه المؤسّس للفكر التنويري الحديث. يقرّ جميع الباحثين بأنّه أثّر غاية التأثير على نشأة الفكر التجدّدي الغربي وساهم إلى حدٍّ كبيرٍ في توسيع نطاقه، حيث اعتبر الإنسان معياراً لكلّ إبستيمولوجيا.

إضافةً إلى ما ذكر فقد صاغ كانط المنظومة الإبستيمولوجية الحديثة بشكلٍ منسجمٍ غاية الانسجام وفي إطارٍ إنسانيٍّ تامٍّ، حيث اعتبر الذهن البشري قواماً أساسياً للمادّة، ومن هذا المنطلق وصف الإنسان بكونه فاعلاً مدركاً لدرجة أنّ الكون بأسره يتمحور حول إدراكه.[2]

وأمّا عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي أوجست كونت فقد تطرّق إلى دراسة وتحليل الإبستيمولوجيا التأريخية، ومن خلال طرحه مبدأ الخطاب المتقوّم على الفلسفة الوضعية، اعتبر الإبستيمولوجيا الوضعية ذات الطابع الإنساني قائمةً على التجارب العلمية والاجتماعية، وعلى أساس ذلك جعل الإنسانية في إطارها العامّ تتربّع على عرش الإبستيمولوجيا والأنطولوجيا في العصر الحديث.[3]

ثانياً: تأثّر الإبستيمولوجيا الغربية الحديثة بالأساطير الإغريقية

عالم الميثولوجيا الأميركي جوزيف كامبل قال إنّ أسطورة الأوديسة التي دوّنها هوميروس هي التي صوّرت الواقع العقلي للرجال الأسطوريين الإغريقيين، فقد أكّد هوميروس في هذه الملحمة الحماسية على أنّ العقل والحكمة عاملان أساسيان يُعتمد عليهما لمعرفة الخير وتمييزه عن الشرّ.

---

[1]- 1724 - 1804.

[2]- مريم صانع پور، نقدي بر مباني معرفت شناسي اومانيستي - دانش و انديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامي»، 1999م، ص 79 - 92.

[3]- المصدر السابق، ص 93 - 103.

المرحلة الأولى من العصور الأسطوريّة التي وصفت بعصر الآلهة، شهدت رواج التخرّصات بهدف كسب العلم من الآلهة، وهذا الأمر كان بطبيعة الحال على كاهل المنجّمين؛ لذلك يمكن اعتبارهم أساتذةً للعقل البشري بشكله البدائي.

في المرحلة التالية تمّ تعيين سبعة حكماء كمستشارين ببلاد الإغريق، حيث اعتُمد عليهم لمعرفة كلّ ما فيه خيرٌ وصلاحٌ للشعب، وعلى هذا الأساس أرسيت الدعامة الأولى للرفاهيّة الشعبيّة وفق مبدأ الخير.

وأمّا في المراحل اللاحقة فقد وضع اصطلاح «حكمة» (wisdom) للدلالة على معرفة شتّى العناصر المرتبطة بشؤون الآلهة، أي الأمور الميتافيزيقية، ومن هذا المنطلق بات العقل صاحب القول الفصل للمعرفة الإنسانية بخصوص الربّ. فالعقل البشري أدرك أنّ الربّ هو مصدر الحقيقة وأفضل خالقٍ لكلّ خيرٍ، وبهذا النسق تمّ تعريف الميتافيزيقا بأنّها مبدأ الخير للجنس البشري المرتبط بإلهٍ مقتدرٍ، ولربّما كان التوسكانيون (Tuscans) أوّل قومٍ رومانيين تمكّنوا من تشخيص مبادئ الخير والشرّ الحقيقية، حيث سلّطوا الضوء على معرفة الشؤون الإلهيّة الطبيعيّة (Knowledge of natural divine things) ثمّ تلاهم الفلاسفة الذين تبنّوا نظرية أنّ الربّ يعتبر أوّل عاملٍ لتنوير الذهن البشري، وهذا الأمر إضافةً إلى ابتنائه على الأصول المنطقية التي يتمّ تصحيح الاستدلال العقلي على أساسها، طرحت في رحابه فكرة نزول المعرفة المتعالية على قلب الإنسان النزيه الملتزم بالمبادئ الأخلاقية الأصيلة.

الوحوش المتمرّدة (الكائنات الشرّيرة) طبقاً للمفاهيم الميتافيزيقية الأسطورية، حاربت الآلهة بإلحادٍ وشراسةٍ، لكنّها خضعت خائفةً من الإلاهة «جايا» (Gaea) التي ترسل الصواعق، وهذا الخضوع لم يكن بأبدانها فحسب، بل طغى على أذهانها أيضاً. والخبير الميثولوجي جيامباتيستا فيكو قال إنّ الاستدلالات العقلية ليست هي التي صاغت أسطورة جايا، لأنّ البشر الأوائل لم يمتلكوا القدرة على الاستدلال، لذا فهي

وليدةٌ للحواسّ والتصوّرات الذهنية، وعلى ضوء ذلك أصبح الخضوع للربّ بهدف نيل معرفته بنيةً أساسيةً للتعاليم الدينية الأولى، وفي مقابل ذلك بات التكبّر مرتكزاً للإلحاد، حيث قال الشاعر الغنائي الروماني هوراس (Horace) إنّ: الوحوش المتمرّدة البدائية كانت تروم الهجوم على السماء.[1]

الأساطير القديمة للآلهة والأبطال أكّدت على أنّ معرفة الخير والشرّ تعدّ ثمرةً لارتباط الإنسان بالآلهة، وقد اكتسبها في باكورة العهود الأسطورية، أي عن طريق تخرّص الكهنة في عهد الآلهة، إذ كان الكاهن يفسّر للناس دلالة صوت خشخشة أوراق الشجر الجافة، وبهذا الأسلوب كان الكهنة يتنبّؤون بالأحداث والأمور الغيبية.

وفي عهد الأبطال الأسطوريين أصبحت معرفة الخير والشرّ بواسطة الأبطال أمراً ممتزجاً بالتساوي بين الإنسان والإله، حيث تمّ تحصيلها على هذا الأساس، لذا اعتبرت الوحوش الأسطورية المتمرّدة التي حاربت الآلهة جاهلةً بالخير، أي أنّها لم تكن تمتلك معرفةً تؤهّلها لإدراك ما هو خير، والفيلسوف الإغريقي الكبير أفلاطون اعتبر الوحش بوليفيموس (Polyphemus) المشار إليه في أسطورة هوميروس بكونه المصدر الأسطوري الذي جسّد صراع الوحوش مع الآلهة.

الباحث جوزيف كامبل عرّف المعرفة كما هو موضّح أدناه وفقاً لحوار الثيئيتتس (Theaetetus) الأفلاطوني:

1) المعرفة عبارة عن إدراك.

2) المعرفة عبارة عن حكم.

3) المعرفة عبارة عن تصديق.

سقراط وفقاً لهذا الحوار تبنّى نظرية بروتاجوراس التي اعتبر الإنسان فيها معياراً

---

[1]- Campbell, Joseph 1972, The flight of the wild gander explorations in the mythological dimension, Henry Re Gunnery company, Chicago, p. 127.

لكلّ شيءٍ في الكون، وفي هذا المضمار أكّد على كونه معياراً للألفاظ والمعاني أيضاً، ثمّ مزج بينها بهدف استحصال معيارٍ للخير، وبهذا الشكل اعتبر هوميروس رائداً لأتباع نظريات هيراقليطس الذي قال في أسطورته أنّ لوجوس على ارتباطٍ مع ديكي إلاهة العدل.[1] ونتيجة ذلك ارتبطت "الكلمة" أو "اللوجوس" مع إلاهة العدل التي تدلّ على الخير، لذا يمكن اعتبار "الحكمة" التي تعني معرفة الخير بأنّها ذات منشأ أسطوري، حيث تضرب بجذورها في الآداب الإغريقية القديمة.

ويرى كامبل أنّ تأثّر الرواقيين بسيادة الإله زيوس على الكون والمعتمدة على قوانين ثابتة وأبدية ضمن الصراع الدائم بين الحقّ والباطل، هو الآخر قد انعكس في الإبستيمولوجيا الغربية الحديثة، لذا فهو من الخلفيات الأسطورية في هذا الصعيد.[2] الجدير بالذكر هنا أنّ فلوجوس الذي جسّد القدرات الطبيعية في الكون هو إله هيراقليطس الرواقي، ومن هذا المنطلق تبنّى الرواقيون فكرة أنّ القواعد والأصول العقلية منبثقةٌ من عقلانية الإله زيوس.

لا شكّ في أنّ هذه الوجهة الفكرية كان لها وقعٌ كبيرٌ على المبادئ الأخلاقية العلمانية التي طرحت من قبل المفكّرين إيمانوئيل كانط وباروخ سبينوزا،[3] كما أنّ الحداثة الغربية التي ظهرت إلى الوجود بعد عصر النهضة قد تأثّرت بنظريات أفلاطون وخلفياته الأسطورية بحسب الدراسة المقارنة التي أجراها جوزيف كامبل، وهذا التأثّر تبلور في المفاهيم الخاصّة بالإبستيمولوجيا الحديثة.[4]

العالم الفرنسي كلود ليفي شتراوس (Claude Levi Strauss) رائد علم الاجتماع

---

[1]- Ibid, p. 127.

[2]- see: Blakency Eh. , The Hymn of Cleanthes: Greek text Tran. Into English. Mac Millan company download dabble, google books.

[3]- Arrington, Robert 1998, Western Ethics, Blackwell, p. 121.

[4]- Ibid.

الحديث والخبير في الأنثروبولوجيا أشار ضمن بحوثه التي دوّنها حول الجذور الأسطورية للإبستيمولوجيا الحديثة إلى أنّ النمط الموروث من الأساطير والذي يمكن إدراكه في هذا العصر، قد فسح لنا المجال للتركيب بين جميع المعاني ضمن إطارٍ منسجمٍ كلّي، لذا حتّى وإن استنتج كلّ شخصٍ مضموناً متبايناً من الأسطورة، إلا أنّ جميع المضامين يمكن تلخيصها ضمن مقدارٍ معيّنٍ.[1]

نستشفّ من جملة ما ذكر أنّ شتراوس أوعز جذور الإيديولوجيا العامّة المتبنّاة في الإبستيمولوجيا الحديثة والانسجام المعنوي الموجود فيها، إلى الأساطير القديمة، حيث أكّد على أنّ هذه الأساطير قد تبلورت فيها من حيث المضمون والبنية والهيئة الشكلية.

الإبستيمولوجيا التجريبيّة التي اجتاحت الساحة الفكريّة الغربية في العصر الحديث، هي الأخرى ذات جذورٍ أسطوريةٍ، ودليل ذلك أنّ روّاد عصر النهضة لـخّصوا العقل بكونه معرفةً قوامها التجربة تناسقاً مع التراث المكتسب من الأدب الأسطوري الإغريقي، حيث بادروا في بادئ الأمر إلى دراسة وتحليل الأعراف الإغريقية، ومن ثمّ سعوا إلى إحيائها وتأصيلها في المجتمع من خلال بيان تفاصيلها لأقرانهم المعاصرين؛ فالشاعر الفرنسي بيير دو رونسار[2] (Pierre De Ronsard) على سبيل المثال وصف عصر النهضة بأنّه عهد إحياء الروح الهيلينية التي باتت مرتكزاً للفكر الحديث،[3] وقد تمخّض عنه ما يلي:

1) طغيان الروح الهيلينية على معالم النهضة الحديثة المتقوّمة على النزعة الإنسانية أسفر عن طرح مبادئ إبستيمولوجية إنسانية، ومن ثمّ تمّ تهميش الدين

[1]- كلود ليفي شتراوس، اسطوره و معنا (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية شهرام خسروي، إيران، طهران، منشورات «مركز»، 2006م، ص 97 - 98.

[2]- 1542 - 1585.

[3]- Ramadher Mall Essay 2003, Zurinter Kultarellen Pholosophie Nordhausen, p. 87.

باعتباره أمراً غير عقلاني. وهذه الوجهة الفكرية تنصبّ ضمن المساعي التي بذلت في تلك الآونة لمواجهة العنف الحاكم على المجتمعات الغربية إبّان القرون الوسطى، لذا قيل أنّ الدين في عصر النهضة لم يكن له أيّ وجودٍ في السياسة ولا في عالم الفلسفة.

2) تقييد جميع شؤون الحياة البشرية بالعقل إبّان عصر النهضة والحداثة كان سبباً في تصوّر وجود ارتباطٍ تأريخي بين مختلف الآراء والنظريات.[1]

3) ارتكاز الحداثة على فلسفة عصرٍ عقلانيٍّ بحتٍ لكنّها عاجزةٌ عن معرفة واقع العقلانية، لأنّ العقلانية لا يمكن أن تتقوّم على العقل فقط.

4) دلالات المصطلحات الاعتقادية لا يمكن أن تكون متعارضةً مع المعتقدات بذاتها، فالأخيرة ليست منبثقةً من ردود الأفعال العقلانية وإنّما هي ناشئةٌ من الإلهام والشهود الباطني، لذا ليس من الممكن بمكانٍ بيان واقعها وفق قواعد عقلية.

إذاً، رغم وجود اللوجوس في المبادئ الإبستيمولوجية المعاصرة، إلا أنّ بنيتها الأساسية هي الأسطورة المنسية دائماً والموسومة بـ «الميثوس» (mythos)، في حين أنّ الميثوس واللوجوس مرتبطان مع بعضهما من الناحية البنيوية.[2]

الأوروبيون بعد عصر النهضة كانوا مستائين غاية الاستياء من سيادة أرباب الكنائس، وقد ضاق ذرعهم من العقيدة الجبرية التي خيّمت على مجتمعاتهم إبّان القرون الوسطى، لذلك حاولوا إحياء أمجاد الأبطال الأسطوريين وتجديد مواقفهم الشجاعة كي ينالوا حرّيتهم وتسود إرادتهم، وفي هذا المضمار أعلنوا عن نهاية عهد جبروت الآلهة الأسطوريين وانطلاق عهدٍ جديدٍ تكون السيادة فيه للشخصيات العظيمة التي هي انعكاسٌ لتلك الشخصيات البطولية الأسطورية الخالدة، ومن ثمّ

---

[1]- The Illusions of progress 1969, trans. By John and Charlotte Stanley with a forward by Robert A. Nisbet and an Introduction by John and Charlotte Stanley, university of California press, p. 5.

[2]- Panikhar, Raimon 2001, Eldialog indispensable, Puzentre, Iasrelglones, Barcelona, p. 66.

بذلوا جهوداً جمّةً وجازفوا فكرياً لأجل أن تبقى هذه الشخصيات خالدةً إلى الأبد على غرار أولئك الأبطال الأسطوريين الذين تحوّلوا إلى آلهةٍ لا تفنى إلى الأبد.

من المؤكّد أنّ هذه التحوّل الفكري ما كان ليحدث لولا رواج المبادئ الإبستيمولوجية الإنسانية، وفي رحابه نشأت حضارةٌ قوامها الإنسان بحيث اعتبرته البنية التحتية لكلّ أمرٍ، فهو حقيقةٌ لجميع العلل الفاعلية والمادّية والصورّية والغائيّة، وفي هذا السياق قال عالم الميثولوجيا الفرنسي أنطوان فيفر[1] (Faiver Antoine): إنّ بعض الفلاسفة الراديكاليين من أمثال زينوفانيس (Xenophanes) قد تبنّوا في توجّهاتهم الإبستيمولوجية أفكاراً موروثةً من الأساطير الشعرية، وقد انعكس هذا الأمر في أعمال بلاسفوموس (Blasphomous) خلال القرن السادس قبل الميلاد.[2]

الهرمنيوطيقا الأسطورية في العصور القديمة كانت ذات طابعٍ عقلاني، وفي الحين ذاته شهدت بلاد الروم رواجاً فكرياً للنظريات السقراطية والأبيقورية على الصعيدين الفيزيائي والفلسفي، إلا أنّ الرومان من الناحية الأسطورية اعتمدوا على التراث الإغريقي، لذا كانت آلهتهم على غرار آلهة الإغريق.[3] يشار هنا أيضاً إلى أنّ الأنشودات الشعرية الساتورنالية[4] (Saturnalia) الرمزية الرائعة المأثورة عن الشاعر ماكروبيوس (Ambrosias Theodosius Macrobius) الذي يدرج ضمن قائمة الأفلاطونيين الجدد في القرن الخامس الميلادي، طغت عليها النزعة العقلانية.[5] لذا يمكن القول أنّ أسطورة الإله ساتورن تعدّ المنفذ الذي انتقلت منه الثقافة الهيلينية إلى الشعوب الأخرى، وهي ثقافة كانت متأثّرةً بوجهات نظر الشاعر اللاتيني

---

[1]- 1934 .

[2]- F. Graf 2002, Greek Mythology, Routle edge, p. 169 - 170.

[3]- M. R. Gale 1994, Mythology and Poetry in Lucretius, Cambridge University press, p. 88.

[4]- ساتورن هو والد جوبيتر (زيوس)، وإله الزمان.

[5]- Sacred texts, Orphic Hymns (http://www. Sacred-texts. Phanespress goscelyn Godwi).

بوبليوس فرجيليوس مارو[1] (Publius Vergilius Maro) المعروف باسم فرجيل Vergil ، حيث ألّف أسطورة الإنيادة (الإنياذة) التي كان لها وقعٌ كبيرٌ على الأدب الغربي برمّته، فقد تأثّر بالأشعار الملحمية الموروثة عن هوميروس ولا سيّما الإلياذة والأوديسة، وهو الذي ذكر في ملحمة الشاعر دانتي أليجري "الكوميديا الإلهية" وأرشده إلى الجنّة عن طريق البرزخ والنار.[2]

استناداً إلى ما ذكر لا يمكن التشكيك بالدور الفاعل للأساطير الإغريقية القديمة على واقع الرؤية الفكرية والإيديولوجيا التي سادت في عصر النهضة، فقد تجسّدت رموز هذه الأساطير وشخصياتها في الآثار الأدبية اللاتينية التي أبدعها الأدباء والعلماء الرومان ولا سيّما الشعرية منها، فالفنّ الأسطوريّ الإغريقيّ قد ألقى بظلاله على الفكر التجدّدي الأوروبي بكلّ تأكيدٍ. كما أكّد الباحث أنطوان فيفر على التأثير الملحوظ لإله الرومان عطارد على الآداب والإبستيمولوجيا في إيطاليا، وهو ذات الإله هرمس المعروف في الأساطير الإغريقية القديمة، وقال في هذا السياق بأنّ الأديب الإيطالي الكبير دانتي أليجيري في ملحمته الأدبية «الكوميديا الإلهية» شبّه الكواكب بالفنون الحرّة السبعة، فقد اعتبر قواعد اللغة مرتبطةً بالفكر البشري بينما نسب الجدلية - الديالكتيك - إلى الإله عطارد. الجدلية كما هو معلومٌ تتناسق مع مبادئ النهج الهرمنيوطيقي المتّبع في عصر النهضة والحداثة، كذلك تعتبر خلفيةً أساسيةً لانطلاق الفكر الحديث. ولو أنّ القرن الرابع عشر الميلادي ابتدأ بالكوميديا الإلهية، فالساحة الأدبية والفكرية الإيطالية بعد دانتي شهدت ظهور آثارٍ شهيرةٍ لأدباء من أمثال جيوفاني بوكاتشيو وفرانشيسكو بترارك، وهذه الآثار كان لها الوقع البالغ على الإبستيمولوجيا الإنسانية في العصر الحديث، لذلك أمست إيطاليا مضماراً مناسباً

[1]- 19 - 70 B. C.

[2]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 24.

لإله الإغريق عطارد (هرمس)، ومن ثمّ شيئاً فشيئاً ارتقت مكانتها في العالم الغربي إثر تلك النشاطات الفكرية والثقافية التي سادت في عصر النهضة والتجدّد على الساحة الأوروبية.[1]

الشاعر والأديب الإيطالي الشهير جيوفاني بوكاتشيو[2] (Giovanni Boccaccio) الذي كان لنتاجاته الأدبية التأثير الملحوظ على صعيد شيوع النزعة الإنسانية في الديار الغربية إبّان عصر النهضة، تحدّث عن دور الإله عطارد في المعرفة البشرية، وقال بأنّ هذا الإله يزيح الضبابية عن ذهن الإنسان ويتلاعب به وكأنّه مفسّرٌ أفلاطوني، لذا فهو يمحو العتمة لكي تهبط الحقيقة من السماء إلى الأرض، كما يتغلغل في نفس الإنسان دون أن يجرّده من إرادته واختياره.

وأمّا الخبير الألماني المتخصّص بتأريخ الفنّ والحداثة إدجار ويند [3] (Edgar Wind) فقد اعتبر عطارد وزيفيروس[4] (Zephyrus) إلهين لتحصيل المعرفة، وقال بأنّ أوّل مرحلةٍ في تحصيلها تتمثّل بمجيء الإله زيفيروس من السماء نحو الأرض ثمّ عودته مرّةً أخرى إلى السماء؛ وعلى هذا الأساس تتجلّى ثلاث مراحل للحركة الهرمسية ضمن المسيرة المعرفية، وهي كالتالي:

المرحلة الأولى: الاستذكار (remeatio)

المرحلة الثانية: التحوّل والانقلاب (conversion)

المرحلة الثالثة: الإفاضة أو التجلّي (الانبعاث) (emanation)

يمكن اعتبار هذه المراحل بأنّها عمليّةُ انبعاثٍ من السماء إلى الأرض والعودة

---

[1]- Ibid, p. 25.

[2]- 1313 - 1375.

[3]- 1900 - 1971.

[4]- زفيروس هو إله الرياح عند الإغريق القدماء، وهو المبشرّ بالخير والموجد للسعادة.

مرّةً أخرى إلى السماء على هيئة الإله الأسطوري عطارد، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا الإله قد ذكر في النصوص المسرحية الرمزية مثل حوار القديس دنيس[1] (Saint Denis)، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ عطارد في هذا الحوار لعب دور المستشار المخادع للملك هيرودس، وقد أطلق عليه الفيلسوف أغسطينوس اسماً يتناغم مع ما كان متعارفاً إبّان القرون الوسطى، حيث أسماه "آرجوس" (Argus) في أوزيريس (Osiris)، وآرجوس هو ابن الإله زيوس وقد كان له مائة رأسٍ بحسب الأساطير.[2]

الإله هرمس بحسب مبادئ الإبستيمولوجيا الشهوديّة (الحدسية) الإغريقيّة، يظهر أحياناً على هيئة بطلٍ باسم بلوتو[3] (Pluto) وأحياناً أخرى يتجلّى باسم مارس[4] (Mars) .[5]

نلاحظ من جملة ما ذكر أنّ الإله هرمس تمّ تعريف شخصيته بشكلٍ متضادٍّ في الأساطير الإغريقية والرمانية ولم يكن دوره مقتصراً على أمرٍ واحدٍ، وفي هذا السياق أكّد الباحث أنطوان فيفر على أنّ هذا الإله كان مرسلاً من قبل الآلهة والناطق باسمهم بحسب ما أفادته الأساطير الإغريقية، كما وصف أحياناً بكونه إله العدل. أضف إلى ذلك وطبقاً للإبستيمولوجيا الشهوديّة، فقد وصف عطارد بأنّه مرسلٌ لجوبيتر[6] (Jupiter) وقد أرسل لفكّ قيود الآداب اللغويّة والبلاغية عبر تحريرها من

---

[1]- القدّيس دنيس هو أحد الشخصيات الدينية الإيطالية التي ذاع صيتها في القرن الثالث الميلادي، ثمّ أصبح أسقفاً لمدينة باريس حتّى استشهد؛ وقد اقتبس اسمه من اسم الإله الإغريقي ديونيسوس الذي كان إلهاً للخمر.

[2]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 33.

[3]- بلوتو هو إله الثروة والعالم السفلي.

[4]- مارس هو إله الحرب.

[5]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 33.

[6]- جوبيتر الروماني هو نفس الإله زيوس الإغريقي، أي إله الآلهة وربّ الأرباب.

سجن آرجوس، أي أنّه المنقذ للفكر العقلاني، وعلى هذا الأساس فقد حطّمت أسطورة عطارد جميع القيود وأزالت كلّ العقبات وفتحت الباب على مصراعيه أمام المعرفة التي كانت حبيسة نظام آرجوس العقلي.[1]

هناك نقطةٌ مشتركةٌ بين جميع التفاسير المطروحة حول عطارد أو هرمس، وهي أنّ هذه الشخصية الأسطورية قد عكست النظام الإبستيمولوجي الإغريقي الروماني.

الأساطير الإغريقية تضمّنت فكرة أنّ عطارد أو هرمس قد ولد من زواج زيوس ومايا[2] (Maya) حيث اتّصفت شخصيته بالحركة والنشاط، وكانت لديه رغبة جامحة في ملاحقة الإناث الأسطوريات.[3] وما يتحصّل لدينا من هذه الرواية أنّ الأساطير القديمة التي سبقت العهد الإغريقي كان لها دورٌ في الإبستيمولوجيا الأسطورية الإغريقية، والباحث أنطوان فيفر أعلن بصريح العبارة أنّ إبستيمولوجيا العصر الحديث قد صيغت وفقاً لما ورد في الأساطير الهرمسية، ومن أمثلة ذلك أنّ هذه الأساطير فضلاً عن تأكيدها على اتّصاف بانارج (Panarge) بقوى سحريّةٍ هرمسيّةٍ، فقد اعتبرته على غرار هرمس من حيث اتّصافه بميزات بشرية، وهذا الأمر ليس بسبب كونه ساحراً، بل لكونه يدّعي ملكيته لحجر الفلاسفة المعروف بالحجر السحري.[4]

عندما وصف هرمس بأنّه أوّل حكيمٍ إلهيٍّ من قبل فيلسوف الأفلاطونية الحديثة ورائد الإنسانية في النهضة الإيطالية مارسيليو فيشينو[5] (Marsillio Ficino) فقد تمّ فتح أفقٍ جديدٍ ابتدأ بهرمس وبلغ ذروته بفكر أفلاطون، وفي هذا السياق قال إنّ

---

[1]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 34 - 35.

[2]- إلاهة هندية نسبت إليها ربوبية الخيال والأحلام.

[3]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 38.

[4]- Ibid.

[5]- 1433 - 1499.

الجينيالوجيا الفلسفية تدرّجت في مراحل بحسب الترتيب التالي: إدريس (Enoch)، إبراهيم، نوح، زرادشت، موسى، هرمس، براهما، والحكماء الروحانيون من أمثال شيشرون والذين يطلق عليهم عنوان (Druids)، كذلك مثل داوود، أورفيوس، فيثاغوس، أفلاطون، السيبيالات[1] (Sibyls) .[2]

أتباع الديانة الهرمسية في عصر النهضة اعتبروا الرجوع إلى الأساطير القديمة مفتاحاً لفهم واقع الفنّ والشعر، كما ادّعوا أنّه البوّابة التي يمكن الولوج منها لفهم حقائق العلم والتكنولوجيا. ومن هذا المنطلق تصوّروا أنّ الميثولوجيا جزءٌ من البنى الأساسية للإبستيمولوجيا، كما أنّ العلم الحديث في عصرنا الراهن قد اعتبره البعض متقوّماً على أسطورة بروميثيوس، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العلوم الحديثة لم تكن لتتحصّل دون وجود إبستيمولوجيا تتناسب مع مشارب روّادها وتوجّهاتهم الفكرية والعلمية.[3]

المسألة الأخرى الجديرة بالذكر في هذا الصعيد هي تأثّر إبستيمولوجيا الحداثة بالأساطير الهرمسية، وهذا الأمر أسفر عن إيجاد تعدّديةٍ في هذه الإبستيمولوجيا الحديثة، لذا عند تحليل المعرفة الهرمسية نستنتج أنّها تعتبر الطبيعة تعدّديةً، وهذه الرؤية كان لها وقعٌ مشهودٌ على الثقافة الألمانية الحديثة، فنظرية جوتفريد شبينجلر على سبيل المثال دلّت على مواكبة تعدّدية الثقافات والحضارات مع نظرية التطوّر.

أضف إلى ذلك فإنّ عودة علماء ومفكّري عصر النهضة إلى الأدب الأسطوري الإغريقي القديم قد أدّى إلى تأكيد العقل الهرمسي على مبدأ «التمثيل» باعتباره واحداً من الضرورات العلّية في نظريات أرسطو.[4]

---

[1]- السيبيالات هنّ السيدات المتكهّنات بالغيب في بلاد الإغريق، مثل كاهنة معبد دلفي.

[2]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 39.

[3]- Ibid, p. 65.

[4]- Ibid, p. 68 - 69.

الإبستيمولوجيا الغربية الحديثة تتناسب بشكلٍ عامٍّ مع النزعة الإنسانية التي اجتاحت الأوساط الفكرية الأوروبية إبّان عصر النهضة، وهذه النزعة كما ذكرنا تأثّرت بالأدب الإغريقي القديم وعلى ضوئها حدثت تحوّلات عظيمة في تلك الديار بحيث وصفها كلٌّ من ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر كما يلي: الإله المبدع والفكر الإنساني تولّيا سيادة الطبيعة، حيث كان نهجهما متناسقاً وأفعالهما متشابهة، وفي هذا العصر أصبح الإنسان شبيهاً للإله، لأنّه بات حاكماً على عالم الوجود وسيّداً له.

الجدير بالذكر هنا أنّ الأساطير القديمة بحسب هذه الرؤية الفكرية قد تغيّرت لتصبح معالم تنويرية حديثة، ومن ثمّ تحوّلت الطبيعة إلى أمرٍ مادّي محسوسٍ بحتٍ، ومثال ذلك الأسطورة غير الدينية التي وصفت الشمس فيها بأنّها أب للطبيعة، فقد تضمّنت مفاهيم كلّية طرحت ضمن إطارٍ لغويٍّ وادُّعي فيها أنّ التديّن الأسطوري قمع عامّة الناس. لذا لم تكن الأساطير القديمة وحدها أساساً تمهيدياً للفكر التنويري، بل إنّ روّاد مرحلة التنوير الفكري كانوا يغورون في عمق الأساطير ضمن كلّ خطوةٍ يخطونها ويقتبسون منها بعض المفاهيم التي تخدم توجّهاتهم الفكرية ونظرياتهم الجديدة على الساحة، وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ النزعة التجدّدية التي اجتاحت الساحة الغربية في تلك الآونة كانت في ظاهر الحال تهدف إلى اجتثاث الفكر الأسطوري، ولكن بما أنّها تقوّمت من أساسها وبكلّ مضامينها على الأساطير، فقد انغمست من رأسها إلى أخمص قدميها في المفاهيم والأسس الأسطورية.[1]

---

[1]- ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، ديالكتيك روشنگري (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية مراد فرهاد بور وأوميد مهرگان، إيران، طهران، منشورات «گام نو»، 2005م، ص 39 - 43.

* **خلاصة البحث:**

نلخّص مجمل مباحث الموضوع في النقاط التالية:

1) إبستيمولوجيا التجدّد الغربي التي اتّسمت بنزعةٍ إنسانيةٍ قد تأثّرت في أصولها ومبادئها بالأساطير الإغريقية غير الدينيّة والحياة الدنيويّة ومبدأ مركزية الإنسان، وذلك بسبب عودة روّاد الحركة التنويرية الأوروبية إلى الثقافة الإغريقية القديمة.

2) الحكمة وفق مبادئ الحداثة الغربية تعني معرفة الخير والشرّ، وهذا يناظر التعريف الذي طرح للعقل في ملحمة الأوديسة لهوميروس.

3) أوّل توجّهات عقلية في بلاد الإغريق القديمة، انعكست في أساطير عصر الآلهة وذلك من خلال التكهّن بعلم الآلهة.

4) العقل والحكمة في العهدين الأسطوريين الثاني والثالث تمحورا حول معرفة شؤون الآلهة، أي القضايا الماورائية، وفي هذا المضمار بات العقل البشري معياراً للعلم والمعرفة، وأمّا الإله فهو الذي يهدي هذا العقل بنورانيته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الحركة المتنامية للإبستيمولوجيا ذات الطابع الإنساني قد بدأت في هذه الفترة.

5) الأصول الإبستيمولوجية الحديثة تأثّرت في عصر النهضة بنظرية بروتاجوراس الشهيرة التي تعتبر الإنسان معياراً لكلّ شيءٍ في الوجود.

6) لا شكّ في أنّ سقراط وأفلاطون قد تأثّرا بالأساطير الإغريقية القديمة التي سبقت عهدهما، لذا تأثّر الخطاب الأفلاطوني الحديث بالأساطير الإغريقية القديمة رغم ظهوره بعد عصر النهضة والحداثة؛ أي يمكن اعتبار أفلاطون وسيطاً في هذا التأثّر الأسطوري.

7) لوجوس باعتباره واحداً من أهمّ المفاهيم الإبستيمولوجية الغربية الحديثة،

كان على ارتباطٍ مع إلاهة العدل ديكي، لذا كان له دورٌ في تمييز الحقّ عن الباطل والخير عن الشرّ وفق الأساطير الإغريقية.

8) الإبستيمولوجيّة الوظائفيّة التي ارتكزت على نظرية الحقّ الطبيعي كان لها دورٌ ملحوظٌ في وضع القوانين الأخلاقية الرواقية الثابتة، وفي ما بعد ساهم فيلسوف العصر الحديث إيمانوئيل كانط في إنعاشها وترسيخها؛ وهذه النظرية متأثّرةٌ بلوجوس الفيلسوف الإغريقي هرقليطس وبالقوى الطبيعية.

هرقليطس تبنّى فكرة أنّ الأحكام العقلية ناشئةٌ من العقلانية الطبيعية المكتسبة من إله الآلهة زيوس، وهذه الرؤية الإبستيمولوجية التي تبنّاها الفلاسفة الرواقيون قد تبلورت بشكلٍ ملحوظٍ في إبستيمولوجيا العقل العملي التي طرحها إيمانوئيل كانط، كذلك انعكست في المبادئ العلمانية الأخلاقية المطروحة من قبل باروخ سبينوزا.

9) النظرية الإبستيمولوجية التي طرحت من قبل بروتاجوراس قد أسفرت عن ظهور النزعات الذاتانية والنسبوية والإبستيمولوجية في عالم الحداثة الغربية.

10) الميثولوجيا الإغريقية طرحت نظاماً منسجماً ومفهوماً كان له وقعٌ كبيرٌ على الانسجام المعرفي في الإبستيمولوجيا الحديثة.

11) الإبستيمولوجيا التجريبيّة في العصر الحديث تأثّرت بالنزعة التجريبية الأسطورية الموروثة من العهد الإغريقي القديم.

12) طغيان الروح الهيلينية على النهضة الإنسانوية في عصر النهضة قد تسبّبت في طرح فكرة أنّ الدين أمرٌ غير عقلاني في الفكر الغربي الحديث.

13) على الرغم من أنّ روّاد عصر النهضة والحداثة اقتبسوا بعض مفاهيمهم الاصطلاحية ومتبنّياتهم الفكرية الميتافيزيقية من أساطير الآلهة الموروثة من العصر

الإغريقي القديم ولا سيّما من الناحيتين الطبيعية والإنسانية، وأمّا من الناحية الإبستيمولوجية فقد تأثّروا بأساطير وروايات عصر البطولات القديمة، لذلك ترسّخت النزعة الإنسانية في المبادئ الإبستيمولوجية الحديثة، وجرّاء ذلك تمّ تهميش الدين وانتشر الإلحاد بالله في الإبستيمولوجيا السياسية والثقافية والفلسفية الحديثة بحيث أصبح العقل فقط صاحب القول الفصل إلى جانب رواج بعض المبادئ الإنسانية. وخلاصة الكلام أنّ العلل الأرسطوية الأربعة تلخّصت في الإنسان فحسب ضمن مفاهيم التجدّد الأوروبي.

14) الهرمنيوطيقا العقلية للأساطير الإغريقية الهرمسية المشهودة في النظريات الإبستيمولوجية السقراطية والأبيقورية، كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على النزعات الفكرية التي اجتاحت الساحة الغربية في العصر الحديث، حيث يمكن اعتبارها خلفيةً فكريةً لها.

15) المفكّران جيوفاني بوكاتشيو وفرانشيسكو بترارك اللذان يُعتبران من الروّاد الأوائل للنهضة الغربية، حيث تأثّرا غاية التأثّر في توجّهاتهما الفكرية على الصعيد الإبستيمولوجي بالمبادئ الهرمنيوطيقية الإنسانية لعطارد أو هرمس.

نستنتج مما ذكر أنّ المفاهيم الغربية الحديثة المتقوّمة على التعدّدية والديالكتيكية تعدّ من الناحية الإيديولوجية انعكاساً لمبادئ الديانة الهرمسية.

المبحث الثالث: علم النفس

إضافةً إلى ما ذكر في المبحثين السابقين، فالأساطير الإغريقية كان لها وقعٌ على علم النفس الغربي الحديث أيضاً خلال مسيرته التكاملية وفي جميع أطروحاته الارتكازية، ابتداءً من اللاشعور الفردي المطروح في نظرية سيجموند فرويد وصولاً إلى اللاشعور الجمعي المطروح في نظرية كارل جوستاف يونج، ومن هذا المنطلق يتمحور الموضوع في المبحث الحالي حول بيان مدى تأثير الأساطير على نظرية فرويد.

أوّلاً: اللاشعور الفردي في سيكولوجيا فرويد والأساطير الإغريقية القديمة

عالم النفس الغربي الشهير سيجموند فرويد (Sigmund Freud) ولد في النمسا وتوفّي في العاصمة البريطانية لندن، وقد تأثّر فكرياً بروّاد الفكر الأوروبي من أمثال فيودور دوستويفسكي ويوهان جوته وإيمانوئيل كانط وفريدريك نيتشه، كما تأثّر بالفنّ الأسطوري الإغريقي القديم بفضل اطّلاعه الواسع على آثار نيتشه وشكسبير وسوفوكليس، ولا نبالغ لو قلنا أنّ «عقدة أوديب» (Oedipus Complex) تعدّ واحدةً من العناصر الأساسية للاشعور البشري في نظريته السيكولوجية، وتفيد هذه الأسطورة أنّ أوديب قتل والده ملك مدينة «طيبه» ثمّ تزوّج من والدته لذلك تسبّب في شؤم أسرته ومدينته.

سيجموند فرويد تحدّث عن عقدة أوديب مستلهماً تفاصيلها من أسطورة أوديب، وضمن تحليله النفساني لأحداث هذه الحكاية أكّد على أنّ اللاشعور - اللاوعي - الباطني متأثّرٌ بكبح الرغبات الأوديبية.[1] وعلى ضوء ذلك ابتدع للإنسان مفهوماً أحيائياً في ما وراء نطاق التأريخ، حيث اعتمد على التراث الأسطوري الإغريقي لبيان مسألة كبح الغرائز، وعلى هذا الأساس طرح في نظرياته النفسية التحليلية تفسيراً للأحلام على أساس الأساطير الإغريقية، لذا يمكن اعتبار تفسيره هذا مؤشّراً جلياً على أهمية المفاهيم الأسطورية وجذورها المترسّخة في اللاشعور الفردي.

الاضطراب الذي يكتنف الإنسان بسبب عقدة الإخصاء مثل ما حدث في قصّة أوديب، يعود في أساسه بحسب مبادئ سيكولوجيا فرويد، إلى مشاكل نفسانية، وهذه النظرية في الواقع تضرب بجذورها في بعض الأساطير الإغريقية القديمة، حيث اعتُبر العضو التناسلي للرجل فيها رمزاً للخير والخصوبة، لذلك كان مقدّساً.

[1]- see: Columbia Dictionary of modern Literary and cultural criticism, 1995, ed. Joseph Childers and Gary Hentzi, New York: Columbia university press.

الباحث جوزيف شيلدرز (Joseph W. Childers) قال: إنّ فرويد تنزّل بمكانة الإنسان إلى أدنى حدٍّ بحيث جعله كالحيوان الغريزي الذي تنطبق صفاته على مراحل تطوّر الإنسان القديم في عصور ما قبل التأريخ.

الإنسان الأسطوري الذي تحدّث عنه فرويد يناظر الإنسان القديم الذي وصفه فيكو بأنّه ساذجٌ وغريزي، ورغم سخف أسطورة أوديب وتفاهة شخصيته التي هي في الواقع دون شأن الإنسان المتكامل والمتحضر، إلا أنّ نظرية اللاشعور الفردي التي طرحها فرويد على أساسها قد أحدثت انقلاباً كبيراً في أصول علم النفس التحليلي (psycho – analytic) إبّان العصر الحديث الأمر الذي فتح أفقاً جديداً لعلماء النفس التحليليين الذين تلوه من أمثال عالم النفس السويسري كارل جوستاف يونج[1] (Carl Gustav Jung) الذي طرح نظرية اللاشعور الجماعي.

طبقاً لعقدة أوديب فإنّ هذا الرجل يقتل والده لايوس (Laius) دون قصدٍ ويتزوّج من أمّه جوكاستا، حيث يرى فرويد أنّ هذه العقدة تظهر لدى الطفل بين السنوات الثلاثة والخمسة من حياته، ففي هذه المرحلة تكتنفه رغبةً جنسيةً بوالدته لذلك يتمنّى وفاة والده؛[2] ومن جملة ما دوّنه في هذا السياق أنّ الشعور الأوديبي هو الذي يحرّكنا، وذلك بسبب الشؤم الذي نعاني منه قبل ولادتنا جرّاء لعنة الكاهن أو العقل الكامل، لذا فإنّ أوّل تجربةٍ جنسيةٍ لنا أجمع هي التهييج الجنسي تجاه الأمّ ومن ثمّ نشعر ببغضٍ إزاء الأب لدرجة أنّنا نتمنّى قتله في أمنياتنا الشخصية، وهذه الرغبة ترسّخ في أنفسنا بغضنا له.[3]

---

[1]- 1895 - 1961.

[2]- Childers, Joseph 1995, Columbia Dictionary of Modern Literary and cultural criticism, ed. Joseph Childers and Gary Hentzi, New York: Colombia university press.

[3]- Freud Sigmund 1913, The interpretation of dreams, chapter v. , the natural and sources of dreams, New York, Mac Millan company, p. 292.

الباحثون المعاصرون يعتقدون بأنّ عقدة أوديب ذات محورين أساسيين، أحدهما إيجابي والآخر سلبي، فمحورها الإيجابي يظهر لدى الذكر على هيئة بغضٍ لوالده وانجذابه الجنسي نحو والدته، وأمّا محورها السلبي فيظهر لدى الأنثى على هيئة بغضٍ لوالدتها وحبٍّ لوالدها؛ وعلى هذا الأساس يبادر عالم السيكولوجيا إلى البحث والتحليل حول الرغبات الجنسية الأوديبية المكبوتة في الجانب اللاشعوري لدى البالغين وفق أصول باثولوجية.[1]

عقدة أوديب بحسب نظرية كارل جوستاف يونج والتي سنتطرّق إلى بيان تفاصيلها لاحقاً، تقتصر على الذكور فقط، بينما الإناث يجرّبن عقدة إليكترا[2] (Electra) لذا طرح فكرة أنّ البنات يعتبرن والداتهنّ منافسات لهنٍ في مجال حبّ الأب.

وقد أكّد سيجموند فرويد على أنّ عقدة أوديب لو ترسّخت في اللاشعور الإنساني بنجاحٍ سوف تنمّي في نفسه الشعور الجنسي وتصقل شخصيته، كما اعتبر الصراع بين الأطفال الذكور والإناث ناتجٌ ممّا أسماه بـ "عقدة الخصاء" لدى الذكور وما وصفه بـ "حسد القضيب" لدى الإناث. كما قال بأنّ هذه العقدة إن ترسّخت في الجانب اللاشعوري للإنسان بشكلٍ فاشلٍ فسوف تسفر عن حدوث رغبةٍ جنسيةٍ من قبله تجاه الأطفال ونحو الجنس المشابه له جرّاء طغيان اضطراب العصاب (Neurosis) على شخصيته.

الباحثان سيمون (Simon) وبلاس (Blass) ذكرا ستّ مراحل تنموية بخصوص رأي سيجموند فرويد المطروح في عقدة أوديب، وهي كما يلي:

---

[1]- Childers, Joseph 1995, Columbia Dictionary of Modern Literary and cultural criticism, ed. Joseph Childers and Gary Hentzi, New York: Colombia university press.

[2]- إليكترا في الميثولوجيا الإغريقية هي بنت الملك الإغريقي أجاممنون والملكة كلتمنتسرا، وكانت أميرة ذات نفوذٍ في آرجوس حيث تآمرت هي وشقيقها أوريستيس للانتقام من أمهما كلتمنسترا وزوجها إيجسثوس بسبب قتل أبيهما أجاممنون.

المرحلة الأولى: استخدم فرويد مصطلح أوديب حتّى عام 1909م بعد وفاة والده الذي فارق الحياة عام 1896م وإثر اطّلاعه على أسطورة أوديب التي دوّنها سوفوكليس، لكنّه خلال هذه الفترة لم يذكر اصطلاح عقدة أوديب بشكلٍ صريحٍ.

المرحلة الثانية: أشار في مدوّناته إلى اضطراب العصاب خلال الأعوام 1902م حتّى 1914م وتحدّث عن الرغبات الأوديبية في العقدة المركزية لدى كلّ إنسانٍ، حيث ذكر اصطلاح «عقدة أوديب» لأوّل مرّةٍ في عام 1910م.

المرحلة الثالثة: طرح فكرة رغبة الإنسان الجنسيّة بمحارمه خلال نتاجاته الفكرية التي دوّنها خلال الأعوام 1914م حتّى 1918م.

المرحلة الرابعة: خلال هذه المرحلة من حياته تكاملت نظرية عقدة أوديب التي صاغها وفق متبنّياته السيكولوجية الخاصّة، وذلك إبّان الأعوام 1919م حتّى 1926م.

المرحلة الخامسة: طرح نظريّة أوديب خلال الأعوام 1926م حتّى 1931م ضمن المباحث الاصطلاحية الدينية والثقافية.

المرحلة السادسة: في الأعوام 1931م حتّى 1938م سلّط الضوء بشكلٍ أساسي على عقدة أوديب لدى الإناث وأعار أهميةً أكثر لهذا الموضوع رغم أنّه ابتدأ بتدوين تفاصيله إبّان عقد العشرينيات.

كما اعتبر فرويد عقدة أوديب لدى الإناث انعكاساً لرغباتهنّ الجنسية تجاه الأمّ، لذا طرح السؤال التالي في عام 1925م: لماذا تترك الإناث هذه الرغبة الجنسية تجاه الأمّ وتنشأ لديهنّ رغبةً جنسيةً تجاه الأب؟[1] ولدى إجابته عن هذا السؤال قال أنّ هذا التحوّل ناجمٌ عن الإحباط الذي ينشأ لديهنّ إثر عدم مشاهدة عضو تناسلي ذكري لدى الأمّ.

[1]- Simon and Blass 1991.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الباحث سليب أكّد على أنّ التراث الفكري لسيجموند فرويد لم يتضمّن أيّ كلامٍ حول الرغبة في قتل الأمّ.[1]

الصيغة النهائية لنظرية فرويد بخصوص الجنس الأنثوي طرحت في مقدّمة سلسلة محاضراته التي طبعت تحت عنوان خمس محاضرات في التحليل النفسي، حيث تطرّق في هذه المحاضرات إلى شرح وتحليل مختلف الآثار الناجمة عن حسد القضيب الذي ينتاب فكر الإناث.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الباحث اللاهوتي الأسكتلندي السدير ماكنتاير[2] (Alasdair Chalmers Macintyre) المتخصّص في فلسفة السياسة والأخلاق والتأريخ، تناول هذا الموضوع بالبحث والتحليل، وقال في هذا الصدد: إنّ سيجموند فرويد بطرحه نظرية اللاشعور تعامل مع الواقع الإنساني بلغةٍ حيوانيةٍ متّبعاً إيديولوجيةً جنسيةً بحتةً رغم ادّعائه أنّ الجنس ليس أمراً بحتاً، بل هو أداءٌ قوامه الحبّ.

ثانياً: اللاشعور الجمعي في سيكولوجيا فرويد والأساطير الإغريقية القديمة

عالم النفس السويسري كارل جوستاف يونج طرح نظرية اللاشعور الجمعي مؤكّداً فيها على تأثّر علم النفس التحليلي في المجتمعات البشرية بالأساطير الموروثة من الأسلاف، ومن هذا المنطلق اعتبر الأساطير الإغريقية القديمة مترسّخةً في الجانب اللاشعوري للإنسان الغربي.

ونظراً لتأثّره بنظرية عقدة أوديب التي طرحها سيجموند فرويد، سلّط الضوء في مباحثه النفسية التحليلية على رغبة الفتيات الجنسية تجاه الأب وعدائهنّ للأمّ، وفي هذا السياق طرح نظرية عقدة إليكترا بنت الملك أجاممنون بحسب ما ورد في الأساطير الإغريقية.

[1]- Slip (1993) New Introductory Lectures on Psychoanalysis, p. 95.

[2]- 1929 .

تفيد الأساطير أنّ إليكترا أرادت قتل والدتها لأنّها اعتبرتها ضالعةً في قتل والدها، وعلى هذا الأساس بادر يونج إلى دراسة وتحليل اللاشعور الفردي، حيث اعتبر عقدة أوديب المرتكزة على الدراسات التحليلية الفردية المطروحة من قبل سيجموند فرويد، تضرب بجذورها في البحوث الأنثروبولوجية الطوطمية، لذا جذّر أوديب الابن في نفسه تلك القوانين التي أقرّها والده، وإثر ذلك انتابه شعورٌ بالأفضلية على غيره[1] لتتبلور شخصية والده في وجوده، لذا حاول الحفاظ على رجولته.

أمضى أوديب السنوات الأولى من حياته ورغبةٌ جنسيةٌ تكتنفه تجاه والدته، وفي المراحل التالية تنامت رغباته الجنسية واستقطبته سلوكيات ورغبات شهوانية أخرى.[2]

نلاحظ ممّا ذكر أنّ يونج قد تأثّر إلى حدٍّ كبيرٍ بنظرية اللاشعور الفردي المطروحة من قبل فرويد، فبعد أن أذعن إلى نظرية عقدة أوديب، بادر إلى إتمامها عن طريق طرح نظرية عقدة إليكترا، كما استلهم من فرويد فكرة رسوخ الأساطير القديمة في اللاشعور الفردي ليطرح نظرية رسوخ هذه الأساطير في اللاشعور الجمعي، ومن المؤكّد أنّ هذه النظرية تعتبر نقطة تحوّلٍ هامّةٍ في النظريات السيكولوجية الغربية إبّان العصر الحديث، لذلك وصف بأنّه مؤسّس مدرسة العلاج النفسي الحديثة.

وضمن نظريته التي طرحها حول اللاشعور الجمعي (Collective Unconscious) والصور المثالية (Archaic Patterns) وسّع نطاق التحليل النفسي تأريخياً وأسطورياً، فالعناصر البنيوية للأساطير كائنةٌ في الجانب النفسي اللاشعوري لدى الإنسان على هيئة مثالية أزلية.

---

[1]- Macintyre 1972, Myth Encyclopedia of philosophy, ed. By Paul Edwards, Mac Millan, London, p. 345.

[2]- Jung Carl Gustav 1960, The structure and dynamics of psyche. , collected works, Princeton university press, p. 277 - 278.

الباحث روبرت أي. سيجال (Robert A. Segal) أجرى دراسةً مقارنةً بين ميثولوجيا كارل جوستاف يونج ونظرية الصور المثالية التي طرحها جوزيف كامبل، وقال في هذا الصدد إنّ الأخير لدى شرحه وتحليله للأساطير عرّف الصور المثالية بأسلوبٍ مبسّطٍ للغاية بحيث يمكن اعتبارها دليلاً على كون الأوديسة تطرح الأنموذج الأمثل للبطولة، في حين أنّ يونج يرى أنّ أوّل خطوةٍ يجب اتّخاذها في تحليل الأساطير هي التوحيد بين الصور المثالية.[1]

يونج اعتبر الرموز كعناصر أساسية في الأساطير، إذ أكّد على أنّها تستخدم بكثرةٍ في الحوارات التي تجري بين الناس بحيث لا نبالغ لو قلنا أنّ كلّ كلمةٍ نلفظها في حواراتنا تعكس صورةً رمزيةً خاصّةً تحمل بين طياتها معاني بديهيّةٍ دون واسطةٍ، لذا يمكن اعتبار كلّ كلمةٍ رمزاً يتضمّن جانباً لاشعورياً أوسع نطاقاً لكنّه ليس واضحاً بكلّ تفاصيله.[2] إضافةً إلى ذلك فقد وصف الأحلام بكونها صوراً رمزيةً، وذلك لأنّها تلهم الإنسان لاشعورياً بعض الأحداث والوقائع التي يواجهها في حياته، وهي بالطبع ليست انطباعات عقلية، بل مجرّد صورٍ رمزيةٍ، لذا لا تعتبر حجّةً لدى الفلاسفة من منطلق اعتقادهم بكون المعرفة تعني تحقّق العلم للإنسان، بينما اللاشعور الجمعي عبارة عن تراثٍ مشتركٍ وثابتٍ للبشرية جمعاء بحيث لا ينكره أحدٌ ممّا يعني أنّ المعرفة المتحقّقة لكلّ فردٍ وليدةٌ للجانب الجمعي في حياته.

ما ذكر أعلاه يتلخّص في أنّ النفس الإنسانية تُعتبر جزءاً من عالم الطبيعة ولا حدود للمجهولات التي تحيط بها، لذا كما أنّنا عاجزون عن طرح تعريفٍ تامٍّ ومتكاملٍ للطبيعة، في الحين ذاته لا قدرة لنا على تعريف النفس الإنسانية بهذا الشكل أيضاً.[3]

[1]- Jung Carl Gustav 1960, The structure and dynamics of psyche. , collected works, Princeton university press, p. 85.

[2]- Jung Carl Gustav 1964, Man and his symbols, Doubleday, p. 20 - 21.

[3]- Ibid, p. 23 - 24.

عالم الأحياء والفيلسوف الأميركي جوزيف هندرسون[1] (Joseph Henderson) أجرى دراسةً مقارنةً بين الإنسان المعاصر والبدائي، واستنتج منها وجود جسرٍ تأريخيٍّ يربط بين الجوانب اللاشعورية في النفس الإنسانية، وفي هذا السياق اعتبر المجتمعات البشريّة التي ظهرت على مرّ التأريخ كجسرٍ رابطٍ بين عالمي العقل والغرائز.[2] وكارل جوستاف يونج بدوره استند إلى هذه النظرية وبادر إلى تحليل الآثار اللاشعورية الجمعية التي ورثها الإنسان المعاصر من أساطير ما قبل التأريخ.

نظريّة يونج - اللاشعور الجمعي - هي على غرار نظريّة جيامباتيستا فيكو الميثولوجية، حيث ادّعى فيها أنّ المبادئ الأسطورية لها تأثيرٌ على جميع الثقافات المعاصرة سواءً من الناحية العملية الواقعية أو من الناحية الميتافيزيقية، والحداثة الغربية بحسب هاتين النظريتين ليست مستثناةً من هذه القاعدة العامّة، فالأساطير البطولية على سبيل المثال تعتبر أهمّ وأكثر الأساطير المشتركة بين مختلف المجتمعات والقوميات في العالم، فهي شائعةٌ في التراثين الإغريقي والروماني، كذلك عرفتها شعوب الشرق الأقصى وحتّى القبائل البدائية المعاصرة، وهي تتجلّى في أحلام الإنسان على أساس نظرية اللاشعور الجمعي المطروحة من قبل كارل جوستاف يونج ممّا يعني أنّها ذات تأثيرٍ على اللاشعور الفردي لكلّ إنسانٍ وكذلك على اللاشعور الجمعي لشتّى الشعوب والأمم. ومثال ذلك أبطال الأساطير الإغريقية، إذ إنّ ثيسيوس[3] (Theseus) كان يعبد بوسيدون (Poseidon) إله البحار، وبيرسيوس[4] (Perseus) كان يعبد أثينا[5](Athena)، وخيرون (Chiron) كان يقدّس سنتوري[6] العاقل باعتباره بطلًا.

[1]- 1878 - 1942.

[2]- Jung, Carl Gustav (1964) Man and His symbols, Doubleday, p. 49.

[3]- ثيزيوس هو أحد أشهر الملوك الأسطوريين في أثينا.

[4]- بيرسيوس هو ابن إله الآلهة زيوس، ومؤسّس حضارة ميسنا الإغريقية وملكها.

[5]- أثينا هي إلاهة الحرب والحضارة والعقل والقدرة والاستراتيجية والصناعات والفنون والحرف اليدوية.

[6]- سنتوري هو أستاذ هرقل أو هيركليس في الأساطير الإغريقية.

وممّا قاله عالم الميثولوجيا الفرنسي أنطوان فيفر أنّ هذه الأنماط الأسطورية السابقة للعهود التأريخية قد تعدّدت فيها الآلهة بصورٍ عديدةٍ، نشأت إثر العلاقات الجنسية بين آلهةٍ من الذكور مع إلاهاتٍ من الإناث، واعتبرها انعكاساً رمزياً للخلجات النفسيّة الجماعيّة التي تبلورت في رحابها الهوية العامّة للشعوب والقبائل السالفة، وهذه الرموز برأيه مهّدت الأرضية المناسبة لتنامي اقتدار الإنسان، إذ قبل رواجها لم تكن شخصية الفرد تتمتّع بهذا الاقتدار.

بناءً على ما ذكر نستنتج أنّ الصور والأنماط المتعدّدة للآلهة تدلّ على وجود تأثيرٍ ملموسٍ للأساطير البطولية على الواقع النفسي لكلّ فردٍ في شتّى المجتمعات البشرية، الأمر الذي أسفر عن تنمية القابليات الفكرية للإنسان بصفته فرداً، بحيث جعلته يدرك نقاط القوّة والضعف في شخصيته، وهذه الحالة خلقت لديه استعداداً لمواجهة مهامّه الشاقّة الملقاة على كاهله طوال حياته، وعلى هذا الأساس يطوي مسيرةً تنطلق من ولادة ذاته الفردية لتصل إلى مرحلة نضوجه، وبعد ذلك ينقطع ارتباطه مع الأساطير البطولية بحيث تصبح مرحلة الموت الرمزي للبطل الأسطوري بدايةً لبلوغه.

الحقيقة أنّ ثمرة الانطباعات البطولية الأسطورية في شتّى الثقافات البشريّة تتجسّد في ردود الأفعال التي تكتنف شخصية الفرد في كلّ مرحلةٍ من مراحل تنامي شخصيته وتكاملها.

فضلاً عن أنّ علم النفس الغربي الحديث تأثّر بأسطورة الإلهين أوديب وإليكترا والأساطير البطولية، كذلك تأثّر حسب رأي العالم النفساني الشهير كارل جوستاف يونج بالديانة الهرمسية بصفتها جزءاً من التراث الأسطوري الإغريقي، ومن هذا المنطلق فالصور الهرمسية المتعدّدة المركّبة من جوهرٍ واحدٍ تتيح للإنسان إدراك حقيقة هذا

الجوهر الهرمسي ضمن مختلف أنماط ارتباطاته مع الكون الذي يعيش في كنفه وحتّى في معارفه.[1]

وممّا طرحه كارل يونج في هذا الصعيد أنّ الأساطير صاغت حزماً من المعاني الباطنية لدى الإنسان في إطار لاشعور جمعي، وهذه المعاني تمنحه توجّهات نفسية تتبلور على أساسها مفاهيم رمزية، وهي في الحقيقة تنمّ عن قابليات مشتركة بين الروح الإنسانية، لذلك ليس من الممكن استبدال اللاشعور الجمعي بالمبادئ العلمية المرتبطة بعالم الواقع المحسوس، إذ إنّه يضرب بجذوره في باطن النفس الإنسانية.

إذاً، الإنسان بناءً على ما ذكره هذا المفكّر الغربي حينما يتأمّل بالأساطير القديمة فهو في الواقع يتأمّل بطبيعة ذاته ضمن أفقٍ أكثر دقّةً وأوسع نطاقاً، وفي هذا المضمار تنشأ له قدرةٌ على إدراك جميع جوانب المفاهيم الأسطورية.[2]

الباحث اللاهوتي الأسكتلندي السدير ماكنتاير الذي طرح نظريات بخصوص أخلاق الفضيلة والمحاسن النفسية والسلوكية، اعتبر الأساطير القديمة أفضل نمطٍ للفكر الجماعي، حيث تجعل من التأريخ تأريخاً بكلّ معنى الكلمة، وهذا الدور التكاملي مشهودٌ في عصرنا الحديث، فبعض الباحثين يعتقدون بأنّ السلوكيات الأسطورية ساهمت في إبقاء الفكر الجمعي حيّاً وفاعلاً، كما يعتبرونها أنموذجاً بنيوياً للحياة الاجتماعية في العصر الحديث.[3] والأساطير على هذا الأساس تنمّ عن حالةٍ معيّنةٍ من الوجود الذي يتبلور دائماً في الجانب اللاشعوري، بينما لو ألقينا على الموضوع نظرةً سطحيةً سنتصوّر أنّ عالمنا المعاصر في غنى عن المفاهيم الأسطورية.

---

[1]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 63.

[2]- Campbell, Joseph 1973, Myth to live by, Bantam books, p. 13.

[3]- See: Mac Intyre 1958, The unconscious, A Conceptual Analysis, Routledge & Kegan Paul, New York, Humanities press.

كارل يونج تحدّث عن هذا الموضوع في كتابه «الإنسان يبحث عن نفسه»[1] حيث قال: الأساطير بشكلها التقليدي تجسّد النمط الخاصّ للسلوك البشري وتعتبر عنصراً أساسياً للحضارة، وذلك لأنّها مازالت ذات دورٍ فاعلٍ على صعيد التجربة الفردية، حيث تتجلّى في تصوّرات الإنسان الحديث وأحلامه وأهدافه.

وأمّا مؤرّخ الأديان المعاصر والخبير في الميثولوجيا والفلسفة الرومانية ميرتشا إلياده فقد وصف سيكولوجيا الإنسان المعاصر بكونها وازعاً يحفّز الإنسان الحديث على استكشاف تلك المفاهيم التي توصّل إليها علماء الميثولوجيا في العالم سواءً المشهورون منهم أو غير المشهورين، وهذا الأمر يتبلور في باطنه اللاشعوري ووعيه الفردي والجمعي، والسبب يعود إلى المواضيع الأسطورية التي تحظى بأهميةٍ بالغةٍ، إذ إنّها تعيد نفسها باستمرارٍ في الباطن الغامض لإنسان هذا العصر. لذا لا نبالغ لو ادّعينا إمكانية إحياء المفاهيم الأسطورية في العصر الحديث باعتبارها أنموذجاً للسلوك الإنساني الذي يستحقّ التقليد ممّا يعني أنّ الرمز الأسطوري يبقى في الأذهان ولا يزول أبداً، لكن غاية ما في الأمر أنّه عرضةٌ للتغيير تناسباً مع الظروف الزمانية.[2] وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ اللاشعور الفردي والجمعي الذي يتمّ التعرّف عليه على ضوء تفسير الأحلام التي يراها الإنسان في منامه، لا يقتصر على تصوّر الكائنات المخيفة والمرعبة، بل تكتنفه الآلهة الذكور والإناث، كذلك الأبطال الأسطوريين وحوريات الجنّ.[3]

عالم الميثولوجيا المقارنة الأميركي جوزيف كامبل تطرّق إلى البحث والتحليل في

[1]- Jung, Carl Gustav (1933) Modern Man in search of a soul, trans by Cary Banes, Rout ledge & kegan.

[2]- Eliade, Mircea (1960) Myth, Dreams and Mysteries, p. 27.

[3]- Mac Intyre, Alasdair (1972) “Myth”, Encyclopedia of philosophy, Ed. Paul Edwards. Macmillan, London.

مباحث الميثولوجيا ضمن دراسةٍ مقارنةٍ، وعلى ضوء ذلك أكّد على وجود علاقةٍ حقيقيّةٍ بين الكوزمولوجيا والسيكولوجيا الأسطوريتين، وقال في هذا الصدد بأنّ ما يسمّى بالكوزمولوجيا الأسطورية التي تصوّر السماء منفصلةً عن الأرض، ربّما تكون انعكاساً لما يراه الإنسان في أحلامه، لذا ليس من الضروري البحث عن تفاصيل الكوزمولوجيا الأسطورية في عالم الواقع، بل لا ضير في ادّعاء أنّ المفاهيم الأسطورية قبل أن كون مرتبطةً بالحقائق الفيزيائية الموجودة في عالم الواقع، فهي ذات ارتباطٍ بعلم النفس، ومن هذا المنطلق بإمكاننا صقل القوى الإدراكية للإنسان اعتماداً عليها.

نستنتج من هذه الفرضية أنّ الكثير من المعلومات القديمة التي هي في متناول أيدينا في غنى عن إجراء تحليلٍ كوزمولوجيٍّ لها، بل لا بدّ من تحليلها وبيان تفاصيلها سيكولوجياً. وعلى هذا الأساس فإنّنا من خلال تسليط الضوء على جينيالوجيا الآلهة التي قدّسها القدماء، نتوصّل إلى نتيجةٍ فحواها أنّ هذه الجينيالوجيا لها القابلية على بلورة أمرٍ يطرأ عليه التغيير مع مرّ العصور تناسقاً مع التحوّلات التي تطرأ على المنظومة الفكريّة البشرية سواءً على صعيد الخلجات الباطنيّة للإنسان أو في مجال ذلك الجانب الذي يقيّد الروح الإنسانية، حيث يمكن اعتبار الأمر المذكور تراثاً روحانياً دائماً ورمزياً يتناسب مع البنية السيكولوجية للإنسان.

استناداً إلى ما ذكرنا من تفاصيل حول موضوع البحث، نطرح الأسئلة التالية:

1) هل المفاهيم الأسطورية لها القابلية على بلورة مختلف جوانب العالم الأكبر (macrocosm) في عالمنا المعاصر؟ وبعبارةٍ أخرى: هل يمكن اعتبارها انعكاساً كلّياً للعالم الأصغر (microcosm) الذي هو في واقع الحال عالمٌ للنفس الإنسانية؟

2) هل يمكن اعتبار هذه الصور الأسطورية بأنّها علائمٌ مقدّسةٌ خاصّةٌ بالآلهة القابعة في الأرض والتي تعلّم الإنسان مبانيها الأخلاقية أو أنّها ترسلها له في إطار صورٍ مجسّمةٍ ثمّ تحلّق عائدةً إلى السماء؟

3) هل يمكن اعتبار الأساطير تراثاً رمزياً يصون الحقوق الطبيعية والميتافيزيقة للإنسان؟ أي هل يضفي صبغةً نوعيةً على مصيره وعلى المداليل التي يدركها ومن ثمّ يسوقه نحو نهايته السعيدة؟

4) هل يمكن اعتبار الأساطير صوراً دلاليةً لمختلف العوالم وكذلك للعالم الأصغر؟

5) هل يمكن البتّ بأنّ الأساطير تجسّد سلوكيات خاصّة لأحد أنماط الثقافة الإنسانية أو أنّها مجرّد صورةٍ سيكولوجيةٍ كلّيةٍ متعيّنةٍ بشكلٍ اجتماعي؟

الأساطير القديمة طبقاً للنظريات التي طرحها الباحثون ميرتشا إليادة وجوزيف كامبل والسدير ماكنتاير وكارل يونج وسيجموند فرويد، لها دورٌ أساسيٌّ في نشأة وتكامل مختلف الجوانب السيكولوجية للفرد والمجتمع ضمن جميع الثقافات والشعوب، وهذا التأثير النفسي لا يقتصر على العالم الغربي الحديث، لكن هناك بعض المواضيع الجديرة بالبحث بخصوص السيكولوجيا الغربية الحديثة وبيان مدى ارتباطها بالأساطير الإغريقية ضمن دراساتٍ تحليليةٍ.

*** نتيجة البحث:**

1) سيجموند فرويد تأثّر في نظرياته السكولوجية بالفلاسفة والباحثين الذين ذاع صيتهم في عصر التنوير الفكري الغربي من أمثال إيمانوئيل كانط وفريدريك نيتشه ويوهان جوته وفيودور دوستويفسكي، كذلك تأثّر بالأساطير الإغريقية القديمة بعد أن اطّلع على النتاجات الأدبية المتأثّرة بهذه الأساطير وبالأخص كتابات وليام شكسبير وسوفوكليس؛ لذلك طرح نظرياته على هذا الأساس.

2) الأحلام بحسب مبادئ سيكولوجيا فرويد تفسّر وفقاً للمفاهيم الأسطورية الإغريقية.

3) الخصائص الحيوانية والجنسية البحتة التي يتّصف بها الإنسان ضمن الصورة

المطروحة في عقدة أوديب، تحكي عن تلك الأساطير التي كانت شائعةً بين المجتمعات البشرية القديمة، مما يعني أنّها انعكاسٌ لطفولة البشريّة حينما كانت الغرائز الحيوانية هي التي تحكم سلوكيات الإنسان.

4) عودة فرويد في تأمّلاته الفكرية إلى عهد طفولة البشرية وعدم نضوجها الفكري، جعلته يطرح نظريات سيكولوجية تحليلية أحادية الاتّجاه، حيث تجاهل سائر الأبعاد النفسية التي واكبت الروح الإنسانية لسنواتٍ متماديةٍ.

5) عقدة أوديب على ضوء رؤيته الجنسية للإنسان، كان لها تأثيرٌ على شتّى التيارات الاجتماعية والثقافية والدينية في العالم الغربي.

6) نظرية اللاشعور التي طُرحت من قبل فرويد أسفرت عن حدوث تغييرٍ جذري في مبادئ علم النفس الشائعة في العصر الحديث.

7) كارل جوستاف يونج على ضوء ما طرحه في نظرياته السيكولوجية حول اللاشعور الجمعي والصور المثالية، تجاوز أطر نظرية فرويد الجنسية إلى حدٍّ ما، إلا أنّ منشأ مبانيه الفكرية في الواقع على غرار مباني فرويد، حيث تقوّمت على فكرة أنّ المفاهيم الأسطورية القديمة مترسّخةٌ في الذهن البشري، لكن غاية ما في الأمر أنّ يونج أكّد على الجانب المثالي للصور الأسطورية وفي هذا السياق سلّط الضوء على اللاشعور الجمعي، لذلك اعتبر المعرفة الجمعية المتقوّمة على الصور المثالية تعد مكملةً للمعرفة العقلانية.

بعد أن تجاوز هذا المفكّر أطر نظرية فرويد حول الهويّة الفرديّة، ركّز مواضيع أطروحاته على الهوية الجمعية.

8) بادر يونج إلى توسيع نطاق علم النفس التحليلي أسطورياً وتجاوز الحدود التأريخية.

9) جوزيف كامبل اعتبر ملحمة الأوديسة أنموذجاً بطولياً للنزعة التجدّدية الغربية.

10) أسطورة هرمس التي تمّ تأويلها وطرحها في إطار مداليل ووقائع متنوّعة، كان لها وقعٌ كبيرٌ على مختلف مبادئ علم النفس التحليلي الاجتماعي الحديثة.

11) ميرتشا إلياده أكّد على أنّ المواضيع الأسطورية تعيد نفسها باستمرارٍ في أعماق الروح الغامضة للإنسان الحديث، وعلى هذا الأساس تبقى الرموز الأسطورية مترسّخةً فيها ولا تزول أبداً، لكن غاية ما في الأمر أنّها تتغيّر على مرور الزمان.

المبحث الرابع: علم اللاهوت

أوّلاً: جينيالوجيا الآلهة الأسطورية في بلاد الإغريق

الشاعر هسيود أعار اهتماماً لجينيالوجيا الآلهة أكثر من سائر الشعراء والكتّاب الأسطوريين، والآلهة ليست هي التي خلقت الكون بحسب الأساطير الإغريقية القديمة، وإنّما تعتبر مخلوقةً ممّا يعني أنّ خلقة الكون طبقاً لهذه الأساطير سابقةٌ على خلقة الآلهة.

علماء الميثولوجيا الإغريق اعتمدوا على قدرة التصوّر التي امتلكوها لبيان حقيقة خلقة الكون، وهدفهم من ذلك هو إشباع رغبات إنسان ذلك العصر في التعرّف على حقيقة الخلقة.[1]

أسطورة الخلقة الإغريقية التي وصلتنا من تراث هسيود صوّرت عالم الخلقة بأنّه ابتدأ بظهور كائنٍ جبّارٍ من باطن العدم، والإنسان طبقاً لما ورد فيها ظهر إلى الوجود

[1]- Klatt & Brazooski 1994, Ancient Greek and Roman Mythology, Greenwood press, USA, p. 10.

من فراغٍ أرضي عظيمٍ، ثمّ نشأت بعض الكائنات البدائية مثل إيروس[1] (Eros) وأبيس (تارتاروس)[2] (Tartarus Abyss) وإيربوس[3] (Erbus).

وأمّا بالنسبة إلى الوقائع التي حدثت بعد ولادة الأرض، قال هسيود: إنّ الإله أورانوس (Uranus) (إله السماء) تزوّج الإلهة جايا[4] (Gaea) (الإلاهة الأرض) وأنجب منها الجبابرة (عرق التيتان)[5] (Titans) وهم ستّة رجالٍ وستّ نساءٍ أسماؤهم كالتالي:

- أوقيانوس Oceanus (أحاط بالعالم من جميع أكنافه)
- كويوس Coeus (القطب الذي تدور السماوات حوله)
- كريوسCrius (إله النجوم والرياح)
- هيبيريون Hyperion (إله النور)
- لابيتوس Iapetus (والد أطلس وبروميته وايبميته، وهو الحاكم في أعماق الأرض طوال العصر الذهبي)
- ثيا Theia (الإلاهة نور السماء المتألّقة وزرقتها)
- ريا Rhea (أمّ الآلهة والإلاهات في أوليمبيا)
- نيموسين Mnemosyne (الإلاهة الذكريات ومبدعة اللغة والكلمات)
- فيبي Phoebe (الإلاهة التكهّن والإلهام)

---

[1]- إيروس هو إله الحبّ المادّي (الدنيوي) وصاحب القدرة الطبيعية المبدعة، وهو الذي أوجد الأشياء وحبكها في نظم وترتيب ضمن هذا الكون.

[2]- أبيس أو تارتاروس هو إله أعماق الأرض التي يساق إليها الناس بعد الموت لنيل جزائهم من ثواب وعقاب.

[3]- إيربوس إله الظلام.

[4]- الإلاهة جايا هي الأمّ الكبرى.

[5]- التيتان هم أقوى الآلهة التي كانت لها السيادة طوال العصر الذهبي الأسطوري.

- تيثيس Tethys (إلاهة البحر)

- كرونوس Chronus (إله الزمن)

- سايكلوب ذو العين الواحدة (Cyclopes) (واحد من الكائنات العظيمة التي ترسل صاعقة زيوس التي تعتمد عليها الآلهة كسلاحٍ للدفاع عن التيتان)

- Hundred - Handers (أبناء أورانوس وجايا)

وأمّا الإله كرونوس الماكر والمخادع فهو أصغر أبناء الأرض وأسوأهم أخلاقاً وطباعاً، ومن جملة أفعاله القبيحة أنّه أعقم والده ثمّ أصبح حاكماً على الآلهة، بعد ذلك اختار التيتانيين وجمعهم في بلاطه بالتعاون مع زوجته ريا التي هي في الواقع أخته. بعد أن قام هذا المحتال بإعقام والده، تكرّرت هذه العملية من قبل سائر الآلهة مراراً وتكراراً، وإثر خيانته والده بحسب التفاصيل التي ذكرتها الأسطورة، فقد انتابته خشيةً من أبنائه بداعي أنّهم قد يفعلون به مثل ما فعل هو بوالده، لذلك كان يأكل كلّ طفلٍ ينجبه كي لا يكبر ويعقمه، وهذا السلوك جعل ريا تبغضه وتخفي الإله زيوس[1] (Zeus) عنه حينما ولدته، وبالفعل فقد نما وترعرع إلى أن حاربه ليصبح إثر ذلك إله الآلهة وملكهم، وقد أعانه في صراعه سايكلوب ردّاً للجميل لأنّ زيوس أنقذه من جبروت تارتاروس.

بعد أن انتصر زيوس على كرونوس والتيتانيين، زجّهم في السجن[2] وفي هذه الآونة استجاب الشاعر والمطرب السماوي أورفيوس (Orpheus) لدعوة هرمس وحاول أن يقلّل من وطء عصف الأعاصير وهدير البحار ويهدّئ من روع آلهة العالم السفلي.[3]

الباحث أنطوان فيفر قال: إنّ الأساطير الإغريقية صوّرت الآلهة وهم يدبّرون شؤون

---

[1]- زيوس هو إله الآلهة الذي يطلق عليه الرومان اسم جوبيتر.

[2]- Hesiod, Theogony, p. 713 - 735.

[3]- Homeric Hymn, p. 414 (http: // oracl.org / Hesiod / hymns.html)

العالم كالأطفال حينما يلعبون مع بعضهم، فالطفل لوحده غير قادرٍ على أن يزاول بعض الألعاب، كذا هو الحال بالنسبة إلى الإله، أي لا يمكن أن يترك وحيداً. الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه تطرّق إلى هذا الموضوع في كتابه "مولد التراجيديا"[1] مؤكّداً على ضرورة عدم اكتفاء الحضارة بإلهٍ واحدٍ، إذ لا بدّ لها من اتّباع جينيالوجيا الآلهة القدماء، وإضافةً إلى الاعتقاد بإله الآلهة زيوس يجب وأن يكون لها إلهان آخران مثل أبولو وديونيسوس. وعلى أساس هذه الأطروحة ادّعى أنّ نتيجة الاعتقاد بإلهٍ واحدٍ والسير على نهج التوحيد الديني، هي حدوث إطلاقٍ فلسفي خطير للغاية يحول دون التعامل مع شؤون الحياة بواقعيةٍ.[2]

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ جينيالوجيا الشاعر هسيود ضمن ملحمته الشعرية الشهيرة، تعتبر أكمل وأتمّ أطروحةٍ لصياغة الأساطير التي تتمحور مواضيعها حول الآلهة، لذا فهي تُعتبر أبرز أطروحةٍ في هذا المضمار؛ لكنّ مقدّمتها الطويلة ومواضيع الكثير من أشعارها قد فُقدت، حيث نسبت إلى عددٍ من الشعراء الأسطوريين الآخرين وعلى رأسهم أورفيوس وموسايوس وإبيمينيديس[3] (Epimendes) وأباريس (Abaris). الأشعار المذكورة كانت تُتلى في الطقوس الرمزيّة الإغريقيّة التي كانت شائعةً في العصور القديمة، حيث كان يراد منها تطهير الأرواح، وهناك وثائقٌ ومستنداتٌ أثأأأأأ

أثريّةٌ تدلّ على أنّ أفلاطون كان مطّلعاً على التفسير الجينيالوجي المطروح من قبل الشاعر الأسطوري أورفيوس، كما أنّ بعض هذه القطع الأثرية تضمّنت معلومات حول الأسئلة والاستفسارات التي طرحت من قبل الأفلاطونيين الجدد. وفي الآونة

[1]- Friedrich Nietzsche 1872, The birth of tragedy.

[2]- Antoin, Faiver 1995, The Eternal Hermes from Greek God of Alchemical magus with thirty nine plats, Trans. By Joscelyn Godwn, p. 75.

[3]- إبيمينيديس فيلسوف وشاعر إغريقي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

الأخيرة اكتشف علماء الآثار قطعات أثرية من ورق البردي في أحد الأقبية الإغريقية تثبت أنّ أورفيوس قد سبق هسيود في ذكر تفاصيل جينيالوجية ضمن أشعاره الملحمية خلال القرن الخامس قبل الميلاد، إذ تضمّنت هذه الأوراق أشعاراً ذات مضامين كوزمولوجية لاهوتية. الليل في هذه الأشعار وصف بأنّه نقطة انطلاق الوجود وأساسه، فهو كان موجوداً قبل خلقة أورانوس وكرونوس وزيوس.[1]

بعد سيادة التيتانيين، ولد اثنا عشر إلهاً إغريقياً وكان زيوس كبيرهم والمشرف عليهم، وهذا ما تفيده تفاصيل الميثولوجيا الإغريقية القديمة، حيث أشارت إلى أنّ زيوس كان مقيماً في أعلى قمّة جبل الأوليمب، فضلاً عن ذلك فقد اعتقد الشعب الإغريقي آنذاك بآلهةٍ أخرى متنوّعة الوظائف والصفات والسلوكيات إلى جانب هذه الآلهة الاثنتي عشرة، ومنها ما يلي:

- إله الماعز (goat god)
- إله الرعاة[2] (god pan)
- إلاهة الأرواح والأنهار (nymph)
- إلاهة الينابيع (naiad)
- إلاهة أرواح الشجر (dryud)
- إلاهة البحار البحار (nereid)
- إله الأنهار (styr)
- إله العالم السفلي المظلم (friny)
- إلاهة الانتقام (fairies)

[1]- Burkert Walter 1985, Greek religion, Harvard University press, p. 216.

[2]- هو إله الرعاة وسهام الصيد الصوفية والموسيقى والأرياف.

الجدير بالذكر هنا أنّ مهمّة إله العالم السفلي وإلاهة الانتقام هي التصدّي للمجرمين وعقابهم جرّاء ظلمهم وأفعالهم القبيحة.[1]

اليونانيون القدماء كانوا يرتادون معابدهم لأداء طقوسهم العبادية، حيث كانوا يتلون أشعاراً من ملحمة هوميروس ومقاطع دينية أخرى،[2] وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآلهة الإغريقية تمّ تصويرها على هيئة أجسامٍ مادّيةٍ ذات دلالات هادفةٍ ورمزيّةٍ ضمن التنوّع الأسطوري اللاهوتي المشهود في تلك الديار، وفي هذا السياق قال عالم الميثولوجيا الألماني وولتر بوركرت[3] (Walter Burkert) في بحوثه الميثولوجية أنّ الآلهة الإغريقية لم تكن مجرّد انعكاسات لآراءٍ كما أنّها ليست مفاهيم انتزاعية، بل تمّ تصويرها وفق ميزات بشرية.[4] والباحث مايلز أكّد بدوره على أنّ هذه الآلهة رغم اتّصافها بميزات بشريّة لكنّها كانت تمتلك قابليات خارقة بحيث لم يشوبها أيّ ضررٍ أو أذى ولم يكن للمرض سبيلاً للعروض عليها، وما كانت تفنى من الوجود إلا جرّاء ظروفٍ استثنائيةٍ غير طبيعيةٍ، ومع ذلك فهذا الفناء يتمّ تعويضه عن طريق أكل الطعام بشكلٍ متواصلٍ وتناول شرابٍ يجدّد الدم الألوهي في عروقها.[5]

كلّ إلهٍ أشارت إليه الأساطير الإغريقية قد ولد من أسلافٍ يناظرونه في الخلقة، وهذا الأمر أسفر عن حدوث اختلافٍ في الأذواق والعلاقات، فجميع الآلهة كانت لها أسماء وصفات خاصّة، لذلك امتازت عن بعضها البعض، فأبولو[6] (Apollo) على سبيل المثال كان زعيماً للآلهة في الطقوس التي كان يمارسها الناس آنذاك، وبعض

---

[1]- see: Greek religion 2002, Encyclopedia Britannica.

[2]- see: Greek religion 2002, Encyclopedia Britannica.

[3]- 1931 .

[4]- Burke, Peter 1985, Vico, New York, Oxford University, p. 182.

[5]- Miles, Geoffrey (1999) Classical Mythology in English Literature: A Critical Anthology, University of Illinois, Press, p. 38.

[6]- أبولو هو إله الشمس والنور والحقيقة.

الأساطير الإغريقية أشارت إلى أنّ هذه الآلهة تمتلك خصال وميزات خاصّة مثل أفروديت (Aphrodite) التي كانت إلاهةً للحب والجمال الأنثوي، وآريز (Ares) الذي كان إلهاً للحرب، وهادس (Hades) الذي كان إلهاً للموت، وأثينا التي كانت إلاهةً للعقل والشجاعة.[1]

بعض الآلهة مثل أبولو وإله الخمر ديونيسوس (Dionysus) تتّصف بميزات متضادّة، وأفعالها على هذا الأساس تتّصف بالتضادّ أيضاً، في حين أنّ بعض الإلاهات اقتصرن على ربوبية أمرٍ واحدٍ فقط، مثل هيستيا (Hestia) إلاهة المنزل وهيليوس (Helios) إلاهة الشمس.

أهمّ المعابد في بلاد الإغريق القديمة اختصّت بآلهةٍ محدّدةٍ، كما أنّ الكثير من المدن والمناطق تمّت تسميتها بأسماء أهمّ الآلهة، وتروي الأساطير الإغريقية أنّ البشر لم يكن لهم وجودٌ في عصر الآلهة، ولكن حينما خلقوا في العصور اللاحقة ضاق نطاق تصرّف الآلهة بالكون بعد أن كانت يدها مبسوطةً دون منازعٍ، أي إنّ البشر تسبّبوا بتحديد نطاق نفوذها.

الأساطير اللاهوتية التي تدور أحداثها حول ما جرى في الأيام الأولى من الخلقة والتي تمّ تصويرها في العبارات الاستعارية للشاعر الملحمي وكاتب الدراما الإيطالي بوبيلوس أوفيديوس[2] (Pubilus Ovidius) تنقسم في صنفين أساسيين، هما أساطير تتمحور حول الحبّ، وأساطير تحكي عن الجزاء والعقاب.[3]

الصنف الأوّل: أساطير الحبّ

أساطير الآلهة التي تتضمّن قصصاً عن الحبّ في ما بينها، غالباً ما تحكي عن

[1]- H. W. Stoll, religion and mythology of the Greeks, 20 ff.

[2]- 43 B. C. - 17 / 18 A. D.

[3]- Miles, Geoffrey (1999) Classical Mythology in English Literature: A Critical Anthology, University of Illinois, Press, p. 88.

العلاقات الجنسية بين المحارم أو خداع امرأةٍ دنيويةٍ من قبل أحد الآلهة الذكور أو اغتصابها، وثمرة هذه العلاقة ولادة أحد الأبطال الذي تمتزج في شخصيته ميزات الآلهة والبشر على حدٍّ سواء، وقصصٌ كهذه عادةً ما تكون نهايتها تراجيدية.

هناك أساطيرٌ نادرةٌ تحكي عن وجود علاقةٍ جنسيةٍ بين إلاهةٍ ورجلٍ من البشر، ومن أمثلتها ما روي في ملحمة هوميروس الشعرية وذلك حينما لجأت الإلاهة أفروديت إلى الكذب لخداع أنكسيس (Anchises) كي يضاجعها، حيث كانت ثمرة هذه العلاقة الجنسية ولادة بطل حرب طروادة أينياس (Aeneas).[1]

الصنف الثاني: أساطير الجزاء والعقاب

هذا الصنف من الأساطير ترتكز مواضيعه على قيام الآلهة بإنزال العقاب على الآثمين والمجرمين من أمثال بروميثوس (Prometheus) الذي هو أحد التيتانيين، أي ابن التيتان العملاق أيابيتوس والإلاهة تيميس، حيث تمرّد على إله الآلهة زيوس واختطف منه النار ليمنحها للبشر الذين هم عرضةٌ للفناء كي ينقذهم من الآلام والمعاناة، لذلك عاقبه زيوس أشدّ العقاب. والمثال الآخر على عقوبات الآلهة، ما حدث للإله تانتالوس[2] (Tantalus) حينما سرق خمر الآلهة وغذائهم من مائدة زيوس وأعطاه لمن هم تحت إمرته كي تنكشف لهم أسرار الآلهة.

الإلاهة ديميتر[3] (Demeter) هي الأخرى من جملة الشخصيات الأسطورية التي عوقبت من قبل الآلهة، وذلك لأنّها علّمت تربتولموس[4] (Triptolemus) طريقة

[1]- Homeric Hymn to Aphrodite, p. 75 - 109. (Http: // courses, doc Harvard. Edu / - class 116 / txt - Aphrodite. Html)

[2]- تانتالوس كان حاكمًا لإحدى مدن غربي الأناضول، وقد جاء اسمه في الأساطير الإغريقية القديمة باعتباره ابناً للإله زيوس.

[3]- ديميتر هي إلاهة الطبيعة والزراعة والحصاد والخصوبة والأرض والفصول وقدسية الزواج ومختلف شؤون الحياة والموت.

[4]- تريبتوليموس هو الإنسان الأوّل.

الزراعة وأسرارها، كما أنّ الحكيم والفنّان مارسيوس تعرّض للعقاب أيضاً لكونه نافس أبولو إله الشمس والنور والموسيقى والفنّ، وكانت هذه المنافسة في الموسيقى.

استناداً إلى ما ذكر من أمثلةٍ حول عقوبات الآلهة الإغريق لمن تمرّد على تعاليمهم وخرج عن مقرّراتهم الخاصّة، يمكن القول أنّ أسطورة بروميثوس تعدّ نقطة تحوّلٍ بين سيادة الآلهة وسيادة الإنسان،[1] وهناك قطعةٌ أثريّةٌ لبابيروس يعود تأريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد فيها نقوشٌ تصوّر كيف أنّ الملك تراس يعاقب من قبل الإله ديونيسوس.[2]

وإحدى القصص التراجيدية الإغريقية (Euripides the Baechus) تصوّر أنّ يوربيديس قد عاقب ملك طيبة لايوس (Laius) بتهمة التعدّي على حرمة ديونيسوس.[3] وأمّا الخبير بالدراسات الأدبية الإغريقية والرومانية فيرنر جايجر فقد ذكر في بحوثه التأريخية أنّ حاكم أثينا الجبّار كريتوس دوّن قبل تولّيه زمام الحكم نصّاً مسرحياً حول فينوس، ومن جملة سيناريو هذه المسرحية كلامٌ لإحدى الشخصيات فحواه أنّ رجال السياسة العظام هم الذين ابتدعوا الآلهة لأجل إضفاء اعتبارٍ على القوانين التي يقرّنونها لرعيتهم، حيث كان الملوك يخوّفون الناس من سخط الآلهة وعقابها في ما لو ارتكبوا أفعالاً تتعارض مع قوانينهم، فالآلهة بإمكانها معاقبتهم حتّى وإن لم يوجد شاهدٌ على ما ارتكبوا. وعلى هذا الأساس لقّنوا الناس أفكاراً تجعلهم يشعرون بوجود الآلهة في كلّ مكانٍ وأنّها تراقبهم وتنظر إلى جميع حركاتهم وسكناتهم.[4]

---

[1]- Morris Ian, Archology as cultural history, Amazon, p. 291.

[2]- Weaver John B. 2004, Plots of Epiphany, Christopher Schneider, Berlin, p. 50.

[3]- Trobe Kala 2002, Invore the Gods, Francis and John Rivington, p. 195.

[4]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 440.

ثانياً: الآلهة الأسطورية ومسألة الخلقة

لو تتبّعنا أساطير الآلهة ولاحظنا تفاصيلها بشكلٍ إجمالي، نجد أنّ قدماء الإغريق كانوا يعتقدون بأنّ السماء والأرض كانتا موجودتين قبل ظهور الآلهة، كما أكّدت هذه الأساطير على أنّ الآلهة الأكثر سنّاً ذات أهميةٍ أكبر من غيرها، لذا يمكن وصف آلهة الأساطير الإغريقية بأنّها تيتانيّةٌ أنجبت الذرّية البشرية.

وما جاء في هذه الأساطير أنّ الإله كرونوس الذي يطلق عليه في اللغة اللاتينية اسم ساتورن (Saturn) كان حاكماً على التيتانيين الأوائل حتّى أُطيح بحكمه من قبل ابنه زيوس الذي استولى على الحكم بعده.

الرومان يعتقدون بأنّ جوبيتر أو زيوس حينما جلس على العرش، استعدّ ساتورن للتحليق نحو إيطاليا، وحينما وصل هناك ابتدأ معه العصر الذهبي الذي شاع فيه السلام والأمن في جميع أكناف تلك الديار. بعد ذلك اقترع زيوس وإخوته لتقسيم العالم في ما بينهم وتعيين حصّة كلّ واحدٍ منهم، وتمخّض عن ذلك أنّ البحار أنيطت لأعظم إلهٍ فيهم ألا وهو زيوس نفسه الذي كانت له السيادة أيضاً على السماء والسحب والمطر والصواعق المرعبة، وتروي ملحمة الإلياذة بأنّه خاطب جمع الآلهة قائلاً: «أنا أقوى منكم جميعاً، لذا ليس بإمكانكم تجريدي عن عرشي». لكن رغم قدرته العظيمة ووصفه بأنّه إله الآلهة، فهو لم يكن يمتلك علماً، أي أنّه كان مقتدراً وعظيماً لكنّه لم يكن عالماً، لذلك أكّدت الإلياذة على أنّه خدع من قبل بوسيدون (Poseidon) وهيرا[1] (Hera) فسلبت منه ربوبيّة البحار لتصبح تحت إمرة بوسيدون.

وتفيد الأساطير الإغريقية أنّ كبير الآلهة زيوس وأبرزهم - زيوس - كان ذا جلالٍ وشأنٍ ورفعةٍ، ولم يكن ينفكّ عن عشق النساء بحيث اعتاد على خيانة زوجته، والإلياذة أشارت إلى أنّ الملك أجاممنون كان يقول في تهجّداته العبادية أنّ زيوس

[1]- هيرا هي إلاهة النساء والزواج.

الذي كان يقطن السماء هو أعظم وأجلّ إلهٍ للأعاصير والسحب. وأمّا الكهنة فقد كانوا يعرفون ما يريده منهم زيوس من خلال تفسيرهم للأصوات الصادرة من حفيف ورق شجر البلوط.[1]

على الرغم من أنّ إله الآلهة زيوس كان في غاية القدرة والنفوذ، إلا أنّه لم يكن ذكياً كما ينبغي، وفي هذا السياق دلّت الأساطير على أنّ هرمس كان أذكى آلهة جبل الأوليمب وأكثرهم حنكةً وبراعةً، وممّا قيل بهذا الخصوص ما يلي: روي في الأساطير أنّ هرمس سرق غنم الإله أبولو، ولـمّا أرغمه زيوس على إرجاعها بادر إلى تلاوة شعرٍ غنائيٍّ لأبولو فجعله ينساها ثمّ أخرج الغنم من قوقعة سلحفاة، لذلك وصفته الأساطير الإغريقية بأنّه إلهٌ مشعوذٌ.

هذا الإله الذكي والبارع هو إله التجارة والأسواق، إذ كان يحفظ التجّار، وإضافةً إلى قابلياته هذه فقد امتلك شخصيةً ملؤها الوقار، فهو الذي كان يرشد أرواح الموتى إلى مقامهم في الحياة الأخرى.[2]

وأمّا أهمّ دورٍ لهذا الإله، فهو كونه مبعوثاً من قبل الآلهة إلى البشر، وهذه المهمّة كانت توكل أحياناً إلى الإله ديونيسوس الذي امتلك القدرة على الإلهام لهم، إلا أنّ تصرّفاته كانت تتناقض مع مهامّ هرمس، فهو إله الخمر الذي اتّصف بالرأفة ولم يكن يبخل عن الناس بمنحهم اللذّة والراحة، لكنّه مع ذلك كان يقسو أحياناً ويبطش بهم كالوحش الكاسر؛ وهذه الميزة تتناسب مع ما ينتاب الإنسان من حالاتٍ عند شرب الخمر، أي أنّ الخمر يجعل الإنسان متناقضاً في تصرّفاته بحيث يتعامل بازدواجيةٍ مع الأمور.

إذاً، ديونيسوس كانت له القدرة على توجيه الرجال نحو ارتكاب الجرائم والقيام

[1]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 27.

[2]- Ibid, p. 37.

بأعمالٍ قاسيةٍ تجاه أقرانهم البشر، وفي الحين ذاته كان قادراً على منحهم إلهاماً غيبياً.[1]

ومن جملة ما نقرؤه في مدوّنات مؤرّخ الأديان المعاصر والخبير في الميثولوجيا والفلسفة الرومانية ميرتشا إلياده، أنّ أساطير الخلقة في التراث الإغريقي قد أسفرت عن حدوث غموضٍ، بل حالت دون وضوح الأمور بحيث وصفت الكائنات العملاقة وكأنّها عوالمٌ متنوّعة. وأشارت إلى أنّ الخلقة قد بدأت من مركزٍ معيّنٍ وتنوّع الوجود انتقل من تلك الجمادات التي لا روح فيها إلى ذي الروح، ومن هذا المنطلق صوّرت البيئة المقدّسة للآلهة في إطارٍ رمزيٍّ وكأنّه مركزٌ للكون والوجود، وفي ما بعد تحوّل هذا التصوير الأسطوري إلى مادّةٍ دسمةٍ للسحرة والمشعوذين. ومن جملة ما طرح في هذه الأساطير أنّ المدن الموجودة في الأرض تتناسق في هيئتها مع مدن السماء، لذلك استغلّ السحرة والمشعوذون هذه الظاهرة في التكهّن كي يطّلعوا على أحوال السماء وأوضاعها، أي إنّهم قارنوا ما يحدث على الأرض مع ما يعتقدون أنّه يحدث في السماء، كما أنّ المناسك والشعائر الدينية كانت تزاول وفق صورتها السماوية مثلما كان يُتصوّر.

وأمّا الأصول والقواعد المتعارفة في الطقوس الدينية والتكهّنات التي شاعت آنذلك، فهي تتقوّم على ما يلي:

1) كلّ خلقةٍ في هذا العالم هي عبارة عن ثمرةٍ وفيضٍ للعوالم السابقة، أي إنّها تكرار لما سبق.

2) أصل وأساس كلّ أمرٍ أرضي منشؤه السماء التي هي في الواقع مركز العالم ومحور الوجود، وذلك لأنّ الخلقة انطلقت من مركز العالم وسارت بشكلٍ نزولي نحو العالم الأرضي.[2]

---

[1]- Ibid, p. 61.

[2]- Eliade, Mercea, 1959, Cosmos and History (the Myth of Eternal Return, Trans. From the French by Willard R. Trask, Haper Torch Books, New York, p. 18.

طبقاً لهذه الصورة المطروحة حول الخلقة والحياة، ينبغي للإنسان أن يفعل ما فعلته الآلهة في باكورة الخلقة،[1] والفيلسوف الإيطالي جيامباتيستا فيكو اعتبر بدوره الشعراء الأسطوريين القدماء أفضل أنموذجٍ للإبداع[2] لأنّهم كانوا يتصوّرون كلّ شيءٍ في أذهانهم قبل أن يعتقدون به ويؤمنون بوجوده، ومن أمثلة ذلك تصويرهم السماء في أساطيرهم الشعرية وكأنّها كائنٌ ضخمٌ ذو صفاتٍ حيوانيةٍ، وعلى هذا الأساس زعموا أنّها أوّل وأعظم الآلهة.

طبقاً لهذه الأطروحات الفكرية التي جادت بها قريحة الشعراء الأسطوريين القدماء في بلاد الإغريق، لا نبالغ لو قلنا أنّ الفضول المعرفي لأبناء المجتمعات الإنسانية البدائية قد أثمر عن انفتاح الذهن البشري وظهور مختلف العلوم، وأمّا في المرحلة اللاحقة فقد تمخّض عن ذلك دعوة الناس إلى عبادة زيوس أو جايا عن طريق إحياء أحاسيسهم ومشاعرهم الدفينة في أبدانهم. وهذا الإله الأوّل رغم أنّه المبدع للحياة والخالق للكون، لكنّه كان مرعباً ومخيفاً.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ البشر الأوائل كانوا يعتبرون الإلاهة جايا موجودةً في كلّ مكانٍ وكلّ شيءٍ، أي إنّ كلّ ما هو موجودٌ في الكون زاخرٌ بجايا في وجوده[3] مماّ يعني أنّهم كانوا يعتقدون بوجود إلهٍ لكلّ شيءٍ.

ومن جملة الآراء التي ساقها جيامباتيستا فيكو أنّ جميع أنواع العلوم والمهارات والفنون والثقافات البشرية تضرب بجذورها في الأساطير القديمة، وعلى هذا الأساس وصف جايا بكونها إلهامٌ لاهوتيٌّ شاعريٌّ باعتبارها إلاهة العظمة والسموّ، وقال بأنّ

---

[1]- Jung Carl G. 1972, Man and his symbols, Adults books limited, London, p. 107 - 108.

[2]- كلمة «شاعر» في اللغة اليونانية تعني الخلق والإبداع.

[3]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. by From the Itallian by Max Harold fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 75 - 76.

لغتها التي تنطق بها هي ذات عالم الطبيعة الذي نتج عنه العلم بفضل المشيئة الإلهية.

لغة الآلهة باعتقاد البشر الأوائل هي لغةٌ غيبيّةٌ أطلق عليها الإغريق عنوان «ثيولوجيا» الذي يعني علم لغة الآلهة، وأمّا الثيولوجيا الميثولوجية فقد كانت تدلّ على لغة جايا المتجسّدة في الصواعق والرعد والبريق، أي أنّه كانت عبارة عن وسيلةٍ للعقاب.

وأكّد فيكو أيضاً على أنّ الأشعار الأسطورية هي المنشأ الأساسي لجايا، وهذا الكلام يشير إلى كون العقل الشعري قد ابتدأ مع انطلاق الأفكار الشعري التي تمحورت مواضيعها حول شؤون ما بعد الطبيعة، فالشعراء آنذاك كانوا عقلاء يفقهون لغة الآلهة الأسطوريين[1] وعلمهم أطلق عليه عنوان ميوز (muse) حيث اعتبره الشاعر الملحمي هوميروس علماً للخير والشرّ، ومن هذا المنطلق ظهر اللاهوت الخفي، وتدلّ الدراسات والبحوث المدوّنة حوله أنّ تقديس الآلهة التي ابتدعتها قرائح الشعراء وسائر الكتّاب الأسطوريين، يضرب بجذوره بحالات الرعب والخوف التي كانت تكتنف الناس آنذاك، أي أنّ خشيتهم كانت السبب في ابتداع الآلهة وتقديسها.[2]

فضلاً عمّا ذكر فالعقل برأي البشر الأوائل دلّ على معنى عملي تطبيقي، وتأسيساً على هذا التفسير قال جيامباتيستا فيكو إنّ القدماء تبنّوا نهجاً فكرياً عقلياً متقوّماً على ما أقرّه لهم رجال القانون المنحدرين من عامّة الناس، وهؤلاء هم الذين أرسوا دعائم النسل البشري، وهذا النمط الفكري العقلي يختلف عن الأفكار الرمزية التي طرحت من قبل الفلاسفة الرواقيين.

خلاصة الكلام أنّ أهمّ وأشهر الفلاسفة الذين عرفهم التأريخ قد اكتسبوا معلوماتهم من الأساطير الإغريقية والرسوم الهيروغليفية المصرية.

---

[1]- Ibid, p. 67.

[2]- Ibid, p. 78.

لا نبالغ لو قلنا أنّ الاعتقاد بقدرة الآلهة ضمن الأساطير القديمة هو المنشأ الأساسي للعلم البشري، والهدف من هذا الاعتقاد هو الحفاظ على سلامة الإنسان والبحث عن قدرةٍ عظيمةٍ في ما وراء عالم الطبيعة. والعلم بكلّ تأكيدٍ يمكّن الإنسان من الصمود أمام القدرة المدمّرة لجايا والمتمثّلة بالرعد والبرق والصواعق، ومن ثمّ يفسح له المجال لأن ينعم بحياةٍ ملؤها الراحة والرفاهية والطمأنينة.

إذاً، الثيولوجيا العقلانيّة الشاعريّة وليدةٌ لقدرة الآلهة، وهذا ما نستلهمه من الأساطير الإغريقية القديمة، بينما العلم بحسب هذه الأساطير فهو عاملٌ لاقتدار الإنسان وصموده مقابل الإرادة العظيمة والمدمّرة للآلهة.[1] والباحث فيكو لدى دراسته أحداث ملحمة الأوديسة استنتج أنّ المبادئ الأخلاقية المدنية قد ابتدأت بالتورّع عن القيام ببعض الأفعال، إذ إنّ الورع برأيه يُعتبر بنيةً أساسيةً لجميع الفضائل الاقتصادية والمدنية، والدين بدوره يضطرّ الإنسان للالتزام بالورع، وذلك لأنّ الخشية من عقاب الآلهة تحول دون الوقوع في الخطأ وارتكاب المعاصي والتجاوز على حقوق الآخرين، وفي هذا المضمار قال أيضاً إنّ البشر الأوائل كانوا يصوغون كلّ شيءٍ بحسب تصوّراتهم الخاصّة، وهذا الإبداع الذهني برأيه ذو نطاقٍ واسعٍ للغاية يعمّ حتّى الآلهة،[2] لذا يمكن القول أنّ الآلهة الأسطورية الإغريقية بحسب نظرية هذا الفيلسوف الإيطالي، وليدةٌ لتصوّرات الناس الأوائل.

الباحث الروماني الشهير ماركوس تيرينتيوس فارو[3] (Marcus Terentius Varro) وصف الدينَ بكونه مؤسّسةً إنسانيةً تهدف إلى الحفاظ على الخير في المجتمع، وقد تطرّق إلى تتبّع جذور الشعائر والطقوس الدينية ضمن أحد مؤلّفاته التي فُقدت ولم تصلنا. القدّيس أغسطينوس في كتابه "مدينة الإله" أشار إلى الرؤية العامّة التي تبنّاها

---

[1]- Ibid, p. 79 - 80.

[2]- Ibid, p. 129.

[3]- 27 B. C. - 116 B. C.

هذا الباحث الروماني، وقال في هذا المضمار إنّ البشر الأوائل كانت تنتابهم خشيةً من الآلهة جرّاء المعتقدات الخرافية التي سادت في مجتمعاتهم، بينما الإنسان المتطوّر يعتبر الآلهة أنموذجاً متكاملاً ومقدّساً، وعلى أساس هذه العقيدة يُكنّ لها التقدير.[1]

أغسطينوس ذكر ثلاثة أنواعٍ من الآلهة في كتابه المذكور، وهي كالتالي:

1) آلهة الطبيعة: يتمّ تصوير الآلهة على هيئةٍ بشريةٍ، وهي تتعدّد مع تعدّد الظواهر الموجودة في الحياة والكون، مثل السماء والأرض والشمس والقمر ومختلف الأحداث الطبيعية.

2) آلهة الشعر: ابتدع الشعراء الماجنين آلهةً متجوّلةً بهدف تحريك مشاعر الناس وإثارة شهواتهم.

3) آلهة المدُن: انتشرت بين الناس معتقدات بهذه الآلهة التي تسنّ القوانين المقبولة عقلياً بغية منح الناس وعياً وطمأنينةً.

بناءً على ما ذكر يبدو أنّ الدايزم والألوهية البشرية والطبيعية والعقلية، ومختلف المعتقدات الإلحادية السائدة في مجتمعاتنا خلال هذا العصر، تضرب بجذورها في اللاهوت الإغريقي القديم، ولو تتبّع الباحث جذور الإلحاد الشائع اليوم بدقّةٍ وإمعانٍ، سوف يجدُ بصمات بعض الشخصيات التي ساهمت في ذلك، كالشعراء من أمثال الشاعر الأسطوري الروماني لوسيان[2] (Lucian) الذي سخر بالآلهة، لكن مع ذلك حملت لنا أشعاره معلومات مفيدةً بخصوص الآلهة التي ذاع صيتها في الأساطير الإغريقية.[3]

وممّا ذكره هاملتون أيضاً أنّ الشعراء والكتّاب الأسطوريين من أمثال الشاعر

---

[1]- Walsh, P. G (1972) The Nature of Gods (Introduction), xxvi.

[2]- 125 - 180 A. D.

[3]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 22.

الإغريقي ثيوقريطس (Theocritus) الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، لم يكونوا سذّجاً مثل الشاعر هسيود وبنداروس، حيث طرح نظريته الدينية بأسلوبٍ دقيقٍ ورائعٍ ضمن أشعارٍ يطغى عليها الطابع التراجيدي. ومن الشعراء الإغريق الذين ساهموا أيضاً في خلق الأساطر اللاهوتية، الشاعر الغنائي الشهير لوشيوس أبوليوس[1] (Lucius Apuleus) المولود في الجزائر، لكنّه قضى غالبية حايته في إيطاليا واليونان ولا سيّما مدينة أثينا، وهناك تشابهٌ كبيرٌ بين آثاره وآثار الشاعر أوفيديوس.[2]

ثالثاً: بصمات الأساطير الإغريقية في اللاهوت الغربي

المبادئ الأسطورية التي خيّمت على الفكر الغربي تناظر فهم الفيلسوف الإغريقي سقراط لما تضمّنته أساطير أسلافه من قضايا حول الآلهة والأبطال، وهذا الفهم بطبيعة الحال متقوّمٌ على أصولٍ وقواعد فلسفية، لذا فهو على غرار ما ذهب إليه أتباع فكر الكاتب الأسطوري الإغريقي يوهيميروس القوريناني[3] (Euhemerists) حيث اعتبروا الشخصيات الأسطورية بأنّها شخصيات تأريخيةٌ عقلانيةٌ، وقد كان لفكرهم تأثيرٌ بالغٌ على الأسلوب المتّبع في التفسير المعاصر للمعتقدات الدينية.

يوهيميروس أكّد على أنّ الكثير من الأساطير الإغريقية لا يمكن تفسيرها على أنّها مجرّد انعكاساتٍ لحوادث طبيعية، وذلك لكونها نقلت في إطار حكايات أسطوريّةٍ ميتافيزيقيةٍ،[4] كما أنّ أتباع فكر سقراط والأفلاطونيين الجدد، طرحوا متبنّياتهم الأخلاقية وصاغوا نظرياتهم في هذا الصعيد وفق أسلوبٍ لغوي وتتبّعوا هذا الأمر حتّى جذوره التي ادّعوا أنّها ترجع إلى الفكر الميثولوجي الإغريقي.

[1]- 125 - 180 A. D.

[2]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 22.

[3]- Euhemerists حيث عرف فكره باليوهيمرية ، نسبةً إلى يوهيميروس القوريناني Euhemerus.

[4]- Spyridakis 1968, Zeus is Dead: Euhemerus and Crete, The classical jornal, p. 338.

والأبيقوريون بدورهم لجؤوا إلى مبادئ ميثولوجيا الشاعر والفيلسوف الروماني تيتوس لوكريتيوس وحاولوا إزالة خوف سكنة المدن من القصص والأساطير والشخصيات الخرافية، ومن ثمّ شجّعوهم على اتبّاع نهجٍ إيديولوجيٍّ عقلانيٍّ في التعامل مع الظواهر السائدة في الحياة.[1]

وأمّا الباحث جيامباتيستا فيكو فقد استنتج وجود ثلاثة أنواعٍ من اللاهوت ضمن دراساته وبحوثه الميثولوجية، وهي كالتالي:

1) لاهوت شعري يعتبر أساساً لاهوتياً لجميع الأمم والشعوب البدائية من البشر.

2) لاهوت طبيعي يعتبر أساساً للاهوت الميتافيزيقي الذي سلكه جميع علماء الميتافيزيقا.

3) لاهوت مسيحي تمتزج فيه المبادئ اللاهوتية العاطفية والطبيعية.

الجدير بالذكر هنا أنّ اللاهوت المسيحي يوحّد جميع أنواع اللاهوت تحت مظلّة الوحي وضمن خطاب القدرة الإلهية.

المجتمعات البشرية بناءً على ما ذكره فيكو تكوّنت على أساس مبادئ اللاهوت الشعري، حيث كانت الآلهة تلهم البشر الشعر ومن ثمّ صقلت عقولهم وخلّدتها وفق مبادئ اللاهوت الطبيعي، ثمّ أفاضت عليهم الوحي في رحاب اللاهوت المسيحي الذي اتّسم بالفضيلة وتضمّن معتقدات ميتافيزيقية.[2]

إلى هنا تمّ تتبّع جذور دور الربّ في تغيير مصير البشر حتّى العصور الأسطورية، لكنّ بعض الأساطير الإغريقية بقي دور الآلهة في تقدير مصير بني آدم محفوفاً بحالةٍ

---

[1]- Walsh P. G. 1972, The nature of Gods (introduction), p. xxvi.

[2]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. by From the Itallian by Max Harold fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 72.

من الغموض بحيث لا يمكن لأحدٍ فهم ما إن كان إله الآلهة زيوس قادراً على تغيير مصيرهم أو لا! مثلاً حينما كان من المقرّر أن يقتل ابنه ساربيدون (Sarpedon) والذي كان إلهاً غير خالدٍ في الحرب التي يتزعّم طرفها الآخر باتروكلوس، قال: «لقد اقتضى القدر مقتل أعزّ الرجال الذي هو ساربيدون، بيد باتروكلوس»، فسألته هيرا قائلةً: «هل تريد إنقاذ حياة رجلٍ فانٍ خاضعٍ لحكم القدر وتروم تحرّره؟!»، لكنّه أجابها: «كلا، هذا الأمر ليس ممكناً، فلم نتّفق نحن الآلهة معك حول هذا الأمر».[1]

بناءً على ما ذكر يبدو أنّ زيوس بحسب الأساطير الإغريقية قادرٌ على تغيير القدر، لكنّه لم يكن يفعل ذلك، ولكنّه حينما فعل ذلك بإعادة الحياة لأنيتس، واجه اعتراضاً شديداً من قبل آشيل خيرون. ثمّ غيّر ما كان مقدّراً لأنيتس.[2]

إضافةً إلى ما ذكر نلاحظ في ملحمة الإلياذة أنّ باتروكلوس أشار إلى مصيره المقدّر من قبل الآلهة، حيث كان محكوماً بالقتل على يد آشيل خيرون، لذا رغم أنّ دور الآلهة الأسطوريين في تعيين المصير لم يكن واضحاً، إلا أنّنا لو أمعنّا النظر في الأساطير القديمة سنلمس فيها بعض الأمور التي تمّ إقرارها مسبقاً، وهذا يعني أنّ شخصياتها حتّى وإن كانت تمتلك إرادةً حرّةً، لكنّ المصير المحتوم لكلّ حدثٍ قد أقرّ من البداية.[3]

لو تتبّع الباحث اللاهوتي الذي بسط نفوذه بعد عصر التجدّد الغربي وثبت له أنّه يضرب بجذوره في الأساطير الإغريقية، سوف يستكشف الجانب المشترك بين اللاهوت الغربي الجديد واللاهوت اليوناني القديم؛ وهذا الجانب المشترك يتمثّل في الرؤية الإنسانوية الموجودة في كلا التيارين الفكريين، وفي هذا السياق قال الباحث فيرنر

---

[1]- Homer, The Iliad, trans. Richmond Lattimore (1951), university of Chicago press (in 1961), 22, 278 - 81.

[2]- Ibid, 20, 300 - 4

[3]- see: Porter John, (8 may 2006), The Iliad ad oral formulaic poetry, university of Saskatchewan.

جايجر إنّ الصورة التي طرحها هوميروس للكون فحواها مركزية الإنسان فيه،[1] بينما الشاعر هسيود تبنّى نظريةً مختلفةً عمّا تبنّاه هوميروس، ونظريته هذه متقوّمة على رؤيته التأريخانية العقلانية، فقد ميّز بين الإنسان والعنصر الديني في الشعر الحماسي بحيث سلّط الضوء على المسائل الدينية بشكلٍ مطلقٍ، لذا يمكن القول أنّ الفكر الألوهي الشائع في العصر الحديث يضرب بجذوره في لاهوت هذا الشاعر القديم.

الوجهة اللاهوتية الثالثة التي شاعت في بلاد الإغريق القديمة، هي تلك الرؤية التي تبنّاها علماء الطبيعة، إذ تبنّوا رؤيةً عقلانيةً على صعيد الفكر اللاهوتي، وقد ظهر هؤلاء بعد عهد هوميروس وهسيود، حيث وصفوا الطبيعة بأنّها ذات طابعٍ إلهي، لذا يمكن اعتبار هذه الرؤية بأنّها البنية الأساسيّة للدايزم الذي يُعتبر الدين على أساسه ذا طابعٍ عقليٍّ طبيعيٍّ، وقد اعتقدوا بوجود إلهٍ واحدٍ هو ربّ الأرباب رغم أنّ فلاسفة الطبيعة الإغريق وصفوا الطبيعة بأنّها تتقوّم ذاتياً على العديد من الآلهة بحيث لا تنفكّ عنها مطلقاً.[2]

لو تتبّعنا آثار أبرز ثلاثة أساتذةٍ للفنّ التراجيدي الإغريقي القديم، لوجدنا أنّ بعض النظريات اللاهوتية الحديثة قد تأثّرت بها؛ وهؤلاء الأساتذة هم:

1) آخيل (أخيليوس) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد متأثّراً بالمعتقدات الدينية الشائعة في زمانه، وقد كان واحداً من الأبطال الأسطوريين بحيث امتلك قدرةً عظيمةً مصدرها إيمانه الراسخ بالعقل الإلهي الحاكم على حياة البشر، وهذه الميزة أثارت في نفسه الخشية باعتباره إنساناً والشعور بالمواساة لأقرانه البشر والشفقة عليهم فأدرك الطابع المؤلم في مسيرة حياتهم.

[1]- Jaeger, Werner (1960) “Humanistische Reden und Vorträge”, walter De Gruyter & Corberlin, p. 378 - 379.

[2]- Ibid.

2) سوفوكليس، وهو أكثر تأثيراً من أخيليوس ويوربيديس، وقد اتّصفت رواياته المسرحية التراجيدية بالتوازن بين الخصال الإنسانية والإلهية؛ ومن جملة معتقداته أنّه لم يتردّد مطلقاً في صفة الشرّ التي استودعها الربّ في أنفس البشر، لكنّه مع ذلك كان يبجّل العظمة الإلهية التي لا يمكن للإنسان بلوغها بتاتاً حتّى وإن كان أفضل البشر، لذا أقرّ بأنّه لا يمتلك القابلية على الصراع مع الربّ وحتّى إنّه لا يرغب بذلك.

ذوق سوفوكليس الفنّي تمحور حول الإنسان الذي اعتبرة ذا عظمةٍ محفوفةٍ الآلام وحياةٍ مأساويةٍ تراجيديةٍ.

3) يوربيديس يعتبر فنّاناً جسّد القابليات العظيمة للإنسان، وهو أحد الشكوكيين الذين عاصروا بروتاغوراس.

المؤرّخ الشهير في تلك الحقبة من التأريخ ثوسيديديس[1] (Thoukydides) لم ينقل أحداث الحرب البلوبونيزية إلا لسببٍ واحدٍ، وذلك لكونها أسفرت عن اضمحلال قدرة إمبراطورية الأثينيين وزوال مجتمع الإيمان والأخلاق في بلاد الإغريق؛ وقد تبلورت في آثاره فكرة أنّ النزعة الطبيعية هي القوام الأساسي للحياة.[2]

نستنتج ممّا ذكر وجود ثلاثة آراء بخصوص ارتباط الإنسان بالوجود المتعالي في الحقبة الأسطورية التي مرّت بها بلاد الإغريق القديمة، وهي كما يلي:

الرأي الأوّل: الإنسان عبارةٌ عن بطلٍ يمتلك خصالاً إلهيةً حسنةً، لكنّه يمكن أن يقهر من قبل تلك الإرادة التي تضرب بجذورها في العقل والحكمة الإلهيين، وهذه الرؤية تتناغم مع ما تبلور في آثار أخيليوس بداعي أنّ الإنسان متأثّرٌ بالشرّ الإلهي.

الرأي الثاني: إرادة الإنسان تتجاوز حدود التبعية البحتة بحيث لها القابلية على

[1]- 395 - 460 B. C.

[2]- Jaeger, Werner (1960) “Humanistische Reden und Vorträge”, walter De Gruyter & Corberlin, p. 318.

أن تتطابق نسبياً مع الإرادة الإلهية، والميزات الإنسانية حسب هذه الرؤية تتناغم مع الميزات الإلهية.

الرأي الثالث: الرؤية الطبيعية التي يعتبر من يتبنّاها الإنسان بكونه محوراً ارتكازياً في الكون، ونتيجة هذا الرأي بطبيعة الحال هي القول بنسبيّة الكون. وهذا ما تبنّاه يوربيديس في آثاره الفنّية، حيث صوّر الكون في رواياته المسرحية التراجيدية بطابعٍ إنسانيٍّ بحتٍ وليس تابعاً لأيّ قدرةٍ كانت، حتّى إنّه اعتبره حرّاً وغير مقيّدٍ بالتعبّد لذلك الكائن المتعالي.[1]

ذكرنا آنفاً أنّ بعض علماء الميثولوجيا من أمثال جيامباتيستا فيكو، اعتبروا الآلهة الأسطوريين ليست سوى وجوداتٍ من صياغة أذهان البشر الأوائل، ونظير هذه الرؤية نجدها شائعةً بين فلاسفة التجدّد الأوروبي من أمثال أوجست كونت وفويرباخ وفريدريك نيتشه وجان بول سارتر، فضلاً عن ذلك فإنّ هؤلاء الفلاسفة ذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا الله أيضاً مجرّد وجودٍ صاغه الذهن البشري - وجود ذهني (subjective) - لذا فهو متقوّمٌ على هذا الذهن فحسب.[2]

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الفيلسوف الهولندي دسيدريوس إراسموس (Desiderius Eramus) كان أحد أبرز المفكّرين الذين تركوا بصماتهم في الساحة الفكريّة الغربيّة إبّان عصر النهضة في أوروبا، فقد كان فيلسوفاً لاهوتياً أكّد على ضرورة اتّصاف الأعمال الدينية الصحيحة باللجوء إلى «كلمة الله» ومكاشفات الوحي في الكتاب المقدّس في منأى عن وساطة القساوسة وأرباب الكنائس، إضافةً إلى ذلك أكّد على ضرورة الاعتماد على النصوص الأدبية البليغة الموروثة من آثار مدوّني الأساطير الإغريقية القديمة لكونها عاملاً مساعداً له القابلية على ترسيخ السلوك الديني.

---

[1]- مريم صانع پور، خدا و دين در رويكردي اومانيستي - دانش و انديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامي»، 2002م، ص 28.

[2]- المصدر السابق، ص 134 - 157.

إراسموس عارض لجوء الباحثين إلى المباني العقلية الأرسطويّة لتقوية الإيمان لدى المتدينين من منطلق اعتقاده بأنّ النهج العقلي العملي الذي تبنّاه فلاسفة الإغريق أقرب إلى التعاليم المسيحية وأكثر انسجاماً معها من عقلانية أرسطو، وعلى هذا الأساس اعتبر الأمثال والحِـكَم الموروثة من القدماء كنماذج تعكس الواقع العقلي العملي، فالمضامين المستوحاة من الأساطير تجسّد تراثاً مشتركاً للبشرية جمعاء برأيه، لذا فهي تتناسب مع الطقوس الدينية أكثر من تناسبها مع النقاشات العقائدية المتقوّمة على النهج العقلاني الأرسطوئي.[1]

*** نتائج البحث**

لو أمعنّا النظر في المبادئ اللاهوتية للأساطير الإغريقية القديمة وتتبّعنا جذور تأثيرها على العالم الغربي الحديث؛ سوف نستنتج ما يلي:

1) اللاهوت الأسطوري متقوّمٌ على نزعةٍ طبيعيةٍ، ولا يُستبعد أنّ تكون هذه النزعة التي سادت في العهد الإغريقي القديم من أوّل صور الدايزم الذي تبلور في رحابه اللاهوت الطبيعي في أوروبا الحديثة، فهو تعبيرٌ آخر للثيولوجيا الطبيعية، والرؤية المتقوّمة عليه تعدّ ثمرةً للتحوّل الذي شهدته المجتمعات الغربية في عصر التنوير والمتمثّل بالانتقال من الفكر المدرسي نحو المفاهيم الأسطورية الموروثة من بلاد الإغريق، وهذا التحوّل بدوره أسفر عن تجاهل اللاهوت المدرسي واللجوء إلى اللاهوت الطبيعي الأسطوري الإغريقي.

2) الآلهة في اللاهوت الأسطوري الإغريقي تمّ تصويرها بشمائل وميزات إنسانية، وهذه الحالة أثّرت على واقع الألوهية في اللاهوت الغربي الحديث.

3) أورانوس هو إله السماء في الأساطير الإغريقية، وهو العامل المؤثّر في خصوبة

[1]- دسيدريوس إراسموس، در ستايش ديوانگي (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية حسن صفاري، إيران، طهران، منشورات «سپهر انديشه»، 1997م، ص 105 - 107.

الأرض وبركاتها ومحاصيلها، وقد تمّ تصويره على أنّه من الآلهة الذكور، وفي مقابل ذلك فإحدى الإلاهات - الإناث - هي التي أنيطت إليها ربوبية الأرض، وهي تابعةٌ لأوامر غيرها ومتأثّرةٌ بها، وهذه التصوّرات أسفرت عن تصوير إله الوحي في اللاهوت المعاصر على أنّه ذو خصالٍ ذكريةٍ.

4) الأساطير الإغريقية المشوبة بالشرك، تمخّضت عن بروز حالة الإلحاد في الفكر الغربي المعاصر ضمن مسيرةٍ تكامليةٍ طوتها على مرّ العصور، ففي النصّ المسرحي المدوّن حول فينوس على سبيل المثال تمّ التأكيد على أنّ الاعتقاد بوجود آلهةٍ وليدٌ للنهج السياسي الذي اتّبعه المعنيون بالشؤون السياسية في بلاد الإغريق وذلك بغية ترهيب الناس من عقاب الآلهة وسخطهم في ما لو ارتكبوا أعمالاً منحرفةً ومخالفةً للقوانين التي تمّ إقرارها آنذاك.

5) وجهة النظر الميثولوجية القائلة بكون الآلهة من صنع أفكار المجتمعات البشرية البدائية، قد أثّرت بشكلٍ كبيرٍ على النهج الإلحادي الذي تبنّاه بعض مفكّري العصر الحديث من أمثال فوير باخ وأوجست كونت وفريدريك نيتشه وجان بول سارتر، وغيرهم؛ حيث ادّعى هؤلاء أنّ الله مجرّد موجودٍ ذهني (subjective) لكونه وليداً للفكر البشري.

6) إله الآلهة في الأساطير الإغريقية تمّ تصويره وكأنّه كائنٌ مرعبٌ يحبّ الانتقام، ففي أسطورة بروميثيوس على سبيل المثال ادُّعي أنّه يحسد الإنسان على قابلياته العلمية ومهاراته الفنّية وإنجازاته الصناعية، وهذا التصوّر أسفر عن حدوث فجوةٍ بين العبودية من جهةٍ والعلم والصناعة والفنّ من جهةٍ أخرى في مبادئ وأصول عصر التجدّد الغربي.

7) إرادة الآلهة في الأساطير الإغريقية القديمة تتعارض مع إرادة الأبطال الأسطوريين، وهذا الأمر نلمسه بوضوحٍ في أسطورتي الأوديسة وآخيل (أخيليوس)؛

وهذا الأمر من شأنه أن يكون سبباً للتضارب بين إرادة الإنسان والمشيئة الإلهية في مبادئ الفكر الحديث.

8) إضافةً إلى أنّ كلّ إلهٍ في اللاهوت الطبيعي الأسطوري عبارة عن مؤشّرٍ على إحدى الظواهر الطبيعية في الكون والحياة، كذلك نجد الآلهة في الأساطير الإغريقية اتّصفت بخصالٍ إنسانيةٍ تتناسب مع الغرائز البشرية مثل العقل والغضب والشهوة والحبّ.

كما أنّ أفعال بعض الآلهة لا تختلف عمّا يفعله البشر من قبيل المشاركة في الحروب ومزاولة مهنة الحياكة وإدارة شؤون المنزل وعزف الموسيقى ورعي المواشي، وما إلى ذلك من أفعالٍ أخرى شائعة في المجتمعات البشرية، لذا لا نبالغ لو قلنا أنّ الأجواء السائدة على الأساطير الإغريقية ذات طابعٍ بشريٍّ وهي متأثّرةٌ أيضاً بالظواهر الطبيعية في الكون، وهذه الحالة كان لها أثرها الملحوظ في بلورة الرؤية التي ألقت بظلالها على الأجواء الفكرية في العصر الحديث.

9) النظام اللاهوتي الحاكم على الأساطير الإغريقية مفتقرٌ للنزعة الروحانية والتوجّهات المعنوية والعناصر الميتافيزيقية، لذا فالسبب في فناء بعض الآلهة وعدم خلودها يعود في الحقيقة إلى انغماسها في النِّعم المادّية وسائر سلوكياتها الغريزية لدرجة أنّ قصص الحبّ والغرام بين الآلهة الإناث والذكور قد طرحت طبق تصوّرات الإنسان ونزعاته الجنسية المادّية، وكلّ هذه الظواهر أثّرت في صياغة البنية الأساسية للمجتمعات الغربية الحديثة.

10) الآلهة في الأساطير الإغريقية كانت تقوم بعملية الخلقة وتدبير شؤون الكون بأسلوبٍ يناظر لعب الأطفال وعبثهم، فكما أنّ الطفل وحده غير قادرٍ على اللعب لوحده كذلك تمّ تصوير الإله بأنّه لا يمكن أن يترك وشأنه. وعلى هذا الأساس تبنّى فريدريك نيتشه فكرة أنّ كلّ حضارةٍ يجب وأن لا تصنع لنفسها إلهاً واحداً، بل إضافةً

إلى إله الآلهة زيوس يجب وأن يكون لها إلهان آخران على أقلّ تقديرٍ مثل أبولو وديونيسوس. وفي غير هذه الحالة وعندما تؤمن المجتمعات البشرية بإلهٍ واحدٍ سوف تسود نزعةً فلسفيةً مطلقةً تنذر بالخطر بحيث تمسي عائقاً أمام الرؤية الواقعية النسبويّة التي كان لها تأثيرٌ على المنظومة الفلسفية الحديثة في العالم الغربي.

11) هرمس تصدّى لمقام الألوهية في التجارة والسفر وأعمال الشعوذة والتفسير، كما حمل رسالة آلهة جبل الأوليمب، وقد كان بدنه مرناً للغاية بحيث امتلك القدرة على التغلغل من ثقب مفتاح الباب حتّى وإن كان صغيراً للغاية، وهذه الميزات كان لها تأثيرها الكبير على مختلف شؤون عصر التنوير الفكري وشتّى جوانب التجدّد الغربي.

المبحث الخامس: اللغويات «الفيلولوجيا»[1]

أحد المباحث الأساسية المرتبطة ارتباطاً وطيداً بفقه اللغة «الفيلولوجيا» الذي يعتبر واحداً من فروع اللغويات، هو التعرّف على طبيعة الأساطير القديمة واستكشاف مداليلها وفكّ رموزها بغية معرفة الجذور الأساسية لمختلف اللغات، لذا يمكن اعتبار هذا العلم مضماراً تمتزج فيه الدراسات الأدبية والتأريخية والدلالات اللفظية.

في القرن التاسع عشر أعار الباحثون في دراستهم أهمّيةً بالغةً للدراسات اللغوية، كما أنّ الأساطير القديمة كانت لها أهمّيتها الموضوعية الخاصّة، فعلى الرغم من تبنّي الأوساط الفكريّة الأوروبية في عصر النهضة نزعةً إنسانيةً متقوّمةً على مبادئ أدبيةٍ ولغويّةٍ تضرب بجذورها في العهود الإغريقية القديمة، إلا أنّ الدراسات التي أجراها المتخصّصون بالعلوم اللغوية والميثولوجية في العالم الغربي قد بلغت ذروتها في القرن

---

[1]- المقصود من علم اللغويات هنا ما يسمّى باللغة الإنجليزية philology أي الفيلولوجيا "فقه اللغة" وليس linguistics.

التاسع عشر. وممّا قاله الخبير بالدراسات الأدبية الإغريقية والرومانية فيرنر جايجر في هذا الصدد أنّ رواية أسطورات هوميروس الحماسية وملاحمه لم تتوقّف منذ تأريخ تدوينها حتّى عصر الحداثة الغربي، وهذا الأمر على مر العصور أسفر عن تأسيس فروعٍ علميّةٍ جديدةٍ تنضوي تحت مظلّة علم الفيلولوجيا - فقه اللغة - أو علم اللغويات التأريخي الذي يتولّى مهمّة استكشاف أسرار ولادة الأساطير الملحمية وبيان كيفية انتقالها من جيلٍ لآخر والتعرّف على أنواعها الأولى من الناحيتين الدلالية واللفظية.[1]

رغم أنّ الكثير من المنظّرين أكّدوا على التأثير المشهود للأساطير على اللغويات، لكنّنا نكتفي هنا بتسليط الضوء على دراسة وتحليل آراء أهمّ اثنين منهم، وهما الإيطالي جيامباتيستا فيكو والفرنسي كلود ليفي شتراوس.

أوّلاً: نظرية جيامباتيستا فيكو

المفكّر الإيطالي جيامباتيستا فيكو قال إنّ الأساطير الإغريقية تضمّنت ثلاثة أنماطٍ لغويةٍ كالتالي:

1) لغة الآلهة: هذه اللغة في الحقيقة ليست لفظيةً وإنّما تجسّدت في إطار طقوسٍ دينيةٍ، كما أنّها انعكست في قوانين ومقرّرات المواطنة الرومانية على ضوء تلك الأفعال المشروعة التي تمثّلت في سلوكيات مدنيةٍ متعاليةٍ، فهي تعتبر صورةً لمناسك العبودية وتبلوراً للسان الآلهة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه اللغة قدّمت للبشرية بعض الميزات الأزلية التي تضرب بجذورها في الأديان الأسطورية، وهي قبل أن تكون ذات طابعٍ عقليٍّ استدلاليٍّ، كانت محترمةً ومقدّسةً.

---

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 80.

يُشار أيضاً إلى أنّ لغة الآلهة الأوائل هي ذات اللغة التي كانت سائدةً في بلاد الإغريق القديمة.

2) لغة القوانين والمقرّرات العسكرية.

3) اللغة المتعارفة بين الناس والمعتمدة للارتباط في ما بينهم، هي على غرار اللغات المتعارفة اليوم في المجتمعات البشرية، وقد كانت متنوّعةً.[1]

جيامباتيستا فيكو بصفته أحد الناقدين للنزعة العقلية الحديثة الشائعة في الأوساط الأوربية الحديثة، وواحداً من المدافعين عن الفكر الذي كان سائداً في العصور الإغريقية القديمة، بذل قصارى جهوده لإثبات أنّ النزعة العقلية التجدّدية الغربية منبثقةٌ من الأنموذج الأفلاطوني المتمثّل بشخصيّة كراتيلوس[2] (Cratylus) التي ذاع صيتها في تلك الديار، وأنّها تضرب بجذورها في اللغة اليونانية.

كراتيلوس أكّد على كون اللغة أمراً طبيعياً قبل أن تكون متّفقاً عليها، كما أنّ جيامباتيستا فيكو بناءً على هذه العقيدة بادر في بادئ بحوثه حول هذا الموضوع إلى تتبّع جذور الكلمات اللاتينية كي يثبت أنّ النزعة العقلية التي شاعت في الأوساط الفكرية الإيطالية تضرب بجذورها في مدرسة فيثاغورس الفكرية، ومن هذا المنطلق تطرّق إلى البحث والتحليل حول كلمة (Coelum) التي تعني إزميل (Chisel) وكذلك تعني الجسم الكبير الموجود في الجو، فاحتمل من ذلك أنّ المصريين قبل ولادة فيثاغورس كانت لديهم حضارةٌ، وكانوا

[1]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. by From the Itallian by Max Harold fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 291.

[2]- كراتيلوس هو أحد الفلاسفة الأثينيين الذين ذاع صيتهم في القرن الخامس قبل الميلاد، كما أنّ أحد حوارات أفلاطون قد دوّنت باسمه حيث تمحور موضوع البحث عن هذه الشخصية حول مسألة دلالات الألفاظ على المعاني من حيث كونها مرتبطةً ذاتياً أو أنّ الارتباط الحاصل فيما بينها متّفقٌ عليه لغوياً.

يعتقدون بأنّ الوسائل التي حصلوا عليها من الطبيعة هي شيءٌ على هيئة إزميلٍ لذلك شيّدوا الأهرامات على هيئة الأزاميل.

الإزميل في اللغة اللاتينية القديمة كان يعبّر عنه (Ingenium) بمعنى الطبيعة، وأهمّ خصوصيةٍ فيه هو أنّه ذو حافّةٍ حادّةٍ، وعلى هذا الأساس تُعرف الطبيعة باعتبارها شيئاً يصاغ من ناحيةٍ بهيئةٍ معيّنةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى فهي عن طريق إزميل الهواء تمحو مختلف الأشكال الموجودة فيها كما يمحو الإزميل كلّ ما يحتكّ به ويقشطه بعمقٍ. اللاتينيون وفق هذه الصورة المدّعاة للطبيعة، أطلقوا على جانبها الفاعل والمؤثّر عنوان أنيما (Anima)، وأطلقوا على جانبها المنفعل والمتأثّر عنوان أنيموس (Animus) حيث وصفوا الهواء بالأنيما باعتباره عنصراً مؤثّراً في الحياة، واعتبروا الأثير (Ether) عنصراً رجولياً يؤثّر على الطبيعة التي اعتقدوا بكونها عنصراً أنثوياً. ومن جملة معتقداتهم أنّ الأثير أكثر فاعليةً وتأثيراً من الهواء، كذلك اعتبروا الأرواح الحيوانية (Vita) أكثر حركةً من الأرواح النباتية، ومن هذا المنطلق استخدموا في اللغة اللاتينية كلمة الأنيما للتعبير عن النفس وهي تعني قدرة الروح التي اعتُبرت في الأساطير الإغريقية القديمة بأنّها مُنحت للرجال من قبل الأم الكبرى جايا ممّا يعني أنّ جايا تمتلك ذات القدرة التي يمتلكها الأثير، كما قالوا ادّعوا أنّ أساس كلّ شيءٍ في الطبيعة ذرّاتٌ صغيرةٌ هرمية الشكل؛ وفي رحاب هذه التصوّرات اعتقدوا أنّ الأثير قد اتّحد مع النار.

استناداً إلى الأصول اللغويّة التي أشرنا إلى جانبٍ منها أعلاه، احتمل جيامباتيستا فيكو أن تكون المؤثّرات المغناطيسية العجيبة الموجودة في بعض الظواهر الطبيعية سبباً لحدوث فعلٍ وانفعالٍ في مختلف الأشياء، ومن جملة ذلك جذب الحديد والعلاقة بين القدرة المغناطيسية والحديد، واستقطاب القطب المغناطيسي الحديدَ

نحوه،[1] كما لم يستبعد هذا الباحث كون النظام الميتافيزيقي المذكور يعود في أساسه إلى المدرسة الرواقية التي كان أتباعها يعتمدون على القياس المتواتر في نظرياتهم الهندسية ويتّخذونه كقاعدةٍ استدلاليةٍ في هذا المضمار، فقد اعتبروا المثلث على سبيل المثال أساساً لجميع الأشكال الجسمانية - الهندسية - لذلك اعتبروا جايا التي هي في الحقيقة أوّل شكلٍ هندسيٍّ مادّي، بكونها الجذر الأساسي لعلم الهندسة والأشكال الهندسية. المثلّث برأيهم يعدّ أبسط الأشكال الهندسية بينما الدائرة هي الأكمل والأتمّ بين هذه الأشكال، وعلى هذا الأساس اعتقدوا بأنّها الأنموذج الدالّ على الكمال الإلهي.

بناءً على ما ذكر يمكن ادّعاء أنّ الفكر الرياضي والفلسفي انطلق مع باكورة التصوّرات التي تبنّاها المصريون حول الطبيعة التي تصوّروا أنّها كالهرم الذي هو عبارة عن جسمٍ مادّيٍّ مكوّنٍ من أربعة أوجهٍ وكلّ وجهٍ على هيئة مثلّثٍ بثلاثة أضلاعٍ بطبيعة الحال، أضف إلى ذلك فالطبّ المصري هو الآخر كان متناغماً مع نظرية المثلّث التي تطرّق فيكو إلى بيان تفاصيلها[2] لكن لا يسعنا المجال هنا لتسليط الضوء عليها.

ومن الآراء الأخرى التي طرحها فيكو، أنّنا من خلال دراسة وتحليل الأساطير الإغريقية القديمة نتوصّل إلى نتيجةٍ فحواها كون الأشياء تسير في حركةٍ تصاعديّةٍ نحو المبدأ الأوّل، أي الله كما أنّ أصول جميع الأشياء مكتسبةٌ منه، وعلى هذا الأساس فهي تكوّن حلقةً كماليةً.[3]

نلاحظ في ما ذكر أنّ فيكو اعتمد على أسلوبٍ لغويٍّ لدى تسليطه الضوء على

[1]- Vico 1975, The Authoiography of Giambattista Vico, trans. From the Italian by Max Harold Fisch & Thomas Gddard, Bergin, Cornell University press, Ithca and London, p. 150.

[2]- Ibid, p. 152.

[3]- Ibid, p. 156.

الأساطير القديمة، ومن خلال متابعته للجذور الاشتقاقية لكلمة الطبيعة المشتقّة من المصطلح اللاتيني (Coelum) أو (Chisel) توصّل إلى نتائج لغويّةٍ وعلميّةٍ كثيرةٍ من شأنها أن تكون أساساً للعديد من التوجّهات الفلسفية والعلمية والعقائديّة والسوسيولوجيّة في الأوساط الفكرية الحديثة. وعلى أساس النظرية القائلة بأنّ مصطلح (Coelum) ذو ثلاثة أوجهٍ، اعتبر التعاليم الدينية والإنسانية ذات ثلاثة عناصر هي العلم والإرادة والقدرة، ثمّ استنتج أنّ العقل هو الوجه المشترك فيها لأنّ الله جعله وسيلةً لمعرفة الحقيقة، وبهذا أكّد على أنّ الله هو المنشأ الأساسي لجميع العلوم، والنور الذي يعبّر عنه بالحقيقة الإلهية متحقّقٌ عن طريق ارتباط العناصر الثلاثة المشار إليها، أي العلم والإرادة والقدرة، ومن ثمّ فكلّ ما ينسجم معها يعدّ صحيحاً، لكن إن تعارض معها لا يعتبر كذلك، أي يعتبر خاطئاً.[1] الأشعار الثيولوجية في الأساطير الإغريقية طبق هذا الخطاب تشمل مضامين ألوهية، كما أنّ مصطلح المنطق (Logic) مشتقٌّ من كلمة لوجوس (Logos) باعتبارها أوّل وأنسب معنى اشتقاقي لهذا المصطلح، ورغم أنّ اللوجوس له معنيان هما «كلمة» و «فكرة» لكنّه في الحقيقة يفي بدور الوسيط بالنسبة إلى معنى الكلمة.

الطبيعة استناداً إلى نظرية فيكو[2] اللغوية هي الجذر الأساسي لتسمية الكلمات، والأساطير القديمة تحكي بدورها عن هذا الارتباط، فالقصص الخرافية الموروثة من الأسلاف تصوّر السماء والأرض والبحار بأنّها آلهةٌ مفعمةٌ بالحياة، وعلى هذا الأساس اتّخذها مدوّنو الأساطير كأصولٍ معتمدةٍ لوضع أسماء مختلف الأشياء مثل الورود والفواكه والمشاعر الإنسانية المتنوّعة؛ أي إنّ الأسماء التي اشتقّوها تتناسب مع أسماء هذه الآلهة الثلاثة.

---

[1]- Ibid.

[2]- Ibid, p. 85 - 86.

إذاً، لا نبالغ لو اعتبرنا التعقل البشري حسب نظرية فيكو متقوّماً على التخيل الأسطوري الذي راود ذهن الإنسان في العهود السالفة، والعقل الغربي الحديث ليس مستثنى من هذه القاعدة، وممّا تبنّاه هذا المفكّر الغربي من آراء أنّ الشعراء بحسب المنطق الشعري السائد يعتبرون أوّل الحكماء في المجتمعات البشرية لكونهم أسموا الأشياء بالتناسب مع الطبيعة، فكلمة «اسم» و «طبيعة» واحدةٌ في اللغة اللاتينية.[1]

ثانياً: نظرية كلود ليفي شتراوس[2]

(Claude Levi Strauss)

المفكّر الفرنسي المعاصر كلود ليفي شتراوس هو عالم لغويات وسيكولوجيا وميثولوجيا وأنثروبولوجيا، ومن جملة نظرياته أنّه اعتبر عقل الإنسان البدائي منطبقاً بالكامل على عقل الإنسان المعاصر من حيث البنية والمقوّمات الذهنية،[3] وأمّا الأساطير القديمة فقد وصفها بأنّها أحفورياتٌ ثقافيّةٌ تجسّد مادّةً عقلانيةً كامنةً في قالبٍ منجمدٍ، ولهذا السبب ترسّخت المفاهيم الأسطورية اللغوية في عمق الثقافات الغربية، فأبناء المجتمعات الغربية اعتمدوا من ناحيةٍ على الأساطير الإغريقية واستثمروا مضامينها، إلا أنّهم من ناحيةٍ أخرى يُعتبرون ضحيةً لها من الناحية الثقافية، والسبب في استثمارهم لهذه المفاهيم يعود إلى تأثيرها المشهود على جانبٍ من سلوكياتهم ومتبنّياتهم الأكسيولوجية التي لا تتكامل بدونها ثقافتهم المعاصرة، وأمّا الجانب السلبي في هذا المضمار فهو يكمن في أنّ هذه الأساطير قد حقنت في الثقافة الغربية الحديثة وجهات نظرٍ ملؤها التعصّبات الضارّة التي حالت دون ازدهار القابليات والمواهب الإنسانية في تلك الديار. إن أردنا دراسة وتحليل كلا

[1]- Ibid, p. 123.

[2]- 1908 - 2009.

[3]- See: Levi Strauss C. 1967, Structural Anthropology, trans. By Claire Jacobson and Brooke Grundrest Schoep F., New York, Doubleday Anchor Books, p. 229.

التأثيرين المشار إليهما - النافع والضار - لا بدّ لنا من تسليط الضوء بالبحث والتحليل على اللغة الأحفورية في العرف الغربي، إذ يمكن للإنسان نقل أفكاره إلى أقرانه البشر عن طريق الألفاظ، فكلّ كلمةٍ تتضمّن مفهوماً نُقش على أساسه جانبٌ من الخارطة العامّة والثابتة في ثقافة المجتمعات، والكلمات بمجموعها تشكّل جملاً يمكن اعتبارها جسوراً ثقافيةً يتحقّق على أساسها الارتباط الاجتماعي.

ليفي شتراوس تحدّث عن أوجه الاختلاف بين الأساطير والجمل التي تعدّ عنصراً ارتباطياً اجتماعياً، وفي هذا السياق اعتبر الجمل ثابتةً ولا يمكن طروء تغييرٍ عليها باعتبارها أمراً مستقلاً عن النصّ (context free)، ووصف الأساطير بكونها ليست على غرار الجمل من حيث وجود مفاهيم مستقلّةٍ فيها، لذا لا يمكن تفنيدها من الناحية التجريبية ومن ثمّ ليس من شأنها إيجاد علمٍ ومعرفةٍ لدى الإنسان، فهي تتضمّن تجارباً كائنةً في اللاشعور الإنساني، وعلى ضوء هذه الميزة تمكّن علماء اللسانيات النفسية (physcholinguistics) المعاصرون من استكشاف الخصائص الواقعية وغير الأسطورية في الجانب اللاشعوري للشخص الخاضع للعلاج وذلك على أساس فكرة أنّ الأساطير كامنةً في هذا الجانب من الشخصية الإنسانية. مثلاً حتّى وإن لم يتمّ إثبات وجود آثار شخصيّة أوديب في باطن هذا الفرد الخاضع للعلاج، تمكّن هؤلاء العلماء من تحليل ذات الآثار الأسطورية لشخصية أوديب في الجانب اللاشعوري له ومن ثمّ استكشفوا بعض الأصول الدلالية والراسخة في نفسه.[1]

بعد أن تطرّقنا إلى بيان جانبٍ من وجهات النظر السيكولوجية المرتبطة بالميثولوجيا الإغريقية في المبحثين الآنفين، سوف نتحدّث بالشرح والتحليل في ما يلي عن مدى تأثّر آداب عصر النهضة والحداثة في أوروبا بالأساطير الهرمسية:

[1]- Levi Straus C. 1967, Structural Anthroplogy, Trans. By Claire Jacobson and Brooke Grundfest Schop F. New York, Doubleday Anchor books, p. 229.

ثالثاً: دور الأساطير الهرمسية في اللغويات المعاصرة

التجـدّد الأوروبي هـو أحـد المواضيـع التي لها ارتبـاطٌ بعلوم اللغـة، وهذا الأمر يتجلّى في المسـائل الهرمنيوطيقيـة - تفسـير النصـوص وتأويلهـا - وتجـدر الإشـارة هنـا إلى أنّ الهرمنيوطيقـا التفسـيرية تـضرب بجذورهـا في الأسـاطير الهرمسـية الإغريقيـة.

هرمس في الأساطير الإغريقية حاملٌ لرسالة آلهة جبل الأوليمب، كما تولّى مهمّة الخطابة وتفسير النصوص، وقد اعتبر إلهاً مذكّراً ولد في كهفٍ عظيمٍ ثمّ خرج من ثقبٍ صغيرٍ كان موجوداً في أحد جدرانه ممّا يدلّ على مرونة جسمه وطبيعة تركيبته البنيوية غير المتعيّنة بشكلٍ محدّدٍ؛ وشخصيته تبلورت في مختلف الأساطير والقصص الإغريقية وبقيت متداولةً على الألسن حتّى عصر النهضة والحداثة في أوروبا، بل إلى يومنا هذا؛ حيث نجدها في الآداب الأسطورية القديمة والحديثة تتجسّد في أنماطٍ عديدةٍ، ويمكن تلخيص مهامّ هذا الإله الأسطوري ذي الشخصيات المتعدّدة في اللغويات الغربية المعاصرة كما يلي:

1) بيان الحقائق وإرشاد الناس تناسباً مع الحركة الهرمسية اللامتناهية.

2) زعامة الخطباء والمفسّرين في رحاب تأويل النصوص وذلك بهدف إيجاد نمطٍ معيّنٍ من المعرفة.

الشاعر الملحمي اللاتيني بوبليوس فرجيليوس مارو[1] (Publius Vergilius Maro) المعروف باسم فرجيل (Vergil) والذي أنشد أشعاراً حماسيةً وأشعارَ رعاة المواشي، تحدّث في نتاجاته الأدبية عن مرونة عطارد الذي قصد منه هرمس قائلاً إنّ هذا الإله الذي يحمل رسالة الآلهة للبشر يتولّى مهمّة توجيه الرياح والسحُب بعصاه السحرية وهو يحلّق في السماء، فهو كالطائر يحلّق فوقها لكنّه لا يقطع مسيراً مباشراً

[1]- 19 - 70 B. C.

بين نقطتين حتّى وإن كان أقصر الطرق.[1] بناءً على هذا يمكن اعتبار ما قام به أتباع الفكر السوفسطائي خلال عصر النهضة والحداثة في مهاراتهم الخطابية ولا سيّما تصويرهم الحقّ بكونه باطلاً والباطل بكونه حقّاً، بأنّه منبثقٌ من الأساطير الهرمسية القديمة، إذ إنّ مفاهيم هذه الأساطير والمهارات الخطابية السوفسطائية الموروثة من أبرز الشخصيات التي ذاع صيتها على هذا الصعيد من أمثال بروتاغوراس كان لها التأثير البالغ على مبادئ النزعة الإنسانية في العصر الحديث.

عالم الميثولوجيا الفرنسي أنطوان فيفر رأى أنّ هرمس له القابلية على أن يكون مصدراً للاستلهام والاقتباس في العلوم الأدبية، لذا من الجائز بحسب الأساطير الهرمسية سرقة ما ألّفه الآخر، بل تجوز أيضاً سرقة الاختراعات من أصحابها.

الإله هرمس يتّبع أسلوباً هرمنيوطيقياً لإظهار الخزائن الأدبية الخفية، كما يسرق تأليفات غيره وينقلها إلى السماء لتقديمها للآلهة، فهو المتكفّل ببيان العلاقة الكائنة بين التأليفات وبين مصادرها الأولى، ناهيك عن أنّه وسيطٌ بين الآلهة والبشر، ومن المهامّ المكلّف بها هي توزيع الأنفس البشريّة ونشرها في الأرض وذلك عن طريق حملها من مصادرها الأساسية ثمّ إرجاعها إلى ذات هذه المصادر، ولا تقتصر مهمّته على هداية الأرواح نحو عالم الأموات فحسب، وإنّما يبحث عن الموتى ويرشدهم إلى ديار الأحياء،[2] أضف إلى ذلك فالكثير من الأمثال المتداولة على الألسن قد نقلت بواسطته من العهود السالفة والعهود الوسطى إلى العهود اللاحقة والحديثة، ويمكن اعتباره أنموذجاً بارزاً للنزعة النسبوية وانعكاساً لشتّى المظاهر الفولكلورية - التراث الشعبي - والفنّ والأدب، وهذه المظاهر الهرمسية عادةً ما يتمّ التأكيد عليها في الفنون والآداب الغربية.

---

[1]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 13.

[2]- Virgil, Aeneid, Iv. Kiering (1959) The Heroes of the Greek, p. 242.

الرومان تبنّوا نفس الأفكار التي تبنّاها اليونانيون في هذا المضمار، حيث نسبوا الكثير من المهارات الكتابية والخطابية إلى عطارد (ميركوري) الذي هو في الواقع الاسم الآخر لهرمس، وقد نسبوا الآثار المدوّنة والخطابات إلى الآلهة معتبرينها عوامل تصون عظمة الفنون والعلوم وتنقلها إلى الأجيال اللاحقة، لذا يمكن القول بأنّ هرمس من الناحية اللغوية يلعب دور الهادي نحو العلم والمعرفة منذ العهود الإغريقية القديمة وحتّى العصر الحديث، ولا فرق هنا بين العلوم والمعارف الأصيلة أو المقتبسة من الغير.

الفيلسوف أفلاطون باعتباره واحداً من الدعائم الأساسية للفلسفة الغربية التي تمخّضت عن مسيرتها التكاملية الحافلة على مرّ التأريخ ما يسمّى بالفلسفة التنويرية، هو الآخر اعتبر نفسه مديناً للإله هرمس في هذا المضمار. كما تمّ تصوير هرمس في النصّ المسرحي الذي ألّفه أريستوفان - أريستوفانيس – (Areistofanes) وكأنّه شخصيةٌ كوميديةٌ، وأمّا كراتيلوس (Cratylus) في هذا النصّ المسرحي فقد صُوّر كمفسّرٍ له القدرة على تمثيل عدّة أدوارٍ يتضادّ بعضها مع الآخر أحياناً، لذا نجده حاملاً للرسالة أو مختطفاً أو كاذباً أو نفعياً أو مساوماً على بعض الأمور، وكلّ هذه الميزات تجسّد وظائف لغوية متنوّعة تُنسب جميعها إلى هرمس، وقد تمّ التأكيد في العصر الحديث أيضاً على هذه الجوانب اللغوية وعُرّف هرمس بأنّه أستاذ الكلمات، حيث بادر الشعراء والفلاسفة في عصر التجدّد والحداثة الأوروبية إلى نسبة هكذا دورٍ لهرمس أو عطارد.[1]

الشاعر الأسطوري الروماني لوسيان[2] (Lucian) اعتبر شخصية الإله هرمس مكوّنةً من جانبين، أحدهما جسماني والآخر ذهني، وهو برأيه الهادي والمرشد للأبطال والفلاسفة، كما نقل عن أبولو بأنّه إلهٌ حكيمٌ وعاقلٌ قبل أن يكون بطلاً،

[1]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 14.

[2]- 125 - 180 A. D.

وعلى أساس هذا الوصف نلاحظ في ميثولوجيا هوميروس أنّ الميزة التي تمّ التأكيد عليها في ملحمة الإلياذة هي تنوّع شخصية هرمس، وهذه الميزة تتيح له بالظهور في كلّ عصرٍ بهيئةٍ معيّنةٍ وشكلٍ خاصٍّ يتناسب مع مقتضيات الزمان، وبالفعل فقد تبلور هذا الأمر في شخصيته طوال التأريخ الغربي، أي منذ عهد الأساطير الإغريقية القديمة وحتّى عصرنا الراهن.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ التأويلات التمثيلية والرمزية للمفاهيم الأسطورية والتي بدأت مع التأويلات الهوميروسية في القرن الرابع قبل الميلاد، جعلت للأساطير أصولاً تأريخيةً ضمن مسيرتها التي شهدت تغييراتٍ متواصلةٍ على مرّ الأيام؛ وطبق هذه النظرية فالآلهة التي كانت تعبد بحسب ما ورد في الأساطير التي كانت شائعةً طوال القرون الثلاثة التي سبقت ميلاد المسيح (عليه السلام)، هي عبارةٌ عن أبطالٍ تحوّلوا إلى آلهةٍ خالدةٍ بعد موتهم؛ كما يمكن أن يوصف هرمس وفق النظرية ذاتها بأنّه شخصيةٌ تأريخيةٌ تغلغلت في عالم الآلهة.

الرؤية المذكورة أعلاه تتمخّض عنها نتيجتان أساسيتان، هما:

1) النزعة الإلحادية التي شاعت بين الإغريق والرومان والتي تضرب بجذورها في مصر القديمة ترسّخت بين الناس آنذاك وعلى ضوئها بادر الفلاسفة الإغريق إلى إقحام المبادئ الفلسفية غير الغربية في لغتهم وآدابهم.

2) ترسّخت هذه الرؤية منذ القرن الثاني للميلاد في رحاب الفكر المسيحي.[1]

إذاً، دور هرمس لا يقتصر على التعقّل والحكمة والرمزية والمبادئ اللغوية فحسب، بل له دورٌ أيضاً في المغالطات والسفسطة والتصوّرات اللغوية التي يتمّ من خلالها تعظيم بعض الأمور أو تحقيرها، فكلّ هذه الأمور متأثّرةٌ بما لعبه من دورٍ على مرّ العصور.

[1]- Ibid, p. 15 - 16.

الشاعر والأديب الإيطالي الشهير جيوفاني بوكاتشيو (Giovanni Boccaccio) الذي كان لنتاجاته الأدبية التأثير الملحوظ لرواج النزعة الإنسانية في الديار الغربية إبّان عصر النهضة، اعتبر الأشعار والأساطير تستبطن أصولاً خفيةً مكنونةً في عباراتها، وقد أيّد هذه النظرية قبله راهانوس ماراوس[1] (Rhahanus Maraus[2]) وعلى أساسها حتّى وإن كان ظاهر الأشعار والقصص في كلّ عصرٍ يعكس معتقدات أهله ومتبنّياتهم الفكريّة، إلا أنّ الأصول اللغوية الشعرية والقصصية متأثّرةٌ في الواقع بثقافات الأسلاف وأفكارهم.

الباحث أنطوان فيفر لدى بيانه ميزات ومعالم النزعة الرمزية اللغوية التي بسطت نفوذها في عصر النهضة والمتأثّرة بالفنّ الأسطوري الإغريقي، قال بأنّ بوكاتشيو اعتبر كلّ كوكبٍ في السماء إلهاً مذكّراً أو مؤنّثاً، لكنّه اعتبر ميركوري - هرمس - ذا طابعٍ متغيّرٍ، أي يمكن أن يتحوّل إلى ذكرٍ أو أنثى بحسب مقتضيات الحال، وهذا الأمر ينسجم مع صفاته المنسوبة إليه في الأساطير الإغريقية، ومن ثمّ وصفه بأنّه عبارةٌ عن كوكبٍ له صفات متعدّدة وأحياناً متضادّة في ما بينها؛ ومن أبرزها الخطابة والمعرفة بحقائق الطبيعة والتجارة والقدرة على الاقتباس الأدبي.[3]

الجدير بالذكر هنا أنّ هذه الصفات كان لها تأثيرٌ ملموسٌ على القابليات اللغوية ومهارات رجال الفكر إبّان عصر التنوير الفكري في البلدان الأوروبية، والباحث الإيطالي فرانشيسكو بتراركا بصفته واحداً من روّاد النزعة الإنسانية في تلك الديار، اعتبر هرمس مفهوماً ذا دلالات رمزيّةٍ وتفسيريّةٍ متنوّعةٍ، وقال بأنّ هذا الإله

[1]- 771 A. D.

[2]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 26.

[3]- Ibid.

الإغريقي كان ملهماً للفصاحة للوعّاظ الناجحين، وفي الحين ذاته كان ملهماً لأولئك الذين يروّجون للمكر والخداع.[1]

بناءً على ما ذكر نستنتج أنّ لغة الحوار والكتابة تعتبر أهمّ عاملٍ أسهم في تغيير الثقافات وتكاملها، حيث نشأت وتنامت على مرّ الزمان وفي رحابها ولدت مداليل الألفاظ، وإضافةً إلى تأثّر الحداثة الغربية بشكلٍ عامٍّ بهذه القاعدة المتعارضة مع الفكر المدرسي السائد في عصر النهضة الذي انعطف بمسيرته الفكرية نحو المفاهيم اليونانية القديمة، قد أسفر بطبيعة الحال عن تأثّر المفاهيم المعرفية التي طرحت في العصر الحديث إلى حدٍّ كبيرٍ باللغة الأسطورية.

وفي المبحث التالي نشير إلى بعض الجوانب اللغوية الحديثة المتأثّرة بالميثولوجيا الإغريقية:

رابعاً: تحليل النظريات التي ذكرت

1) الملاحم المذكورة في أشعار هوميروس تنطبق من الناحية الأدبية مع الأصول اللغوية المتعارفة في الأوساط الفكرية الأوروبية إبّان العصر الحديث.

2) لو تتبّعنا جذور المصطلحات المتعارفة في العصر الحديث، لوجدنا الكثير منها يعود في أساسه إلى الثقافة اللغويّة الإغريقية القديمة، ومن هذا المنطلق نجد بعض الباحثين والمفكّرين من أمثال جيامباتيستا فيكو تبنّوا فكرة أنّ العلوم الحديثة تضرب بجذورها في الأساطير القديمة.

3) الدراسات التي أجريت من قبل الباحث جيامباتيستا فيكو أثبتت أنّ اللاهوت الإغريقي القديم المتّسم بطابعٍ رجولي، قد أثّر على الجانب اللغوي آنذاك، وفي ما بعد انتقلت آثار هذه الحالة إلى لغويات العصر الحديث، ومثال ذلك أنّ عقيدة

[1]- Ibid.

الإغريق هي ذكوريةٌ «جايا» وقد تغلغلت هذه الذكوريّة في الرجال عن طريق الأثير فأوجدت الأنيما الذكورية فيهم فصاغت منهم البُعد المؤثّر في الطبيعة ليصبحوا عناصر فاعلة وعاملة. في حين أنّ أنيموس التي مثّلت الروح الأنثوية، اعتبروها عنصراً منفعلاً وعاطفياً بصفتها البُعد المتأثّر في الطبيعة والمفتقر لـ «جايا».

هذه الرؤية اللغوية المتقوّمة على نزعةٍ طبيعية، كان لها تأثيرها الملحوظ في صياغة مختلف علوم العصر الحديث، لذا نجد أنّ العلوم المعاصرة اتّسمت بطابعٍ رجوليٍّ بحيث أصبحت الذكورة عنصراً فاعلاً في شتّى الفروع العلمية بينما الأنوثة ليست سوى عنصرٍ منفعلٍ، ويؤيّد ذلك أنّ فيكو بنفسه اعتبر الأنوثة متضادّةً مع الفكر والعقلانية.

4) الأصول اللغوية للأساطير الإغريقية القديمة تعتبر حجر الأساس للغويات العصر الحديث، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ لغويات حضارة بين النهرين والحضارة المصرية قد سبقتها.

5) كلود ليفي شتراوس اعتبر الأساطير القديمة راسخةً في الجانب اللاشعوري من ذاكرة الشعوب، وأكّد على أنّ هذه الحالة تعدّ أمراً لا محيص منه، لذا لا يمكن لأحدٍ ادّعاء عدم وجود ارتباطٍ مباشرٍ بين اللغويات الغربية الحديثة والأساطير الإغريقية القديمة، فالمفاهيم والمصطلحات الأسطورية متواجدةٌ بأيّ نحوٍ كان في الجانب اللاشعوري من الثقافة الغربية المعاصرة بحيث أثّرت غاية التأثير على صياغة المبادئ اللغوية الحديثة، وهذا أمرٌ ثابتٌ ليس من الممكن تجاهله.

6) الإله هرمس الذي كانت له وظائف ومهامّ عديدة تتناقض أحياناً، مثل التفسير والتأويل والخطابة والبيان والسفسطة والاقتباس والأمثال، كان له تأثيرٌ مشهودٌ في الثقافة الغربية المعاصرة ضمن شتّى الجوانب الخطابية والفنّية والفلسفة والأدبية، وهذا التأثير لا يقتصر على شريحةٍ فكريّةٍ معيّنةٍ، فهو يعمّ خواصّ الفكر والمعرفة وعوامّهم.

7) الطابع النسبوي الهرمسي أثّر بشكلٍ مباشرٍ على شتّى جوانب الفكر الحداثي.

8) لا يمكن لأحدٍ إنكار أنّ اللغويات الأسطورية الإغريقية ولا سيما الطابع اللغوي المعهود في أسطورة هرمس، كان لها تأثيرٌ بالغٌ في نشأة الإبستيمولوجيا الحداثية الغربية، ومن هذا المنطلق وصف جيامباتيستا فيكو العقل الغربي الحديث بأنّه متقوّمٌ على التصوّر الأسطوري المتعارف في الأساطير الإغريقية القديمة.

خامساً: سيادة الرجل

في المباحث التالية سوف نسلّط الضوء على مسألة سيادة الطابع الرجولي في الأساطير الإغريقية:

1) جينيالوجيا الإلاهات

سيادة الرجل تبلورت إلى أقصى حدٍّ في الأصول العقلانية التي تقوّم عليها عصر التنوير الفكري، وهي على أساس نظرية أستاذة فلسفة الدين في جامعة أوكسفورد الدكتورة باميلا سو أندرسون (Pamela Sue Anderson) والكثير من نظريات رموز النزعة الفيمينية المعاصرة، قد اقتبست من الطابع الذكوري الذي بسط نفوذه على الأساطير الإغريقية القديمة.[1] وفي هذا السياق قال الفيلسوف والميثولوجي الأمريكي إديث هاملتون إنّ الإلاهة "هيرا Hera" تمّ تصويرها في هذه الأساطير وكأنّها إنسانةٌ منحطّةٌ للغاية،[2] وهذه الإلاهة هي أخت إله الآلهة زيوس وأصبحت في ما بعد زوجته، وقد نتج عن هذا الزواج ولادة عملاقين هما أوقيانوس وتيميس.

من جملة مهامّ الإلاهة هيرا التي هي واحدةٌ من آلهة جبل الأوليمب المخلّدة، أنّها تحافظ على العلاقات الزوجية بين النساء والرجال، وقد تربّعت على العرش

[1]- see: Pamela Sue Anderson 1998, A feminist philosophy of religion, Blackwell.

[2]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 18.

الذهبي إلى جانب زيوس بصفتها ملكةً، حيث كانت في غاية الجمال في هيئتها وقمّة العظمة في شخصيتها.

والجدير بالذكر هنا أنّها كانت تنتقم باستمرارٍ من النساء اللواتي يعشقهنّ زوجها زيوس بحيث كانت تعاقبهنّ وتعاقب أبناءهنّ بكلّ سخطٍ وقسوةٍ، وهذا الأمر أسفر عن حدوث حرب طرواده بعد أن عاقبت إحدى الإلاهات التي كانت أجمل منها، وهذه الحرب الشرسة دمّرت بلادها. لكنّ هيرا رغم كلّ ذلك بقيت محترمةً وذات شأنٍ عند شعبها، إذ كانت النساء المتزوّجات يلجأن إليها طالبات العون منها.[1]

الإلاهة أثينا ابنة زيوس والمعروفة أيضاً باسم مينيرفا، هي الأخرى من الإلاهات المقدّسة لدى الإغريق، وميزتها أنّها لم تولد من أمٍّ وإنّما خرجت من رأس زيوس.

أثينا اعتُبرت إلاهةً للحرب في أسطورة الإلياذة، ولا سيّما الحروب الشرسة والمدمّرة حيث عرفت بقسوتها وشدّة سطوتها، فقد اعتبرتها الأساطير الإغريقية أنّها تحارب دفاعاً عن منازل الناس والكيان الأسري وتتصدّى للأعداء الذين يريدون المساس بالكيان الاجتماعي قبل أن يصلوا إلى عمق المجتمع، كما تولّت أيضاً الدفاع عن المدن والحفاظ على الطابع المتعارف للحياة المدنية، وتكفّلت بحراسة الزراعة والحرف والصناعات اليدوية، ناهيك عن أنّها هي التي اخترعت زمام الخيل ودافعت عن الدروع والأسلحة بواسطة الصواعق التي كانت تتحكّم بها.

الإلاهة العذراء فيرجن (Virgin) هي الأخرى واحدة من الإلاهات التي حظيت باحترام وتقديس الشعب الإغريقي القديم، حيث امتلكت شخصيةً عظيمةً تعود بالنفع على الشعب الإغريقي، فقد كانت أنموذجاً للعقل والإخلاص، وتصدّت لقيادة المسؤولين الحكوميين الذين هم عرضةٌ للفناء وليسوا بمخلّدين كغيرهم.

الإلاهة هيكاتي (Hecate) هي إلاهة الحبّ والجمال في الأساطير الإغريقية، ومن

[1]- Ibid, p. 28.

جملة صفاتها أنّها كانت تغوي الآلهة الذكور وسائر الرجال فكانوا يقعون في حبائلها نظراً لجمالها الفاتن، فقد امتلكت قدرةً على سلب عقولهم وشعورهم وتجريدهم عن إدراكهم.[1]

الإلاهة أفروديت هي إحدى بنات إله الإلهة زيوس من زوجته ديوني - ثالاسا - وقد كانت في غاية الحسن والجمال ولم تكن تنفكّ عن تزيين نفسها في كلّ حينٍ، وهذا ما أكّدت عليه الأساطير الإغريقية التي وصفتها بأنّها إلاهة الحبّ والشهوة والجمال بشكلٍ مطلقٍ بحيث لا يمكن بدونها وجود أيّ حبٍّ أو شهوةٍ جنسيةٍ أو بهجةٍ في الحياة، لذلك كانت ماكرةً تغوي الجميع لكنّها عجزت عن إغواء ثلاثة أشخاصٍ، هم:

أ- الإلاهة مايدن فيستا التي كانت ورعةً ومتّقيةً.

ب- الإلاهة أثينا ذات العينين الرماديتين والتي كانت تحرس الفنون والحرف اليدوية.

ج- إلاهة الصيد والكائنات البرّية أرتميس التي كانت مولعةً بالغابات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ إلاهة الحبّ والإغواء هيكاتي قد وصفت في الأساطير الإغريقية بحسب إحدى الهيئات الثلاثة للإلاهة أرتميس، وهذه الهيئات كالتالي:

أ- سيلين (Selen) إلاهة تضيء في السماء.

ب- أرتميس إلاهة تقيم في الأرض.

ج- هيكاتي تتنقّل بين العالمين العلوي والأرضي.

وتؤكّد هذه الأساطير على أنّ الظلام حينما يطغى على العالم، يأتي الدور للإلهة هيكاتي باعتبارها إلهة الطرق الفرعية التي ينتشر فيها السحر وتكثر الشرور، لذلك تمّ

[1]- Ibid, p. 29.

تصويرها وكأنّها إلاهةٌ مرعبةٌ ومخيفةٌ.[1] وفي هذا السياق رأى الباحث هاملتون أنّها كانت تجسّد ألوهية جهنّم لدى الإغريق وقد كانت كلاب الصيد الخاضعة لأوامرها تنبح عند التقاطعات الموجودة بين الطرق.

الإلاهة آجليا (Aglaia) في الأساطير الإغريقية جسّدت عظمة النور، والإلاهة يوفروسيني (Euphrosyne) اعتُبرت إلهةً للنشاط والحيوية، والإلاهة ثاليا (thalia) هي إلاهة الاحتفالات وتفتّح الأزهار. هذه الإلاهات الثلاثة هنّ بنات إله الآلهة زيوس، وهناك إلاهات أخريات في جبل الأوليمب، مثل إلاهة الشعر - موزيس – (Muses) وإلاهة الرشاقة البدنية.[2]

لو أمعنّا النظر في جينيالوجيا إلاهات الإغريق، لوجدنا أنّ الفانيات منهنّ اتّصفن ببعض الخصال التي ميّزتهنّ عن غيرهنّ، مثل الحسد والإغواء ومخالفة القواعد والأصول العقلية والنزعة إلى الجنس والشهوة وسائر الملذّات المادّية، ولكن هناك إلاهات تمّ تصويرهنّ بشكلٍ آخر، مثل الإلاهة أثينا التي عرفت بعقلها الحاذق وسدادة آرائها المنطقية، وعلى هذا الأساس اعتُبرت حارسةً لشأن المنزل والأسرة والأولاد وشتّى شؤون المرأة.

بعض الإلاهات من أمثال أثينا والإلاهة العذراء وصفن في الأساطير الإغريقية بأنّهنّ رمزٌ للعدل والإخلاص، وهنّ في مقابل نظيراتهنّ من الإلاهات اللواتي لا يطقن القوانين العقلية ويطغى عليهنّ الحسد والإغواء وما شاكل ذلك من ميزات ذميمة، والملفت للنظر أنّ أثينا ونظائرها عددهنّ قليلٌ في التراث الأسطوري الإغريقي.

إذاً، لو ألقينا نظرةً عامّةً على الأساطير الإغريقية نستنتج أنّها ذات طابعٍ رجوليٍّ بحتٍ.

[1]- Ibid, p. 31 - 33.

[2]- Ibid, p. 36 - 39.

2) اتّصاف النساء ذاتياً بالشرّ في الأساطير الإغريقية

حينما نتتبّع تفاصيل الخلقة في الأساطير الإغريقية القديمة، نستشفّ من بعضها وجود خمس مراحل زمنية - أسطورية - تحقّقت فيها، بينما هناك أساطيرٌ تؤكّد على أنّ بروميثوس هو المحور في الخلقة، حيث وقف إلى جانب الإنسان ووفّر له الظروف الملائمة للزراعة والصناعة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلا النمطين من الأساطير المشار إليها أعلاه فيهما موضوع مشترك، وهو أنّ البهجة العظمى عندما سادت في العالم طوال عصره الذهبي كانت الحياة تقتصر على الرجال فقط بحيث لم تكن في الأرض حتّى إمرأة واحدة. وأشارت هذه الأساطير إلى أنّ زيوس خلق النساء فيما بعد لأجل معاقبة بروميثوس وذلك لأنّه منحهنّ القدرة على سلب الطمأنينة والحرّية من الرجال.

بروميثوس بحسب السرد الأسطوري الإغريقي لم يكتفِ بسرقة النار من الآلهة، بل جعل لحم الثور المقدّس اللذيذ لنفسه وأعطى عظامه وشحومه لسائر الآلهة. وفي ما يلي نذكر جانباً من تفاصيل هذه الحكاية: الإله بروميثوس وشقيقه أبيمثيوس قطّعا ثوراً إلى أجزاء صغيرة، فأخفى لنفسه لحومه اللذيذة وتحايل على إله الآلهة زيوس بعد أن غطّى أجزاءه غير المرغوب فيها بشحومه الناصعة البياض، لذلك نجد مرتادي المعابد يحرقون عظام الذبيحة وشحومها قرباناً للآلهة ويعطون لحمها المرغوب للرجال. إثر هذه الحيلة الماكرة أقسم زيوس بأنّه سينتقم من بروميثوس، لذلك خلق خلقاً إنسانياً شرّيراً يبدو في ظاهره أنّه جذّابٌ ومحبوبٌ، وهذا الخلق كان أنثى باكرة في غاية العفّة والحياء.

بادر جميع الآلهة إلى تقديم هدايا ثمينة لهذه الأنثى التي خلقها الإله زيوس، وبما في ذلك قدحٌ من فضّةٍ ونقابٌ مطرّزٌ وأطواقٌ من أجمل أنواع الورود وتاجٌ ذهبي، وهذه الهدايا زادت من جمالها وروعتها وجاذبيتها، وعلى هذا الأساس أطلق عليها اسم باندورا (Pandora)، أي الهدية.

زيوس عرض للآلهة هذا المخلوق الجميل المغري ليجسّد أوّل آنسةٍ بشريةٍ وجدت على وجه الأرض، وقد ذُهل بها كلّ من كان موجوداً في تلك الآونة من آلهةٍ ورجالٍ، لكنّها رغم جمالها الفاتن كانت تستبطن صفاتٍ شرّيرةً، وقد أكّد الباحث هاملتون على أنّ بعض الأساطير دلّت على أنّ هذه السيّدة هي التي تسبّبت بجميع الآلام والبلايا التي عانى منها البشر بسبب فضولها وحبّ استطلاعها، وذلك كما يلي: أعطاها الآلهة صندوقاً مليئاً بجميع الشرور والمآسي لكنّهم منعوها من فتحه، ثمّ أرسلوها مع الصندوق إلى الإله أبيمثيوس الذي اختارها كزوجةٍ له رغم أنّ شقيقه بروميثوس منعه من قبول أيّ هديّةٍ أو شيءٍ يرسله له الإله زيوس. وتتوالى أحداث القصّة، ولم تتمكّن باندورا من مقاومة فضولها وحبّ استطلاعها ففتحت الصندوق، فخرجت منه جميع أنواع الشرور والمصائب والبلايا والهموم والفِتن الأمر الذي أدّى إلى تكدير حياة الإنسان، ومن هنا أدرك الرجال الذين كتب لهم الخلود بأنّ زيوس الخالد لا يمكن خداعه بتاتاً.[1]

3) تأثير سيادة الرجل في الأساطير الإغريقية على مبادئ عصر الحداثة

الدراسات الميثولوجية أثبتت أنّ المرأة في التراث الإغريقي القديم عبارةٌ عن كائنٍ مزعجٍ وشرّيرٍ وشهواني، ومن سائر ميزاتها أنّها تعشق فطرياً إثارة الفتن والمشاكل، وهذه الرؤية البنيويّة فكرياً خيّمت بظلالها على آراء ونظريات مفكّري العصر الحديث الأمر الذي جعل المرأة تواجه ضغوطاً ومضايقاتٍ اجتماعيةً، وإثر ذلك بات هذا الموضوع مادّةً دسمةً لنقد النزعة الفيمينية والمثُل المعتبرة في المجتمع بالنسبة إلى التجارب التي تقوّمت على أصول ومباني سيادة الرجال.

هذا الأمر أُثبت في العديد من الدراسات والبحوث العلمية التي أجريت في هذا الصعيد من قبل أبرز مفكّري العصر الحديث وعلى رأسهم كلٌّ من كارل جوستاف

[1]- Ibid, p. 73.

يونج وجوزيف كامبل، كذلك الناقد والمنظّر الكندي الشهير نورثروب فراي[1] (Northrop Frye) الذي ذاع صيته على نطاقٍ واسعٍ في القرن العشرين.[2]

الباحثة الأميركية الخبيرة في علم النفس التحليلي ماري إيستر هاردنج[3] (Mary Esther Harding) حذت حذو المفكّر كارل جوستاف يونج في كتابها الذي دوّنته حول واقع النساء في الأساطير القديمة،[4] حيث أكّدت فيه على أنّ الإلاهات رغم تعدّدهنّ وكثرتهنّ في الأساطير الإغريقية، لم يكنّ سوى إلاهاتٍ للخصوبة في الطبيعة والحمل والإنجاب لدى النساء.[5] وعلى هذا الأساس لا نجد في الأساطير الملحميّة والأشعار الحماسية الإغريقية أيّة إلاهةٍ بطلةٍ تفي بدورٍ يناظر ما يؤدّيه الآلهة الذكور، حيث عادةً ما يتمّ تصوير الإلاهات بالكائن الشهواني والمغري لكونهنَّ يدعون الرجال إلى ممارسة الجنس والتلذّذ جنسياً ومن ثمّ يتسبّبن في فسادهم وانحرافهم.

الإلاهات الإناث في الأساطير الإغريقية طغت عليهنّ الأحاسيس والعواطف الشخصية والنزعات الغريزية، لذلك كانت رؤيتهنّ ناقصةً وضيّقة الأفق ولم يكن يبدر منهنّ سوى دعوة الرجال إلى المجون والعبث الجنسي، بينما تمّ تصوير الآلهة الذكور بصفتها كائنات مقتدرةً بدنياً إلى جانب امتلاكها عقولاً نافذةً، وهذه الميزات جعلتها قادرة على إنقاذ النساء المكبّلات بقيود أعدائهنّ.

خلاصة الكلام أنّ المرأة في الأساطير الإغريقية القديمة كلّها إغراءٌ وإغواءٌ إلى جانب

[1]- 1912 - 1991.

[2]- see: Walt Kathleen 1988, The Callisto Myth from Ovid to Atwood: Initiation and Rape in literature, Mc Gill Queens university press, 3 Introduction.

[3]- 1888 - 1971.

[4]- Mary Esther Harding 1955, Women`s Mysteries (ancient and modern: A Psychologycal interpretation of the feminine principle ad portrayed in Myth, story and dreams), Panthoon.

[5]- Walt Kathleen 1988, The Callisto Myth from Ovid to Atwood: Initiation and Rape in literature, Mc Gill Queens university press, 3 Introduction, p. 5.

جهلها وانفعالها عاطفياً وعدم امتلاكها عقلاً سديداً، فهي ليست سوى آلهٍ جنسيّةٍ شهوانيّةٍ، في حين أنّ الرجل وصف بأنّه ذو معرفةٍ ودرايةٍ وله القدرة على فعل ما يشاء.

واستنتج جوزيف كامبل من دراساته التي أجراها في هذا المضمار أنّ المرأة في الأساطير الإغريقية مظهرٌ للمادّة التي تتّصف بذاتها بعدم الخلوص ويطغى عليها الواقع العفِن والنزعة الشهوانية الجامحة خلافاً للذات الإنسانية الأصيلة التي يجب وأن تكون خالصةً وعطرةً في عين نزعتها إلى الجمال والنورانية، فهذه الأوصاف النفسية الحسنة خُصّ بها الرجال ممّا يعني أنّ المرأة ليست سوى كائنٍ يرمز لواقع الحياة المادّية والطباع والنزعات الجسمانية البحتة، فالرجل اعتُبر رمزاً للخلوص والنقاء والروحانية، وهذا ما نلمسه واضحاً في قصّة أوديب، حيث توجّب عليه أن يحذو حذو هاملت ويجتنب إغواءات النساء لكي يتمكّن من الرقي إلى الدرجات السماوية العليا في ما وراء حواجز النساء والأنوثة.

هذه الرؤية الميثولوجية المتقوّمة على سيادة الرجل في الحياة، اعتبرت الميزات الجسمانية المفتقرة للأخلاق والمتضاربة معها، بكونها تنطبق على كيان المرأة وبنيتها الشخصية الأنثوية، وقوامها أنّ الأنثى رمزٌ للآثام والأدران في الحياة، والذكر كائنٌ نقيٌّ خالصٌ من كلّ شائبةٍ وشخصيته هي الأنموذج الأمثل للخير المحض، لذلك حاول الرجال في أساطيرهم وصف المرأة - بمكرٍ وخداعٍ - بكونها رمزاً للجسم المادّي العاري من الخلوص والروحانية.[1]

أستاذة فلسفة الدين في جامعة أوكسفورد الدكتورة باميلا سو أندرسون (Pamela Sue Anderson) ذكرت في كتابها[2] المعروف أنّ المعيار في تعريف العقل في الفلسفة

---

[1]- Campbell, Joseph 1973, Myth to live by, Bantam books, p. 116 - 123.

[2]- Pamela Sue Anderson, A Feminist philosophy of religion 1998, Black Well.

الغربية تأثّر إلى حدٍّ كبيرٍ بالرؤية الأسطورية الإغريقية التي منحت السيادة في الحياة للرجل، وفي هذا السياق نلاحظ أنّ أتباع فكر فيثاغورس طرحوا مفاهيم متضادّةً منذ القرن الرابع قبل الميلاد لكنّها بقيت متّبعةً ومعتمدةً في الأوساط الفكريّة الغربيّة كأساسٍ لتعريف العقل حتّى عهد الفيلسوف فريدريك هيجل.[1] ومن جملة الآراء المتضادّة التي طرحها هؤلاء أنّ العقل يفوق كلّ شيءٍ وهو الذي يعيّن حدود سائر الأشياء ويشخّص نطاقها، وقد بادر الفلاسفة الفيمينيون المعاصرون إلى نقد هذه الرؤية ومن جملتهم ميشيل ليدويوف[2] (Michele Ledoeuf) ولويس إيريجاراي[3] (Luce Irigaray) ومارجريت وتفورد (Margaret Witford) كذلك المفكّر جنيف لايود (Genevieve Lioyd) الذي ألّف كتاباً حول تأريخ العقل في الفلسفة الغربية.[4]

وأمّا المفاهيم التي طرحها الباحثون بخصوص الموضوع، فمنها ما يلي:

- المحدود وغير المحدود
- الزوج والفرد
- الواحد والمتعدّد
- اليمين واليسار
- الرجل والمرأة
- الثابت والمتغيّر
- القويم والأعوج

---

[1]- 1770 - 1831.

[2]- 1948 .

[3]- 1930 .

[4]- Genevieve Lioyd, The man of Reason: Male and female in western philosophy (Rout ledge, 1984 - 1986).

- النور والظلام
- الخير والشرّ
- المربّع والمستطيل

المرأة في هذا الخطاب الفلسفي أُدرجت ضمن نطاق المفاهيم السلبية التالية: المحدود والظلام والشرّ والأعوج واليسار، وسائر الجهات السلبية الأخرى. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ شخصيتها في الفلسفة الغربية تأثّرت أيضاً بالأساطير الإغريقية لتصوّر وكأنّها مظهرٌ للعبث والجمال الفاني والجانب المظلم في الحياة وذروة الفساد والطامّة الكبرى وأنشودة آلهة الأرض والعدو المضلّ، ومن هذا المنطلق باتت المرأة والأنوثة بشكلٍ عامٍّ في الفلسفة الغربية رمزاً للسلوك غير العقلاني، لذلك اعتُبرت فلسفياً بكونها مصدراً للتصوّرات غير الفلسفية ولا صلة لها بتعريف العقل ولا بنطاقه الشمولي، وهذا يعني أنّ الرجل فقط يمتلك عقلاً استدلالياً وقابلياتٍ ذهنيةً خلاقةً خلافاً لها بصفتها كائناً لا يمتّ إلى العقل بصلةٍ وطيدةٍ.

ترتّب على ما ذكر أعلاه أنّ العقل والرجل أصبحا أمرين متعاليين في عصر التنوير الفكري، بينما المرأة ليست سوى كائنٍ محرومٍ من القابلية الفذّة للعقل وفي غاية الانحطاط، ناهيك عن ادّعاء فلاسفة هذا العصر كون مادّتها وصورتها التكوينية تختلف عن مادّة وصورة الرجل التكوينية.[1]

الفيلسوفة البريطانية المعاصرة أونورا سيلفيا أونيل[2] (Onora Sylvia O`neill) قالت إنّ فهم الفلاسفة الإغريق للعقل حتّى وإن اختلف عن فهم الفلاسفة المعاصرين من أمثال رينيه ديكارت (Descartes) وروجر بيكون (Bacon) وإيمانوئيل كانط

---

[1]- see: Lioyd 1993, 3 , 1996, 53 - 437 of Aritotile 1984, II , A Quinas 1981.

[2]- 1941 .

(Kant)، لكنّهم يشتركون جميعاً في وصفه بالطابع الرجولي.[1] هذه الرؤية تجاه العقل حفّزت بعض الباحثين إلى تدوين العقد الاجتماعي في العصر الحديث على أساس مبدأ سيادة الرجل، ومثال ذلك المنظّر السياسي البريطاني المدافع عن النزعة الفيمينية كارول باتمان الذي ذكر في دراساته أنّ العقد الاجتماعي في عصر الحداثة يعني الإذعان بحرّية الرجل وانقياد المرأة، وعلى هذا الأساس يتمخّض عن تحقّق الحرّية المدنية تجاهل نصف أعضاء المجتمع البشري، أي النساء. إذ الحقوق المتقوّمة على سيادة الرجل وتفوّقه عليها وجودياً، أساسها هذا العقد، لذلك وصفت الحرية المدنية في العصر الحديث بكونها ذات طابعٍ رجولي ومتقوّمة على إقرار حقوق الجنس المذكّر، فقد اعتُبر الجنس الذكري وسيادته المطلقة أهمّ قيدٍ فيها.[2]

الجدير بالذكر هنا أنّ الجمال هو الفضيلة الأساسية للجنس الأنثوي في الأطروحة الميثولوجية الإغريقية وعلى إثرها العقلانية الغربية الحديثة، وهذه الميزة ذات أهميةٍ مادّيةٍ وروحيةٍ بالنسبة إلى الجنس المذكّر، ومن جملة الاستثناءات التي تجدر الإشارة إليها في هذا المضمار أنّ بعض الإلالهات في الأساطير الإغريقية لم يكنّ مصدراً لإثارة الشهوات والرغبات الجنسية، بل تكفّلن بمهامّ أخرى، مثل هيلين[3] (Helena) وبينيلوبي[4] (Penelope) اللتين لم تكونا في الأساطير الإغريقية مجرّد أُنثيين تثيران شهوات الرجال وتشبعان رغباتهنّ الجنسية، حيث تخصّصتا في قضايا الأسرة والمنزل وبذلتا مساعي في هذا الصعيد لتعليم الناس أنّ فضل المرأة يكمن في

[1]- O`neill 1989, Constructions of reason: Explorations of Kant`s practical philosophy, Cambridge university press, p. 3 - 27.

[2]- Pateman Carole 1988, The sexual contract, Cambridge: Polity press, p. 1 - 2.

[3]- هيلين في ملحمة الإلياذة الهوميروسية جسّدت الألوهية في جانبٍ من وجودها، حيث ولدت من اقتران إله الآلهة زيوس مع ليدا ابنة تيتوس، وقد تزوّجت منيلاوس ملك إسبرطة.

[4]- بينيلوبي هو زوجة أوديسون الوفية التي ظلت ترفض الخاطبين الذين تقدموا لها طوال غيبته في رحلته الطويلة حتى عاد إليها في النهاية.

عفافها وعقلها حين تدبير شؤون المنزل، فالأخيرة نالت استحسان الآخرين وإطرائهم مراراً نظراً لعفافها وعقلانيتها ودرايتها في تدبير شؤون المنزل، وأمّا الأولى فقد كانت آيةً في الحسن والجمال بحيث لم يتمكّن أيّ رجلٍ يراها من مقاومة جذابيتها، وهذه الميزة الفريدة هي التي تسبّبت بحدوث حربٍ مدمّرةٍ سقطت على إثرها مدينة طروادة وصُرع ملكها بريام وأميرها هكتور. لكنّها استطاعت الفرار مع زوجها الأوّل منيلاوس إلى مدينة إسبرطة، وقد وصفت في ملحمة الأوديسة بأنّها سيّدةٌ محترمةٌ وأنموذجٌ للجمال مع متانةٍ ورزانةٍ في شخصيتها، كما أنّها خبيرةٌ في الأمور الاجتماعية الفاضلة، ولكن رغم ذلك تبقى الأساطير الإغريقية تؤكّد على أنّ المرأة حتّى وإن امتلكت جانباً ألوهياً لكن لا يمكن تصوّرها في منأى عن عجلة الغزل. على سبيل المثال حينما كانت تدخل غرف الرجال كانت وصيفتها تجعل صندوق حياكتها المصنوع من الفضّة أمامها إلى جانب عجلة الغزل الذهبية، فهاتين الوسيلتين كانتا رمزاً من مستلزمات زينتها كإمرأةٍ.

على ضوء ما ذكر فالمكانة الاجتماعية للمرأة في اليونان القديمة برأي الباحث فيرنر جايجر بلغت ذروتها في عهد أسطورة هوميروس الملحمية، إذ هناك العديد من الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها لإثبات هذه المكانة المتعالية التي لم يرقَ إليه الجنس الأنثوي طوال العصور الإغريقية القديمة، وكمثالٍ على ذلك زوجة شهريار التي كانت تعبد وكأنّها إلاهةٌ لدرجة أنّ زوجها لم يكن يتّخذ قراراً دون مشورتها وتأييدها له، كذلك فإنّ أوديسيوس لم يذهب إلى الملك حينما قصد العودة إلى وطنه، بل لجأ إلى الملكة التي كان يعتقد بأنّها إن ساعدته سوف يتمكّن من تحقيق رغبته. الإلاهة بينيلوبي مثالٌ آخر على ذلك، فعلى الرغم من وحدتها وعدم وجود ناصرٍ ومعينٍ لها، اعتمدت على نفسها بالكامل لمواجهة الرجال الذين كانوا يتقدّمون لخطبتها، إذ لم يكن لديها أدنى شكٍّ بأنّ جميع الرجال سوف يحترمون أنوثتها.

إذاً، الأساطير الإغريقية تؤكّد بشكلٍ عامٍّ على أنّ الواجب الأساسي للمرأة هو الحفاظ على الأخلاق والنسب الأسري الشريف، وهذه الميزات الروحية بطبيعة الحال لها تأثيرها على مشاعر الرجل وعواطفه تجاهها.[1]

ومهما كان طابع الميثولوجيا الإغريقية، فالمرأة الأسطورية الإغريقية سواءً أكانت إلاهةً كاملةً أم أنّ جانباً من شخصيتها فقط اتّصف بالألوهية، ليست سوى كائنٍ هامشي وتابعٍ لسلطة الرجل، ناهيك عن أنّها وصفت بصفاتٍ دنيئةٍ وتافهةٍ بحيث يطغى عليها الحسد والمشاعر المادّية والغريزية، وحتّى اللواتي وصفن بصفاتٍ متعاليةٍ وحسنةٍ مثل الإلاهة بينيلوبي لم تتجاوز مهامّهنّ الحفاظ على جانبٍ محدودٍ من الحياة فحسب، وفي هذا السياق قال الباحث فيرنر جايجر إنّ هوميروس رغم اتّباعه نهجاً أدبياً يتّسم بطابعٍ أكثر إيجابيةً واحتراماً بخصوص المرأة مقارنةً مع نهج هسيود،[2] لكنّنا مع ذلك نلمس في آثاره ذات النزعة المتعارفة في التراث الإغريقي من حيث الاعتقاد بسيادة الرجل في المجتمع. ومن الأمثلة على ذلك ما يُنسب إلى الإلاهة آتي (إيتي) (Ate) التي اعتُبرت حمقاء وماكرة بحيث لم يجدِ معها أيّ جهدٍ تربوي لهدايتها ورشادها عقلياً، لذلك عُرفت بكونها إلاهة الغباء. والجدير بالذكر هنا أنّ شعراء الأساطير الإغريقية كانوا يصوّرون أفكارهم ورغباتهم وفق مفاهيم مرتبطة بالآلهة التي تريد الخير للبشر، لكن هذا الخير لم يكن يصدر بتاتاً من الإلاهة آتي المتسرّعة في قراراتها والتي كانت تتسبّب بحدوث مشاكل وبلايا عديدة. ورغم ذلك نجد في هذه الأساطير حلولاً للأضرار الناجمة عن هذه الإلاهة.[3] وفي مقابل غالبية النساء الأسطوريات اللواتي اتّصفن بميزاتٍ سلبيةٍ وخصالٍ ذميمةٍ، هناك عددٌ محدودٌ من الآلهة وأشباه الآلهة والإناث المقدّسات اللواتي امتلكن مؤهّلات علمية

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 64 - 66.

[2]- المصدر السابق، ص 118.

[3]- المصدر السابق، ص 71.

وعملن على نشر الخير والصلاح في المجتمع، ومن جملتهنّ الإلاهة أثينا أو مينيرفا التي اعتبرها هوميروس بأنّها ترشد الناس إلى الخير والأعمال الحسنة، حيث تجلّت في شخصية المرشد الناصح مينتور (Mentor) الذي كان صديقاً قديماً لـأوديسيوس، وهو من الذكور طبعاً؛ كما كانت ترافق تليماخوس في سفره إلى بولوس وإسبرطة، وطوال فترة السفر لا يغفل مينتور الرومي عن تلميذه بحيث كان ينصحه ويرشده في جميع الأحيان والمواقف ليعينه على مهامّه، لذا كانت أثينا تتجلّى بهيئة مينتور وتربّي تليماخوس المعروف بحيائه وهدوئه حتّى تحوّل إلى شخصٍ نافذٍ وحازمٍ ومقتدرٍ في غاية البطولة والشجاعة كما هو مذكور في ملحمة الأوديسة.[1]

إذاً، نلاحظ في ما ذكر أنّ أثينا التي كانت إلاهةً للعقل والحرب والعدل والحرف والصناعات، قد صُوّرت في ملحمة الإلياذة وكأنّها تتجلّى أحياناً على هيئة إلهٍ مذكّرٍ لهداية الناس وإرشادهم.

الفلاسفة الفيمينيون المعاصرون يعتقدون بأنّ سيادة الرجل الشائعة في العصر الحديث تضرب بجذورها في تأريخ الفكر الغربي الذي انطلق من الفنون الأسطورية الإغريقية، وعلى هذا الأساس أدرجوا مبدأ سيادة الرجل في نظريات إيمانوئيل كانط العقلية، ونزعة فريدريك نيتشه الإنسانوية، وسيكولوجيا سيجموند فرويد، وسوسيولوجيا روسو ونظرياته السياسية، ضمن الفكر الذي تغلغل في الأوساط الفكرية الغربية من الميثولوجيا اليونانية والمتقوّم على مبدأ سيادة الرجل في المجتمع، وسوف نشير إلى بعض المسائل التي تثبت هذه الحقيقة ضمن النتيجة التحليلية للبحث في ما يلي:

---

[1]- المصدر السابق، ص 72 - 74.

*** نتيجة البحث:**

نلخّص أدناه ما ذكر في المباحث الآنفة:

1) الإلاهة هيرا زوجة إله الآلهة زيوس، وصفت في الأساطير الإغريقية بكونها امرأةً حسودةً تحبّ الانتقام بحيث لم تتورّع عن ارتكاب أيّ فعلٍ للقضاء على معشوقات زوجها بأقسى الأساليب، والجانب الإيجابي من شخصيتها يتمثّل في دفاعها عن ربّات البيوت والانتقام من الأزواج الشهوانيين.

2) الإلاهة أثينا أو مينيرفا هي إلاهة الحروب الشرسة، ومن جملة وظائفها أنّها كانت تحافظ على الحياة المدنية والحرف والصناعات اليدوية والزراعة، كما تولّت مهمّة حماية الخيول والأسلحة؛ وهذا هو سبب تقديسها.

3) الإلاهة أفروديت هي إلاهة الحبّ الجسماني والشهوة الغريزية، لذلك كانت توقع الرجال في حبائل عشقها وتغوي النساء أيضاً، لكنّها عجزت عن إغواء ثلاثة، هم:

- الإلهة مايدن فيستا التي كانت ورعةً ومتّقيةً.

- الإلهة أثينا ذات العينين الرماديتين والتي كانت تحرس الفنون والحرف اليدوية.

- إلاهة الصيد والكائنات البرّية أرتميس التي كانت مولعةً بالغابات.

4) الإلاهة هيكاتي هي إلاهة الطرق الفرعية والسحر والشرّ والرعب، كما أنّها كانت تحكم جهنّم وتضلّ المسافرين الذين يقطعون مسافات بعيدة وتحرفهم عن مسيرهم، كذلك اعتبرت إلاهةً للحبّ والجمال بحيث كانت تغوي الآلهة الذكور والرجال وتسلب عقولهم.

5) السعادة في الأساطير الإغريقية تتحقّق عن طريق الملذّات المادّية وبما فيها الملذّات الجنسية، وأمّا النساء فقد اعتبرن مخلوقاتٍ جميلةً وجذّابةً ومصدراً للنشاط والبهجة، لذا تمّ تسليط الضوء في هذه الأساطير على جمالهنّ وروعتهنّ الجنسية

بشكلٍ يفوق الاهتمام بالجانب الإنساني في شخصيتهنّ الأمر الذي أدّى إلى تجاهل قابلياتهنّ الإنسانية والانهماك بصفاتهنّ البدنية؛ ومثال ذلك أنّ عدداً من بنات إله الآلهة زيوس حملن رسالة الحبّ والجمال والحيوية مثل آجليا ويوفروسيني وثاليا.

6) رغم أنّ المرأة في الأساطير الإغريقية اعتبرت مصدراً للشهوات الجنسية والجمال والخصوبة وتشكيل الأسرة، لكنّها رغم كلّ ذلك استبطنت في شخصيتها الشرّ والدمار، لذلك تسبّبت بحدوث أعمالٍ شرّيرةٍ وذنوبٍ وبلايا وهمومٍ وفِتنٍ بين الرجال وجعلتهم في غفلةٍ عن الخير والحقيقة؛ ومن هذا المنطلق أكّد هسيود في أسطورته على أنّ العصر الذهبي في اليونان تمثّل في تلك الحقبة التي لم يكن للمرأة وجودٌ في الأرض.

7) إله الآلهة زيوس حينما أراد معاقبة المتمرّد بروميثوس خلق المرأة لتكون وبالاً عليه ومصدراً لعذابه وبلائه، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ تداعيات أسطورة باندور نلمسها جليةً في الكتاب المقدّس أيضاً، وذلك لـمّا طلبت حواء من آدم أن يأكل من الفاكهة المحرّمة، وبالفعل فقد استجاب لطلبها وكانت النتيجة أنّه عوقب وأُخرج من الجنّة ليهبط إلى الأرض.

8) تصوير المرأة بأنّها مصدرٌ للذنوب والفساد بقي شائعاً على مرّ العصور وانعكس أيضاً في آداب عصر التنوير الفكري، فعلى سبيل المثال لا نجد لها مكاناً في عالم عقلانية إيمانوئيل كانط نظراً للاعتقاد بكونها مجرّد كائنٍ غريزيٍّ وشعوريٍّ بحتٍ لا يمتلك المقوّمات العقلية التي يمتلكها الرجال، لذا اقتصر دورها على الشؤون الخاصّة في الحياة من قبيل تدبير شؤون المنزل والحياة الزوجية، وهذا ما جعل مفكّري عصر التجدّد والحداثة في البلدان الغربية يدّعون بأنّ الحرّية والمساواة والنشاطات السياسية في المجتمع هي من نصيب الرجال فحسب، حيث اعتبروا المرأة غير مؤهّلةٍ للتواجد في الأوساط العامّة التي يشترط فيها امتلاك حذاقةٍ عقليةٍ وفكرٍ سياسيٍّ وتحرّرٍ ومساواةٍ، فهي تفتقر إلى القابليات العقلية اللازمة والتدبير السياسي المطلوب.

9) الآلهة الذكور والرجال في الأساطير الإغريقية غالباً ما يوصفون بالقدرة والنشاط، بينما الإلاهات والنساء وصفن بكونهنّ كائنات ضعيفة ومنفعلة وشهوانية لا قيمة لها، والحدّ الأقصى لفضيلتهنّ لم يكن يتجاوز إدارة شؤون المنزل ومعرفة بعض الأمور حول الحياة الأسرية الخاصّة؛ والملفت للنظر أنّ مفكّري عصر التنوير الفكري اتّبعوا النهج ذاته واعتبروا حضورها في المجتمع سبباً للشرّ والفساد.

10) الأساطير الإغريقية صوّرت إحدى الإلاهات بأنّها رمزٌ للغباء والحماقة بحيث لا تنفكّ دائماً عن مخالفة التعقّل والمعرفة.

11) لو أمعنّا النظر في جينيالوجيا الآلهة الإغريق، لوجدنا الإلاهات ليس لهنّ سوى شأنٍ فرعيٍّ وتبعيٍّ باستثناء عددٍ قليلٍ منهنّ مثل أثينا ومايدن فيستا والإلاهة العذراء (فيرجن)، حيث اعتبرن إلاهاتٍ للعقل والعدل والتقوى والإخلاص.

الأساطير الإغريقية أكّدت بشكلٍ عامٍّ على أنّ مهامّ الإلاهات تقتصر على الجانب الخاصّ من الحياة الاجتماعية ولا سيّما الأسرة والحياة الزوجية، أضف إلى ذلك أنّهنّ اعتبرن رمزاً للدمار والتخريب.

12) الرؤية الفلسفية التي شاعت في الأوساط الفكرية إبّان عصر النهضة والحداثة والتي قوامها أنّ المادّة عبارة عن عنصرٍ مؤنّث، والهيئة عبارة عن عنصر مذكّر؛ متأثّرةٌ في واقعها بالأطروحة الأساسية في الأساطير الإغريقية باعتبار أنّ الإله الرجل هو والد السماء والإلاهة الأنثى والدة الأرض.

13) الفكرة المطروحة في الفكر المعاصر والمرتكزة على أساس أنّ الرجل مظهرٌ للخلوص والروحانية، والمرأة مظهرٌ للنزوات الجنسية والرغبات الجسمانية؛ من الممكن أن تكون منبثقةً بمبدأ سيادة الرجل المشهود في الأساطير الإغريقية.

سادساً: الأخلاق

سوف نتطرّق في هذا المبحث إلى الحديث عن واقع الأخلاق وأبرز معالمها في الأساطير الإغريقية، ثمّ نذكر جانباً من تداعياتها في الفكر الحديث:

1) أخلاق أبطال أساطير هوميروس

القيم الأخلاقية التي بسطت نفوذها بين الأوساط الفكرية الأوروبية في العصر الحديث، اتّسمت بذات الخصائص المشهودة في حكايات الأبطال الأسطوريين ببلاد الإغريق، فالشاعر الملحمي هوميروس على سبيل المثال أكّد في ملاحمه الشعرية على ضرورة أن يكون القائد أكثر الناس قدرةً ومحبّةً ولا بدّ أن ينحدر من الطبقة الأرستقراطية في المجتمع، وعلى هذا الأساس فالميزة الفارقة لأخلاق الأبطال الأسطوريين هي الأداء المميّز أو الفضيلة (Arete) قد تبلورت في سجاياهم النفسية وانعكس على أساسها أسلوب تفكيرهم في تلك الحقبة القديمة فضلاً عن دلالتها على براعة الرياضيين والمحاربين من الرجال ومهاراتهم البدنية، إلى جانب دلالتها على شجاعة الأبطال الأسطوريين.

الجدير بالذكر هنا أنّ شجاعة الأبطال في الخطاب الميثولوجي الإغريقي تتّحد فيها السجايا الأخلاقية الرفيعة مع القدرة البدنية الفائقة بحيث لا ينفكّان عن بعضهما مطلقاً، ناهيك عن أنّ الأداء المميّز لا يعتبر المعيار الوحيد الذي يعرف على أساسه الأبطال والشجعان، ففي ملحمة الأوديسة على سبيل المثال اتّسموا بفضائل نفسيّة فريدة تفوق الشجاعة مثل الذكاء والدهاء.

ومن الميزات الأخرى للأداء المميّز الذي اختصّ به الأبطال الأسطوريون، إطلاق صفة (Agutos) عليهم والتي تعني الخير والبرّ، لذا حينما يستخدم كاتب الأسطورة هذا المصطلح لوصف أحد الأبطال فهو يقصد بيان شجاعته ونُبل شخصيته.

إذاً، يمكن اعتبار (Arete) و (Agutos) - أي الفضيلة والخير - منبثقين من أصلٍ واحدٍ، فكلاهما يحكيان عن أحوال النبلاء من الرجال الذين عرفوا بفضلهم وحنكتهم وشجاعتهم في حياتهم الخاصّة وبطولاتهم في سوح القتال بحيث تميّزوا عن سائر الناس في هذه الصفات الفريدة.

استناداً إلى ما ذكر تقيّدت الحكومة المدنية الإغريقية بنظامٍ أخلاقيٍّ قوامه شجاعة الأبطال، وهذه الفضيلة الأخلاقية تعتبر تراثاً إغريقياً للأخلاق النبيلة والبطولية، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الفضيلة قد وصفت في مبادئ الحكومة المدنية الإغريقية بالرجولة، لذا لا نبالغ لو قلنا أنّ هذه الرؤية تتناغم مع مضامين أسطورة هوميروس، وذلك لأنّ الشجاعة فيها مساوقةٌ للرجولة - أي فضيلة الرجال - وهنا نلاحظ أنّ الفضيلة الأخلاقية في الحكومة المدنية تنسجم مع هذا المعنى بشكلٍ كاملٍ.

المعيار الآخر في أخلاق الشجاعة الأسطورية في بلاد الإغريق، يتمثّل في الشهامة والسخاء في الحياة الاجتماعية، كما وصف هوميروس الأبطال في ملاحمه الشعرية بأنّهم أهلٌ لتحمّل المسؤولية.

البطل الإغريقي كان يقيّم وفق معايير دقيقةٍ ومتشدّدةٍ للغاية، وهو بدوره يفتخر بهذا التشدّد ويعتبره مدعاةً للاعتزاز بنفسه لكونه أهلاً له، والشعور بالمسؤولية من قبل الرجال النبلاء يحفّز سائر أبناء المجتمع على دعوته إلى القيام بمهامّة الملقاة على كاهله، لذا إنْ تقاعس عن ذلك فهو يواجه عقاباً عادلاً من قبل الآخرين. والجدير بالذكر هنا أنّ الشعار الأخلاقي في ملحمة الإلياذة الشعرية يتمثّل في هذا المصراع: "إسبق الآخرين دائماً وكُن الأوّل"،[1] وطالما رفعه علماء الأخلاق في المجتمعات الغربية.[2]

---

[1]- الإلياذة، المقطوعة السادسة، المصراع رقم 208.

[2]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 43 - 45.

وتفيد الأساطير الإغريقية أنّ الطبقة الاجتماعية الأرستقراطية هي منشأ الأبطال، فأبناء هذه الطبقة بحسب مشيئة الآلهة كانوا أعلى درجةً من سائر الناس، لذلك نالوا دعماً من الآلهة بشكلٍ مستمرٍّ،[1] وهذا ما أكّد عليه الباحث فيرنر جايجر الذي أشار إلى خصلةٍ أخرى من خصال الأبطال الأسطوريين في بلاد الإغريق استنتجها من دراساته وبحوثه التأريخية التي أجراها في هذا المضمار، وهي رغبتهم في نيل الملذّات، ولإثبات هذا الاستنتاج استشهد بشخصيّة ميمنيرموس (Mimnermos) الذي هو من أهالي مدينة كولوفون، فهو يشابه الشاعر الغنائي الإغريقي الشهير سيمونيدس[2] (Simonides) الذي كان معلّماً وحاملاً لرسالة اللذّة التي تجسّدت أيضاً في أشعار الشاعر الغنائي أرخيلو خوس (Archilophus) باعتبارها فرعاً من الغرائز الطبيعية والرغبات العابرة التي لا تدوم، وقد اعتبر اللذّة في أهمّ أثرين خلّفهما للأجيال اللاحقة بأنّها الهيئة التامّة للمعرفة والهدف من حياة البشر. ميمنيرموس تساءل قائلاً: ما فائدة الحياة بدون أفروديت؟! الموت أفضل لي من أن أعيش دون حبٍّ ولذّةٍ.

نلاحظ ممّا ذكر أنّ اللذّة الشخصية في الشعر الإغريقي كانت أمراً بديعاً وجذّاباً، لذلك أثّرت غاية التأثير في ما بعد على ثقافات الأجيال اللاحقة ومناهجها التربوية، لذا يمكن اعتبار تغلغل هذا الأمر في عمق الشعر القديم باعتباره مبدئاً فكرياً، بأنّه مثّل أهمّ مراحل النزعات الأخلاقية لدى الشعراء الذين ذاع صيتهم في تأريخ بلاد الإغريق، وتجدر الإشارة هنا إلى مسألةٍ ذات ارتباطٍ بذات الموضوع، ألا وهي الإرادة الفردية، فقد كانت طوال التأريخ الإغريقي الحافل محوراً ارتكازياً على صعيد الأخلاق والسياسة، ولهذا السبب لم ينفكّ الأدباء - والشعراء بالأخصّ - عن وصف التنازع الحاصل بين اللذّة والنُبل.

---

[1]- المصدر السابق، ص 62.

[2]- 556 - 468 B. C.

الشعراء الذين تلو عهد أرخيلو خوس لم يهدفوا من الترويج للملذّات في أشعارهم تشجيع الناس على اللهث وراء الشهوات والنزوات النفسية الزائلة والعابرة، بل اعتبروا هذا الأمر عامّاً وشاملاً لجميع الناس لأنّ كلّ إنسانٍ له الحقّ في التمتّع بحياته ولكن بحسب أصولٍ معيّنة. فعند اجتماع الأصدقاء والأخلاء (Symposium) لهم الحقّ في تناول الشراب، إذ المتعارف في النهج الفكري الإغريقي أنّ الرجال أحرارٌ من الناحية الشخصية، وكذا هو الحال في عصر التنوير الفكري ولكن بنمطٍ آخر، حيث اعتبرت التجمّعات والمنتديات كمحافل للنهوض بالحرّية الفردية.[1]

الفيلسوف الألماني الشهير فريدريك نيتشه لـخّص شخصية الأبطال الأسطوريين كما يلي: الميزات الأخلاقية الأساسية التي اتّصف بها الأبطال الأسطوريون في التأريخ الهيليني هي كالتالي: الجرأة الجنونية واللامعقولة والأنانية، وكلّ بطلٍ كان يعتبر نفسه منحدراً من نسلٍ راقٍ، ولديه رغبةٌ جامحةٌ في الترفيه عن النفس بعنفٍ وفظاظةٍ، إضافةً للميل إلى الملذّات المادّية والتلذّذ في الدمار والتخريب والقسوة.[2]

وقد اعتبر نيتشه هذه الميزات قد تبلورت بكلّ ما للكلمة من معنى في التأريخ الإغريقي القديم، وفي هذا السياق أكّد على أنّ المبادئ الأكسيولوجية للطبقة الأرستقراطية التي نشأ فيها الأبطال الأسطوريون، تمحورت حول القابليات المادّية والقدرة البدنية، حيث تجسّدت في الحروب والمغامرات والصيد والرقص والحركات الرياضية صعبة الأداء؛ وخلاصة الكلام هي أنّ الهدف كان استثمار كلّ مصدرٍ للقدرة والحرّية واللذّة.[3]

---

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 194 - 198.

[2]- Nitzsche F. 1901, Lagenealogide la morale, Paris: Societe du “Mercurede France, Genealogy of moral, p. 57 - 59.

[3]- Ibid, p. 43.

2) تأثير أخلاق البطولات الأسطورية الإغريقية على أخلاق عصر الحداثة

الفيلسوف الفرنسي جورج سوريل يوجين استنتج في دراساته أنّ عصر التنوير الفكري في أوروبا تأثّر بسيرة الطبقة الأرستقراطية التي بسطت نفوذها في المجتمعات الإغريقية القديمة بحيث تمّ إحياء المبادئ التي كانت سائدةً في تلك الآونة لتصبح مثُلاً يُحتذى بها في جميع جوانبها، وبما في ذلك الأخلاق، لذا حدثت بعد هذا العصر تغييراتٌ مذهلةٌ وغير متوقّعةٍ في العالم الغربي وإثر ذلك تجلّت تلك المثُل القديمة أمام مرأى الإنسانية وفي توجّهاته الفكرية.[1]

الباحث الأمريكي جوزيف كامبل وصف فريدريك نيتشه بأنّه فيلسوفُ ثقافة العصر الحديث، وقال إنّه في كتابه الذي دوّنه تحت عنوان «هكذا تكلّم زرادشت» اعتبر الربّ ميّتاً بقوله «مات الإله»، وهذه العبارة هي في الحقيقة كنايةٌ عن نهاية عهد الآلهة وبداية عهد الأبطال في الأساطير الإغريقية في التأريخ الغربي الحديث ممّا يعني أنّ الأساطير المذهلة التي تنمّ عن بلوغ الإنسانيّة مرحلة الرشد قد تبلورت على أرض الواقع في عصرنا هذا بعد أن كانت حبيسةً في أعراف وتقاليد القرون الوسطى، حيث تجسّدت في الأوساط الفكريّة على ضوء طرح خطابٍ من قبل رجلٍ عظيمٍ - هو فريدريك نيتشه - وثمرة ذلك استيقاظ العقل من رقوده الذي دام طويلاً ونيله معرفةً تامّةً، فهو كالفراشة التي تخرج من شرنقتها وكالشمس التي تشرق وتشقّ جُنح الظلام وكأنّها تولد من رحم الليل الداكن، وبهذا الشكل استيقظ الإنسان الأوروبي من تلك الغفلة التي أطبقت على أسلافه ليلج في حياةٍ أخرى لا أثر للآلهة فيها.[2]

وفي مقابل ذلك نلاحظ في العصر الحديث أنّ شخصية الإنسان البارع والنابغة

[1]- Sorel Georges 1976, Essays in Socialism & Philosophy, edited and translted by John and Charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford university press, p. 213.

[2]- Campbell, Joseph 1973, Myth to live by, Bantam books, p. 387.

هي المصدر والمعيار الحقيقي للقيم، وبفضلها ظهر إلى الوجود خيرٌ من نمطٍ جديدٍ بعد تجاوز أسوار المحظورات الأخلاقية الموروثة من السلف، فهذه المحظورات التي عانى منها الإنسان الغربي أسفرت عن حدوث آلامٍ ومآسٍ وحسدٍ واختلافاتٍ عنصريّةٍ وطبقيّةٍ جرّت الويلات على المجتمعات الغربية. وفريدريك نيتشه بدوره نفى وجود أيّ معيارٍ أو مبدأ أكسيولوجي متعالٍ وكلّي بحيث يضطرّ الإنسان للخضوع له والتقيّد به بشكلٍ مطلقٍ، إذ إنّ كلّ مبدأ في حقيقته ليس سوى نتاجٍ من صنع الإنسان نفسه، وعلى أساس هذه الفكرة طرح نظريته التي أكّد فيها على أنّ الإرادة فرعٌ على القدرة، فإرادة أصحاب النفوذ في المجتمع على غرار إرادة الأبطال الأسطوريين من حيث كونها تتقوّم على الشوكة والاقتدار، في حين أنّ الإنسان المتديّن عادةً ما يكون مقيّداً بالقيم الأخلاقية المسيحية مثل الإيثار والتواضع ومساعدة الفقراء والمحرومين. وقال بأنّ الأساطير القديمة اعتبرت عامّة الناس ضعفاء وينحدرون من طبقةٍ متدنيةٍ، كما أنّ القيم الأخلاقية المسيحية تتعارض مع فكرة كون الإرادة فرعاً للقدرة.

الجدير بالذكر هنا أنّ نيتشه حذا في أطروحاته الفكرية حذو المثُل المعتمدة في الأساطير القديمة وعصر البطولات بالتحديد ليتبنّى رؤيةً أخلاقيةً متطرّفةً تتقوّم على نزعةٍ إنسانيةٍ بحتةٍ ولا تقيم أيّ وزنٍ للقيم المتعالية بحيث لـخّص القدرة بقضايا مادّية ودنيوية صرفة لدرجة أنّه اعتبر كُنه الإنسان وباطنه أرضياً مطلقاً من منطلق اعتقاده بأنّ النزعة الروحانية تعدّ عقبةً أمام اقتدار الإنسان العظيم أو الإنسان الأمثل الذي صوّره في نظريته.[1]

إضافةً إلى أنّ المبادئ الأخلاقية الإلحادية التي تبنّاها هذا الفيلسوف الغربي قد تأثّرت بأساطير الأبطال الإغريق، فالمنظومة الأخلاقية لسلفه الفيلسوف جان بول

[1]- Arrington Robert 1998, Western Ethics, Blackwell, p. 363- 368.

سارتر[1] (Jean Paul Sarter) تقوّمت على نظرية "الإنسان - الإله" أوعز مسؤولية جميع الحوادث التأريخية إلى البشر رغم عدم إمكانية هذا الأمر من الناحية العقلية. وهذا التوجّه المخالف للعقل استعرضه الفيلسوف الفرنسي الذي ينحدر من أصولٍ جزائريّةٍ ألبير كامو[2] (Albert Camus) ضمن الآثار والنصوص المسرحية التي دوّنها حول الأخلاق الخارجة عن نطاق العقل،[3] حيث جعله خاوياً وعبثياً.

وجهات النظر الأخلاقية للفلاسفة الثلاثة المشار إليهم أعلاه تقوّمت في أساسها على نظرية نهاية عهد الآلهة والأبطال الأسطوريين، بينما الرؤية التي تبنّاها الفيلسوف إيمانوئيل كانط والمرتكزة على مبدأ عقلانية الدين، لا يُستبعد أن تكون منبثقةً في أساسها من النزعة الوظائفية الأخلاقية التي كانت سائدةً في زمن الأبطال الأسطوريين، وهذا ما نوّه عليه الباحث فيرنر جايجر حينما قال: يبدو أنّ الوظائفية الأخلاقية التي بلغت ذروتها في نظرية إيمانوئيل كانط، قد تأثّرت بأخلاق الأبطال الأسطوريين الذين ذاع صيتهم في التأريخ اليوناني القديم، ونلمس هذا الأمر جلياً في النصائح التي وجّهها بعض الفلاسفة المحدثين للمجتمعات البشرية وعلى رأسهم رينيه ديكارت والتي فحواها ضرورة البحث عن المعايير الأساسية في أنفسنا كبشرٍ. وبحسب هذا المعيار نشأ العقل العملي الكانطي، حيث أوكل الأخلاق إلى إرهاصات الإنسان الباطنية وطالبه بأن يعتبر حرمة أقرانه البشر انعكاساً خارجياً لقيمتهم الذاتية، فهذه الحرمة مرآةٌ تعكس حقيقة المجتمع. الحقيقة أنّ هذه الرؤية تعدّ صورةً معدّلةً نوعاً ما للأساطير البطولية المأثورة عن هوميروس الذي اعتبر احترام المجتمع كمعيارٍ أساسيٍّ للبطولة والشجاعة الواقعية، فالبطل برأيه ليس خارجاً عن نطاق المجتمع، بل هو

---

[1]- 1905 - 1980.

[2]- 1913 - 1959.

[3] - مريم صانع پور، فلسفه اخلاق و دين (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «آفتاب توسعه»، 2003م ، ص 62 - 64.

عضو فيه. وهوميروس حذا حذو سائر أبناء الطبقة الأرستقراطية من معاصريه في التأكيد على ضرورة احترام الأبطال كما يليق بهم باعتبار أنّ عدم احترامهم يعتبر كارثةً إنسانيةً كبرى. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ رغبة الأبطال الأسطوريين في نيل احترام الناس والتفاخير بينهم، كانت جامحةً إلى أقصى حدٍّ وقد اعتبرت واحدةً من المثُل الأخلاقية العليا في تلك الحقبة من الزمن.

استناداً إلى ما ذكر يمكن وصف المنظومة الفكرية للشعب اليوناني القديم بأنّها تقوّمت على الذات الشخصية للإنسان بحيث لا نجد فيها مفهوماً من شأنه أن يُقارن مع ذات الإنسان وشخصيته، في حين أنّ الأمر ليس كذلك في الفكر المسيحي الذي بسط نفوذه في العالم الغربي إبّان القرون الوسطى، حيث اعتبرت التعاليم الدينية المسيحية رغبة الإنسان في نيل احترام أقرانه البشر وتقديرهم بأنّها ضربٌ من الغرور والكبر، ومن ثمّ فهي إثمٌ يجب الحذر منه، لذا نستنتج من هذه الظاهرة الفكرية أنّ الأخلاق السائدة في العصر الغربي الحديث قبل أن تتأثّر بالنزعة الإنسانوية التي فرضت نفسها على الساحة الفكرية بعد عصر النهضة والحداثة، تأثّرت بالمبادئ الميثولوجية الإغريقية التي اعتبرت الإنسان باحثاً عن مثُلٍ اجتماعيةٍ في ما وراء كيانه الذاتي، حيث يتبلور علوّ شخصيته على أساس مساعيه هذه، ومن هذا المنطلق نجد الفضيلة البطولية في الأساطير الإغريقية لا تتكامل وتبلغ الذروة إلا بعد موت البطل، لكنّها تبقى حيّةً ومتلازمةً مع اسمه وشخصيته المثالية.[1]

لو تصفّحنا جوانب فلسفة الأخلاق في العصر الغربي الحديث، لوجدنا بعض المبادئ الأخلاقية العليا تندرج إلى جانب الوظائفية التي تمّ التأكيد عليها، مثل الحقّ الطبيعي للإنسان والنسبوية والإرادة والحرّية. وحينما نتتبّع جذور هذه المبادئ في المنظومة الفكرية الغربية لألفيناها متغلغلةً في عمق العصر الأسطوري الثالث الذي

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 48.

سنشير إلى تفاصيل بعض أساطيره ضمن الفصل الذي خصّصناه للبحث والتحليل حول موضوع المدنية في هذا الكتاب.

عالم الرياضيات والفيلسوف البريطاني توماس هوبز[1] (Thomas Hobbes) هو أحد فلاسفة الأخلاق، وقد تمحورت نظريته الاجتماعية حول مسألتي الحقّ الطبيعي والنسبوية الأخلاقية، كما أنّ البنية الأساسية للفلسفة الأخلاقية في نظريات الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا[2] (Baruch Spinoza) قوامها الذاتانية العقلية. بينما فلسفة إيمانوئيل كانط[3] (Immanuel Kant) الأخلاقية عبر ارتكازها على مقوّمات ذاتانية، اعتبرت الإنسان بمثابة بطلٍ أسطوريٍّ له القابلية على بلوغ أعلى درجات المعرفة ممّا يعني تكامل تصوّراته الذهنية واستغناء منظومته الأخلاقية عن الدين ووحي السماء لكونها ترتقي في رحاب المثُل الإنسانية، فالفضيلة برأي هذا الفيلسوف عبارة عن أمرٍ ذاتي بينما العمل أمرٌ خارجي، لذا لا يوجد بينهما أيّ ارتباطٍ حقيقي.[4]

الجدير بالذكر هنا أنّنا نجد بصمات الأساطير الإغريقية في جميع مراحل تأريخ فلسفة الأخلاق الغربية وفي مختلف جوانبه، وممّا ذكره الباحث فيرنر جايجر على هذا الصعيد أنّ النظريات الأخلاقية التي وصلتنا من تراث أفلاطون وأرسطو فيها العديد من المبادئ التي تتناغم مع مشارب طبقة النبلاء في المجتمع الإغريقي القديم، لذا حتّى وإن افتقدت المفاهيم الأسطورية السالفة طابعها الاجتماعي الطبقي جرّاء ولوجها في البنية العامّة والمتعالية للفكر الفلسفي، إلا أنّها في واقع الحال بقيت على

---

[1]- 1588 - 1679.

[2]- 1632 - 1677.

[3]- 1724 - 1804.

[4]- Arrington 1998, 210, 280 - 294; Copleston, Fredrick 1948, A History of philosophy, search press, London, v. p. 331.

راجع أيضاً: مريم صانع پور، فلسفه اخلاق ودين (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «آفتاب توسعه»، 2003م، ص 36 - 56.

حالها ولم تُمسخ هويتها بتاتاً. نلاحظ في العديد من آراء أرسطو صبغةً تناظر ما هو متعارف بين الشعب الإغريقي على مرّ العصور الفكرية، حيث نستشفّ منها أنّ الشخصيات التي تمّ تصويرها في أساطير هوميروس تعتبر مثُلاً يجب الاحتذاء بها، لذلك صاغ مفاهيمه الأخلاقية وفصّلها ضمن هذا النمط من التصوّر، ومن أمثلة ذلك أنّه اعتبر آخيل (أخيليوس) وأومايوس أنموذجين للفضل والرفعة الإنسانية والأخلاق المثلى للذين ينحدرون من الطبقة الاجتماعية الأرستقراطية، والنُبل بحسب هذه الرؤية يعتبر أهمّ مؤشّرٍ على علوّ الروح وسموّ الأخلاق.

لقد حذا أرسطو حذو هوميروس حينما وصف الفضيلة بأنّها مدعاةٌ للاحترام،[1] حيث اعتبر جزاءها ذلك الاحترام الذي يكنّه الناس لمن يتحلّى بها، وهذا الأمر أكّد عليه هوميروس أيضاً، كما اعتبر مساعي الإنسان لنيل أكمل الفضائل منبثقةً من أشرف أنواع حبّ الذات أو من شعوره بالأنانية، وضمن نظريته التي تمحورت حول الحبّ المثالي للذات أو الأنانية المثالية والتي دافع عنها مقابل ما كان سائداً في عصره من مبدأ إرادة الخير للجميع، توصّل إلى أنّ البنية التحتية للأخلاق الإغريقية القديمة تعدّ أسمى قاعدة للفضائل، وهذه البنية تتقوّم على نيل أكبر مقدارٍ من الجمال النفسي، وهذا الأمر بطبيعة الحال ناشئٌ من حبّ الذات الكامن في باطن كلّ إنسانٍ.

هذه الرؤية المتقوّمة على مبدأ حبّ الإنسان لنفسه مطروحةٌ بذاتها في ضمن النهج الفكري المتعارف في العصر الحديث على ضوء نظريّة مركزيّة الإنسان والتي ظهرت على الساحة الفكريّة الغربيّة إبّان القرن الثامن عشر، وتبلورت على ضوء المساعي التي بذلت من قبل الإنسان الحديث لنيل الكمال والغنى النفسي.

من جملة ما طرحه أرسطو من آراء أنّ حبّ الذات هو العامل الذي يحفّز الإنسان على التضحية في سبيل هدفه المنشود، فمن يشعر بحبٍّ جيّاشٍ لذاته يرجّح

[1]- أرسطو، اخلاق نيكو ماخوسي (باللغة الفارسية)، الكتاب الرابع، الفصل السابع، 1123 ب.

امتلاك حياةٍ قصيرةٍ مليئةٍ بالبهجة والنشاط على حياةٍ طويلةٍ مملّةٍ ولا حيويّة فيها. وعلى هذا الأساس قال إنّ الشهرة هي أساس الشوق للبطولة، حيث تجعل الإنسان مستعدّاً للتخلّي عن أمواله وأملاكه المادّية كما تحفّزه على تحمّل العناء والمشقّة في سوح القتال، وهي التي شجّعت الأبطال الأسطوريين على التضحية بأنفسهم في الحروب الإغريقية. وقد طرح أفلاطون هذه الفكرة في حوار يوثيديموس المطروح في نصّه الفلسفي المدوّن تحت عنوان "الندوة". وهذا الشوق قد انعكس بذاته في آثار الشعراء والقوانين التي سنّها الحكّام، إذ إنّ الهدف منها هو إنجاز مشاريع فكريّةٍ وروحيّةٍ ذات شأنٍ رفيعٍ، فكلٌّ من الشعراء والمقنّنين سخّروا مساعيهم لتحقيق طموحات الإنسان الفاني التي تقوده إلى تلك الحياة الأزلية غير الفانية.

وفي شعره الذي نظمه للثناء على فضائل صديقه هيرمياس (Hermias) حاكم مدينة أتارنيس، ربط أرسطو بين مفهومه الفلسفي بخصوص الفضيلة بمفهوم الفضيلة البطولية الذي تبنّاه هوميروس، وفي هذا السياق اعتبر أخيليوس وأومايوس أنموذجين للفضل والرفعة الإنسانية والأخلاق المثلى.[1]

الباحث أنطوان فيفر ضمن دراساته التي أجراها حول الأساطير الهرمسية، استدلّ على أنّ التعدّدية تعتبر واحدةً من القيم الأخلاقية التي تقوّمت عليها الأساطير الإغريقية، وفي هذا السياق أكّد على أنّ هرمس الذي حمل رسالة الآلهة دعا الإنسان إلى التحلّي بأخلاقٍ تعدّديةٍ ولم يطلب منه الاتّصاف بأخلاقٍ كلّيةٍ تناظر الأخلاق الفلسفية التي تتّسم بطابعٍ تعدّدي كلّي. أضف إلى ذلك أنّ الأخلاق التعدّدية الهرمسية لم ترتبط فقط بالتمايز بين الأجسام المختلفة أو التمايز بين الجسم والنفس والروح، وإنّما تؤكّد الأسطورة الهرمسية على وجود عدّة آلهةٍ في جسم الإنسان وذاته.[2] وبهذا

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 48 - 54.

[2]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 66 - 67.

البيان يثبت لنا أنّ النظرية الأخلاقية الهرمسية قد طرحت وفق مبدأ تعدّد القيم.

الجدير بالذكر هنا أنّ الفيلسوف وعالم النفس الأميركي وليام جيمس[1] (William James) يعتبر واحداً من أبرز المفكّرين الذين طرحوا نظريات حول التعدّدية الأخلاقية في العصر الحديث، فالتعدّدية المتقوّمة على النزعة الواقعية تدرج ضمن أطروحاته الفكرية المتقوّمة على أُسس فلسفته العملية، كما أكّد في فلسفته الأخلاقية على أنّ رضا الإنسان معيارٌ للتميز بين الحقّ والباطل، وأناط تحقّق الخير والصلاح في المجتمع إلى الجهد المشترك بين الإنسان الذي يمتلك حرّيةً وإرادةً مطلقةً وبين الإله المحدود في صناعة العالم، وفي هذه الحالة تصبح مساعي الإنسان والإله المحدود عبارة عن عملٍ مشتركٍ محصّلٍ يهدف إلى إيجاد نظامٍ أخلاقي.

وقد وصف السلوك الأخلاقي بأنّه كسائر السلوكيات التي تصدر من الإنسان لكونه وليداً لقابلياته الفكرية، والفكر بدوره مرتكزاً في أساسه على تحقّق المعرفة. وضمن نظريته التي أكّد فيها على كون رضا الإنسان معياراً لصحّة العمل الأخلاقي أو بطلانه، تبنّى نهجاً مغايراً لما تبنّاه الفيلسوف إيمانوئيل كانط، حيث رفض أن تكون الذاتية الإنسانية منطلقاً لتقييم السلوكيات الأخلاقية، واعتبر الذات متقوّمةً على الموضوع، وبهذا طرح التديّن المواكب للسلوك الأخلاقي بصيغةٍ تختلف عمّا تبنّاه كانط، وذلك باعتبار أنّه متقدّمٌ على هذا السلوك.[2]

العدل الأخلاقي هو الآخر يعدّ واحداً من الأصول الأخلاقية العليا والمبادئ الخلقية الارتكازية في العصر الحديث، حيث يضرب بجذوره في الأساطير الإغريقية، فقد روى الكتّاب الأسطوريون وجود إلهين عظيمين إلى جانب إله الآلهة زيوس، هما إله الحقّ

[1]- 1842 - 1910.

[2]- Copleston 1984, A history of philosophy, search press, London, v., p. 87 - 101.

راجع أيضاً: مريم صانع پور، فلسفه اخلاق و دين (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «آفتاب توسعه»، 2003م، ص 74 - 77.

والعدل العالمي تيميس (Themis) وإلاهة العدل الإنساني ديكي (Dike)، وهذان الإلهان كانا يحذّران الرجال من القيام بأعمالٍ باطلةٍ، ويرى هسيود أنّ الإنسان حينما يرتكب عملاً شرّيراً يغادر الإلهان تيميس وأيدوس الأرض ويذهبا قرب الكائنات الخالدة وهما متنقّبان ويرتديان ثياباً بيضاء.[1]

3) تأثير الأساطير الإغريقية على رواج علم الجمال في فكر التجدّد الغربي

الباحث فيرنر جايجر بعد أن تطرّق إلى دراسة وتحليل الميثولوجيا الإغريقية، احتمل عدم وجود تمايزٍ بين الأخلاق وعلم الجمال في الأساطير الإغريقية،[2] وذلك لأنّ الأخلاق التي كانت مثاليةً آنذاك هي ما أُريد منها الخير للبشر، وهذا هو فحوى الجمال في تلك الآونة، وإلى هذا التعريف الذي يستبطن مداليل ميتافيزيقةً نجد هذه الأساطير تؤكّد على أنّ الفضيلة المثلى التي تتمتّع بها المرأة مقابل فضائل الرجل الجسميّة والروحيّة، هي جمالها بغضّ النظر عن سائر أبعادها الشخصية والأخلاقية التي كانت مهمّشةً في الحقيقة، إذ إنّ الرؤية الأسطورية للجنس الأنثوي قوامها أنّ الأنثى مجرّد وسيلةٍ يراد منها إشباع رغبات الرجال في نيل حظٍّ أوفر من الجمال.

وفي هذا السياق أشار الباحث إديث هاملتون في دراساته الميثولوجية إلى أنّ الحبّ الجنسي قد حظي باهتمامٍ بالغٍ في الأساطير الإغريقية، ومن أمثلة ذلك إله الآلهة زيوس الذي كان لديه عشقٌ جنونيٌّ للفتيات البواكر من بني البشر، حيث كان يبيد منافسيه بكلّ قسوةٍ عن طريق الصواعق والزلازل والبراكين، كما أنّ زوجته هيرا كانت إلاهةً للحسد، والإلاهة أفروديت لم تتوانَ عن تسخير حسنها الفاتن لإيقاع الرجال في حبائل عشقها.

---

[1]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 37 - 38.

[2] - فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 64.

إذاً، يمكن وصف آلهة جبل الأوليمب عموماً بأنّهم في ذروة الشهوانية والرغبات الجنسية لدرجة أنّهم نافسوا البشر للفوز بمن تعشقه قلوبهم،[1] كما تضمّن السرد الأسطوري حكايات دلّت على وجود علاقاتٍ جنسيةٍ بين الآلهة الذكور والأبطال، ومن جملتها أسطورة أخيليوس وباتروكلوس (Patroclus)، حيث انعكست فيها أحداث تنمّ عن الفساد الجنسي للآلهة والأبطال.[2]

الباحث جوزيف كامبل اعتبر العشق الجنسي، أي إله الشبق إيروس (Eros)، بأنّه هو الذي يثير الرغبات الجنسية، وهذا يعني أنّه إثارةٌ أحيائيةٌ تنمّ عن ميول الأجسام لبعضها البعض، فالعاشق يبذل كلّ ما بوسعه للاستحواذ على جسم معشوقه، بينما أجابي (Agape) الذي يعني المحبّة فهو يدلّ على أسمى عشقٍ وتجربةٍ روحيةٍ، وينشأ لدى الإنسان حينما تُلاقي عيناه عيني من يعشقه لتتولّد لديه تجربةٌ روحيةٌ فريدةٌ من نوعها في الحبّ والهيام.

ومن جملة الآراء التي طرحها هذا الميثولوجي الأميركي أنّ نشأة الحبّ الرومانسي في العالم الغربي قوامها نزعةٌ جنسيةٌ شهوانيةٌ، والله نهى عن حبٍّ من هذا القبيل، فهو يسوق الإنسان نحو حياةٍ ملؤها اللهث وراء النزوات الجنسية وإشباع الشهوات.[3] وعلى هذا الأساس رأى أنّ قلبي الزوجين لا يتّحدان في الزواج، بل يتّحد جسماهما ليصبحا هيكلاً واحداً لأنّ المطلوب هو أن يعمل المجتمع على تربية أعضائه باعتبارها كائنات حيّة؛ وفي مقابل ذلك فالإنسان حينما يعشق ليس دافعه بطبيعة الحال الدفاع عن مجتمعه، وإنّما يسعى في مسيرة عشقه إلى إشباع شهواته الجنسية ونزعاته الغريزية.

---

[1]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 48 - 52.

[2]- Percy William Armstrong 1999, Pederasty and pedagogy in archaic Greece, Rputledeg, p. 54.

[3]- Campbell with Moyers 1988, The power of myth, ed. Betty Suflowers, double day, p. 18.

كما لـخّص القيم الأساسية للبطولة في الأساطير بالمبادئ الخمسة التالية:

- الاعتدال
- الشجاعة
- الحبّ
- الإخلاص
- الأدب

مراعاة هذه القيم في تلك الآونة اعتبرت ضرورةً في السلوكيات الاجتماعية، إلا أنّ الحبّ وحده من بينها اعتُبر سبيلاً للسير نحو الجنون، ولدى بيانه لتفاصيل لذّة الحبّ وطبيعة ارتباطها بمسألة تشكيل الأسرة في المجتمع الحديث، وصف كامبل الزواج بأنّه يجسّد علاقةً غير حبّيةٍ، بل هو مجرّد التزامٍ بآدابٍ ومقرّراتٍ معيّنةٍ لأنّ علاقة الحبّ تختلف بالكامل عن هذا الالتزام والحبيبان يسعيان من خلالها إلى نيل أكبر حظٍّ من البهجة واللذّة، لذلك عندما تتجرّد هذه العلاقة من البهجة واللذّة سوف تصل إلى نهايتها وتنقطع.

كما تحدّث كامبل في دراساته الميثولوجية عن النزعة إلى اللذّة - مذهب المتعة - عند إنسان العصر الحديث، ادّعى أنّ وفاء أحد الزوجين للآخر لا يمنعهما من إقامة علاقة حبٍّ مع الجنس المخالف، حيث نجد في أساطير الحبّ الإغريقية المثيرة علاقات حبٍّ بين الزوج ونساء أخريات غير زوجته، لذا لا نبالغ لو قلنا أنّ طبيعة الحبّ هي حياده عن خطّ الأخلاق المتعارفة في المجتمعات البشرية، فهو حقيقةٌ من سنخ الأسرار التي تسحق القانون وتشوّش النُّظم المتعارف بين الناس، إنّه تجربةٌ روحيةٌ شخصيةٌ ذات نظمٍ اجتماعيٍّ خاصٍّ تنشأ لدى العاشق في ما وراء علاقته الزوجية.[1]

[1]- Campbell with Moyers 1988, The power of myth, ed. Betty Suflowers, double day, p. 19 - 23.

نستنتج ممّا ذكر من آراء أنّ فكر التجدّد الغربي من حيث المبادئ الخاصّة بالحبّ واللذّة والجمال، تأثّر بشكلٍ ملحوظٍ بالتراث الأسطوري، حيث اقتبس من الأساطير الإغريقية القديمة مفاهيم وأسس بخصوص ما ذكر، حيث انطبعت فيه بصمات القصص الجنسية في عصر الأبطال ونلمس فيه ذات التوجّهات التي تقوّمت عليها حكايات ملحمتي الإلياذة والأوديسة لهوميروس ونجد فيه أيضاً نفس مبادئ جينيالوجيا هسيود.

*** نتيجة البحث:**

في ما يلي نشير إلى مختلف جوانب تأثير الأساطير الإغريقية على النظريات والقيم الأخلاقية الحديثة بشكلٍ مقتضبٍ طبقاً لما ذكر في المبحث الآنف:

1) بعد انتهاء عهد الفكر المدرسي الذي بسط نفوذه على الساحة الأوروبية إبّان القرون الوسطى التي شهدت سيطرة أرباب الكنائس على الأوضاع، انطلقت مرحلةً تأريخيةً جديدةً تمثّلت بعصر النهضة والحداثة، وامتاز هذا العصر بإحياء الفكر الإغريقي القديم، حيث تبنّى المعترضون على النظام الكنسي الاستبدادي رؤيةً هيلينيةً وراحوا يبحثون عن جذورهم الفكرية في تأريخ بلادي الروم والإغريق، وفي هذا السياق اعتبروا الأديان الإبراهيمية وبما فيها المسيحية طبعاً، بأنّها أديانٌ شرق أوسطية، وعلى هذا الأساس باتت المبادئ والأخلاق المسيحية برأيهم أمراً مفروضاً على الثقافة الغربية وليس منبثقاً من باطنها؛ لذلك بادروا إلى تتبّع أصولهم وهويتهم الأخلاقية في بلاد الإغريق.

2) المفكّر الألماني فريدريك نيتشه باعتباره فيلسوفاً وعالم ميثولوجيا، سخّر جانباً من نشاطته الفكرية لإشاعة المبادئ الأخلاقية الموروثة من عهد البطولات في إطار خطابٍ أخلاقي جديدٍ، وهذه المبادئ في الحقيقة تتعارض مع الأخلاق الدينية نظير

الإيثار والتواضع والزهد والسير والسلوك، وقال بما أنّ الأبطال الأسطوريين لدى سعيهم إلى بلوغ الرفعة والعظمة كانوا يسخّرون الغرباء وعوامّ الناس لخدمتهم، لذا لا وجود للتواضع في ثقافتهم لأنّ ثمن الدرجات العليا هو إذلال الآخرين، كما أنّ هدفهم من مختلف أفعالهم كسب أفضل الملذّات وأوفر حظٍّ من الرفاهية المادّية. الإلزامات الأخلاقية في العصر الحديث استناداً إلى هذه الوجهة الفكرية التي تبنّاها نيتشه، قوامها سيرة وسلوك النبلاء والنافذين في المجتمع باعتبارهم وجهاً آخر للأبطال الأسطوريين، ومن هذا المنطلق استهان بأخلاق العبودية باعتبارها عقبةً تحول دون تطوّر الإنسان طبيعياً ومادّياً، لذا لا أثر بتاتاً للمبادئ الروحية في منظومته الأخلاقية التي ترتكز على أصول النزعة الإنسانوية، ناهيك عن أنّه راح يبحث عن الخلود في عالم المادّيات بزعم أنّ الطموحات الروحانية سببٌ لعدم ازدهار قابليات الإنسان المادّية.

3) الطابع العامّ للمبادئ الأخلاقية في العصر الحديث أنّها تتناغم مع مشارب الطبقة الأرستقراطية المرفّهة، وكذلك يندرج تحتها أصحاب القدرة البدنية، وهذا التوجّه يضرب بجذوره في أساطير الأبطال الإغريقيين، إذ كانت قيمة الرجل ببراعته وخفّته وشجاعته ونبله اجتماعياً، ومن ثمّ تمحور الخير حول هذه القضايا بحسب ما وصلنا من أساطير.

4) النزعة الوظائفية تعتبر واحدةً من أهمّ انعكاسات التوجّهات الأخلاقية في الأساطير الإغريقية، وقد تبلورت في العصر الحديث في أهمّ النظريات الأخلاقية التي طرحت في العالم الغربين ولا سيّما في مبادئ العقل العملي ضمن منظومة إيمانوئيل كانط الفكرية.

5) الأخلاق التي دعا إليها فريدريك نيتشه في أطروحاته الفكرية والمتناغمة مع مشارب الطبقة الأرستقراطية في المجتمع، هي في الواقع ذات الأخلاق التي اتّصف

الأبطال الأسطوريون، فالتراث الإغريقي أثّر غاية التأثير على الإنسان الغربي الحديث الذي يعتزّ بنفسه ويعتبرها أسمى من سائر البشر، ومن هذا المنطلق سوّغ لنفسه استغلال الشعوب غير الغربية ونهب خيراتها خدمةً لمصالحه وتحقيقاً لأهدافه المادّية كي ينعم بحياةٍ هانئةٍ ومرفّهةٍ، وهذا الأمر نلمسه بشكلٍ جليٍّ في سياسات البلدان الغربية والاستعمارية بشكلٍ عامٍّ، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وبالأخصّ الولايات المتّحدة الأميركية.

6) النزعة الغريزية إلى التلذّذ في سيرة الآلهة والأبطال الأسطوريين، تتعارض مع الورع الديني وكفّ النفس عن الرغبات المادّية، وهذه الحالة أسفرت عن احترام النزعة إلى الشهوات والملذّات الجسمانية في العصر الحديث واعتبارها أمراً غير خارجٍ عن نطاق المبادئ والقيم السامية لدرجة أنّ بعض علماء النفس التحليليين من أمثال سيجموند فرويد اعتبروا التزام الإنسان عن طريق كفّ النفس والورع عاملاً لكبح الغرائز وسبباً لحدوث عقد نفسية لدى الإنسان.

7) من المحتمل أنّ النسبوية الأخلاقية التي بسطت نفوذها في الأوساط الفكرية الغربية إبّان العصر الحديث، تضرب بجذورها في النسبوية الهرمسية.

8) بعض الفضائل الأخلاقية في عصر الحداثة الغربي، مثل الحقّ الطبيعي والإرادة والحرّية، لها جذورٌ في العصر الأسطوري الثالث، أي عصر الرجال الأوائل.

9) التعدّدية الهرمسية كان لها تأثيرٌ على التعدّدية التي طرحت في النظريات الأخلاقية من قبل العلماء والمفكّرين الغربيين المعاصرين وبمن فيهم الفيلسوف وليام جميس.

10) العدالة الأخلاقية التي تمّت الدعوة إليها من قبل روّاد الفكر والتنظير في العصر الحديث، متقوّمة في أساسها على التراث الأسطوري الإغريقي ولا سيّما أسطورة إله الحقّ والعدل العالمي تيميس (Themis) وإلاهة العدل الإنساني ديكي (Dike).

11) تمّ تجاهل المبادئ والقيم الأخلاقية للمرأة في عصر التنوير الفكري، حيث اقتصر الأمر على الاهتمام بجمالها وروعة صفاتها البدنية وكيفية استثمارها لإشباع الرغبات الجنسية للرجال، ولا يستبعد أن تكون هذه الرؤية هي الأخرى منبثقة من الحكايات الأسطورية الإغريقية.

12) الرؤية المتبنّاة في الفكر الحداثي الغربي متأثّرةٌ بالأساطير الإغريقية القديمة، ومثال ذلك أنّ الحبّ في رحابها مرتبطٌ بالأجسام والشهوات فقط دونما أن تكون له أيّ أبعادٍ روحية.

سابعاً: الفنّ والأدب

نتطرّق في المباحث التالية إلى الحديث عن واقع الفنون والآداب في الأساطير الإغريقية:

1) الأساطير الإغريقية في رحاب الفنّ والأدب

انبهر بنو آدم منذ آلاف السنين بالجمال وفتنهم بعذوبته فأحبّوه بشدّةٍ، ورغم أنّ الإغريقيين القدماء تصوّروا أنّ كلّ شيءٍ في الكون مرتبطٌ بشكلٍ مرموزٍ مع قدرة الآلهة، واعتبروا الأشياء الجميلة كالورود مثلاً، قريبةً جدّاً من الآلهة لأنّ كلّ وردةٍ فاتنةٍ مثل زهرة النرجس قد خلقت برأيهم من قبل إله الآلهة زيوس مباشرةً، وهذا ما أكّدت عليه أساطيرهم، حيث خلق زيوس هذه الزهرة الجميلة البرّاقة وأرسلها إلى أخيه إله أعماق الأرض كي يستعين بنورها.[1]

الفنّان والموسيقار البريطاني جون بورتر[2] (John Porter) تحدّث عن هذا

[1]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p.88.

[2]- 1947 .

الموضوع وقال إنّ الشعور بالجمال قد راود أذهان البشر الأوائل باعتباره ضرباً من الفنون الشاعرية، وفي العصور الأسطورية كان للأدب البلاغي أهميةً كبيرةً في الملاحم الحماسية والتربوية، وهذا ما نلمسه جلياً في ملحمتي الإلياذة والأوديسة اللتين تعتبران من أهمّ النصوص الأدبية والتربوية في بلاد الإغريق.[1]

لو أمعنّا النظر في جينيالوجيا الآلهة الأسطورية لوجدنا فيها ثلاث شخصيات من الشعراء، هي فولكان[2] (Vulcan) ومارس[3] (Mars) وفينوس (Venus).

فينوس جسّدت جمال هيئة البدن وكانت رمزاً للعراء، وهي في اللاتينية معروفة بـكاوسا (Caussa) وجراتيا (Gratia) وتفيد البحوث التأريخية بأنّ التغزّل بجمال أعضاء البدن في الأساطير الإغريقية مصدره أسطورة فينوس، وتجدر الإشارة هنا إلى هذه الأشعار كانت بنيةً أساسيةً ومادّةً دسمةً للرسم والنحت الأسطوريين.[4]

الفنّ التراجيدي هو شكلٌ آخر من الفنون الأسطورية في التراث الإغريقي القديم، ومن الأمثلة على القصص والحكايات التي سردت في هذا الصعيد، تراجيديا الروائي المسرحي إسخيلوس (Aeschylus) التي نالت اهتماماً من قبل أهالي أثينا الذين كانوا يمثّلونها في المسرح، حيث كانت تحكي عن إحدى الأحداث البطولية في إطار سردٍ تراجيدي.[5] وأمّا أوّل شكلٍ للفنّ التراجيدي في تلك الديار فهو تصوير معاناة الإنسان في إطارٍ فنّي رائعٍ ومؤثّرٍ غاية التأثير لدرجة أنّه كان يوحّد آراء المخاطبين بالنسبة إلى هدف الفنّان الذي صاغ النصّ المسرحي ويخلق لديهم الشعور بالحزن والأسى العميق تجاه بطل القصّة ومصيره المؤلم الذي تمّ تقديره له من قبل الآلهة. وفي هذا السياق

[1]- See: Porter John 8 May 2006, The Ilidad as formulaic poetry, university of Saskatchewan.

[2] - فولكان إله النار الضارّة والنافعة للبشر.

[3]- مارس إله الحرب.

[4] - Griffin Jasper 1966, Greek myth and Hesiod, Oxford university press, p. 80.

[5]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 321 - 322.

أكّد الباحث فيرنر جايجر على أنّ هذا الفنّ الأدبي متقوّمٌ على الشعر الغنائي الأيوني في الأدب الإغريقي، فلولاه لما ظهرت التراجيديا بصورتها الحقيقية المتعارفة في الأوساط الأدبية والفنّية.[1]

الفنّ المسرحي العبادي هو نوعٌ آخر من الفنون المسرحية الأسطورية، ومسرحية إله الخمر ديونيسوس هي واحدة من النصوص المسرحية الشهيرة في هذا المضمار، فطوال عرض المسرحية كان المشاهدون وكذلك كاتب المسرحية والممثّلون والمنشدون يزاولون عملاً عبادياً.

الباحث إديث هاملتون اعتبر النصوص المسرحية التراجيدية والكوميدية التي دوّنها أرباب الفنّ والأدب الأسطوري في بلاد الإغريق بأنّها مذهلةٌ في حبكتها وصياغتها الفنّية وفريدةٌ من نوعها بحيث لا تضاهيها إلا النصوص المسرحية التي دوّنها شكسبير.[2]

وممّا ذكره الفيلسوف الفرنسي جورج سوريل في هذا الصعيد أنّ النصوص المسرحية التراجيدية التي أشارت إلى سيرة أخيليوس وسوفوكليس مقتبسةٌ من أساطير أوديب وجيسون وميديا.

الجدير بالذكر هنا أنّ بعض كتّاب القصص التراجيدية من الرعيل الأوّل للفنّ القصصي التراجيدي القديم، سخروا في نصوصٍ كوميديةٍ من الأعراف والتقاليد القديمة وشكّكوا في مصداقيتها، فالكاتب الإغريقي يوربيديس على سبيل المثال اتّسمت آثاره بنزعةٍ مناهضةٍ لأساطير الآلهة معتبراً أنّ هذه الآلهة مجرّد قضايا نسبية.[3]

المرأة تعتبر واحدةً من أحد أهمّ المحاور في الفنّ الأسطوري الإغريقي، فقد لعبت

---

[1]- المصدر السابق، ص 338 - 339.

[2]- Phidias 480 - 430 B. C.

[3]- See: Graf. F. 2007, Greek mythology, Encyclopedia Britanica, www. New world encyclopedia. Org.

دوراً أساسياً فيها إمّا باعتارها إلاهةً أو شبه إلاهةٍ أو من البشر، فالشاعرة سافو - صافو – (Sapho) يدرج اسمها ضمن أبرز تسعة شعراء غنائيين إغريقيين، وكان الإغريقيون القدماء يقدّسونها بصفتها الإلاهة العاشرة للفنّ. هذه الشاعرة الشهيرة أمضت حياتها عازبةً ولم تتزوّج لأنّ الكهنة آنذاك كانوا يسخّرون حياتهم في خدمة إلاهات الفنّ، وأمّا صديقاتها فقد كنّ فتياتٍ حظين بدعمٍ منها ومهمّتهنّ الرقص والغناء خدمةً للجمال.[1]

الجمال يعدّ من المرتكزات الأساسية بالنسبة إلى دور المرأة في الفنون الأسطورية الإغريقية، ومثال ذلك تمثال الإلاهة فينوس الذي صنع في عام 200 ق. م. من قبل أحد النحّاتين البارعين في مدينة أثينا، فهذا التمثال عبارة عن أثرٍ فنّي رائعٍ يجسّد عظمة الجمال الأنثوي.[2]

جورج سوريل تحدّث عن هذا الموضوع وأكّد على فنّ النحت الغربي متأثّرٌ بالأفكار البدائية التي تقوّمت عليها الأساطير الإغريقية، مثلاً الفنّان فيدياس[3] (Phidias) اقتبس من الإلياذة الفكرة التي نحت على أساسها تمثال جوبيتر.[4] كما نلحظ هذا التأثير جلياً في التراث الأدبي لكتّاب وشعراء العصر الهيليني والإمبراطورية الرومانية، ولا سيّما آثار المؤرّخين بلوتارخ (Plutarch) وباوزانياس[5] (Pausunias) زخرت آثارهم بالأفكار الأسطورية والمبادئ الميثولوجية، كما انعكس هذا الأمر في الأشعار الغنائية الإغريقية أيضاً مثل أشعار بندار «بنداروس» (Pindar)[6] وبقليدس

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 321.

[2]- Eliade Mircea 1971, Myths & Symbols, the university of Chicago press, p. 216.

[3]- 430 - 480 B. C.

[4]- Berlin Isaiah, Georges Sorel 1976, Vico and Herder: Tow studies in history of ideas, London, Hogarth, p. 177.

[5]- The 2 nd. Century A. D.

[6]- 443 - 522 B. C.

(bacchylides) وسيمونيدس[1] (Simonides) وكذلك أشعار سائر الشعراء الرعاة (Bucolic). وأمّا أشعار ثيوقريطس[2] (Theocritus) وبيون[3] (Bion) فهي تحكي عن أساطير فردية.[4] وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الآثار الفنيّة كان لها وقعٌ كبيرٌ على إنجازات روّاد الفنّ والأدب في العصور اللاحقة.

وبشكلٍ عام فالآداب كان لها تأثيرٌ ملحوظٌ على مجمل الفنون الأسطورية، فالأشعار الإغريقية والرومانية على سبيل المثال تضمّنت الكثير من المواضيع والمفاهيم التي تبلورت في الآثار الفنّية والأدبية التي شهدتها الساحة الفكرية إبّان الفترة الواقعة بين العصر الأسطوري الإغريقي وعصر النهضة والحداثة، ويمكن تلخيص المراحل التي انعكست فيها كما يلي:

أ- الأشعار الرومية في تراث الشعراء أوفيدوس وستاتشيوس[5] (Statius) ولوسيوس فالريوس فلاكوس[6](Valerius) (Lucius Flaccus) ولوكيوس أنّايوس سينيك (سينيكا) (Lucius Annaeus Seneca) وفرجيل (بوبليوس فرجيليوس مارو) (Publius Vergilius Maro). وقد علّق وهمّش عليها سيرفيوس (Servius).

ب - الأشعار الإغريقية في تراث الشعراء نونونس[7] (Nonnus) وليبيراليس[8] (Liberalis) وأنتونيوس[9] (Antunius) سميرنايوس[10] (Smyrnaeus) وكوينتوس[11] (Quintus).

[1]- 556 - 468 B. C.

[2]- 3 rd. century B. C.

[3]- About 100 B. C.

[4]- Klatt & Brazouski (1994) Ancient Greek and Roman Mythology, Greenwood press, USA, p. xii.

[5]- 45 - 96 A. D.

[6]- died 90 A. D.

[7]- 400 C.

[8]- Between 100 to 300 A. D.

[9]- 30 - 83 B. C.

[10]- 4th. Century A. C.

[11]- 43 - 102 B. C.

ج - الأشعار الإغريقية في العهد الهيليني في تراث الشعراء أبولونيوس الرودسي[1] (Apollonius of Rhodes) وكاليماخوس القوريني[2] (Callimachus) وأراتوستين الكاذب[3] (Pseudo Eratusthenes) وبارثينيوس[4] (Parthenius).

د- القصص القصيرة والروايات القديمة الإغريقية والرومانية في تراث أبوليوس[5] (Apuleius) وبترونيوس[6] (Petronius) ولوليانوس[7] (Lollianus) وهيليودوروس[8] (Heliodorus).

بعد هذا البحث المجمل حول الطابع العامّ للفنون والآداب في الأساطير الإغريقية، سوف نتطرّق في المبحث التالي إلى بيان مدى تأثيرها على الفنون والآداب في أوروبا الحديثة:

2) تأثّر الفنّ والأدب في عصر الحداثة بالأساطير الإغريقية

الأساطير الإغريقية القديمة التي تمّ اكتشافها في عصر التنوير الفكري الأوروبي أسفرت عن حدوث تغييراتٍ في النمط الشعري الغربي، فشعر أوفيدوس على سبيل المثال أثّر على الأسلوب الخيالي للشعراء والفنّانين الغربيين، وهذا التأثير تواصل في القرون اللاحقة.

في السنوات الأولى من عصر النهضة والحداثة جسّد الرسّامون والنحّاتون المفاهيم

[1]- 246 B. C.

[2]- 3 rd. ceutury B. c.

[3]- 1 st. of 2 nd. Century A. D.

[4]- 1 st. century B. C.

[5]- 125 - 180 B. C.

[6]- 27 - 66 B. C.

[7]- The 2 nd. Century A. D.

[8]- 113 B. C.

الأسطورية في آثارهم الفنّية التي جادت بها أناملهم، ناهيك عن أنّ المفاهيم والرموز المسيحية جسّدوها أيضاً في إطارٍ أسطوريٍّ يناظر التراثين الإغريقي والروماني، وهذا ما نلمسه في آثار ليوناردو دا فينشي[1] (Leonardo Da Vinci) ومايكل أنجلو[2] (Michel Angelo) ورافائيل[3] (Raphael)، حيث امتزجت فيها الرموز الإغريقية الإلحادية مع المفاهيم الدينية المسيحية.[4]

الجدير بالذكر هنا أنّ المواضيع الأسطورية في التراث الإغريقي قد أثّرت على النتاجات الأدبية والفنّية للشعراء والأدباء الأوروبيين في القرون الوسطى وعصر النهضة والحداثة بفعل وساطة اللغة اللاتينية وتراث الشاعر أوفيديوس، ومن أبرز الذين تأثّروا في هذا المضمار فرانشيسكو بتراركا وبوكاشيو ودانتي في إيطاليا. وأمّا في أوروبا الشمالية فعلى الرغم من عدم تغلغل المفاهيم الأسطورية الإغريقية في عمق الفنون التشكيلية، لكنّها أثّرت بشكلٍ ملحوظٍ على الأدب التخيلي البريطاني ممّا أدّى إلى ظهور تيّارٍ أدبيٍّ فنّيٍّ ابتدأ بأفكار الشاعر جيفري تشوسر[5] (Geoffrey Chaucer) ليسير في ركبه في ما بعد كلٌّ من وليام شكسبير[6] (William Shakespeare) وجون ميلتون[7] (John Milton) وروبرت بريجز[8] (Robert Bridges).

الشاعر والكاتب المسرحي البريطاني الشهير وليام شكسبير اعتمد على إلياذة هوميروس كمصدرٍ أساسيٍّ لنصّه المسرحي الشهير ترويلوس وكريسيدا (Troilus and

[1]- 1425 - 1519.

[2]- 1475 - 1546.

[3]- 1483 - 1520.

[4]- C. Burn Lucilla 1990, Greek Myths, university of Texas press, p. 75.

[5]- 1343 - 1400.

[6]- 1564 - 1616.

[7]- 1608 - 1676.

[8]- 1844 - 1930.

Cressida) وهذا النصّ في الواقع يصوّر المفاهيم الفكرية الأسطورية المرتبطة بحرب طروادة بشكلٍ مقلوبٍ وكوميدي، مثلاً وصف البطل الأسطوري أخيليوس وكأنّه إنسانٌ جبانٌ، وتمّ تصوير البطل الأسطوري آياس (Ajax) كالأحمق المتخبّط.[1]

لا يختلف اثنان في تأثّر الأدب والشعر والفنّ الحديث في بريطانيا بالآداب والمفاهيم الأسطورية، وهو ما أيّده الشاعر المعاصر روبرت براونينج[2] (Robert Browning) حيث ذكر الكثير من المعلومات التي تثبت تأثير ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسة على واقع الفنّ والأدب في العصر الحديث.

إضافةً إلى ما ذكر فالتراجيديا الإغريقية التي انعكست في مختلف النصوص والآثار الفنّية والأدبية الأسطورية مثل ملحمتي هوميروس الإلياذة والأوديسة، أصبحت مصدر إلهامٍ للشعراء المعاصرين من أمثال اللورد تنيسون[3] (Lord Tennyson) وجون كيتس[4] (John Keats) واللورد بايرون[5] (Lord Byron) وشيلي[6] (Percy Bysshe Shelley)، كما اعتمدت كأساسٍ في النتاجات الفنّية لفنّاني هذا العصر وعلى رأسهم اللورد لايتون[7] (Lord Leighton) ولورنس ألما[8] (Lawrence Alma). وكذا هو الحال بالنسبة إلى أبرز الملحّنين والمؤلّفين الموسقيين الألمان في العصر الحديث من أمثال كرستوف جلوك[9] (Christophe Willibald Gluck) وريتشارد شتراوس[10]

[1]-L. Burn 1990, British museum press, p. 75 - 76.

[2]- 1812 - 1889.

[3]- 1809 - 1892.

[4]- 1795 - 1821.

[5]- 1788 - 1824.

[6]- 1792 - 1822.

[7]- 1830 - 1896.

[8]- 1836 - 1912.

[9]- born in 1714.

[10]- 1864 - 1949.

(Richard Strauss) وجاك أوفنباخ[1] (Jacques Offenbach)، حيث جسّدوا المفاهيم الأسطورية ضمن آثارهم الموسيقية الحديثة.[2] وقد نقل الباحث جورج سوريل عن الموسيقار الألماني الشهير ريتشارد فاجنر[3] (Richard Wagner) قوله أنّ الأوبرا تعتبر أكثر أنواع الفنون الدرامية تطوّراً، وهي بطبيعة الحال تستعرض عظمة الطقوس البربريّة القديمة ومراسيم أفول نجم الحضارة الرومانية.[4] وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الكثير من نصوص الأوبرا التي دوّنها كلٌّ من جورج فريدريك هاندل[5] (Frederic Handel George) وفولفاجانج موزارت[6] (Wolfgang Mozart) لها جذورٌ في القصص والحكايات الأسطورية القديمة.[7]

الكتّاب الأميركان الذين ذاع صيتهم في القرن التاسع عشر وعلى رأسهم توماس بولفينش وناتانيل هاوثورن[8] (Nathaniel Hawthorne) أكّدوا على ضرورة متابعة تفاصيل الأساطير القديمة كأساسٍ لفهم المبادئ والأصول الأدبية البريطانية والأميركية.[9]

لا يختلف اثنان في أنّ الفنون والآداب المعاصرة متأثّرةٌ غاية التأثّر بالمفاهيم الأسطورية القديمة، وبما أنّ المدرسة الرومنطيقية الغربية متأثّرةٌ فنّياً وأدبياً بالأساطير

---

[1]- 1819 - 1880.

[2]- Klatt & Brazouski (1994) Ancient Greek and Roman Mythology, Greenwood press, USA, p. 4.

[3]- 1813 - 1883.

[4]- Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University press, p. 177.

[5]- 1685 - 1759.

[6]- 1756 - 1791.

[7]- see: Greek Mythology, 2002, Encyclopedia Britannica.

[8]- 1804 - 1864.

[9]- Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University press, p. 4.

الإغريقية بنحوٍ واضحٍ وصريحٍ يفوق وضوح وصراحة تأثّر المدارس الفكرية الأخرى، سوف نتطرّق في المبحث التالي إلى بيان جوانب هذا الأمر ونغضّ الطرف عن سائر المدارس الفكرية:

3) المدرسة الرومنطيقية والأساطير الإغريقية القديمة

الرومنطيقية هي حركة فنّية وأدبية وثقافية اجتاحت الأوساط الفكرية الأوروبية في منتصف القرن الثامن عشر،[1] وهي تعتبر نهضةً اعتراضيةً على السياسة التي اتّسمت في عصر التنوير الفكري بطابعٍ أرستقراطيٍّ بحيث انصبّت قوانينها في مصلحة الطبقة الأرستقراطية، كما تعتبر كردّة فعلٍ على النزعة العقلية العلمية التي بسطت نفوذها على مختلف أنماط الفنون التشكيلية والآداب وحتّى الموسيقى في المجتمعات الأوروبية.[2]

في نهاية القرن الثامن عشر بلغت الحركة الرومنطيقية الذروة في دعوتها إلى إحياء التراث الإغريقي القديم برمّته ولا سيّما استلهام مفاهيمه الأسطورية، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّها نشأت في ألمانيا التي تعدّ موطناً لروّاد الشعر والكتابة من أمثال كلمنس فون برنتانو[3] (Brentano Von Clemens) وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأساطير الإغريقية والرومانية إلى جانب الأسفار والطبيعة تعدّ المرتكزات الأساسية التي تتقوّم عليها المدرسة الرومنطيقية الألمانية.

الشاعر الرومنطيقي الألماني الشهير فريدريك هولدرلين[4] (Friedrich Hoelderlin) الذي يدرج اسمه ضمن قائمة روّاد الشعر الرومنطيقي في ألمانيا،

---

[1]-see: Encyclopedia Britanica, 2010, Romanticism. Britannica. Com.

[2]- See: Levin David 1967, History as Romantic Art, Bancroft Prescott and Parkman.

[3]- 1778 - 1842.

[4]- 1770 - 1843.

ترك بصماته في مضماري الفكر والفنّ الغربيين وكان لنتاجاته الأدبية تأثيراً مشهوداً على الساحة الفكريّة من الناحية الرومنطيقية، وكذا هو الحال بالنسبة إلى يوهان فولفجانج فون جوته[1] (Johann Wolfgang Von Goethe) الذي عرف بكتاباته وشعره ونصوصه المسرحية ونزعته الفلسفية الطبيعية، حيث جسّد النزعة الرومنطيقة في كلّ ذلك، فهو من روّاد النزعة المذكورة في ألمانيا.

وأمّا كتّاب الدراما من أمثال جان أنويه[2] (Jean Anouilh) وجان كوكتو[3] (Jean Cocteau) وجان جيرودو(Jean Giraudoux) وأندريه جيد[4] (Andre Gide) في فرنسا، وأوجين أونيل[5] (Eugene O`Neil) في الولايات المتّحدة الأميركية، وتي أس إليوت[6] (T. S. Eliot) في بريطانيا، فقد جعلوا مواضيع الأساطير التقليدية منطلقاً للكثير الكثير من كتاباتهم؛ أضف إلى ذلك فالباحث الإيرلندي جيمس جويس[7] (James Joyce) هو الآخر اعتمد على المفاهيم الأسطورية في مختلف آثاره الفكرية.[8]

نستشفّ ممّا ذكر أنّ الفنّ والأدب الغربيين في العصر الحديث تأثّرا إلى حدٍّ كبيرٍ بالأساطير الإغريقية، وفي ما يلي نلخّص تفاصيل الموضوع:

---

[1]- 1749 - 1832.

[2]- 1910 - 1987.

[3]- 1889 - 1963.

[4]- 1869 - 1951.

[5]- 1882 - 1965.

[6]- 1888 - 1965.

[7]- 1882 - 1941.

[8]- see: Greek, Mythology 2002, Encyclopedia Britannica.

*** نتجة البحث:**

في ما يلي نلخّص المباحث المذكورة لبيان مدى تأثير الأساطير الإغريقية على الفنون والآداب في العالم الغربي إبّان العصر الحديث:

1) الفنون والآداب غير الدينية في العصر الحديث تأثّرت بالمفاهيم الأسطورية الموروثة من العهدين الثاني والثالث الأسطوريين في بلاد الإغريق، حيث انعكست فيها خصائص أبطال الأساطير الإغريقية وطغى عليها طابع تفوّق إرادة الإنسان على إرادة الآلهة.

الفنّ الحديث الذي اتّصف بهذه الميزات لم يكترث بالسماء والآلهة، وإنّما اتّكأ روّاده على نزعاتهم الإنسانوية وسخّروا جهودهم الفكرية بشكلٍ أساسيٍّ للحديث عن خصائص الجنسين - الذكر والأنثى - الجسمانية والمادّية، وهذا الأمر ملحوظٌ بوضوحٍ في مختلف النتاجات الفنّية الغنائيّة والملحميّة والتراجيديّة والكوميديّة، فقد طغى على الشعر والنصوص المسرحية وفنّ النحت والموسيقى والأناشيد الجماعية.

2) الفنّ والأدب اللذان اتّسما بصبغةٍ طبيعيّةٍ في العصر الحديث، تأثّرا إلى حدٍّ كبيرٍ بالنزعة الطبيعية التي اتّصفت بها المفاهيم الأسطورية، ولربّما من الممكن اعتبار النزعة الإنسانية الميثولوجيّة واحدةً من مصاديق النزعة الطبيعية الأسطورية.

3) فلسفة الجمال في العصر الحديث والتي تجاهلت الأمور الميتافيزيقية والقضايا المعنوية المتعالية، لا يُستبعد أن تكون متأثّرةً بالنزعة الجمالية الطبيعية الأسطورية، حيث نلاحظ الآلهة في مختلف الأساطير الإغريقية ذات شأنٍ إنساني وطبيعي، بينما الأمور الميتافيزيقية لا نلمس لها أيّ مكانةٍ في الحركة الجمالية التي اجتاحت الساحة الغربية في العصر الحديث ولا في اللاهوت الأسطوري. وعلى هذا الأساس أصبح الفنّانون رواةً للجمال ومادحين له ومقلّدين للمفاهيم الجمالية الموروثة من أساطير آلهة بلاد الإغريق، حيث بادروا إلى رواية شتّى تفاصيل الجمال بصورتيه الطبيعي

والإنساني، وهاتان الصورتان نسبتا في الأساطير الإغريقية للآلهة لكونهما متّصفتان بالكمال وعدم الزوال.

4) الفنون والآداب المعاصرة ارتكزت في أساسها على علم الجمال الأسطوري وسارت على نهجه، لذا نجد مواضيع الفنون الحديثة تتمحور حول خصائص الإنسان الفردية والاجتماعية، وبهذا الأسلوب جسّد الفنّانون والأدباء الغربيون المعاصرون جزئيات مختلف المفاهيم الإنسانية والاجتماعية في آثارهم الشعرية ورسومهم وتماثيلهم.

5) الفنّ الحديث المتقوّم على النزعة الإنسانية تأثّر بالأساطير الإغريقية التي أضفت على الآلهة صبغةً إنسانيةً، وهذا ما نلمسه جلياً في آثار الرسّامين والنحّاتين الذين تألّق نجمهم في عصر النهضة والحداثة، حيث اتّسمت آثارهم الفنّية بالمفاهيم الأسطورية التي صوّرت الآلهة بخصائص جنسيّةٍ وجسمانيّةٍ بشريّة.

6) الآثار الشعرية للشاعر أوفيدوس أثّرت على الأسلوب الذي انتهجه الشعراء والفنّانون الغربيون المعاصرون، لذا فقد احتلّت مكانةً هامّةً في عالم الشعر والأدب إبّان العصر الحديث.

7) يمكن اعتبار المدرسة الرومنطيقية الأوروبية بأنّها أفضل مصدرٍ لتنامي الفنون والآداب الأسطورية وازدهارها، حيث انتهلت أفكارها مباشرةً من الأساطير الإغريقية القديمة.

ثامناً: العلم الحديث

الأساطير القديمة أثّرت على بعض جوانب العلم الحديث، وفي ما يلي نسلّط الضوء على الموضوع:

1) نظرية جيامباتيستا فيكو

جيامباتيستا فيكو كما ذكرنا آنفاً، فيلسوف وسياسي إيطالي ذاع صيته في القرن

الثامن عشر، وقد تطرّق إلى نقد النزعة العقلية الحديثة برؤيةٍ أفلاطونيةٍ وفي الحين ذاته دافع عن الفكر الإغريقي القديم، وبادر إلى تتبّع جذورٍ شتّى العلوم الحديثة من منطلق اعتقاده باتّصاف جميع الثقافات البشريّة بطابعٍ مشتركٍ.

من جملة المسائل التي طرحها هذا المفكّر الغربي أنّ دراسات فلسفة التأريخ الحديث مرتكزةٌ على أسلوبٍ فلسفي،[1] والجدير بالذكر هنا أنّ المبادئ الفلسفية التي تبنّاها قوامها مفاهيم بلاغيّة ولغويّة تراثية، وعلى هذا الأساس اتّسمت الدراسات والبحوث التي أجراها ومختلف نظرياته بطابعٍ ميثولوجي مشهود.

ضمن بحوثه التأريخية التي دوّنها بخصوص الواقع العلمي في العصور القديمة والقوانين التأريخية والاجتماعية التي فرضت سيطرتها على شتّى الحضارات والثقافات البشرية، ادّعى أنّ المراكز العلمية سعت دائبةً لتشكيل مكوّنات تتناسب مع الظروف السائدة في كلّ مرحلةٍ زمنيةٍ، ووضّح رأيه هذا مستشهداً بالمسيرة التأريخية التي طوتها المراكز والمكوّنات الأولى المرتبطة بالحضارة البشرية والتي تدرّج الإنسان منها ليؤسّس مراكز علميّة منتظمة، حيث ابتدأ من الغابات والأكواخ لينتقل إلى القرى والمدن وفي نهاية المطاف أسّس مراكز علمية.

إضافةً إلى ذلك فقد اعتبر فيكو كلّ واحدٍ من المراكز والمكوّنات العلمية منبثقاً من دوافع اجتماعية، وممّا قاله في هذا المضمار ما يلي: رجال العصور الأسطورية الأولى راودهم شعورٌ في بادئ الأمر بضرورة إيجاد مراكز خاصّة، وبعد أن تمكّنوا من تلبية هذه الضرورة اندفعوا نحو تحقيق المصالح، وبعد أن نالوا مصالحهم المنشودة شعروا بحاجةٍ ماسّةٍ للراحة والرفاهية. في المرحلة التالية التي نعم بها الرجال الأسطوريون الأوائل بحياةٍ مرفّهةٍ، ولدت لديهم دوافع للسعي إلى تحصيل مختلف أنواع الملذّات

[1]- Nadler Steven M. 2002, A Companion to early modern philosophy, London Blackwell, p. 570.

وشتّى الأمور التي توجد البهجة في أنفسهم، لذلك أسّسوا مراكز للمجون والدعارة في رحاب مجتمعاتهم البدائية، وهذه المبالغة في التلذّذ أسفرت عن تدنيس الفطرة البشرية السليمة.[1]

وبهذا المنوال طرح جيامباتيستا فيكو مراحل نشأة المراكز والمكوّنات التي أنشأها الإنسان، حيث اعتبرها انطلقت من شعوره بالحاجة إلى تلبية متطلّباته الضرورية ومن ثمّ تدرّجت إلى أن باتت مصدراً لإشباع نزواته الشخصية ورغباته الجامحة التي شوّهت فطرته الإنسانية.

بعد ذلك انصرف هذا الباحث الغربي إلى الحديث عن التغييرات التي طرأت على الجنس البشري في مختلف العصور الأسطورية، حيث أكّد على أنّ عملية التحوّل التي شهدتها المراكز البشرية كانت متناسبةً مع التغيير الذي حدث في ذات الجنس البشري؛ فالإنسان البدائي كان ضخم الجثّة - عملاقاً - وغير متناسب الأعضاء البدنية، مثل حيوانات السايكلوب (Cyclopes) ثمّ تطوّر ليظهر على هيئة كائنٍ متكبّرٍ ومتعالٍ مثل الإلة آخيل (أخيليوس)، وفيما بعد طوى مسيرةً تكامليةً تبلور في رحابها على هيئة إنسانٍ شجاعٍ وصادقٍ على غرار أريستيدس (Aristides) وسكيبيو الأفريقي (Scipio Africanus) حيث تجلّى للعيان بشخصيةٍ عظيمةٍ وذات شأنٍ كشخصية ألكساندر (Alexander) وقيصر (Caesar) وبعد هذه المسيرة التكاملية بدأ الإنسان يتراجع القهقرى بعد أن طغت على نفسه الكآبة واستحوذ عليه الانفعال لتتجسّد شخصيته على شكل طيباريوس قيصر (Tiberius) وفي النهاية ظهر بصورةٍ منحرفةٍ على هيئة رجالٍ مجانين وفاسدين لا حياء لهم، مثل كاليجولا (Caligula) ونيرون (نيرو) (Nero) ودوميتيان (Domitianus).

الفيلسوف والمنظّر الاجتماعي والسياسي والخبير في التأريخ والأخلاق، أشعيا

[1]- Berlin Isaiah 1976, Vico and Herder, Tow studies in history of Ideas, London, Hogarth, p. 69.

برلين[1] (Isaiah Berlin) استدلّ من نظرية فيكو أنّ المراكز الخاصّة بجوانب معينة في حياة البشر والتي تشكّلت على مرّ التأريخ تمخّضت عن اتّصافهم بطبائع وميزات إنسانية خاصّة، وفيما بعد تبلورت من هذه الطبائع والميزات أصول وقواعد تقوّمت عليها الفطرة التأريخية والاجتماعية بخصائصها المعروفة؛ وذلك لأنّ فيكو اعتبر الظروف التأريخية والاجتماعية منطلقاً أساسياً لتحديد نمط الصفات الشخصية للرجال الذين صنعوا التأريخ بمواقفهم وأفعالهم.[2]

ولدى تتبّعه جذور مختلف العلوم وبما فيها الطبيعية والإنسانية، تطرّق جيامباتيستا فيكو إلى الحديث عن أسطورة بروميثيوس وقال إنّ هذا العملاق الأسطوري سرق النار من الشمس وأعطاها لليونانيين كي يستنيروا بها يستفيدوا منها في شتّى اختراعاتهم واستكشافاتهم،[3] كما وصف هوميروس وكتّاب التراجيديا الأسطورية بأنّهم الرعيل الأوّل من أساتذة علوم الفنّ إلى جانب كونهم مرشدين دينيين وأخلاقيين عملوا على هداية البشرية نحو حياةٍ بارّةٍ وكريمةٍ. كما اعتبر الأبطال الأسطوريين من أمثال أهالي أسبرطة (سبارتا) والذين عُرفوا بحكمتهم وسنّ القوانين، بأنّهم المؤسّسون للحكومة المدنية في المجتمعات البشرية، وعلى هذا الأساس فالشعراء الأسطوريون كانوا من أوائل رجال القانون في النظام الاجتماعي. وممّا استنتجه أيضاً أنّ مبدأ الحقّ الطبيعي الذي ساد في الساحة الفكرية خلال القرن السابع عشر وليدٌ لاستدلالات العقل الطبيعي للرجال الأسطوريين في بلاد الإغريق القديمة.[4]

---

[1]- 1909 - 1997.

[2]- Berlin Isaiah 1976, Vico and Herder, Tow studies in history of ideas, London, Hogarth, p. 69.

[3]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. by From the Itallian by Max Harold fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 148.

[4]- Ibid, xlvii.

النتيجة التي توصّل إليها هذا الباحث الغربي من جملة دراساته وبحوثه الميثولوجية أنّ كتّاب الأساطير الإغريقية هم أوّل من وضعوا الركائز الأساسية للمراكز والمؤسّسات التي نشأت في العصر الحديث، فالعقل الشعري برأيه أجاد على البشرية بأوّل الإبداعات والإنجازات العقلية البشرية بفضل التوجّهات العقلية التي انتهجها كتّاب الأساطير في أشعارهم التي ضمّنوها مفاهيم لبيان واقع الطبيعة والقوانين التي تحكمها، لذا يمكن اعتبار كتاباتهم كنشاطات استكشافية في عالم الطبيعة وقوانينه الثابتة، لذا يمكن اعتبارها البوّابة التي ولج فيها العلم الحديث وحقّق بفضلها إنجازاته الكبيرة.

الرجال الأوائل بحسب هذه الرؤية سخّروا قابلياتهم الإبداعية وحذاقتهم تناسباً مع متطلّبات حياتهم وأهدافهم من عملية البحث والاستكشاف التي عرفوا بها، إلا أنّ قابلياتهم تختلف اختلافاً تامّاً عمّا لدى الآلهة من قابليات، فالإله يمتلك قدرةً متقوّمة في أساسها على العقل المحض، والربّ يخلق خلقاً بإبداع العقل المحض في هذا العالم؛ بينما إبداع العقل الإنساني غير مصونٍ من الجهل والغفلة، لذا كان الإنسان في تلك الآونة مضطرّاً للاستعانة بقوّة التخيّل المكنونة في عقله، وهذا ما كان يفعله شعراء الأساطير الإغريقية الذين وصفوا بلقب شعراء لأنّهم مبدعون.

جيامباتيستا فيكو عبر دراساته وبحوثه التي أجراها حول الأشعار الأسطورية الإغريقية، تمكّن من استكشاف جذورها وتوجّهاتها الفكرية في شتّى النواحي المنطقيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والطبيعيّة والكوزمولوجيّة والحسابات الفلكية والجغرافية، وغيرها.[1] كما اعتبر الأسطوريين الإغريق بأنّهم المؤسّسون للفكر الإنساني بجميع جوانبه من خلال علومهم الأولى، واستشهد على هذه الحقيقة كما يلي: اليونانيون القدماء اعتمدوا على المبادئ اللاهوتيّة الطبيعيّة والميتافيزيقيّة التي

[1]-Ibid, p. vlvili.

نسبوها إلى آلهتهم في اختراعاتهم ووضعوا الأسس الأسريّة وفق أصولهم الاقتصادية، وانطلاقاً من متبنّياتهم السياسية أنشؤوا المدن. وخلاصة الكلام أنّهم خلقوا كيانهم وفق إيديولوجيتهم الكوزمولوجية، وعلى أساس حساباتهم الفلكية أوجدوا ارتباطاً بين الأرض والصور الفلكية السماوية بحيث حدّدوا نقطة انطلاقٍ لحساب التأريخ، وفي نهاية المطاف وصفوا جغرافيا العالم على أساس معالم موطنهم اليونان.

الجدير بالذكر هنا أنّ إحدى نظريات فيكو بخصوص واقع العلم والمعرفة تؤكّد على وجود اختلافٍ بين العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية، واستدلّ على ذلك قائلاً: بما أنّ الإنسان لم يخلق الطبيعة فهو عاجزٌ عن معرفة كُنهها، لذا ليس باستطاعته سوى إثبات أو تفنيد مختلف الفرضيات التي تطرح حولها عن طريق البحث والاستطلاع والتحليل، إلا أنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى المسائل اللغوية والتأريخية - والعلوم الإسلامية بشكلٍ عامٍّ - فهو الذي أوجدها خلافاً للعلوم الطبيعية التي تعدّ مجهولةً بالنسبة إليه. وأمّا العلوم الرياضية فهي الأخرى من إبداع الإنسان، لذا له القدرة على معرفة تفاصيلها.[1]

نلاحظ ممّا ذكر أنّ هذا الباحث الغربي اعتبر الأساطير في نظريته بأنّها تنمّ عن أوّل الإنجازات العقلية والتصوّرات الإبداعية البشرية، فالأساطير برأيه متقوّمةٌ على مبادئ الحياة الفرديّة والاجتماعية المتعارفة في المجتمعات البشرية، والنتيجة التي توصّل لها من هذه الآراء أنّ جميع العلوم الحديثة تضرب بجذورها في الأساطير القديمة؛ وأكّد على وجود قوانين ثابتةٍ حاكمةٍ على المجتمعات البشريّة كافّةً منذ عصر الأساطير وإلى نهاية التأريخ، حيث يمكن بموجبها بيان حقائق مختلف المقرّرات والدوافع والأهداف والمناهج المعتمدة بين البشر في المستويين الفردي والجماعي على مرّ العصور.

وأمّا نظريته التي طرحها بخصوص تأثّر العلوم والمراكز التي أسسّها البشر طوال

[1]- Ibid, p. vvll.

التأريخ بالأساطير الإغريقية القديمة وخضوعها لسلطة قانونٍ مشتركٍ في كلّ عصرٍ وزمانٍ - منذ عصر الأساطير وحتّى نهاية تأريخ حياة البشر - هي في الواقع نظرية عامّة يضمّ نطاقها جميع الثقافات في شتّى أصقاع المعمورة، لذا يمكن الاعتماد عليها لتتبّع جذور العلوم الغربية الحديثة والمراكز والمؤسّسات التي تمّ إنشاؤها في العصر الحديث، فهي برأيه تضرب بجذروها في الأساطير الإغريقية.

وفي ما يلي نتطرّق إلى بيان جوانب خاصّة ومحدّدة حول تأثّر العلم الحديث بالأساطير الإغريقية:

2) تأثّر العلم الغربي الحديث بالأساطير الإغريقية القديمة

لو أمعنّا النظر في شتّى المفاهيم والمسائل الأسطورية المتعارفة في العالم الغربي إبّان عصر النهضة والحداثة سوف ندرك السبب في انبهار المجتمعات الغربية بالنزعة الإنسانية واعتبار الإنسان بأنّه محور العالم، حيث يتّضح لنا الدافع الإيديولوجي لهذه الوجهة الفكرية التي تمكّن بفضلها من تحقيق الكثير من الاختراعات والاكتشافات العلمية وبالأخصّ في نهاية القرن الثامن عشر حينما بادر الكثير من المفكّرين الهيومانيين إلى مواجهة أرباب الكنائس الذين كانوا يحقّرون الإنسان ويناهضونه.

الجدير بالذكر هنا أنّ الإنسانية في العرف الكنسي تحمل وزر خطيئة آدم الأولى والتي طرد بسببها من الجنّة، بينما الأساطير الإغريقية اعتبرت الإنسان محوراً ارتكازياً في الكون، فهو الذي صاغ جينيالوجيا الآلهة بحسب المفاهيم الأسطورية، وهو الذي جعل الأبطال الأسطوريين على رأس كلّ شيءٍ بإبداعاته الشعرية الملحمية والحماسية، حيث صوّرهم في هذه الأشعار بأنّهم شجعانٌ اعتمدوا في شتّى الحوادث على قدراتهم الفائقة وبطولاتهم الفذّة الفريدة من نوعها لتحقيق أهدافهم المشروعة، لذلك أصبحوا أفضل أنموذجٍ يُحتذى للثقة بالنفس والإيمان بالقابليات الذاتية المكنونة في

نفس الإنسان، فقد أصبحت سلوكيات ومواقف هؤلاء الأبطال في الثقافة الغربية التي ولدت في باكورة عصر النهضة والحداثة في مقابل تصرّفات وآراء أرباب الكنائس الذين حقّروا البشرية ودنّسوا كرامتها.

الباحث جوزيف كامبل تحدّث عن الموضوع وأوعز نشأة العلم الحديث إلى الرغبة التي ولدت لدى مفكّري عصر النهضة والحداثة لمقارعة الرؤية السطحية والتحجّر الفكري بهدف صقل القابليات الإنسانية وتفعيلها بشكلٍ عملي، لذلك تمكّن الإنسان بفضل إنجازات العلم الحديث من استكشاف واختراع الكثير من الأمور بعد أن فتحت له أفقٌ جديدةٌ في العلم والمعرفة وبعد حرمانه من حرّية البحث والاستكشاف، ولا نبالغ لو قلنا أنّ العلوم الحديثة قد أسفرت عن تجلّي الكثير من الظواهر التي تدركها حواسّ الإنسان بشكلٍ يتناسب مع فطرته السليمة، ومن ثمّ نشأ لديه نمطٌ جديدٌ من التصوّر مختلفٌ عمّا كان لديه سابقاً، وهو تصوّرٌ شهوديٌّ تمكّن على أساسه من طرح نظريات وفرضيات ساعدته على استكشاف نطاقات جديدةٍ في عالم الفكر والمعرفة، وبفضل نشاطاته العلمية التجريبية تمكّن من وضع حلولٍ لألغازٍ كثيرةٍ ومعرفة كنه أسرارٍ كانت خفيةً على أسلافه.[1]

هناك مسألةٌ جديرةٌ بالذكر على صعيد هذا الموضوع، وهي أنّ البنية الكوزمولوجية للكنيسة قد انهارت مع إطلالة العلم الحديث، كما اضمحلّت سلطتها التأريخية بعد أن فُرض الأمر الواقع على المجتمع الأوروبي وتغيّر مجرى التأريخ بشكلٍ لا رجعة فيه، وخلال هذه الأحداث المحتدمة شهدت أوروبا الجديدة تحوّلين علميين جذريين بعد أن طرحت نظرية نيكولاس كوبرنيكوس وبعدها نظرية تشارلز داروين، حيث تعرّضت الدوغماتية الكنسية لصفعةٍ قوّيةٍ زعزعت أركانها.[2]

---

[1]- Campbell, Joseph 1973, Myth to live by, Bantam books, p. 16.

[2]- Ibid, p. 225.

وأضاف جوزيف كامبل في السياق ذاته أنّ الفكر العلمي الذي شاع في الأوساط الغربية الحديثة قد انطلق في أساسه من التأريخ الإغريقي ثمّ انتقل إلى الأوروبيين عن طريق المسلمين، وبعد ظهوره انبثق منه تيارٌ فكريٌّ تبنّى رعاته الرأي القائل بأنّ العلم ليس من شأنه أن يكون مطلقاً ولا شيء أعلى منه، وإنّما هو مجرّد قابليةٍ خاضعةٍ للتجربة بحيث يمكن على أساسه تقييم مختلف أنماط الفرضيات والنظريات التي تطرح من قبل العلماء.[1]

الباحث فيرنر جايجر رغم تعصّبه المبالغ فيه للحضارة الإغريقية، لكنّه مع ذلك أكّد على أنّ اليونانيين القدماء اقتبسوا من الشعوب الشرقية مبادئ العلم التجريبي الخاصّ بالظواهر السماوية ومختلف المسائل والأحداث الطبيعية ومن ثمّ جعلوها مرتكزاً للإجابة عن التساؤلات والاستفسارات المطروحة حول مبدأ الكون والطبيعة، وعلى أساسها اعتبروا الأساطير المرتبطة بقضايا العالم الخارجي المحسوس والمرتبطة بنشأة الكون، منبثقةً من فكرٍ نظريٍّ متقوّمٍ على النظام العلّي، وبهذا تمكّنوا من إرساء ركائز الفلسفة العلمية.[2]

تأثّر العلم الحديث بالإنسانوية الميثولوجية الموروثة من الأساطير الإغريقية جعل الإنسان بشكلٍ وضعي يسير قدماً لتحقيق أكبر قدرٍ ممكنٍ من الاختراعات والاكتشافات العلمية، وهذه الحقيقة تتناسق مع عقيدة عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي أوجست كونت الذي شدّد على ضرورة اقتباس جميع جزئيات المعتقدات ومكوّناتها الأساسية من العلم، فقد طمح هذا الفيلسوف على ضوء نظريته الوضعية التجريبية إلى إنشاء حضارةٍ علميةٍ بمركزية الإنسان،[3] ومن هذا المنطلق ادّعى أنّ عهد حكومة الله وسلطته قد انتهى ليبدأ عهد سيادة الإنسان، ووصف الإنسان في

[1]- Ibid, p. 15.

[2]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 228.

[3]- see: Comte 1908, A great view of positivism, Rout ledge, London, p. 6.

هذا العهد الجديد بأنّه فاعلٌ مؤثّرٌ في العلوم الوضعية وغاية لها باعتبارها علوماً قابلةً للتجربة والمشاهدة.[1]

*** نتيجة البحث:**

في ما يلي نلخّص المباحث المذكورة لبيان مدى تأثّر العلم الحديث بالفكرة المستوحاة من أسطورة بروميثيوس:

1) الإله بروميثيوس في الأساطير الإغريقية هو من وضع الركائز الأولى للصناعة والفنّ والعلوم الطبية والرياضيات والعلوم الإنسانية، وقد وصفه هسيود بأنّه تافهٌ ومعارضٌ وقحٌ لكونه تجاسر على الآلهة وخدعها ولم يحترمها، فقد تحدّاها وحاول التظاهر بالقوّة أمامها لذلك استحقّ العقاب.

2) بروميثيوس بعد أن سرق النار والعلوم والمعارف من الآلهة، صان حياة الإنسان وحفظه من الهلاك.

3) الخطاب الميثولوجي الإغريقي أكّد على وجود مواجهةٍ بين ما لدى الإنسان من إرادةٍ وعلمٍ وقابليات، وبين قدرة الآلهة وعلمها ومشيئتها، وهذا هو السبب في تعارض مختلف نشاطات الإنسان العلمية والصناعية والفنّية مع ميتافيزيقا الآلهة والعبادات الدينية.

هذه الرؤية هي التي أسفرت عن حدوث فجوةٍ سحيقةٍ بين العلم والدين في المجتمع الغربي الحديث.

4) عبودية البشر للآلهة بحسب المبادئ الميثولوجية الإغريقية، تعني الخضوع المحض لها وتعطيل العقل واللجوء إلى التكهّن لمعرفة مشيئتها وما اتّخذته من

---

[1]- مريم صانع پور، خدا و دين در رويكردي اومانيستي - دانش و انديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ و انديشه اسلامي»، 2002م، ص 134 - 138.

قرارات، وعلى هذا الأساس اعتُبر النشاط العقلي والعلمي والفنّي والصناعي مؤشّراً على تحدّي الإنسان للآلهة والوقوف بوجهها والسير على خلاف مشيئتها وإرادتها.

هـذه الرؤيـة الأسـطورية كان لهـا تأثـيرٌ بالـغٌ ومبـاشرٌ عـلى النزعـة العلمانيـة التـي شـاعت في عـصر النهضـة والحداثـة، وقـد تبلـورت في العهديـن ضمـن قصّـة تحريـم الأكل مـن شـجرة المعرفـة في الجنـة التـي طـرد منهـا آدم، لـذا فالتعـارض بـين العلـم والديـن في العـصر الحديـث يـراد منـه في الواقـع التعـارض بـين إرادة الإنسـان وإرادة الآلهـة الأسـطوريين، وهـذا مـا نلمسـه بوضـوح في أسـطورة بروميثيـوس.

5) نستشفّ من الأساطير الإغريقية أنّ الإنسان الذي يفتقر إلى العلم ولا يجيد الصناعة ولا يحسن الفنّ، محكومٌ بالفناء، وعلى هذا الأساس فالقابليات العلمية التي اقتبسها من الآلهة غير المحكومة بالفناء، تسوقه بطبيعة الحال نحو الخلود والبقاء. وهذه الرؤية على غرار ما ذهب إليه الهيومانيون - أصحاب النزعة الإنسانية - في عصر النهضة والحداثة من أنّ تخليد ذكر الإنسان أو تجسيد شخصيته في تمثالٍ أو لوحةٍ فنّيةٍ يعتبر سبباً لخلوده.

إذاً، عقيدة الهيومانيين هذه متأثّرةٌ بالأساطير الإغريقية التي حكت عن خلود الأبطال الأسطوريين وبقائهم إلى الأبد في ذاكرة التأريخ لدرجة أنّهم أصبحوا آلهةً لا يطرأ الفناء عليها بتاتاً.

6) النصّ الأسطوري الذي تمحور حول قصّة الإلة آخيل (أخيليوس)، تمّ التأكيد فيه على أنّ سيطرة الإنسان على العلم والمعرفة والفنّ بفضل مساعي الإله بروميثيوس، أدّت إلى سقوط إله الآلهة زيوس وزوال سيادته. ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ هذه الفكرة كانت مصدر إلهامٍ لفريدريك نيتشه حينما رفع شعار "مات الإله" وجان بول سارتر عندما طرح نظريّة "الإنسان - الإله". كما أنّ الفيلسوف أوجست كونت

اعتبر الإنسانية بشكلٍ عامٍّ لائقةً للعبودية، وهذه الرؤية أيضاً تعدّ من مصاديق الرؤية الأسطورية المشار إليها هنا.

إذاً، نستشفّ من أسطورة أخيليوس وجود تعارضٍ بين علمي الآلهة والبشر، لذا هناك مواجهةٌ محتدمةٌ بين العلم والدين بحيث اعتُبرت الجهود العلمية والنشاطات الصناعية بأنّها تعدٍّ على حرمة علم الآلهة وإبداعها، والملحمة الشعرية التي دوّنها الأديب الألماني جوته تحت عنوان "فاوست" أو "فاوستوس Faustus" تحكي في الحقيقة عن هذا التوجّه.

7) المفاهيم المطروحة في أسطورة الإلة هرمس على خلاف ما طرح في أسطورة الإله بروميثيوس، إذ نلاحظ فيها وجود توازنٍ بين العلم والدين؛ وهذا التوازن ملموس في عصر ما بعد الحداثة.

8) العلوم في جميع الثقافات البشرية -بحسب نظرية جيامباتيستا فيكو- متقوّمةٌ بمبادَئ أسطوريةٍ، والحداثة الغربية هي الأخرى جزءٌ من هذه القاعدة ولا يمكن استثناؤها منها مطلقاً.

9) جيامباتيستا فيكو أكّد على أنّ العقل الشعري لمدوّني الأساطير هو المنطلق الأساسي للنزعة العقلانية التي بسطت نفوذها على الساحة العلمية في العصر الحديث ولجميع الاختراعات والاكتشافات التي حقّقها الإنسان المعاصر.

تاسعاً: الأنثروبولوجيا

اصطلاح أنثروبولوجيا (Anthropology) يعني علم الإنسان أو علم البشريات، أي دراسة البشر وسلوك الإنسان والمجتمعات البشرية الماضية والحاضرة، وقد طُرح لأوّل مرّةٍ في عام 1501م بقلم الكاتب الألماني ماجنوس هانت (Magnus Handt)،

وهو في الحقيقة ذو جذورٍ في اللغة الإغريقية حيث يتكوّن من مقطعين هما (Anthropos) ومعناها "الإنسان" و(logy) ومعناها "علم"، وعليه فالمعنى اللفظي له هو علم الإنسان.[1]

الجدير بالذكر هنا أنّ المباحث الأنثروبولوجية التي تمّ تسليط الضوء عليها في عصر التنوير الفكري كانت ذات بعدين أساسَيْن، أحدهما بيولوجي والآخر ثقافي، وسوف نسلّط الضوء عليهما في ما يلي:

1) البُعد البيولوجي

بعض الأساطير الإغريقية التي تمحورت مواضيعها حول خلقة الإنسان أشارت إلى أنّ الحبّ قد بدأ مع بداية الظلام والموت، ومع ولادته نشأ النظم وظهر الجمال لإزاحة سلطة الظلام والموت من الكون؛ وبهذا الشكل بدأت الخلقة لكن ما استطاع أحدٌ وصفها سوى الشعراء.

هوميروس هو أوّل شاعرٍ أسطوريٍّ إغريقيٍّ تحدّث عن أسطورة الخلقة قائلاً: الأرض الجميلة هي الأصل والأساس لكلّ شيءٍ، والسماء المليئة بالنجوم والمحيطة بالأرض من كلّ ناحيةٍ قد استوعبت في أكنافها الآلهة الرازقة بأفضل شكلٍ.

في تلك الآونة كانت الأرض هامدةً ولم تكن هيئتها النهائية قد تبلورت بعدُ، ومدوّنو الأساطير الإغريقيون تصوّروا أنّ العالم عبارةٌ عن كائنٍ حيٍّ يناظر الإنسان في هيئته، وبعد ولادة الحبّ تهيّأت الأرضية المناسبة لظهور الإنسان وحياته على الأرض؛ وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ الحبّ بعد أن ولد أدّى إلى زوال الغموض عن كلّ شيءٍ بحيث بدأت الأشياء تسير نحو التجلّي والوضوح.

تفيد الأساطير الإغريقية بأنّ أبناء والد السماء ووالدة الأرض العملاقين العظيمين

[1]- See: Dies Rude Juul 1908, The scope and content of the science of anthropology, London, Open Court Publishing.

أورانوس (Uranus) وغايا (Gaea) هم أوّل كائناتٍ ظهرت على هيئة البشر، وقد أطلق عليهم اسم (Giants) حيث كانت كائناتٍ ضخمةً ذوات جثث عظيمةٍ، فهي لم تكن شبيهةً بحيوانات المموث المنقرضة ولا الديناصورات، وإنّما على غرار البشر لكنّها كانت عملاقةً وبإمكانها سحق الإنسان بالكامل بأقدامها ومحوه على الأرض، لذلك كانت تزلزل الأرض عندما تمشي أو حينما تغضب، كما كانت تتسبّب بحدوث أعاصير وفيضاناتٍ وحتّى براكينَ. هذه المخلوقات التي ولدتها أمّ الأرض غايا مع كونها كائناتٍ حيّةً شبيهةً ببني آدم، إلا أنّ نمط حياتها لم يكن شبيهاً بنمط حياة الإنسان، وقد ذكرت الأساطير أنّها خرجت من باطن ظلمات الأرض، وكما أشرنا آنفاً فإنّ إله السماء هو والدها، لكنّه كان يبغضها بسبب ارتكابها المعاصي التي أسفرت عن بقاء الوحوش المنحرفة والمخرّبة في الأرض وعدم ابتعادها عنها؛ وهذا هو السبب الذي دعا إله الآلهة زيوس إلى إرسال الصواعق المدمّرة وإحداث الزلازل الشديدة للقضا على الوحوش التي كان لكلّ واحدٍ منها مائة رأسٍ والتي عرفت بالتيتان (Titans)، لكن مع ذلك ولد لها وليدٌ هو الإله بروميثيوس (Prometheus) الذي امتلك قابليةً عقليةً كبيرةً، وقد استطاع الفرار من الإله زيوس.

بعد أن هزم زيوس وحوش التيتان، أرغم العملاق أطلس -شقيق بروميثوس- على حمل الأرض وأعمدة السماء على كتفيه إلى الأبد، بعد ذلك انتفض الوحش العملاق ذو المائة رأسٍ تايفون (Typhoon) الذي كان يتأجّج ناراً وحارب الآلهة، لكنّه تلقى صاعقةً أرسلها عليه إله الآلهة زيوس؛ وفي نهاية المطاف تمكّن الآلهة من هزيمة العمالقة الوحوش بمساعدة هرقل ابن زيوس، ثمّ أرسلوهم إلى أعماق الأرض السحيقة التي وسمت في الأساطير الإغريقية باسم تارتاروس (Tartarus) (السجن تحت الأرض)، وإثر ذلك انتصرت قوى السماء المشرقة على قوى الظلام المتوحّشة في الأرض؛ وفي هذا الصراع الشرس الذي اندلع بين الآلهة والعمالقة الوحوش، استطاع

زيوس بمعونة إخوته وأخواته أن يطهّر الكون من دنس الأشرار كي يمهّد الأرض للبشر لينعموا بحياةٍ ملؤها الراحة والطمأنينة دون أن تنتابهم أيُّ خشيةٍ من عودة هؤلاء العمالقة الأشرار.

بعض الأساطير الإغريقية تحدّثت عن الطابع الجغرافي للأرض حيث وصفتها وكأنّها كرةٌ عظيمةٌ تقسم بحراً عظيماً يسمّيه اليونانيون البحر الأسود[1] إلى قسمين متساويين، كما صوّرت نواحي الأرض وكأنّها محاطةٌ بنهرٍ عظيمٍ اسمه أوقيانوس (Ocean)، أي المحيط العظيم الذي يصونها بعواصفه وأمواجه المتلاطمة من هجوم الأعداء. وتؤكّد هذه الأساطير على وجود قومٍ حياتهم مليئةٌ بالأسرار والغموض يعيشون في السواحل النائية لهذا المحيط، وهم السومريون (Cimmerian) حيث تحتجب ديارهم عن الأنظار بواسطة الغيوم المتراكمة والضباب الكثيف دون أن يصلهم النور طوال اليوم، لكنّ الأرض رغم كلّ هذه الظروف وفي جميع نواحيها الملائمة لمعيشة الإنسان وحتّى تلك غير الملائمة التي تذهب إليها الأرواح الشرّيرة بعد الموت، مستعدّةٌ لبقائهم عليها؛ لذا كلّ بقعةٍ فيها سواءً تلك التي ينال الإنسان الصالح فيها خير الجزاء جرّاء أعماله الحسنى، وتلك التي يطال الإنسانَ المجرمَ فيها سوءُ العذاب، مهيّأةٌ لأن يمكث البشر فيها تحت أيِّ ظروفٍ كانت.[2]

ما نستحصله من أسطورتَيْ هوميروس وهسيود بخصوص خلقة الإنسان في الأرض، هو وجود وجهتَيْ نظر ميثولوجيتين؛ فهوميروس قال أنّ الإنسان خُلق ليكون نائباً عن الآلهة في الأرض، وبروميثيوس العملاق الضخم لجأ عند شقيقه إبيميثيوس (Epimetheus) بعد أن حارب إله الآلهة زيوس. وقد وصف بروميثيوس بصاحب العقل السديد بحيث فاقت قدراته العقلية عقول الآلهة خلافاً لشقيقه

[1]- اليونانيون أطلقوا على هذا البحر اسم البحر الأسود لأنّه بعقيدتهم غامضٌ ومحفوفٌ بالمخاطر، لكنّهم بعد أن استكشفوه أطلقوا عليه اسم البحر المحبوب.

[2]- Hamilton, Edith (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 65 - 70.

إبيميثيوس الذي كان متسرّعاً لا يستقرّ على رأيٍ بحيْث لم يكن يتّخذ قراراً حتّى يعرض عنه فوراً.

الإلهُ زيوس، برأي هوميروس، قد وهب الإنسان أفضل النِّعَم التي اتّصفت بها مختلف الحيوانات القوية والسريعة والشجاعة والماكرة، أي أنّه منحه القوّة والسرعة والشجاعة والمكر كي لا يعاني من أيّ نقصٍ في بنيته البدنية، إلا أنّ بروميثيوس هو الذي تكفّل بخلقة الإنسان النهائية اعتماداً على فكره وعقله، لذلك جعله على هيئة الآلهة بقوامٍ معتدلٍ ومتوازنٍ، ثمّ انطلق نحو السماء واقتبس شعلة نارٍ من الشمس التي هي نار الآلهة فجلبها إلى الأرض كي يحافظ على البشر من الهلاك وحتّى يستفيدوا من نورها وسائر منافعها، فهي باعتقاده أنفع لهم من جميع النِّعَم الأخرى من قبيل الصوف والريش والقدرة والسرعة؛ وبهذا الشكل تمكّن الإنسان من استثمار النار وإشعالها في الأرض ومن ثمّ تعلّم بفضلها الكثير من الأمور وأتقن صناعاتٍ عديدةً.

وأمّا هسيود فقد أكّد في أسطورته على أنّ الآلهة قد خلقت البشر وجعلت الجيل الأوّل منهم أفضل نسلٍ لذلك وصف بأنّه الجيل الذهبي رغم كونه فانياً، لكنّهم مع ذلك عاشوا دون همومٍ ومعاناةٍ كما عاش الآلهة، حيث منحتهم الأرض خيراتها من فواكهَ كثيرةٍ ومنافعَ أخرَى؛ لذلك تعايشوا في ما بينهم بأمنٍ وسلامٍ تامَّيْن وآمنوا بالآلهة، وحتّى بعد موتهم كانت أرواحهم الخالصة النقية تخرج من قبورهم للحفاظ على الأحياء من أقرانهم البشر.

تفيد أسطورة هسيود أنّ البشر كانت لديهم رغبةٌ شديدةٌ في اكتشاف مختلف المعادن والفلزّات لمعرفة فوائدها وموارد استخدامها، لذا حينما انتهى العصر الذهبي في حياة البشرية بدأ العصر الفضّي بحيث وصفت ذرّيته بالفضّية وهي بطبيعة الحال أدنى مرتبةً من الذرّية الذهبية. اتّصف الفضّيون بحذاقةٍ عقليةٍ مشهودةٍ وذكاءٍ حادٍّ، لذلك لم يتعرّضوا لأقرانهم البشر بالاعتداء والأذى.

الإنسان البرونزي جسّد الجيل الثالث بحسب هذه الأسطورة، وقد اتّصف البشر في هذا الجيل بالقوّة والقدرة الفائقة، لذلك انتابتهم رغبةٌ جامحةٌ في العنف والحروب ما أدّى إلى حدوث مجازرَ وصراعاتٍ داميةٍ هلك إثرها الكثير من الناس؛ فهذا الجيل سلك نهجاً مخالفاً للجيلين الذهبي والفضّي اللذين أطاعا أوامر الآلهة، وذلك لأنّه اتّبع الأبطال الأسطوريين الذين كانوا شبيهين بالآلهة الأسطورية، وهؤلاء الأبطال كان لهم دورٌ فاعلٌ في الملاحم الحماسية التي شهدها التأريخ القديم.

تفيد الأساطير القديمة بأنّ الناس الذين انحدروا من الجيل البرونزي اتّجهوا نحو جزرٍ خضراء وعاشوا بسعادةٍ وطمأنينةٍ حتّى أواخر جيلهم، بينما الجيل الرابع الذي وصفه كتّاب الأساطير بالجيل الحديدي، ما زال حتّى يومنا هذا يعيش على الأرض؛ وكما هو ملموسٌ من سلوكيات الذين ينحدرون منه، فهو جيلٌ اتّسم بالشرّ والانحراف، لذلك لم ينفكّ أبداً عن العذاب والمعاناة في الحياة.

المسيرة الانحطاطية للبشرية انطلاقاً من الجيل الذهبي ووصولاً إلى الجيل الحديدي طبقاً لما تضمّنته الأساطير الإغريقية القديمة، تؤيّد رأي أصحاب النظرية القائلة بأنّ النسل الإنساني يسير دائماً نحو سوء العاقبة والشرّ، لذا نلاحظ أنّ الأبناء عادةً ما يكونون أسوأ من آبائهم وأكثر انحطاطاً منهم، وسوف يأتي اليوم الذي يبلغ فيه الإنسان الغاية في الشرّ بحيث يعبد السلطة وتتمحور إرادته حولها فقط، وفي تلك الآونة لا يمتلك أيُّ إنسانٍ القدرة على مقارعة الظلم وإحقاق الحقّ والوقوف بوجه الظلمة المستكبرين، لذا سوف يرد إله الآلهة زيوس المضمار ليقضي على حكّام الباطل والزور ويزيح جميع المنحرفين عن السلطة.[1]

بعد أن سلّطنا الضوء على الأساطير الإغريقية من الناحية الأنثروبولوجية

[1]- Ibid, p. 65 - 70.

البيولوجية، سوف نتطرّق في المبحث التالي إلى بيان جانبٍ من بُعدها الأنثروبولوجي الثقافي في إطارٍ تحليليٍّ:

2) البُعد الثقافي

الباحث ميرتشا إلياده لـخّص البُعد الأنثروبولوجي الثقافي في إطارٍ كلّيٍّ ضمن النقاط الثلاثة التالية:

أ - الحقيقة بالنسبة للإنسان، الذي عاش في العصور الأولى، تعني اتّباع سلسلةٍ من المراتب الروحانية واللاهوتية.

ب - الإنسان البدائي اعتبر بعض المراكز المدنية مثل المدن والمعابد والمنازل رموزاً على إقامة الآلهة في جبل الأولمبيب، وعبر نشاطاته التي كان يزاولها في هذه المراكز الأرضية اعتبر نفسه شريكاً للآلهة في قيادة العالم.

ج - الإنسان البدائي تصوّر أنّ الطقوس والحركات الرمزية القديمة التي تشير إلى دلالاتٍ معيّنةٍ، تعينه على كسب معرفةٍ علميةٍ بمفاهيمها عن طريق إرادته وفكره، حيث اعتقد أنّ الآلهة في العهود السالفة قد أقرّت هذه الأعمال، أو أنّها موروثةٌ من الأبطال القدماء أو الأجداد.[1]

وأمّا الفيلسوف الألماني الشهير فريدريك هيغل[2] (George Wilhelm Friedrich Hegel) فقد تطرّق في إحدى محاضراته التي ألقاها حول فلسفة التأريخ (On the philosophy of history) إلى الحديث عن هذا الموضوع، وقال بأنّه ليس الحيوان فقط من يرتكب الآثام والمعاصي، وإنّما الإنسان يقع في ذلك أيضاً، لذا فالبشر الأوائل الذين أقرّوا بأنّهم غير معصومين من الذنوب، حاولوا من خلال اعترافهم بذنوبهم أن

---

[1]- Eliade, Mircea (1959) Cosmos and History (the Myth of Eternal Return), Trans. From the French by Willard R. Trask, Haper Torch Books, New York, p. 5.

[2]- 1770 - 1831.

ينزّهوا أنفسهم منها كما هو حال الحيوانات؛ ولعلّ هذه الرغبة ترجع في الحقيقة إلى الطموح في العودة إلى الجنّة المفقودة والتي اتّسمت بطابعٍ حيوانيٍّ، فهي جنّةٌ مفقودةٌ جعلت رغبة الإنسان مكنونةً في باطنه ثمّ انتقلت هذه الرغبة إلى مرحلةٍ جديدةٍ تمثّلت في الإدراك والسعي إلى امتلاك إرادةٍ.

بعد هذه الأطروحة، تساءل هيغل قائلاً: هل إنّ عودة الإنسان إلى الجنّة الحيوانية سوف تتكرّر على مرّ الزمان؟!

نلاحظ ممّا ذكر أنّ هيغل سلك نهجاً مغايراً لما ذهب إليه ميرتشا إلياده، حيث وصف الجنّة الأولى التي طمح إليها الإنسان بأنّها ذاتُ طابعٍ حيوانيٍّ، بينما إلياده أكّد على رغبة الإنسان البدائي في بلوغ جنّة الآلهة مؤيّداً في رأيه هذا ما تضمّنته الأساطير القديمة التي تحدّثت عن الجنّة، حيث صوّرت في حكاياتها شخصيةً إنسانيةً مثاليةً لها القابلية على العيش في حياةٍ هانئةٍ خالدةٍ ملؤها اللذّة والسعادة والروحانية العليا، وهذه الميزات حرم منها الإنسان الذي هبط إلى الأرض بسبب الظروف التي تحفّ حياته، لذا فهو غير قادرٍ على نيل ملذّات الجنّة وهو في هذه الأرض.

الأساطير الإغريقية القديمة أشارت إلى أنّ الآلهة غير الخالدة هبطت إلى الأرض في العصر الذهبي وخالطت البشر آنذاك، كما أنّ الناس في تلك الآونة كانت لديهم القدرة على العروج إلى السماء والوصول إلى الجنّة، لكن إثر إقتراف الأخطاء الشرعية انقطع ارتباطهم مع الجنّة والسماء، لذلك عاد الآلهة إلى السماوات العليا مرّةً أخرى ولم ترجع إلى الأرض بعد ذلك مطلقاً، كما أنّ الناس عجزوا عن العروج إلى السماء وحرموا من الخلود، حيث أرغموا على توفير متطلّباتهم المعيشية في الأرض عن طريق الجهد والعمل ولم تعُد لديهم القدرة على بلوغ درجة الخلود.[1]

[1]- Eliade, Mircea (1959) Cosmos and History (the Myth of Eternal Return), Trans. From the French by Willard R. Trask, Haper Torch Books, New York, p. 91 - 94.

ذكرنا آنفاً أنّ الإله هرمس (ميركوري) كان له دورٌ أساسيٌّ في الثقافة الإغريقية القديمة، وتواصل هذا التأثير على مرّ العصور ليتجلّى في الثقافة الغربية إبّان عصر النهضة والحداثة أيضاً، ومن وجهة نظرٍ أنثروبولوجيةٍ ثقافيةٍ فالإله أطلس شقيق بروميثوس الذي حُكم عليه من قبل الإله زيوس بحمل الأرض وأعمدة السماء على كتفيه، هو برأي الباحث أنطوان فيفر حفيد هرمس بحسب هذه الأسطورة، أي أنّه حفيدٌ لإلهٍ امتلك معرفةً واسعةً في علم الفلك وكانت لديه مهاراتٌ كبيرةٌ في شتّى المجالات؛ وأكّد فيفر على أنّ معاصري هرمس اعتبروه من الآلهة بعد وفاته وأدرجوه ضمن الشخصيات الأزلية الخالدة، لكنّهم أخطؤوا في تصوّرهم هذا.[1]

الحقيقة أنّ وساطة هرمس بين علمي الأنثروبولوجيا واللاهوت الأسطوري الإغريقي ملفتةٌ للنظر، حيث تطرّق الباحث السيكولوجي السويسري الشهير كارل غوستاف يونغ إلى الحديث عنها من زاويةٍ أنثروبولوجيةٍ في رحاب أطروحةٍ جديدةٍ ومفيدةٍ؛ فقد سلّط الضوء على هرمس باعتباره حاملاً لرسالة آلهة جبل الأوليمب للبشر، وضمن مقالته التي دوّنها تحت عنوان (The spirit of Mercury's) ذكر مختلف صفات هذه الشخصية الأسطورية الشهيرة التي عرفت بحذاقتها في شتّى المجالات ولا سيّما علم الكيمياء، حيث لـخّصها في النقاط التالية:

أ- شخصية هرمس ليست على نسقٍ واحدٍ، بل متعدّدةٌ حتّى إنّ بعضها متضادٌّ مع الآخر، لكنّها اتّحدت في باطنها.

ب- شخصيته اتّسمت بطابعين في آنٍ واحدٍ، فقد كانت مادّيةً وروحانيةً.

ج- شخصيته جسّدت حركةً تكوينيةً تحوّل على أساسها عالم المادّة الأرضي إلى عالمٍ روحانيٍّ علويٍّ.

[1]- Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press, p. 17 - 18.

د- إحدى الخصال التي امتازت بها هذه الشخصية، أو بالأحرى إحدى الشخصيات التي تجلّى فيها هرمس أنّه شيطانٌ وسواسٌ يستهدف روح الإنسان، فهو صورةٌ وانعكاسٌ للآلهة في عالم الطبيعة الجسماني، وهذا هو السبب في كونه ماكراً ومخادعاً.

هـ- شخصيته تنمّ عن تجربةٍ عرفانيةٍ تتناغم مع النصوص الأدبية.

و- رغم تعدّد أسماء هذه الشخصية وعدم تقيّدها بميزاتٍ ثابتةٍ ومحدّدةٍ، إلا أنّها اتّسمت بوحدةٍ كفردٍ له القابلية على طرح نفسه في إطار إدراكٍ شاملٍ يعمّ شخصياتٍ متعدّدةً.[1]

إذاً، هرمس بحسب ما ذكر في النقاط أعلاه تتبلور في شخصيته الأفكار البشرية التي تواجه تناقضاً في طريقين متباينين، وهذا التناقض من شأنه أن يوجد التفاؤل لدى الإنسان أو أن يغرس التشاؤم في نفسه.

عندما يشعر الإنسان بالتفاؤل العرفاني فهو يرى العالم وكأنّه حقيقةٌ إلهيةٌ، لأنّ العارف يعتقد بطبيعة الحال بأنّ الربّ يتجلّى في كلّ شيءٍ، لذا لو اعتمد الإنسان على فكره وإدراكه ومعرفته الفطرية، سوف يدرك حقيقة الألوهية، فمن خلال تصوير العالم في ذهنه سيتمكّن من الارتباط بالربّ والانصهار به؛ وهذا يعني أنّه يمتلك عقلاً إلهيّاً، وهو ما تبلور في القرون الوسطى في رحاب الرؤية الهرمسية التي سادت في المجتمعات الغربية. لكنّه حينما يشعر بالتشاؤم ويلتزم جانب الزهد بالحياة وما فيها، سوف يرى العالم وكأنّه كيانٌ ملؤه الشرّ والأذى، لذا يسعى جاهداً للإعراض عنه والتخلّص منه.

الرؤيتان المشار إليهما -التفاؤل والتشاؤم في الأساطير الهرمسية- تتجلّيان في الأعراف الهرمسية الحديثة، والحقيقة أنّ الرؤية المتشائمة هي التي تؤكّد على مسألة هبوط الإنسان من السماء إلى الأرض،[2] وتصوّر الإنسان وكأنّه كائنٌ مطرودٌ، في حين

---

[1]- Ibid, p. 46 - 47.

[2]- Ibid, p. 55 - 56.

أنّ الرؤية المتفائلة تعتبر الإنسان نائباً عن الآلهة في الأرض، والعالم على هذا الأساس مرآةٌ لصفات الربّ وأفعاله.

نستشفّ من جملة ما ذكر أنّ حصيلة المفاهيم الأنثروبولوجية والثقافية المطروحة في الأساطير الإغريقية، هي أنّ الإنسان محورٌ ومرتكزٌ في العالم -المقصود من الإنسان هنا هو الرجل لا المرأة- بينما الأساطير التي تتمحور مفاهيمها ومواضيعها حول الدين اعتبرت الربّ هو المحور الأساسي والمرتكز الوحيد في العالم.

الباحث جوزيف كامبل تطرّق إلى بيان مسألة مركزية الإنسان في الأساطير الإغريقية واستنتج أنّ هذه الأساطير لم تروِ أحداثاً هلك فيها البشر بسخط الآلهة دون سببٍ، حيث ذكرت لكلّ حادثٍ سبباً، كما أكّدت القصص والحكايات الأسطورية على أنّ البلايا السماوية التي نزلت عليهم هدفها إرغامهم على التوبة بخضوعٍ وتواضعٍ.

نلاحظ في الأنثروبولوجيا الأسطورية الإغريقية العديد من الأمثلة بخصوص الموضوع المشار إليه، فالذين عاصروا الكاتب المسرحي الأسطوري إسخيلوس[1] (Aeschylus) على سبيل المثال، اعتقدوا بوجود تضادٍّ بين الإنسان والآلهة، وفي هذا السياق أشار مؤلّف كتاب أيوب (Book of Jacob) المجهول إلى مخالفة بروميثيوس لسائر الآلهة، وقال أنّ أحد الآلهة وهو يعذّب بروميثيوس جرّاء ما ارتكب، كانت له القدرة على الذهاب إلى تخطّي عقبة اللوياثان (الليفياتان)[2] (Leviathan) الخطيرة وأن يتلاعب به بواسطة صنّارة، كما كان قادراً على فعل ذات الأمر مع الطيور. بروميثيوس أهان إله الآلهة زيوس، ومن جملة ما قاله بشأنه "أنت مجرّد عملاقٍ"، "أنا لا أكترث بزيوس، ليفعل ما يشاء".[3]

---

[1]- 525 - 456 B. C.

[2]- اللوياثان هو وحش بحري أسطوري.

[3]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton university press, p. 82.

على ضوء هذه التوجّهات أصبحت الإنسانوية الثقافية والبيولوجية الأسطورية الإغريقية رمزاً احتذت به الحضارة الأوروبية الحديثة، وفي هذا السياق أكّد المنظّر الألماني فرديناند جورج فروبنيوس[1] (Ferdinand Georg Frobenius) كما أكّد قبله فريدريك نيتشه، على أنّ العالم المعاصر هو ثمرةR للتطوّر الإجباري الذي شهدته البشرية في إحدى مراحل حياتها، وهو ليس عرضةً للتحوّل والتغيّر؛ والجيل الذي عاصر هذا التطوّر اجتاز تلك الأطر الثقافية العلمية المتأصّلة في المجتمع ليلج في عرصة عالمٍ جديدٍ ومستقبلٍ غير مسبوقٍ.[2] وأمّا الباحث جيامباتيستا فيكو فقد أكّد على أنّ الميثولوجيا لا تختصّ مواضيعها فقط بتلك الجوانب السيكولوجية والشؤون الذهنية والروحانية للإنسان البدائي، وإنّما يتمّ على أساسها بيان الخلفيات الجسمانية والثقافية الفردية والاجتماعية للفرد والمجتمع على حدٍّ سواءٍ.[3]

*** نتيجة البحث:**

في ما يلي نذكر خلاصة ما ذكر حول مختلف الجوانب الأنثروبولوجية الحديثة المتأثّرة بالأساطير الإغريقية من الناحيتين البيولوجية والثقافية:

1) الإنسان البدائي، استناداً إلى الأساطير الإغريقية، كان خاضعاً لأوامر آلهة جبل الأوليمب في حياته الأرضية؛ وهذه الآلهة اتّسمت بميزاتٍ تشابه ميزات البشر بحيث كانت تعيش مع بعضها في إطار أسرةٍ أيضاً، إلا أنّ وجه الاختلاف بينها وبين البشر أنّها بلغت درجة الكمال وغير فانيةٍ كالإنسان.

[1]- 1849 - 1912.

[2]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press, p. 87.

[3]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista Vico, trans. from the itallian by Max Harold fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. Lii.

إذاً لا نبالغ لو قلنا أنّ أنثروبولوجيا الأساطير القديمة في التراث الإغريقي كانت ذات طابعٍ إنسانيٍّ محضٍ ويمكن تشبيهها بالنزعة الهيومانية، وعلى هذا الأساس تبلورت فكرة الكمال المثالي آنذاك في رحاب القدرة البدنية والمادّية والغريزية، وهو كمالٌ دائمٌ وغير متناهٍ يناظر الفكرة التي سادت في الأوساط الفكرية الغربية إبّان عصر التنوير الفكري، حيث تمّ تصوير الكمال وكأنّه أمرٌ مقتصرٌ على الشؤون البشرية والقضايا الجسمانية والمحسوسة.

2) تفيد الأساطير الإغريقية أنّ الآلهة قد خُلقت في هذا العالم، لذا لا يُستبعد أنّ اليونانيين القدماء كانوا يعتقدون بوجود عالمٍ دون ربٍّ، حيث ادّعوا أنّ باكورة عهد الآلهة هي ذات الفترة التي خُلق فيها الإنسان؛ وأمّا بالنسبة إلى الفكرة المطروحة في عصر النهضة والحداثة، فهي تتمحور حول بلوغ الإنسان عقليّاً واستغنائه عن الإله أو الآلهة بشكلٍ عامٍّ، لذا دعا روّاد الفكر الغربي الحديث إلى نبذ فكرة الآلهة كي تتمكّن البشرية من تجاوز أسوار عجزها وتتخلّص من القيود التي جثمت على العقل وحجبت الحقائق عنه.

3) العداء الذي حصل بين إله الآلهة زيوس والإله بروميثيوس الذي سرق النار من الآلهة، تجسّد في الفكر الغربي الحديث على ضوء عقيدة التعارض بين إرادة الربّ القادر والعالم وصاحب المشيئة، وبين إرادة الإنسان القادر العالم صاحب الإرادة الحرّة؛ لذا تغلغلت المفاهيم الأسطورية الدالّة على الحسد الموجود بين الآلهة ورغبتها في الانتقام من الإنسان العالم القادر، في عمق الفكر الغربي الحديث إبّان عصر النهضة والحداثة، لذلك غلبت على فكر هذا العصر النزعة إلى إنكار الربّ والإلحاد مع التأكيد على قدرة الإنسان وحرّية إرادته بشكلٍ مطلقٍ.

هذا الأمر تجسّد أيضاً في أسطورة هسيود الذي صنّف ذرّية البشر ضمن أربعة أصنافٍ آخرها الجيل الحديدي الذي انقطع بالكامل عن القيم الروحية

والشؤون السماوية بحيث أصبح شغله الشاغل نيل القدرة والسيطرة الجبّارة على العالم.

4) أنثروبولوجيا عصر التنوير الفكري من الناحيتين البيولوجية والثقافية، متقوّمةٌ في أساسها على سيادة الرجل؛ وهذا الأمر تبلور أيضاً في الأساطير الإغريقية القديمة.

5) من جملة أوجه الشبه بين الفكر الغربي الحديث والمفاهيم الأسطورية القديمة، أنّ الإنسان قبل أن يكون مكلّفاً أمام الآلهة، يجدر به أوّلاً المطالبة بحقّه من الربّ والعالم وأقرانه البشر.

6) الأسطوري الإغريقي اعتبر نفسه بمثابة رمزٍ للإنسانية قاطبةً، واعتبر بلاده وكأنّها مثالٌ للعالم بأسره؛ وهذه الرؤية مشهودةٌ بوضوحٍ في فكر الإنسان المعاصر والمجتمع الأوروبي الحديث ولا سيّما في عصر التنوير الفكري.

اليونانيون القدماء، وفق الرؤية المشار إليها، تصوّروا أنّ كلّ من سواهم من بشرٍ مجرّد غرباء وهمجٍ وبربرٍ كما أنّ بلادهم مجهولةٌ وغامضةٌ لا هوية لها.

7) أساطير الأبطال الإغريق أكّدت على قدرة الإنسان اليوناني في تجاوز جميع المشاكل التي تواجهه دون استثناءٍ، فهو بحسب هذه الأساطير له القابلية على تسخير الطبيعة خدمةً لمصالحه ومنافعه، كذلك هو قادرٌ على تسخير العالم بأسره وتسييره وفق إرادته؛ وهذه الرؤية في الحقيقة انعكست إلى حدٍّ ما في العصر الحديث.

8) الإنسان الغربي المتجدّد تأثّر بأسطورتَيِ الإلياذة والأوديسة لهوميروس، وقد سلك نهجاً مغايراً للنهج الذي اتّبعه إنسان القرون الوسطى في أوروبا، فهو لم يستسلم لأوامر الربّ ولم يخضع له أو يتوب ممّا فعل، إذ اعتمد على قدراته الشخصية وقابلياته الذاتية بالكامل لأجل تسخير العالم خدمةً لأغراضه ومصالحه، كما تحدّى السماء وحاول إثبات قدرته الدنيوية الفائقة وعلمه المادّي.

9) أسطورة هرمس -ميركوري- التي تدلّ على التعدّدية والنسبوية والتأويل، كان لها تأثيرٌ بالغٌ على المبادئ الأنثروبولوجية الثقافية في الفكر الغربي الحديث.

10) الأنثروبولوجيا الثقافية والبيولوجية الحديثة اتّصفت بالطابع ذاته الذي اتّسمت به الميثولوجيا الإغريقية من حيث تقوّمُها على مبدأ سيادة الرجل وتهميش دور المرأة في المجتمع باعتبارها مجرّدَ كائنٍ ثانويٍّ تابعٍ لأوامر الرجال.

عاشراً: علم الاجتماع

المختصّون بعلم الاجتماع الحديث عادةً ما يتطرّقون في دراساتهم إلى نقد وتحليل النشاطات الاجتماعية التي تهدف إلى النهوض بالواقع الرفاهي في المجتمعات البشرية،[1] ومواضيع علم الاجتماع تتمحور حول العديد من القضايا كالطبقات الاجتماعية والحركة الاجتماعية والدين والقانون.[2]

عالم الاجتماع البريطاني المعاصر ألبرت هنري هيلسي[3] (Albert Henry Halsey) أكّد في دراساته على أنّ مبادئ علم الاجتماع المعاصر منبثقةٌ من المعارف والمبادئ الفلسفية الغربية التي تضرب بجذورها في عصر أفلاطون،[4] إذ إنّ كلمة سوسيولوجيا sociology مشتقّة من اللغة اللاتينية القديمة، وهي مركّبة من جزأين

[1]- Ashley D. Orenstein DM. 2005, Sociological theory classical statements (6th ed), Boston, Massachusetts USA: Pearson Education, 3 - 5, p. 38 - 40.

See: Giddens Anthony & Dunier Mitchell & Appiebaum Richard 2007, Introduction to sociology, sixth edition, New York: www. Norton and Company.

[2]- Macy Michael & Weller Robb 2002, from factors to actor's computational sociology and agent - based modeling, annual review of sociology, 28, p. 66 - 143.

[3]- 1923 .

[4]- A. H. Halsey 2004, A history of sociology in Britain science, literature and society, p. 34.

هما سوشيوس[1] (Socius) التي تعني الرفيق والشريك، ولوجي (logy) التي تعني العلم والمعرفة.

عالم الاجتماع والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي أوغست كونت (Auguste Conte) الذي ذاع صيته في العصر الحديث، ذكر في نظريته الوضعية أنّ علم الاجتماع يعدّ فرعاً مشتركاً بين سائر العلوم، حيث تطرح مباحثه في مختلف الدراسات التأريخية والسيكولوجية والاقتصادية وغيرها، لذا فهو يوحّدها في نطاقٍ اجتماعيٍّ مشتركٍ ثمّ يصقل منها رؤيةً علميةً ذات طابعٍ محدّدٍ.

في ما يلي نسلّط الضوء على ما أفاده اثنان من أشهر المنظّرين الغربيين حول هذا الموضوع بمحورية تأكيدهما على وجود ارتباطٍ فاعلٍ بين علم الاجتماع الحديث والأساطير القديمة:

1) نظرية جيامباتيستا فيكو

الباحث الغربي جيامباتيستا فيكو طرح العديد من النظريات التي تمحورت مواضيعها حول مدى تأثّر مختلف المجتمعات البشرية بالأساطير القديمة التي ورثتها من الأسلاف، واعتبر هذا الأمر متحقّقاً في الفكر الغربي الحديث أيضاً؛ وضمن دراساته وبحوثه التي أجراها وفق منهجٍ عقليٍّ، حاول بيان طبيعة الارتباط الفاعل بين شتّى

---

[1]- مصطلح العلوم الاجتماعية يشير إلى التخصّصات الأكاديمية التي تهتم بالمجتمع وعلاقات الأفراد داخل المجتمع وتعتمد في الأساس على مناهجَ تجريبيةٍ، وعادةً ما يستخدم كمصطلحٍ شاملٍ للدلالة إلى علم الإنسان وعلم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع. وقد يشمل غالباً بمعناه الأوسع العلوم الإنسانية مثل علم الآثار والدراسات الإقليمية ودراسات الاتصالات والدراسات الثقافية والتأريخ والقانون وعلوم اللغة والعلوم السياسية. ويمكن استخدام هذا المصطلح في السياق العلمي للإشارة إلى أصل علم الاجتماع الذي نشأ في القرن التاسع عشر حيث إنّ الكلمة الإنجليزية «sociology» (باللغة اللاتينية: socius أي «رفيق» اليونانية lógosأي «كلمة» و«معرفة» و«دراسة». الجدير بالذكر هنا أنّ إميل دوركهايم وكارل ماركس وماكس فيبر هم من أسّسوا العلوم الاجتماعية الحديثة وفقاً لهذا التعريف. (المترجم)

المصدر: https://ar.wikipedia.org/wiki/علوم _اجتماعية.

المعتقدات الدينية القديمة التي قدّس الناس على أساسها الربّ وانتهجوا مسلكاً دينيّاً في حياتهم الفردية والاجتماعية، ثمّ استنتج من هذا النهج أطروحةً صاغها في إطار نظريةٍ اجتماعيةٍ متقوّمةٍ على محورين أساسيين كما يلي:

المحور الأوّل: فيكو احتذى بالأنموذج التأسيسي في تأريخ الشعوب القديمة وأشار إلى ظروفٍ تقتضي بطبيعتها تحقّق ظروفٍ أخرى في ما بعد.

المحور الثاني: فيكو اعتبر الظروفَ المشارَ إليها في المحور الأوّل طارئةً، لذا من الممكن تأسيس مراكزَ اجتماعيةً في رحاب أحد الأنظمة الاجتماعية بدون واسطةٍ وبالاعتماد على القدرة الغيبية الإلهية، ولو كان من المقرّر أن يتكرّر العالم والخلق إلى ما لا نهاية، فهذه المراكز هي الأخرى سوف تتكرّر إلى ما لا نهاية.

استند فيكو إلى هذين المحورين وصاغ نظريةً يمكن في رحابها استطلاع الظروف التي تتزامن مع توسيع نطاق عددٍ من المراكز الاجتماعية لتعمّ أُطراً معيّنةً[1] حتّى لو كانت هذه الظروف مرتبطةً بالعصر الأسطوري الأوّل الذي هو في الحقيقة عصر الآلهة، ومن جملة الآراء الأخرى التي طرحها في نظريته الاجتماعية أنّ المراكز والمكوّنات الاجتماعية العقيمة والمنافية للمبادئ القانونية والتي تتّصف بطابعٍ عنيفٍ وهمجيٍّ وقوامها التعجرف والغطرسة ومناهضة العقل والحكمة، عادةً ما يتمّ إرساء دعائمها من قبل الرجال الذين هم في سلوكياتهم وأفكارهم كالأطفال الضعفاء والنساء العاطفيات، ومن قبل الشبّان الذين لا يتورّعون عن ارتكاب أفعالٍ بشعةٍ؛ فلو كانت هذه المراكز على حقٍّ لما اتّصفت أسطورة هوميروس بأيّ طابعٍ عقلانيٍّ سواءً كان ظاهريّاً أو خفيّاً، وعلى هذا الأساس استنتج أنّ بعض مفاهيم الملاحم الأسطورية الهوميروسية وليدةٌ للفكر الفلسفي الذي تبنّاه كاتبها والذي لم يكن ذا أهميةٍ في

[1]- Pompa Leon 1975, Vico: A study of the new science, Cambridge University Press, p. 102 - 103.

المجتمعات البشرية الأولى، ففي تلك الآونة كان البشر يتلذّذون بمشاهدة القسوة والظلم الأمر الذي حرمهم من امتلاك فكرٍ فلسفيٍّ مثاليٍّ.

الباحث ليون بومبا الذي بادر إلى نقد وتحليل نظرية فيكو، نحا منحىً آخر خلافاً لما تبنّاه الأخير وأكّد على إمكانية طرح فرضيةٍ فلسفيةٍ قوامها أنّ الطبيعة الإنسانية متنوّعة غاية التنوّع وليست مقتصرةً على نمطٍ فطريٍّ واحدٍ، ومن هذا المنطلق يمكن القول أنّ كلّ حالةٍ تكتنف شخصية الإنسان تنمّ في الحقيقة عن جانبٍ من هذا التنوّع الفطري، حيث تتناسب حين ظهورها مع الظروف السوسيولوجية والتأريخية، ومن أبرز خصائصها أنّها ذات قابليةٍ على التنوّع والتوسّع أكثر.[1] بناءً على هذه الرؤية بالإمكان وصف العنف والاستبداد والانحراف الفكري الاجتماعي وسائر الظواهر المشابهة أو المخالفة لهذه الأمور بكونها حالاتٍ اجتماعيةً متوازنةً أو متكاملةً، واعتبارها انعكاساتٍ متنوّعةً للطبيعة الإنسانية بحيث تتنامى وتترسّخ بين الناس تزامناً مع تحقّق الظروف الاجتماعية المناسبة.

وأمّا بالنسبة إلى الدور الإبداعي للإنسان في شتّى الظروف الاجتماعية، فإنّ تأويل فيكو حتّى وإن تنزّل بمستوى الأساطير الهوميروسية وقيّد هيكليتها الأكسيولوجية بقضايا شعريةٍ، إلا أنّ هذا التنزّل ينمّ كذلك عن وجود إبداعٍ إنسانيٍّ ذي أهميةٍ بنيويةٍ، فهو إبداعٌ من شأنه تمهيد الأرضية المناسبة للنبوغ تأريخيّاً واجتماعيّاً بشكلٍ غير مباشرٍ؛ وكما هو معلومٌ يمكن لبعض الأشعار أو النصوص المسرحية أو الوظائف السياسية أن تسفر في ما بعد وبشكلٍ غير مباشرٍ إلى تحقيق إبداعٍ رغم كونها مرتكزاً لنبوغٍ مباشرٍ لإحدى الشخصيات التي ذاع صيتها في التأريخ البشري، وبهذا التأويل يقال أنّها يمكن أن تسهم في تلبية متطلّبات الإنسان وإدراكه ومشاعره وأفكاره المتناغمة مع الظروف التأريخية والاجتماعية لأقرانه البشر.[2]

---

[1]- Ibid, p. 138 - 139.

[2]- Ibid.

نستشفّ ممّا ذكر أنّ نظرية فيكو تعتبر واحدةً من النظريات الاجتماعية العامّة التي يمكن على أساسها إثبات تأثير الأساطير القديمة في نشأة مختلف القضايا المرتبطة بالمجتمع كالتأريخ وعلم النفس والسياسة والثقافة وشتّى العلوم والفنون، وهذه النظرية لا تصدق فقط على الحداثة الغربية، وإنّما يمكن أن تنطبق على شتّى الثقافات في كلّ آنٍ ومكانٍ.

2) نظرية جورج سوريل

الفيلسوف الفرنسي جورج يوجين سوريل[1] (Georges Eugene Sorel) طرح نظريةً محورها تأثّر علم الاجتماع الغربي الحديث بالأساطير الإغريقية، وقد حذا حذو نظيره المفكّر الفرنسي بيير جوزيف برودون[2] (Pierre Joseph Proudhon) السياسي الذي تخصّص في الفلسفة وعلم الاجتماع، حيث تطرّق إلى دراسة وتحليل واقع التأريخ الأسطوري الإغريقي بهدف استكشاف حقائق مجتمعه، واستنتج من البحوث التي أجراها أنّ الأصول الأساسية للقيم والمبادئ العليا في المجتمع يمكن التعرّف عليها بشكلٍ دقيقٍ حينما تتبلور اجتماعيّاً من جديدٍ؛ وفي هذا السياق وصف الملاحم الأسطورية بأنّها وازعٌ لانتقال بعض المفاهيم إلى سائر المجتمعات البشرية، وهي مفاهيمُ بطبيعة الحال ذاتُ دورٍ فاعلٍ في نشأة الأساليب والتوجّهات الإنتاجية.

من جملة الآراء التي طرحها سوريل أنّ نظرية الحقّ الطبيعي تضرب بجذورها في الفكر الإغريقي القديم، ووضّح في أحد مؤلّفاته[3] كيفية هبوط شأن القيم البطولية واستنتج من ذلك أنّ الحقّ الطبيعي الذي اعتقد به الأثينيون -أهل أثينا- كان أعلى وأسمى ممّا اعتقده غيرهم، ومن هذا المنطلق انتقد سقراط باعتباره فيلسوفاً تطرّق

---

[1]- 1847 - 1922.

[2]- 1809 - 1865.

[3]- Le procès de Sorates examen critique des thèses socratiques 1889, Paris: Alcan.

إلى الحديث عن نظرية الحقّ الطبيعي؛ حيث قال في هذا الصدد: الأثينيون الأوائل يعتبرون أنموذجاً كاملاً لمجتمعات البطولة والشجاعة المتقوّمة على الإنتاج، إلا أنّ سقراط في نظريته التي طرحها حول الحقّ الطبيعي قلب قيمهم وصوّرها بشكلٍ معكوسٍ،[1] لأنّ المكانة السامية التي احتلّها هؤلاء القوم جعلت عامّة الشعب اليوناني ولا سيّما شعب أثينا، يشعرون بالغرور؛ والجدير بالذكر هنا أنّ أرسطو سار على نهج سقراط وقيّد هذه المكانة بالخواصّ والطبقة الاجتماعية الأرستقراطية التي لم تكن تمثّل سوى فئةٍ قليلةٍ من أبناء المجتمع الإغريقي القديم.[2]

أشهر الفلاسفة الإغريق من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، مدينون في الحقيقة للمفاهيم الأسطورية التي ورثوها من أسلافهم، ففكرة الديمقراطية التي طرحت من قبل أرسطو على سبيل المثال كانت تقارب في مضمونها الأصول الأساسية لنظام التعليم والتربية الإغريقي القديم، وآراء سقراط التي اتّسمت بالحصافة وبُعد النظر تناظر ما عُهد عن الآلهة في هذا المضمار.

سوريل استدلّ ممّا ذكر على أنّ هذه الأمور لها ارتباط بالجانب العاطفي والشعوري الأسطوري قبل أن تكون مرتبطةً بالجانب العقلي،[3] وضمن نظريته التي طرحها تحت عنوان النقابية الثورية (Revolutionary syndicalism) تطرّق إلى شرح وتحليل الثورة العمّالية الماركسية، واعتبر هذه النظرية منبثقة من الحضارة الإغريقية التي تألّقت فيها الحكايات والأساطير البطولية.[4]

هذا الباحث الغربي اعتبر النظام الاجتماعي الموروث من الأساطير الإغريقية بأنّه

[1]- Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and Charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University Press, p. 24.

[2]- Ibid, p. 63.

[3]- Ibid, p. 70.

[4]- Ibid, p. 3.

نظامٌ مذهلٌ في تعاليمه ويثير الإعجاب، ووصفه بالقيم السامية التي ابتدعها الشعب الإغريقي في تلك الآونة والتي لا نظير لها على مرّ العصور، والتي بسطت نفوذها في قارّة أوروبا بعد حركة النهضة وجعلت المجتمع في تلك الديار يسلك طريق الخير والجمال الميثولوجي.[1] كما أكّد سوريل على أنّ الرجال في بلاد اليونان القديمة لم يسعوا مطلقاً إلى كسب المال أو المقام السياسي، بل طمحوا إلى نيل العظمة والسمو، لذا لم ينفكّوا عن الصراع مع القوى السلطوية وجبابرة العصر.[2] بعد ذلك شبّه رجال حركة النهضة بهم، لأنّ معارفهم العلمية تقوّمت على مبدأ التجربة، حيث بادروا إلى تطبيق الإنجازات التي اطّلعوا عليها في الأساطير الإغريقية القديمة وجعلوها أمراً ملموساً في أرض الواقع، وطالبوا أقرانهم بالسير على نهجها بغية إحياء تراث السلف.[3]

إذاً، نستنتج ممّا ذكر أنّ سوريل اعتبر الدراسات والبحوث الميثولوجية التي دوّنها روّاد حركة التنوير الفكري في البلدان الأوروبية منطلقاً أساسيّاً للنظريات السوسيولوجية التي طرحت على صعيد الحقّ الطبيعي والديمقراطية والطبقات الاجتماعية، وحتّى إنّه أكّد على تأثّر النزعة التجريبية التي بسطت نفوذها في مضمار العلوم الاجتماعية بهذه الدراسات والبحوث.

3) علم الاجتماع الحديث في رحاب الأساطير الإغريقية

الباحث الغربي فيرنر جايجر وصف اليونانيين القدماء بأنّهم شعبٌ اجتماعيٌّ، وممّا قاله في هذا الصعيد ما يلي: "الأنا الشخصية" لدى الشعب الإغريقي لم تكن في معزلٍ عن الحياة العامّة، وإنّما كانت على ارتباطٍ وطيدٍ بمضمارين أساسيين،

[1]- Ibid, p. 24.

[2]- Ibid, p. 5 - 6.

[3]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 181.

هـما عـالم الطبيعـة والمجتمـع البـشري، لـذا لا يمكـن اعتبـار الفردانيـة اليونانيـة أمـراً ذهنيّـاً بحتـاً، فقـد تجسّـد العـالم بـأسره بوجـوده وقوانينـه في الأنا الشـخصية آنذاك".

جايجر من منطلق رؤيته العنصرية بالغ في تمجيد اليونانيين القدماء، ومن المواضيع التي تجدر الإشارة إليها في هذا الصدد قوله أنّهم لم ينالوا حرّيتهم وعلومهم عن طريق إطلاق العنان لأفكارهم ومشاعرهم، بل كانوا يعتبرون أنفسهم واقعاً ملموساً مقابل جميع القوانين التي تحكم العالم، وبهذا النهج تمكّنوا من استكشاف قوانينهم الذاتية؛[1] كما وصف أشعار الشاعر الغنائي أرخيلوخوس (Archilochus) كالمعجزة التي أدّت إلى ظهور نمطٍ جديدٍ من الثقافة والأدب، حيث تقوّمت على مبادئَ معرفيةٍ جديدةٍ حول حياة الإنسان انبثقت في واقعها من وعيٍ وإدراكٍ، لذلك بادر مفكّرو عصر النهضة والحداثة إلى إحياء الأساطير الإغريقية القديمة وسلكوا ذات النهج الذي سلكه مدوّنو هذه الأساطير، وبهذا حرّروا أنفسهم وأفكارهم من الأعراف والتقاليد التي كانت حاكمةً على مجتمعاتهم ليأخذوا زمام الأمور بأيديهم، ومن ثمّ حاولوا وضع قوانينَ عامّةٍ لحكومتهم المدنية الجديدة، ومن ناحيةٍ أخرى بذلوا كلّ ما بوسعهم لتغذية الناس فكريّاً بآرائهم ونظرياتهم بغية كبت جموحهم الفكري ضمن إطارٍ منهجيٍّ منتظمٍ؛ حيث استطاعوا بفضل جهودهم هذه أن يصوغوا الملاحم التي خاضها الإنسان اليوناني القديم في إطارٍ جديدٍ ويبسطوها في عرصة عالم الطبيعة كي يرووا تعطّش البشرية الذي كان يتنامى يوماً بعد يومٍ للحياة واللذّة والرفاهية، ومن هذا المنطلق دعوا إلى تحرير إرادة المواطنين قدر المستطاع من التوجّهات الاجتماعية التراجيدية والقوانين المتشدّدة التي تحكم الدولة المدنية الجديدة بغية إشباع رغباتهم الطبيعية، لأنّ هذا الأمر برأيهم ما دام غير متعارضٍ مع الإرادة الجماعية، فلا ضير

---

[1]- المصدر السابق.

منه وبالتالي لا بدّ من الإفساح في المجال للإنسان كي يلبّي رغباته الجسمانية ويشبع تعطّشه الشخصي لمختلف الملذّات.[1]

الجدير بالذكر هنا أنّ حكومة أثينا المدنية لقّنت جميع مواطنيها ما يلي: "لا يمكن للمواطن العيش برفاهيةٍ إلا إذا كانت مدينته مقتدرةً". هذا الأمر أسفر في الواقع عن تحويل حبّ الذات الفطري إلى محرّكٍ يحثّ سلوك الإنسان في المضمار الاجتماعي ويخرجه من نطاق الأنانية الشخصية.[2]

الشاعر الغنائي الفرنسي بيير دو رونسار[3] (Pierre de Ronsard) هو الآخر رأى أنّ مفكّري عصر النهضة حاولوا إحياء الروح الهيلينية لأجل صياغة حضارةٍ جديدةٍ، وذلك لأنّ المجتمع الغربي الحديث كان يدعم المبادئ والأصول التي طرحت إبّان حركة النهضة.[4]

وأمّا المفكّر الفرنسي جان جاك روسو[5] (Jean Jacques Rousseau) فهو يعتبر واحداً من أشهر علماء الاجتماع في العصر الحديث وصاحب أهمّ النظريات الحديثة وعلى رأسها نظرية الإرادة العامّة وكرامة الإنسان وتشذيب الأخلاق الإنسانية ومحورية تعليم الأطفال والحياة المدنية وسيادة الشعب وحرّية الفكر الوضعي، ومن وجهات نظره الهامّة أنّه أيّد الخطاب الفلسفي الموروث من العهد الإغريقي القديم؛ وفي سياق ما ذكر فقد استعان بهذا التراث الأدبي لبيان واقع الخلافات التي عادةً ما تحدث في المجتمعات البشرية، حيث عزا السبب في انحراف الإنسان إلى معارضته

[1]- المصدر السابق، ص 191 - 194.

[2]- المصدر السابق، ص 444.

[3]- 1524 - 1585.

[4]- Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and Charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University Press, p. 5 - 6.

[5]- 1712 - 1778.

قوانين الطبيعة مؤكّداً على أنّ الإنسان الذي يتجاوز حدود القوانين الطبيعية عاجزٌ عن بسط سلطته على المجتمع، كما أكّد على أنّ السير في تيّارٍ مخالفٍ لهذه القوانين سيؤدّي في نهاية المطاف إلى حدوث بلايا وكوارثَ اجتماعيةٍ في حياة البشر.[1]

فضلاً عمّا ذكر، هناك علماء اجتماعٍ آخرون حاولوا التنسيق بين الفكر المتطوّر الحديث مع التراث الفكري الموروث بغية طرح نظرياتٍ حديثةٍ، وطبق هذه الرؤية أكّدوا على أنّ اللجوء إلى تراث الأسلاف يعين المجتمعات البشرية على السير قدماً ضمن حركةٍ تكامليةٍ، وهذه الحركة بطبيعة الحال لا تناظر الحركة في محيط دائرةٍ بحيث يعود المتحرّك مرّةً أخرى إلى النقطة الأولى، بل هي حركةٌ ملتويةٌ تسير بشكلٍ حلزونيٍّ، لذا لا رجعة فيها إلى الوراء بتاتاً وكلّ نقطةٍ يتمّ تجاوزها تصبح في عداد الماضي؛ والفكر الرأسمالي من الأمثلة على هذه الحركة، فدعاة الرأسمالية الجديدة رفعوا شعاراً ينسجم مع الفكر الاشتراكي الأسطوري الذي تمكّن الفكر الشيوعي الحديث على ضوئه من بلوغ مرتبةٍ متطوّرةٍ تفوق المرتبة التي بلغها الفكر الرأسمالي المعاصر.[2]

الجدير بالذكر هنا أنّ الأهداف التي يروم علماء اجتماع التجدّد الغربي تحقيقها تسير أحياناً إلى الوراء متّجهةً نحو عصر الأساطير، فأصول القانون الخاصّ على سبيل المثال منبثقةٌ في أساسها من النظريات السوفسطائية التي طرحها اليونانيون القدماء.[3]

---

[1]- Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and Charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University Press, p. 158.

[2]- Ibid, 158 - 159.

[3]- Ibid, p. 160 - 161.

*** نتيجة البحث:**

في ما يلي نلـخّص مواضيع البحث التي طرحت حول تأثّر علم الاجتماع الغربي الحديث بمضامين الأساطير الإغريقية:

1) مبادئ الخير والجمال في عصر النهضة والحداثة متأثّرةٌ بالمبادئ الأسطورية الإغريقية، وفي هذا السياق قال الباحث جورج سوريل أنّ تلبية متطلّبات المجتمع المعاصر كتعطّش الناس للجمال، يقتضي اللجوء إلى المفاهيم الأسطورية القديمة بصفتها بنيةً أساسيةً للمجتمع الحديث.

2) إعادة إنتاج المبادئ والقيم في المجتمع الحديث استناداً إلى نظرية المفكّر جورج سوريل، تعين البشرية على استكشاف جذور المبادئ والقيم التي كانت سائدةً في مجتمعات عصر الأساطير.

3) نظرية الحقّ الطبيعي التي طرحت في عصر الحداثة الغربية متقوّمةٌ في الأساس على القيم والمبادئ التي شهدها المجتمع اليوناني القديم في العصور الأسطورية.

4) الفلاسفة الإغريق من أمثال سقراط وأرسطو مدينون في أطروحاتهم ونظرياتهم للأساطير التي ورثوها من أسلافهم، وقد جسّدوا القيم والمبادئ الميثولوجية الملموسة ضمن مفاهيمَ انتزاعيةٍ وذهنيةٍ فلسفيةٍ تقتصر في الواقع على عددٍ قليلٍ من أعضاء المجتمع، وهم النخبة الأرستقراطية.

5) نظرية أرسطو الديمقراطية تعدّ ثمرةً لمناهج التعليم والتربية التي تبنّاها كتّاب الأساطير القديمة، كما أنّ سقراط تأثّر في حصافته وبُعد نظره بما ورثه من قصص الآلهة الإغريق من تعاليمَ خارجةٍ عن نطاق التعقّل الفلسفي.

6) المفكّر الغربي جورج سوريل أكّد في مباحثه على أنّ المحور الأساسي لفكر روّاد حركة النهضة هو العودة إلى المفاهيم الإغريقية القديمة، وهذا المفكّر باعتباره واحداً

من مؤسّسي الفكر الحداثي الغربي لجأ في نظرياته إلى المفاهيم الأسطورية الموروثة من التراث الإغريقي؛ لذا نلاحظ أنّ النهج التراثي القديم تمّ إحياؤه من جديدٍ في حركة التنوير الفكري التي اجتاحت أوروبا في العصر الحديث، حيث تجسّدت المفاهيم الميثولوجية في إطارٍ جديدٍ أكثر تكاملاً ممّا كانت عليه.

7) المعرفة التجريبية التي بسطت نفوذها على مبادئ علم الاجتماع في عصر التجدّد الغربي، تقوّمت في أساسها على النزعة التجريبية القديمة التي تبنّاها أرسطو.

8) الطابع العامّ للحضارة الحديثة برأي الشاعر الفرنسي بيير دو رونسار مستوحىً من المفاهيم الهيلينية التي حظيت باهتمام روّاد حركة النهضة.

9) المفكّر الشهير جان جاك روسو لجأ في نظرياته وآرائه المتقوّمة على نزعة طبيعية، إلى النظريات والآراء الموروثة من التراث الإغريقي القديم.

10) جورج سوريل اعتبر الفكرين الشيوعي والرأسمالي ثمرةً للمسيرة التكاملية للاشتراكيين الأوائل الذين كان لهم دورٌ فاعلٌ في المفاهيم والأطروحات الميثولوجية، كما أكّد على أنّ مبادئ القانون الخاصّ المتعارفة في المجتمعات الشيوعية تضرب بجذورها في آراء السوفسطائيين القدماء ببلاد الإغريق.

11) حركة النهضة بصفتها بنيةً أساسيةً للحداثة الغربية، دعت إلى التخلّص من قيود سلطة الإنسان والعودة إلى العصر الأسطوري الإغريقي وإحياء مفاهيمه من جديدٍ.

12) إحدى ميزات الحداثة الغربية أنّها توكل كلّ شيءٍ إلى الإنسان بشكلٍ مطلقٍ على المستويين الفردي والاجتماعي، حيث دعت إلى الاعتماد على الفكر البشري بالكامل باعتباره يمتلك القابلية التي تؤهّله للاتّكاء على قدراته الذاتية؛ وهذه الرؤية منبثقة في الحقيقة من المفاهيم الأسطورية الموروثة من التراث الإغريقي القديم، حيث كانت السيادة المطلقة في المجتمع آنذاك للرجل دون المرأة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المبادئ والقيم الاجتماعية المتبنّاة في عصر الرجال الأسطوريين الأوائل -أي في العهد الأسطوري الثالث- قد نشأت في عصر الأبطال الأسطوريين الذي يعتبر ثاني عهدٍ أسطوريٍّ.

13) الرغبات المادّية والنزوات الشهوانية والنزعة الفردانية التي شاعت في عصر النهضة الغربية، هي في الواقع صورةٌ متكاملةٌ للروح البطولية المستوحاة من الأساطير الإغريقية.

14) الباحث فيرنر جايجر اعتبر الفكر الاجتماعي الذي تبنّاه الإنسان الحديث متأثّراً بالمبادئ والقيم الأسطورية الموروثة من بلاد الإغريق، وعلى ضوء توجّهاته اليونانية المتعصّبة، أكّد على أنّ الرغبة الجامحة للإنسان الحديث في التحرّر والفكر الوضعي بشكلٍ عامٍّ، هي من خصائص الميثولوجيا الإغريقية، حيث تجسّدت في نمطٍ جديدٍ ضمن الفكر الحداثي الغربي.

حادي عشر: الحضارة والمدنية

حينما نتتبّع جذور الحضارة والمدنية في العالم الغربي حتّى مناشئها الأولى في العصور الأسطورية الإغريقية، سوف نتمكّن بطبيعة الحال من معرفة المرتكزات الأساسية التي تقوّمت عليها؛ وفي هذا السياق أدلى المفكّر الغربي جيامباتيستا فيكو برأيه قائلاً أنّ النظام المدني في مختلف المجتمعات البشرية متأثّرٌ بشكلٍ عامٍّ بالأساطير القديمة، وهذا الأمر برأيه ينمّ عن حركة جميع المراكز المدنية في مسيرةٍ تكامليةٍ، حيث اعتبر العهد الأسطوري بأنّه نقطة انطلاقٍ للحركة المذكورة.

النظرية التي طرحها فيكو على صعيد ما ذكر تتضمّن في الحقيقة أصولاً عامّةً حول جميع الحضارات الشرقية والغربية ولا تختصّ بنمطٍ حضاريٍّ معيّنٍ، وفي ما يلي نسلّط الضوء عليها بالتفصيل لبيان جزئياتها:

1) نظرية جيامباتيستا فيكو

الفيلسوف والسياسي الإيطالي جيامباتيستا فيكو أجرى بحوثاً ودراساتٍ موسّعةً ودقيقةً استنتج منها أنّ إيمان المجتمعات البشرية البدائية بسلطة الآلهة واقتدارها، مهّد الأرضية المناسبة لبسط سيادة الإنسان في العالم؛ فالشعراء الأسطوريون روّجوا لنمطٍ من اللاهوت الشعري في تلك المجتمعات قائمٍ على التخمين والتكهّن بالغيب، لذلك كان الناس آنذاك يستشيرون الكهنة والعرّافين باعتبارهم نوّاباً عن الآلهة لكي يعينوهم على إرساء دعائم المدنية الأولى في مجتمعاتهم ويرشدوهم للطريقة المثلى في إدارتها.

اللاهوت الطبيعي المستوحى من اللاهوت الشعري المشار إليه يدلّ على وجود سلطةٍ مقتدرةٍ أنشأتها العقول الأزلية للآلهة، لذلك تعجز حواسّ الإنسان عن إدراكها وهذا هو السبب الذي حفّز البشر الأوائل على إطاعة الأوامر الغيبية التي تفوق مدركاتهم وحواسّهم لكونها منبثقةً من قدرات ميتافيزيقية.

إذاً، يمكن القول أنّ العقل المدني قد ولد مع ولادة العقل الشعري الأسطوري الذي نشأ من أفكارٍ ميتافيزيقيةٍ بسيطةٍ وغيرِ متكاملةٍ، ومن هذا المنطلق تشعّبت الأساطير الشعرية في فروعٍ عديدةٍ متقوّمةٍ بمبادئَ منطقيةٍ وأخلاقيةٍ واقتصاديةٍ وسياسيةٍ معيّنةٍ، وبعض تفريعاتها أسفرت عن ظهور بعض العلوم كالفيزياء والكوزمولوجيا والفلك، وهذه العلوم في الواقع أصبحت في ما بعد بنيةً أساسيةً للحسابات الفلكية والإحداثيات الجغرافية المتطوّرة في العصر الحديث.

وممّا نستشفّه من هذه النظرية أيضاً، أنّ السياسة التي أصبحت ركيزةً أساسيةً في نشأة الحياة المدنية البدائية، هي الأخرى منبثقةٌ من اللاهوت الشعري الأسطوري.[1]

[1]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 72.

فيكو ضمن دراساته وبحوثه التي أجراها بخصوص الأساطير الإغريقية وطبيعة السيادة في المجتمعات البشرية البدائية، توصّل إلى نتيجةٍ فحواها أنّ الهراقلة والأبطال الأسطوريين في المدن البدائية كانوا على ارتباطٍ مع الآلهة بحيث استلهموا منها القوانين والمقرّرات اللازمة لإدارة شؤون المراكز التي تولّت مهمة إقرار الحقوق الطبيعية للبشر، فالآلهة كانت صاحبة القول الفصل على هذا الصعيد.[1]

بعد عصر الآلهة وفي العصر الأسطوري الثالث بالتحديد، أي عصر الرجال الأوائل، تمّ وضع قوانينَ مرتكزةٍ على إرادة الرجال فحسب، إذ تزعّم الحكومات ملوكٌ أقرّوا قوانين البلاد طبقاً للقابليات التي يتمتّع بها الرجل، بينما القوانين في عصر الآلهة والأبطال كانت منبثقةً من أوامر الآلهة وموضوعة مسبقاً نظراً لهمجية عامّة الناس وعدم قابليتهم للتقنين؛[2] وخلال العهد الذي خضع العالم فيه لسيادة هذه الآلهة، كانت قدرتها متقوّمةً بالنظام الحاكم الذي تزعّمته وكأنّه ملكيةٌ خاصّةٌ، فآنذاك اعتقد الرجال بأنّ كلّ ما في الكون ملكٌ لها.

الاعتقاد السائد في عهد سيادة الرجال الأوائل أنّ عقول عامّة الناس ضعيفةٌ، وبطبيعة الحال لا فائدة من عقل المستشار حينما يكون عقله ضعيفاً ولا يمكن الاعتماد عليه في إدارة شؤون المجتمع؛ ووفق هذه الرؤية بادر المنظّر السياسي والفيلسوف والحقوقي الروماني ماركوس توليوس سيسرو -شيشرون-[3] (Marcus Tullius Cicero) إلى وضع قوانين مجلس الشيوخ الروماني المكوّن من نخبةٍ اجتماعيةٍ خاصّةٍ.

الجدير بالذكر هنا أنّ الناس في العصرين الأسطوريين الأوّل والثاني حينما كانوا عاجزين عن تحديد معالم بعض الأمور ومعرفة أحكامها الخاصّة، لجأوا إلى التكهّن لمعرفة إرادة الآلهة بهذا الخصوص؛ ولكن في العصر الأسطوري الثالث حينما وضعت

[1]- Ibid, p. 192.

[2]- Ibid, p. 295.

[3]- 106 - 43 B. C.

قوانين مجلس الشيوخ الروماني طبقاً للمبادئ والقيم المشتركة التي أقرّها الرجال الأوائل، تجاوز النظام القانوني نطاق الحرّية العامّة لينصبّ في مجال حرّية الطبقة الأرستقراطية لكي تتاح الفرصة لهذه الطبقة في إرشاد عامّة الناس؛[1] والأنظمة الحاكمة في تلك الآونة كانت أرستقراطيةً والأبطال بدورهم استحوذوا على مقدارٍ كبيرٍ من المصالح العامّة، وهذه الملكية تمثّلت في نظام الحكم الملكي، حيث كانت مقاليد أمور الشعب بيد الملك الذي يحكمه، فهو كالوالد المتسلّط على شؤون أسرته، وعلى هذا الأساس تصوّر الملوك بأنّ البلاد التي يحكمونها كأنّها أسرتهم التي يشرفون على شؤونها؛ ولا شكّ في أنّ تصوّراً كهذا كان سبباً للحفاظ على المبادئ والقيم المشتركة بين الحكومة الملكية والشعب.

وفقاً لنظام الحكم الملكي، يحقّ لأبناء الطبقة الأرستقراطية الاحتفاظ بأرباحهم الخاصّة، فهم رجال عظماء ونبلاء يدافعون عن المصالح العامّة التي هي في الواقع تعود بالنفع على النظام الحاكم أيضاً، ناهيك عن أنّهم كانوا حكماء وعقلاء ينصحون عامّة الناس ويرشدونهم إلى الخير والصلاح،[2] والمشورة هنا برأي الناس كانت بمثابة استشارة الآلهة. هذا الأمر نجد مؤشّراتٍ عليه في أساطير هوميروس وآثار أفلاطون أيضاً.[3]

الحقّ الطبيعي في الحكومة المدنية الأسطورية استناداً لنظرية هوميروس يمكن تعريفه بثلاثة تعاريف تناسباً مع العصور الأسطورية الثلاثة وذلك كما يلي:

التعريف الأوّل: الحقّ الطبيعي في العصر الأسطوري الأوّل عُني منه حقّ الآلهة،

---

[1]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 297.

[2]- Ibid, p. 300.

[3]- Ibid, p. 30.

لأنّ الرجال الأوائل اعتبروا الآلهة مالكة لزمام أمورهم وأمور جميع المراكز والمكوّنات التي يشرفون عليها، حيث تصوّروا أنّ كلّ شيءٍ موجودٍ في الكون هو عبارةٌ عن إلهٍ أو أنّه من صنع إلهٍ، لذا كانوا يتعاملون مع الأشياء بحسب مقام الإله الذي تنتسب إليه.

التعريف الثاني: الحقّ الطبيعي في العصر الأسطوري الثاني هو عبارةٌ عن حقٍّ للأبطال، أي أنّه بنيةٌ أساسيةٌ لاقتدارهم؛ وهكذا حقٌّ خاصٌّ عادةً ما يتمّ تعيين حدوده وتضييق نطاقه بواسطة الدين كي لا يتعارض مع الحقّ العامّ.

الجدير بالذكر هنا أنّ الأبطال الأسطوريين كانوا يقيّمون الحقّ الطبيعي وفق معيار السعادة والرفاهية، وقد اتّخذوا الكهنة كمستشارين يعتمدون على تكهّناتهم[1] للاطّلاع على أرادة الآلهة.

التعريف الثالث: الحقّ الطبيعي للرجال هو حقٌّ يتّجه نحو التوسّع إنسانيّاً أكثر ممّا سبق،[2] وهذا يدلّ على أنّ البشر الأوائل الذين اتّصفوا بضخامة أجسامهم -العمالقة- هم من وضعوا أُسسه وذلك بعد العصر الذهبي الإغريقي حينما كانت الآلهة تعيش على الأرض جنباً إلى جنبٍ مع الرجال.[3]

العقل المدني هو الآخر يمكن تلخيص مسيرته ضمن ثلاثِ مراحلَ زمنيةٍ في رحاب الحضارات الأسطورية، وذلك كما يلي:

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة كان العقل مقدّساً، لذلك وُصف بأنّه عقلٌ لاهوتيٌّ غيبيٌّ تبلور فيه خطاب الآلهة كما قُصد منه فهم أسرارها.

---

[1]- الأساطير الإغريقية أشارت إلى وجود عرّافين كانوا يتكهّنون بمشيئة الآلهة ويبلّغون رسائلهم إلى البشر بعدّة أساليب من جملتها الاستدلال بالظواهر الطبيعية كتفسير صوت حفيف الأوراق الجافّة المتساقطة من الأشجار.

[2]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 288.

[3]- Ibid, p. 75.

هذا العقل ذو طابعٍ عامٍّ اعتمد عليه الشعراء في إنشاد أشعارهم التي تحدّثوا فيها عن الآلهة، وهؤلاء الشعراء هم في الحقيقة من أوائل أتباع النزعة العقلية في الحضارة الإنسانية، لذلك اعتُبروا لساناً للغيب لكون المضامين التي تطرّقوا إليها تمحورت حول الآلهة وما يختصّ بها؛ وهو ما أشار إليه شاعر القرون الوسطى الروماني أليجييري دانتي[1] (Alighieri Dante) حيث أكّد في أشعاره على أنّ البشر لهم القدرة على معرفة مراد الآلهة عن طريق العقل اللاهوتي -اللاهوت الغيبي- ومن ثمّ تمكّنوا من تحديد معالم العقل العادل اعتماداً على الطقوس والمناسك التي تبلورت في المفاهيم الأسطورية.

المرحلة الثانية: هذه المرحلة شهدت ظهور العقل المنتسب إلى الأبطال الأسطوريين، إذ كان مرتبطاً بشكلٍ مباشرٍ مع قدراتهم الفائقة، وحينما كانت عقولهم تعجز عن إدراك الحقائق يُناط الأمر للكهنة والعرّافين كي يدلوا بدلوهم لبيان مراد الآلهة.

المرحلة الثالثة: العقل هنا اختصّ بالرجال الأسطوريين، فقد كانت عقولهم على مستوًى واحدٍ من الفهم والإدراك كما تكافأت حقوقهم دون مفاضلةٍ، والحكومة المدنية بشكلها البدائي خضعت لسلطة هذا العقل وتكاملت مقوّماتها على أساسه، إذ كانت السيادة المطلقة له.

الحصيلة التي توصّل إليها جيامباتيستا فيكو من جملة ما ذكر أنّ عقل الآلهة والأبطال الأسطوريين يفيد الطمأنينة بحقائق الكون، بينما العقل البشري يدرك الحقائق الملموسة على أرض الواقع؛ وهذه الميزات العقلية كان لها تأثيرها البالغ على تعريف طبيعة القوانين والمقرّرات التي اعتُمدت كمرتكزاتٍ أساسيةٍ في أوروبا الحديثة.[2]

[1]- 1265 - 1321.

[2]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 294 - 295.

إذاً، إضافةً إلى تأكيد فيكو في نظريته على اتّصاف جميع الحضارات البشرية بطابعٍ عقلي عامٍّ وفضلاً عن اعتباره المبادئ العقلية الأولى أساساً تقوّمت عليه المسيرة التكاملية المدنية؛ ادّعى وجود ارتباطٍ ذي طابعٍ خاصٍّ بين المدنية الأسطورية والحضارة الغربية الحديثة، ومن هذا المنطلق طرح فكرة المدنية الحديثة الموروثة من الأساطير الإغريقية كثالث شاخصٍ دالٍّ على هذه الحضارة إلى جانب شاخصين آخرين هما الحقّ الطبيعي والعقل الجمعي؛ وقال في هذا السياق أنّ الرفاهية العامّة تُعدّ مؤشّراً آخرَ على الحضارة الحديثة، وأفلاطون بدوره دعا إلى تحقيقها.

حينما نتتبّع جذور هذه الوجهة الفكرية في الأساطير الإغريقية نلاحظ أنّ العمالقة الأسطوريين الذين كانوا مشرّدين فوق الجبال الشاهقة كالحيوانات البرّية، لجأوا في فترةٍ من حياتهم إلى الكهوف بعد أن نزلت على الأرض الصواعق الأولى بعد طوفان نوح الذي اجتاح العالم، وهناك أوكلوا أنفسهم إلى قدرةٍ عظمى تمثّلت بإله الآلهة جايا،[1] والجدير بالذكر هنا أنّ هؤلاء العمالقة رغم كبريائهم وغرورهم وقسوتهم وعدم نضوجهم عقليّاً، لكنّهم كانوا خاضعين لسلطة هذا الإله. هذا الكلام يدلّ على أنّ رفاهية الإنسان في العصر الأسطوري الأوّل، الذي كانت السيادة فيه للآلهة التي أشرفت بشكلٍ مباشرٍ على المجتمعات البشرية، تحقّقت أوّلاً بالحياة في الكهوف وثانياً بالخضوع لسلطة إله الآلهة جايا.[2]

ومن آراء فيكو الأخرى أنّ العمالقة بعد أن استوطنوا الكهوف، أشركوا معهم النساء اللواتي كنّ بطبيعة الحال يشعرن بالحياء ويتهرّبن منهم في بادئ الأمر، لكن بعد أن يختطفوهنّ ويعاشروهنّ في كهوفهم كُنّ يمكثن معهم بشكلٍ دائمٍ، حيث نتج

[1]- المقصود من جايا هنا الإله زيوس الذي اعتقد به الإغريق، وهو ذات الإله جوبيتر الذي اعتقد به الرومان.

[2]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 375.

عن هذه العلاقات إنجاب أطفالٍ في إطار حياةٍ مشتركةٍ مع نساءٍ معيّناتٍ لتنشأ على هذه الأساس أسرةٌ صغيرةٌ، والسيادة في هذه الأُسر البدائية كانت للرجال، فقد خضع لهم جميع أعضاء الأسرة من نساءٍ وأبناءٍ، ومن هنا نشأت السيادة بشكلها البدائي لتصبح الأسرة النواة الأولى للرفاهية والحياة المشتركة تحت سلطة الوالد؛[1] لكن كلّ هؤلاء الرجال لم يسيروا على النهج الصائب، بل كان فيهم منحرفون متمرّدون على الآلهة بعد أن استحوذ الشرّ على سلوكياتهم، لذلك لم يتورّعوا عن ارتكاب أيّ فعلٍ قبيحٍ ولا سيّما مضاجعة أمّهاتهم وأخواتهم؛ وأمّا الرجال المطيعون لأوامر الآلهة والملتزمون بسلوكياتٍ حسنةٍ فقد حافظوا على كيان أسرهم وترصّدوا للأشرار كي لا يعتدوا عليها، وهكذا يمكن اعتبار الأخلاق البطولية الفاضلة للآباء بأنّها صورةٌ بدائيةٌ للسيادة المدنية في المجتمعات البشرية حيث كان الهدف منها الحفاظ على الأسرة وتوفير متطلّبات معيشتها؛ والأخلاق الفاضلة آنذاك تمثّلت بما يلي: التديّن، الورع من ارتكاب المحرّمات، العبودية، الخضوع لأوامر الآلهة.

الآباء الأوائل في المجتمعات البشرية البدائية تمكّنوا من كبح جموح الرجال الأشرار الأمر الذي مكّن النساء من العيش براحةٍ وطمأنينةٍ تحت كنفهم ووضع حملهنّ بكلّ أمانٍ، وقد كنّ يزاولن بعض النشاطات إلى جانب مهامّهن المنزلية مثل الزراعة؛ وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ أوّل سيادةٍ مدنيةٍ شهدتها الحياة البشرية كانت لرجالٍ عقلاء وأتقياء وفضلاء وأقوياء، حيث كانوا يدافعون عن الضعفاء، وهذا الأمر في غاية الضرورة بطبيعة الحال، إذ لا يمكن لأيّ مجتمعٍ بشري الحفاظ على كيانه ومواصلة حياته حتّى للحظةً واحدةً دون نظمٍ وترتيبٍ، وكما ذكرنا فقد كانت قدرة الآباء بنيةً أساسيةً لنظام الحكم المدني المتقوّم على مبادئَ دينيةٍ.[2]

[1]- Ibid, p. 376.

[2]- Ibid, p. 377.

العدل هو الآخر من أبرز المعالم الحضارية نظراً لارتباطه الوطيد برفاهية المواطنين، وفيكو من ناحيته اعتبر معالم شخصية جايا أو زيوس معياراً لتشخيص الحقّ وتمييزه عن الباطل، فهما إلهان حيّان باعتقاد اليونانيين القدماء، والجدير بالذكر هنا أنّ هذه المعايير كانت تطبّق على غيرهما لا عليهما، حيث تفيد الأساطير القديمة أنّ الأشرار في المجتمعات البدائية كانوا يعاقبون بواسطة أناسٍ آخرين، والإلاهة جايا رغم امتلاكها القدرة على عقابهم جميعاً إلا أنّها لم تكن تعاقب الكاذبين أو الذين ينقضون قسمهم؛ ومثال ذلك ما ذكره هوميروس في ملحمة الإلياذة بخصوص إله الآلهة زيوس، فقد أكّد على أنّ عدل هذا الإله لم يطبّق بحقّ الأبطال الذين كانوا يسعون إلى بلوغ أعلى مستوى من الاقتدار والتسلّط لأجل الحصول على كلّ ما يشاؤون، لذلك رغبوا بالخضوع لسلطة إلهٍ لا يعارض طموحهم هذا.

هسيود خالف هوميروس في ملحمته الأسطورية، حيث اعتبر العدل أمراً مطلوباً ومتقوّماً بمبادئ خاصّة، فهذا الشاعر كان مزارعاً لا يتوانى عن العمل في الحقول لكسب لقمة العيش، لذلك اعتقد بضرورة وجود إلهٍ عادلٍ يردع الظلم والجور عن الفقراء من البشر؛ ومن جملة ما ذكره في أشعاره الأسطورية أنّ الأسماك والدوابّ وحتّى الفراشات، كانت تفترس بعضها البعض في العصور الأولى من الخلقة، وهذا هو السبب الذي دعا إله الآلهة زيوس لإجلاس العدل إلى جانبة وعلى كرسي عرشه كي تتغيّر الأوضاع وتتحوّل إلى نمطٍ آخر.

الجدير بالذكر هنا أنّ هسيود أكّد في أساطيره على اهتمام إله الآلهة زيوس باستغاثة المظلومين والمضطهدين، حيث يستمع إلى ندائهم حين معاناتهم ويمنحهم القدرة كي يتمكّنوا من استرجاع حقوقهم التي سلبها الظلمة والجائرون منهم؛ وبهذا استنتج أنّ الإنسان بحاجةٍ إلى عبادة الآلهة حتّى يصبح مؤهّلاً لمواجهة الطغاة.[1]

[1]- Ibid, p. 376.

الأساطير الإغريقية أكّدت على وجود ارتباطٍ وثيقٍ بين الأبطال الأسطوريين والآلهة، ولـمّا كان كلّ طاغيةٍ أو جائرٍ يعتدي على الناس ويدنّس حقوقهم المشروعة، كانت الآلهة تتصدّى له وتكبحه بمعونة الأبطال؛ وعلى هذا الأساس تمهّدت الأرضية المناسبة لرقيّ الحضارات البدائية عقليّاً، إذ إنّ حرّية البشر مرهونةٌ في الواقع بالقدرة على كبح جموح نزوات الأشرار والتصدّي لطغيان نزعاتهم الشهوانية، لذلك أدرك الإنسان البدائي أنّ الحرّية لا تعني إطلاق العنان للرغبات النفسانية، وإنّما تعني تحرّر عقله من القيود التي تفرض عليه. في هذه الأجواء والظروف الاجتماعية بادر الرجالُ البدائيون إلى التحرّي في حقائق عالم الطبيعة وحاولوا معرفة كُنهه واستكشاف أسراره، حيث تعرّفوا على العلاقات الرابطة بين بعض الظواهر الطبيعية، كما اعتمدوا على التكهّن لمعرفة إرادة الآلهة، ومن ثمّ شيئاً فشيئاً ولدت لديهم رغبةٌ في سنّ القوانين والعمل بها وإقرار العدل في المجتمع بغية تحقيق الرفاهية والطمأنينة لمعاصريهم.[1]

الفيلسوف أرسطو من ناحيته وصف هذه القوانين الأسطورية بالتراث المستوحى من عهد سيادة الآلهة، فكلّ قانونٍ برأيه لا بدّ وأن يكون متّسقاً مع الإرادة العقلية للآلهة التي لم تكن لديها مشاعرُ وعواطفُ تناظر ما يمتلكه البشر؛ كذلك الأبطال الأسطوريون امتلكوا أيضاً إرادةً عقليةً أيضاً، حيث تجسّدت هذه الحقيقة برأي أرسطو في العهد الذي نُسب إليهم، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ عقلانية الأبطال تُعدّ البنية الأساسية للفكر والنظام الفلسفي في العالم الغربي لكون الفلسفة لها القابلية على استثمار الأفعال الحسنة والسلوكيات الفاضلة في نظرياتها الاستدلالية وأصولها المنطقية ومن ثمّ تحليلها وبيان طبيعتها، وهذه الأفعال والسلوكيات عادةً ما تتحوّل إلى مقوّماتٍ أساسيةٍ للمعتقدات والأصول الدينية الثابتة على مرّ الزمان. إضافةً إلى ما ذكر، فالنظريات الاستدلالية الأخلاقية كانت وازعاً للرجال الأشرار الذين لا يتحلّون بالفضائل والمحاسن الأخلاقية

[1]- Ibid, p. 378.

لأن يبرّروا أفعالهم القبيحة ويسوّغوا سلوكياتهم الشرّيرة من الناحية النظرية دون أن يشعروا بالخجل والحياء من كلّ فعلٍ قبيحٍ يصدر منهم.

خلاصة الكلام أنّ المبادئ الأخلاقية المشار إليها مهّدت الأرضية المناسبة لتحقيق الرفاهية العامّة للمجتمعات البشرية في رحاب قوانينَ ومقرّراتٍ ثابتةٍ.[1]

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض الأسس الارتكازية للحضارة البشرية كالرفاهية العامّة والتعقّل وحقّ الملكية الخاصّة والإشراف على الأمور وإقامة العدل والأخلاق الاجتماعية الفاضلة والقانون والحقّ الطبيعي، تمّ شرحها وتحليلها في الميثولوجيا الإغريقية على أساس أطروحات جيامباتيستا فيكو التي ساقها في نظريته، وهنا سوف نتطرّق إلى بيان تفاصيل هذا الموضوع بخصوص مسألة القدرة فقط.

أفلاطون الذي يعتبر أفضل فيلسوفٍ متديّنٍ في اليونان القديمة، حذا حذو سائر فلاسفة السياسة من منطلق اعتباره الاقتدار عاملاً أساسيّاً في نشأة المراكز والمكوّنات الاجتماعية، وفيكو بدوره اعتبر القدرة الأفلاطونية في مقابل الحظّ والمصير بحسب آراء أبيقور[2] (Epicurus) وتوماس هوبز[3] (Thomas Hobbes) ونيكولو مكيافيللي[4] (Niccolo Machiavelli) وزينون الإيلي[5] (Xenophon) وباروخ سبينوزا[6] (Baruch Spinoza)، بينما رجال القانون في العصر الأسطوري الروماني وضعوا أسس المجتمع المدني والمراكز الاجتماعية استناداً إلى مبدأ الحقّ الطبيعي.[7]

---

[1]- Ibid, p. 379.

[2]- 341 - 270 B. C.

[3]- 1588 - 1679.

[4]- 1468 - 1527.

[5]- 430 - 354 B. C.

[6]- 1632 - 1677.

[7]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 383.

الجدير بالذكر هنا أنّ أهمّ مسألةٍ مطروحةٍ بخصوص النظام المدني والحضارة الأسطورية في نظرية فيكو، هي أنّ الله خالق كلّ شيءٍ، وعلى هذا الأساس فهو على علمٍ بها قاطبةً؛ وأمّا المدينة فقد شيّدها الإنسان وأرسى دعائمها بيديه، لذا فهو يعرف حقيقتها جيّداً وله القابلية على وضع ضوابطَ ومقرّراتٍ ثابتةٍ وشموليةٍ للحكومات المدنية بحيث يمكن لجميع الشعوب الاعتماد عليها والعمل وفقها بغية الحفاظ على كيانها الاجتماعي والمدني.

وممّا ذكره فيكو على صعيد الحكومة المدنية، هو وجود ثلاثة نشاطاتٍ عمليةٍ مشتركةٍ بين الشعوب المدنية المعاصرة والشعوب المدنية الأسطورية، وهي كالتالي:

أ- الطقوس الدينية.

ب- مراسيم الزواج.

ج- مراسيم دفن الموتى.

بناءً على ما ذكر، يمكن القول بضرسٍ قاطعٍ أنّ أوّلَ مراكزَ مدنيةٍ في المجتمعات البشرية قد نشأت في رحاب هذه النشاطات الثلاثة.[1]

كما أكّد على أنّ النظام المدني الإغريقي القديم مستوحًى في أساسه من المفاهيم الأسطورية التي كانت سائدةً آنذاك، ومن ذلك ما يلي:

أ- الأشعار الغنائية للشاعر الأسطوري أورفيوس (Orpheus) التي تمحورت حول القوانين التي أقرّها الآلهة، حيث تلقّاها الأبطال الأسطوريون من الإله هرمس، وهؤلاء الأبطال كانوا شبه آلهةٍ.[2]

ب- أسطورة الإلاهة مينيرفا[3] (Minerva) تدلّ على إنزال العقاب بكلّ من يتجاوز على قوانين النظام المدني في المجتمعات البشرية البدائية.

---

[1]- Ibid, p. 71.

[2]- نستشفّ من هذا الكلام أنّ جيامباتيستا فيكو تبنّى ذات الرأي الذي ذهب إليه المفكّر أنطوان فيفر باعتبار أنّ الإله هرمس هو من وضع البنية التحتية للنظام المدني في العالم.

[3]- مينيرفا هي إلاهة الشعر والطبّ والحكمة والتجارة والحياكة والحرف اليدوية والسحر والموسيقى، وكانت أيضاً حاميةً للمدن.

ج- الأساطير التي تحكي عن الصراعات الشرسة بين الأبطال والشرائح الاجتماعية التي كانت تحت إمرتهم، تدلّ على قيام الطبقة الأرستقراطية في المجتمع باستعباد عامّة الناس.

هذه المفاهيم الأسطورية العامّة تحكي عن طبيعة المجتمعات المدنية البدائية التي نشأت إبّان العصور الأسطورية الإغريقية، واستناداً إلى آراء فيكو يمكن تلخيص أصول النظام المدني الإغريقي القديم على ضوء ما امتازت به أربعُ شخصياتٍ ترمز إلى أبطالٍ أسطوريين، وذلك كما يلي:

أ- الأشعار الغنائية التي أنشدها أورفيوس أو أبولو والتي دلّت على أنّ ميركوري أو هرمس هو من وضع القانون المدني، كانت على نسق المقاطع الموسيقية الموحّدة والمتناغمة وقد وصفت فيها القابليات العظيمة والقدرات المتكافئة للآباء الأبطال.

ب- رأس مدوزا (Medusa) الذي كان شعر رأسه على هيئة أفاعٍ استثمرته مينيرفا لتحويل كلّ من يحدّق بها إلى حجرٍ، وهذه الأسطورة تدلّ على وجود عقوباتٍ كانت تنفّذها السلطة الحاكمة في العصور الأسطورية القديمة.

ج- سهام العقاب الرومانية التي كانت مصنوعةً من غصون الأشجار وتدلّ على الخير والشرّ في آنٍ واحدٍ، اتُّخذت كوسيلةٍ للتكهّن.

د- الصراع الذي جرى بين الأبطال الأسطوريين وأنتايوس (Antaeus) كانت نتيجته انتصار هرقل على عامّة الناس الذين هم في الحقيقة أناسٌ مضطهدون لكنّهم متمرّدون، وفي هذا الصراع بادر الأبطال إلى استعبادهم من منطلق كونهم عبيداً ولخدمة الأرض.[1]

إذاً، ما نستحصله من نظرية فيكو بالنسبة إلى أصول النظام المدني، يتلخّص بالنقاط التالية:

---

[1]- Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London, p. 187.

أ- وحدة قوى الشخصيات البطولية.

ب- اقتدار سيادة الخير والشرّ عن طريق التكهّن بواقع إرادة الآلهة ومشيئتها.

ج- معاقبة العصاة الذين يتمرّدون على النظام الحاكم المقتدر.

د- استعباد عامّة الناس الخارجين عن القانون.[1]

بعد أن تطرّقنا إلى تحليل نظرية فيكو التي تمحور موضوعها حول المدنية والحضارة البشرية، سوف نسلّط الضوء في ما يلي على مراحل وكيفية نشأة المدن الأسطورية:

2) الحكومة المدنية الأسطورية

الإلاهة أفروديت بحسب مضامين الأساطير الإغريقية اتّصفت بالرأفة والوداعة وطيبة النفس، لذلك كانت محبوبةً في الأرض والسماء، كما كان لها تأثيرٌ ملحوظٌ ودورٌ فاعلٌ على صعيد الحياة المدنية حالها حال الإلاهة أثينا؛ ومن مهامّهما أنّهما كانتا إلاهتين للحرف اليدوية والفنون التي هي في الحقيقة من المستلزمات الأساسية في الحياة المدنية والحضارية إلى جانب مهنة الزراعة ضمن الأساطير الإغريقية. في هذا النمط الحضاري البدائي أُوكل بناء المدن وتنظيم شؤونها إلى أبناء الآلهة، والإله هفستوس (Hephaestus) الذي أُنيط له جانب من هذه المهمّة، وصف بأنّه إله التشريفات؛ والإلاهة هستيا (Hestia) أخت إله الآلهة زيوس كانت إلاهةً للأرض والبيوت التي يولد فيها الأطفال، حيث أُنيطت لها مهمّة الحفاظ عليهم، وكلّ وجبة غذاءٍ كانت تختم بتقديم قربانٍ لها، وبدونها لم يكن يسوّغ للبشر ولا للآلهة إقامة أيّ ضيافةٍ أو جلسات سمرٍ وسرورٍ. أضف إلى ما ذكر فقد تمّ تخصيص موقعٍ مقدّسٍ عامٍّ

[1]- ذكرنا في المباحث الآنفة أنّ هوميروس أكّد في ملاحمه الأسطورية على مسألة الدعم الدائم الذي حظي به الأبطال الأسطوريون والملوك من قبل الآلهة حتّى وإن كانوا طغاةً جبابرةً يضطهدون عامّة الناس، بينما هسيود تبنّى فكرةً أخرى في ملاحمه الأسطورية مؤكّداً على أنّ الآلهة تقدّم الدعم الغيبي للمستضعفين والمضطهدين.

في كلّ مدينةٍ لهذه الإلاهة، وحُرّم اقتباس أيّ شعلةٍ من النار الموقدة في هذه الأمكنة؛ وفي التأريخ الأسطوري الروماني نلاحظ أنّ نار هستيا المقدّسة كانت تحرس من قبل ستّة فتياتٍ كاهناتٍ يطلق على الواحدة منهنّ اسم فستا (Vesta).[1]

المفكّر جوزيف كامبل تحدّث في دراساته وبحوثه عن نشأة الحضارات البشرية الأولى، وقال أنّ العمالقة المتوحّشين الذين خُلقوا قبل الإنسان، نُفوا من الأرض من قبل إله الآلهة زيوس بعد أن هزمهم، ولم يبقَ منهم سوى كائنات السايكلوب التي أصبحت كعمّالٍ لزيوس يصنعون له الصواعق.

السايكلوبات في بادئ الأمر كانوا ثلاثةً، لكن في ما بعد تزايدت أعدادهم فأسكنهم زيوس في أرضٍ زاخرةٍ بالفواكه والغنم والماعز والخير الكثير، حيث عاشوا فيها بسلامٍ ورفاهيةٍ وسرورٍ، لذلك كانوا في غنًى عن المحاكم وسائر السلطات التي تتولّى تنفيذ العدل، كما لم يتمكّن أيّ غريبٍ أو شرّيرٍ من دخول أراضيهم. مرّت الأيام والسنوات والوضع على هذا الحال، حتّى ظهر جيلٌ من الرجال ساعدهم الإله بروميثيوس على التحضّر والمدنية، وبمعونته تمكّنوا من صناعة سفن ضخمة؛ لذلك قيل أنّ هذا الإله هو الذي وضع البنية التحتية للحضارة البشرية،[2] إلا أنّ الباحث هارد كادموس (Cadmus) اعتبره كمؤسّسٍ للنظام المدني في التأريخ الإغريقي القديم، واستدلّ على رأيه هذا بقصّة لايوس (Laius) وأوديب التي تمحورت حول حادثة نهب مدينة طيبة وتعاضد سبعة رجالٍ من أهلها ضدّ أبيجون (Epigone) حيث اعتبر أحداث هذه القصّة تدلّ على ما ذهب إليه.[3]

جوزيف كامبل تحدّث أيضاً عن نشأة المدن في الحضارة الإغريقية القديمة

[1]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 21.

[2]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press, p. 128.

[3]- R. Hard 2007, The Routledge Handbook of Greek mythology, p. 311.

وضمن بيانه تفاصيل الموضوع قال أنّ نظام المدن الأرضية في الأساطير الإغريقية كان على غرار النظام المتّبع في المدن السماوية التي اتّصفت بطابعٍ شموليٍّ؛ وفي هذا النمط الذي هو في الحقيقة تقليدٌ كانت بنية المدينة بمثابة مجتمعٍ كونيٍّ وسيطٍ بين العالم العظيم -الكون- وبين العالم الصغير الإنسان- لذا فالمدينة الأرضية عبارةٌ عن عالمٍ متوسّطٍ (Mesocosm) واقعٍ بين العالم الأكبر (Macrocosm) والعالم الأصغر (Microcosm) ، لذا تصوّر البعض أنّ المدن الأسطورية تجلّت فيها معالم العالم الأكبر وهيئته التكوينية، فحسب الأعراف التقليدية اعتُبر الملك كالشمس أو القمر وهو جالسٌ على عرشه في مقرّ بلاطه الملكي وبين الزقّورات التي تحيط بقصره. وحسب الأساطير الإغريقية فالدائرة التي تتكوّن من 360 درجةً تدلّ على عدد أيّام العام التي هي 360 يوماً والأيام الخمسة الباقية عبارة عن انعكاسٍ للطاقة الروحانية التي تتغلغل في الروح الإنسانية وتجري فيها عن طريق سحر عالم الروحيات -بليروما-[1] (Pleroma)؛ وهذه الحالة تتناغم مع الماندالا[2] (Mandala) الدنيوية التي تلتقي فيها القدارت الأرضية والسماوية وتجتمع مع بعضها.

إذاً، الأيام الخمسة التي أضيفت إلى 360 يوماً هي رمزٌ لفيض الخلود في الزمان، فالشهر الدنيوي والمدينة الصغيرة متقوّمان على أصول منتظمة ويحيط بهما مكان كلُّ شخصٍ يؤدّي مهامّه طبقاً لخطّةٍ عامّةٍ مستلهَمةٍ من عالم الملكوت؛ وهذا المكان الذي يحيط بالمدينة الأرضية هو في الحقيقة تلك الجنّة التي تمّ تصويرها في التعاليم البوذية الهندوسية[3] والتي يطمح الإنسان إلى العيش فيها، وهي أيضاً الجنّة الأرضية ذاتُها التي صوّرها دانتي في أشعاره، كما أنّها الجنّة نفسها التي أفنى كرستوفر كولومبوس حياته في البحار بحثاً عنها؛ وقد تبلورت في الكتاب

[1]- بليروما مصطلح يدلّ على قدرة الآلهة بشكلٍ عامٍّ.

[2]- الماندالا حالةٌ ميتافيزيقيةٌ تعني معرفة النفس لاشعوريّاً.

[3]- Aztec Temples of the sun, Greek Olympus, Mount Sumeru.

المقدّس باسم جنّة عدن التي تتناسب مع المفهوم المتعارف بين الناس إبّان القرون الوسطى.

الجدير بالذكر هنا أنّ السومريين هم أوّل شعبٍ حاول تقليد المدينة السماوية وجنّة الملكوت، ففي عام 4004 ق. م. بذلوا جهوداً حثيثةً في هذا المضمار، لذلك يقال أنّ الحكومة المدنية في الأساطير الإغريقية والتي تمّ تصويرها في إطار نظمٍ عالميٍّ شموليٍّ، قد تبلورت معالمها في الكرة الأرضية لأوّل مرّةٍ في المدن السومرية الصغيرة على هيئة نظامٍ مدنيٍّ شاملٍ وذلك تقريباً في عام 3200 ق. م. وبعد ذلك تمّ تقليدها في سائر بلدان الشرق والغرب، ومن أمثلة ذلك أنّ الحضارات القديمة التي ظهرت على ضفاف نهر النيل اعتمدت على الرياضيات والنجوم لحساب الأشهر وأيّام السنة، وكذا هو الحال في الحضارات المصرية الأولى التي يرجع تأريخها إلى عام 2800 ق. م. وفي حضارة جزيرة كريت.

إذاً، لا نبالغ لو قلنا أنّ جميع الحضارات والأنظمة المدنية في العالم هي وليدةٌ للتصوّرات والإلهامات الأسطورية، وهذا الأمر تجسّد لأوّل مرّةٍ بحضارة بلاد ما بين النهرين في الألفية الخامسة قبل الميلاد، والمقوّمات النفسية لهذا النظام المدني محورها المساهمة الشعبية وتعاضد الناس في ما بينهم لأجل تلبية متطلّباتهم الاجتماعية؛ وهذه الحالة كانت سبباً لنشأة علاقاتٍ اجتماعيةٍ وطيدةٍ بين أبناء المجتمع المدني.

لا شكّ في أنّ حاجة الناس لبعضهم البعض تعدّ منعطفاً أساسيّاً في سيكولوجيا المجتمع، وهذه الحاجة ليست جديدةً وإنّما شهدتها المجتمعات البشرية منذ عهد ما قبل ميلاد المسيح؛ لذا يقال أنّ النظم السماوي يعتبر أنموذجاً للحضارات البشرية كافّة وجميع الفلاسفة الغربيين حذوا حذو أفلاطون واعتقدوا بالحركة التكاملية التي تعيّن مصير الإنسان لدى حركته نحو الألوهية والتكامل التامّ في الكون، وعلى هذا الأساس تبنّوا فكرة إمكانية اتّساق جميع أجزاء الكون مع بعضها. هذه الرؤية تؤكّد

على العمل بالأصول العقلية والحفاظ على الانسجام بين الأجزاء، والكلّ سببٌ لأن يبادر الناس للقيام بأفضل الأعمال والتحلّي بأمثل الفضائل والخصال النفسانية، وهذه السيرة العقلية العامّة هي في الواقع من صنع الآلهة، حيث أقرّوها ووضعوا أسسها الخاصّة قبل خلقة الإنسان وساروا على نهجها في جميع العصور.[1]

الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج[2] (Karen Armstrong) دوّنت الكثير من الدراسات المقارنة حول الأديان، وحضارة ما بين النهرين تعدّ واحدةً من جملة الحضارات التي سلّطت عليها الضوء في بحوثها، حيث تحدّثت عن تأثيرها البالغ على الحضارة الإغريقية وقالت في هذا الصعيد أنّ البشرية أنشأت أوّل المدن والحضارات في الألفية الرابعة قبل ميلاد المسيح، ومنطقة الشرق الأوسط شهدت تشييد أوّل مدنٍ متحضّرةٍ على أراضيها نظراً للتنامي الاجتماعي السريع والملحوظ فيها والذي تزامن مع تطوّر الحرف اليدوية والفنون الصناعية وظهور مهاراتٍ جديدةٍ، فقد استوطن المدن مختلف أصناف الحرفيين من مهندسين وحلاقين وموسيقيين وسبّاكين وعمّال نقل المياه وحمّالين وكتّابٍ، وما إلى ذلك من المتخصّصين؛ لكن إلى جانب هذه الطاقات النافعة والمؤثّرة اجتماعيّاً وحِرَفيّاً، كان هناك مخرّبون وخارجون عن القانون في جميع المدن التي شيّدها البشر على مرّ العصور، لذلك احتدمت خلافاتٌ وصراعاتٌ داميةٌ وانقلاباتٌ عسكريةٌ أسفر بعضها عن حدوث مجازرَ بشعةٍ وتخريبٍ كبيرٍ للبنى التحتية وجميع المراكز الرسمية.

شعوب الحضارات القديمة ابتدعوا الكثير من المهارات خلال نشاطاتهم الاجتماعية، ومن جملة ذلك تشييد مبانٍ وأبراجٍ شاهقةٍ مخصّصةٍ للخطابة مثل البرج الذي بني في مدينة بابل، حيث يعتليه الخطيب كي يوصل صوته إلى أكبر عددٍ من الحاضرين؛

[1]- Campbell, Joseph 1972, The flight of the wild gander explorations in the mythological dimension, Henry Re Gunnery company, Chicago, p. 151 - 154.

[2]- 1944 - .

كما أنّ حضارة بين النهرين شهدت ظهور أوّل الملاحم الشعرية مثل ملحة جلجامش (Gilgamesh) ومن جملة المواضيع التي طرحت في هذه الملاحم البطولية هي طرد الآلهة من العالم، لذا تزامناً مع التطوّر الحضاري والثقافي الذي شهدته البشرية على مرّ التأريخ تمّ تهميش آلهة الطبيعة الأسطوريين وتضاءَل دورُهم في المنظومة الاجتماعية المدنية.[1]

إذاً، يتّضح ممّا ذكر أنّ اليونانيين القدماء ليسوا هم من ابتدع النظام المدني الذي يتّصف بطابعٍ حضاريٍّ وثقافيٍّ، وإنّما قلّدوا أنظمة الحكومات المدنية التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين.

المسألة الأخرى التي طرحتها هذه المفكّرة الغربية المعاصرة للبحث، هي أنّ النظام المدني الأسطوري قد شهد تطوّراً جادّاً ومتسارعاً خلال السنوات الواقعة بين 800 و200 ق. م.، وهذه الفترة وصفها البروفسور والفيلسوف الألماني كارل ثيودور ياسبرس (Karl Theodor Jaspers) بأنّها محوريةٌ في تطوّر الإنسان الإغريقي نفسيّاً وروحانيّاً، كما اعتبرها نقطة انطلاقٍ للأديان البشرية المتطوّرة فكريّاً، حيث شاعت فيها الديانات الكونفوشية والطاوية في الصين، والبوذية والهندوسية في الهند، والتوحيدية اليهودية والزرادشتية في الشرق الأوسط، والعقلية في بلاد الإغريق.[2]

في المبحث التالي سنتطرّق إلى الحديث عن الواقع المدني والحضاري في أوروبا الحديثة على ضوء تأثّر المجتمعات الأوروبية بالأساطير الإغريقية:

3) الحضارة الحديثة على ضوء الأساطير الإغريقية

حينما نتتبّع جذور التحضّر والحياة المدنية الغربيين في الأساطير الإغريقية، نستحصل من ذلك أنّ المفاهيم الأسطورية القديمة قد تبلورت ضمن المبادئ العامّة

[1]- See: Armstrong, Caren 2005, A short history of myth, Canon gate.

[2]- Ibid.

لنظام الحكم المدني المتعارف في البلاد الغربية ومن ثمّ أثّرت على واقع الحياة المدنية والبنية التحتية في المجتمع الذي نشأ في رحابها، حيث بقيت سارية المفعول في هذا النظام الجديد الذي يعتبر أكثر رقيّاً وتطوّراً؛ وتنقل المصادر التأريخية أنّ المؤرّخ الإغريقي الشهير ثوسيديديس[1] (Thucydides) صاحب كتاب "تأريخ الحرب البلوبونيزية"، دعا أهل أثينا إلى منح الحقّ لكلّ من هو أكثرُ قوّةً في عالم الطبيعة بحيث يكون الاقتدار هو المرتكز للقانون الطبيعي، وأن يعتبروا مفهوم الإله الداعم للحقّ والعدل مجرّد رمزٍ للقدرة والغلبة في عالم الدنيا، وبهذا أضفى على السياسة الأثينية المتقوّمة على نزعةٍ واقعيةٍ عمقاً واعتباراً بصفتها نظريةً فلسفيةً.

النظام المدني الحديث الذي اتّضحت أبرز معالمه في عصر التنوير الفكري، يعتبر وريثاً لجملةٍ من المفاهيم والأنظمة المدنية الأسطورية رغم طروء الكثير من التغييرات عليها طوال مسيرتها التكاملية الحافلة بالأحداث.

الباحث جوزيف كامبل أشار إلى هذا الموضوع قائلاً أنّ البعير في الأساطير القديمة يمكن اعتباره رمزاً للإنسان الذي يتحرّك في رحاب مسيرةٍ تكامليةٍ نحو التحضّر والحياة المدنية المثالية، وخلال هذه المسيرة يصبح البعير قادراً على بلوغ مرحلة معرفة حقيقة نفسه ليتحوّل إلى أسدٍ، والأسد بطبيعة الحال يرمز إلى الإنسان الناضج المتكامل الذي له القدرة على تسخير جميع المقوّمات الأساسية خدمةً لإرادته، في حين أنّ البعير ليس سوى كائنٍ خاضعٍ وطيّعٍ لا إرادة له في ما يُفرض عليه من أوامر. وبيان ذلك أنّ الإنسان حينما يتلقّى تعليمه بين يدي أستاذٍ كي يفهم النهج السديد في الحياة، فهو في بادئ الأمر يحاول تقليد أستاذه والعمل بكلّ ما أمره به؛ وهذا الأسلوب في الواقع هو ذات السلوك الذي ينتهجه البعير في حياته. هذا الإنسان بعد أن يطوي المراحل الأولى من تعليمه ويبلغ أعلى الدرجات العلمية، فهو بدل أنّ يعتبر نفسه مجرّد كائنٍ

[1]- 460 - 395 B. C.

طائعٍ وخاضعٍ للمقرّرات والقوانين المفروضة عليه، يسعى إلى تسخيرها خدمةً لرغباته وطوعاً لإرادته؛ وهذا الأسلوب هو سلوك الأسد.

الإنسان المتحضّر المعاصر بدوره هضم القوانين والمقرّرات التي ورثها من أسلافه والتي تضرب بجذورها في الأساطير القديمة، ومن ثمّ مزجها مع هويته لتتبلور على أساسها شمائل شخصيته الحضارية رغم ما يدّعيه البعض بكون هذه الضوابط الموروثة قد اندثرت وطويت في صفحة النسيان. استناداً إلى هذه النظرية يمكن وصف الإنسان المعاصر بأنّه فاق أسلافه البشر وأصبح فنّاناً مبدعاً،[1] والإلاهة ديكي تبلورت في شخصيتها المبادئ العامّة والأساسية للعدل المدني في الأساطير الإغريقية، وقد تبلورت خصالها في المجتمعات الغربية الحديثة بصيغةٍ أكثرَ تكاملاً.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأساطير القديمة تدلّ على أنّ ديكي هي ابنة إله الآلهة زيوس وإلاهة العدل، حيث تجلس إلى جانبه -على العرش- وكلّما تلاحظ تدنيس العدل من قبل البشر فهي تطلب منه أن يعاقبهم.

الكاتب الأسطوري هسيود أشار في ملاحمه الشعرية إلى ثلاث إلاهاتٍ للحياة الاجتماعية بحيث ذكر أسماءهنّ إلى جانب إلاهةٍ وثلاثٍ وصيفاتٍ للإلاهة أفروديت، أمّا الإلاهات الثلاثة فهنّ ربّة العدل ديكي، وربّة النظام والقانون والحكم الصالح يونوميا (Eunomia)، وربّة السلام إيرنا؛ والإلاهة الأخرى فهي مويرا (Moira) ربّة المصير والقدر، ووصيفات أفروديت اللواتي يطلق عليهنّ اسم (Charites) وهنّ كلٌّ من أغلايا (رمز الجمال) وأفروسين (رمز الطرب) وطلاية (رمز الوفرة). كما بادر هسيود في أسطورته الشعرية "الأعمال والأيام" إلى إبدال المنافسات الحماسية المحتدمة المشار إليها في أساطير هوميروس الشعرية والتي كانت تجري بين أبناء الطبقة الأرستقراطية لنيل أرفع المناصب، بالمنافسة الهادئة المثمرة بين عامّة الناس ضمن نشاطاتهم اليومية

[1]- Campbell 1989, Mythologies of primitive Planters, Harper & Row, p. 154.

التي تتقوّم على العمل والمشقّة في الحياة القروية البدائية؛ كذلك اعتبر النشاط الإنتاجي والاقتصادي بشكلٍ عامٍّ مؤشّراً على الرفعة والفضيلة للشخصية الإنسانية،[1] بينما هوميروس نسب الفضل والرجولة إلى الحياة الأرستقراطية والحروب والمكر والرياء والطمع المفرط.

خلاصة الكلام أنّ النظامين الاشتراكي الموروث من ملاحم هسيود الأسطورية، والرأسمالي الموروث من ملاحم هوميروس، تمحورا بشكلٍ ارتكازيٍّ حول مبادئ العدل المدني والنظم والقانون إلى جانب احترام لذّة الإنسان وسعادته وحبّه للجمال، فهذه هي المرتكزات الأساسية في النظام المدني؛ وعلى الرغم من وجود تعارضٍ بين نظريتَيْ هسيود وهوميروس ضمن سردهما الأسطوري في الملاحم الشعرية الموروثة عنهما، لكن هناك نقطة اشتراكٍ في ما بينهما تتمثّل بمرتكزات النظام المدني المشار إليها أعلاه، فالأوّل صوّر في تراثه المدوّن نظاماً اجتماعيّاً أسطوريّاً فريداً من نوعه آنذاك معتبراً الإنسان عاجزاً عن بلوغ مقاصده وأهدافه عن طريق الحروب والظلم والعنف والقسوة، بل إن أراد ذلك فلا محيص له من التأقلم مع النظام الكوني الذي يحكمه بأمرٍ من الآلهة؛ لذا ارتأى أنّ هذا هو السبيل الوحيد الذي له القابلية على تأمين مصالح الإنسان بشكلٍ عادلٍ. هسيود أراد من نظريته التي طرحها في إطار أشعارٍ حماسيةٍ التأثير بشكلٍ مباشرٍ على سلوك الشعب الإغريقي ونهجه الاجتماعي، وكما ذكرنا فقد اتّخذ سبيلاً فكريّاً لا يتناغم مع ما ذهب إليه هوميروس، حيث منح حقّ القيادة لإنسانٍ لا ينحدر من الطبقة الأرستقراطية؛ لذا من الممكن أن تكون هذه الرؤية للنظام المدني هي السبب في اعتبار أنّ ميثولوجيا هسيود صوّرت القيادة بكونها زعامةً للعقل والروح لا للقدرات الجسمانية الخارقة التي تمتّع بها أبطال ملحمة هوميروس، فقد وصف روح الإنسان في أشعاره وكأنّها نسيمٌ من نَفَس الآلهة.

---

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 121 - 124.

نستشفّ ممّا ذكر أنّ المؤشّرات العامّة للنظام المدني في ميثولوجيا هسيود تدلّ على الفكر والعمل قبل دلالتها على الشوكة والاقتدار.[1]

الفيلسوف أفلاطون بادر بدوره إلى نظم التراث الثقافي الإغريقي ليطرحه بصفته نظاماً راسخاً غير متزعزعٍ، حيث طرح فيه مفاهيم مثلى كانت مصدر إلهامٍ للأسطوريين القدماء ومن جملتها تلك المثل الاشتراكية والحكومية، كما صاغ المبادئ الاستبدادية الإسبرطية ضمن سلسلةٍ منتظمةٍ مرتبطةٍ مع بعضها؛[2] لذا قيل أنّ الأصول الحكومية الإسبرطية هي المرتكز الأساسي لنظام الحكم المدني المقترح في فلسفة أفلاطون السياسية.[3]

الجدير بالذكر هنا أنّ إحدى ميزات النظام الميثولوجي الإغريقي القديم تمثّلت في عدم الاعتقاد بخلود النفس، حيث اعتقد قدماؤهم بكون الموت نهايةً للحياة وبعده تضمحلّ النفس ولا يبقى لها أيّ وجودٍ، وهذه الوجهة الفكرية انعكست في آثار هوميروس، فما أسماه الروح أو (بسيخه)[4] يدلّ في الواقع على قرينٍ للبدن المادّي أو الشبحي، حيث ينتقل إلى عالم الأموات بعد مفارقة الإنسان الحياة؛ ومع أنّ اليونانيين القدماء اعتقدوا بما طرحه هوميروس في ملاحمه الأسطورية بهذا الخصوص، لكنّهم استثنوا من ذلك المضحّي الذي يُقتل فداءً لوطنه، فمن يضحّي بنفسه دفاعاً عن أرضه سوف يتجاوز أطر الحياة الإنسانية ويُكتب له الخلود، ومن هذا المنطلق أسموا بعض المدن بأسماء أشخاصٍ كهؤلاء، فاسم كلّ شخصٍ باعتقادهم يعكس واقع شخصيته المثالية، لذا فهو يخلد عن طريق تخليد اسمه. هذه الوجهة الفكرية التي سادت في المجتمعات الإغريقية القديمة ترسّخت واستحكمت أكثر بين اليونانيين القدماء بعد

[1]- المصدر السابق، ص 125 - 129.

[2]- المصدر السابق، ص 144 - 145.

[3]- المصدر السابق، ص 131.

[4]- بسيخه أو بسيشه أو بسيخي، هو مصطلحٌ إغريقيٌّ بمعنى الروح.

نشأة الحكومة المدنية في تلك الديار، حيث كانوا يتصوّرون الإنسان بصفته شخصيةً سياسيةً لا يبلغ درجة الكمال إلا إذا تخلّد اسمه في المجتمع الذي احتضنه طوال حياته.

فضلاً عمّا ذكر فالحكومة المدنية التي اعتقد بها قدماء اليونان كانت ذات طابعٍ مقدّسٍ، إذ تتجلّى فيها جميع الخصال الإنسانية المثلى الموروثة من آلهة جبل الأوليمب؛ وعلى هذا الأساس وُصفت بأنّها حكومةٌ متقوّمةٌ بقانون المواطنة المثالي التي هي في طبيعتها تقليدٌ لنمط حياة آلهة الأوليمب، أي أنّه تقليدٌ لنمطٍ سماويٍّ.[1]

نستنتج من جملة المباحث المذكورة أنّ بعض أصول ومبادئ الحياة المدنية في العالم الغربي الحديث مستوحاةٌ من التراث الأسطوري الإغريقي، وهذا الأمر تبلور بوضوحٍ في مسائل الحقّ الطبيعي والعدل والتقنين وقوانين العقوبات والنظم المدني والعقل الجمعي والرفاه الاجتماعي والإرادة الجماعية والاقتدار؛ وهذا التأثير قد انعكس أيضاً في النظامين العالميين الرأسمالي والاشتراكي اللذين فرضا نفوذهما على المجتمعات البشرية المعاصرة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الباحثة البريطانية كارين أرمسترونغ اعتبرت النشاط الاقتصادي المتعارف في الأسواق الحديثة منبثقاً من أنظمة الحكم الملكية في عهد سيادة الرجل.[2]

*** نتيجة البحث:**

نذكر في ما يلي خلاصةً نوضّح على ضوئها الميزات الفارقة للنظام المدني الحديث والتي تضرب بجذورها في الأساطير الإغريقية القديمة:

---

[1]- فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، مصدر سابق، ص 159.

[2]- See: Armstrong, Karen 2005, A Short history of myth, Conon gate myth series.

1) القوانين التي تمّ إقرارها للنظام المدني في العهد الأسطوري الأوّل الذي شهد سيادة الآلهة، متقوّمةٌ في أساسها بإرادة الآلهة، وقد تمكّن العرّافون من معرفتها عن طريق التكهّن.

2) الأبطال الأسطوريون الذين كانوا أشباهاً للآلهة في شخصياتهم وارتبطوا بالآلهة الخالدة، كان لهم عصرهم الأسطوري الخاصّ، وفي عصرهم هذا شرّعوا قوانينَ ومقرّراتٍ خاصّةً بحيث حلّوا محلّ الآلهة في هذا المضمار بعد أن امتلكوا إرادةً قويّةً أهّلتهم لهذه المهمّة الحسّاسة؛ لذلك نابوا عن الآلهة التي بسطت نفوذها على الكون في العصر الأسطوري الأوّل.

3) في عصر الرجال البدائيين ظهرت بعض المهارات الحرفية والصناعية والزراعية والفنّية بعد أن سرق الإله بروميثوس النار من الآلهة وأهداها لهم، كما سنّ الملوك الذين نصّبهم في العرش قوانينَ وضوابطَ خاصّةً.

4) عقاب الأشرار والظلمة والخارجين عن القانون، يعتبر مؤشّراً هامّاً للأنظمة المدنية التي أُرسيت دعائمها الأولى في الأساطير الإغريقية، ومن يستحقّ العقاب هو إمّا أن يكون مواطناً أو أجنبيّاً حاول التعدّي على أمن البلاد والمساس بأمن الشعب وطمأنينته.

5) إضافةً إلى أنّ الإله بروميثوس صاحب الفضل في إتقان الناس للصناعات والفنون والنشاطات الزراعية في النظام المدني الأسطوري، فقد أشارت الأساطير إلى الإلاهتين أثينا وأفروديت باعتبارهما مشرفتين على الحرف اليدوية والفنّ والزراعة والمهارات المنزلية وتربية الأبناء.

هرمس أو ميركوري ورد اسمه في الأساطير بصفته إلهاً يحمل رسائل السماء إلى البشرية، كما كان إلهاً للتجارة والطرق المجهولة والخطابة والسحر والطبابة.

من المحتمل أنّ اتّصاف النشاط الحياتي البشري الخاصّ بطابعٍ نسويٍّ، واتّصاف

النطاق العام في الحياة بطابعٍ رجاليٍّ في عصر التنوير الفكري منشؤهما المفاهيم الأسطورية الإغريقية.

6) السيادة المقتدرة تُعدّ واحدةً من المعالم الدالّة على التحضّر، وقد تبلورت لأوّل مرّةٍ على أرض الواقع في عهد اقتدار الإله زيوس؛ وبعد ذلك انتقلت إلى الأب في أسرته، وفي عصر الملاحم البطولية الأسطورية تجلّت في سلطة الأبطال حينما تمّ تكبيل كلّ من كان يخرج عن قانونهم؛ وفي نهاية المطاف تجسّدت خلال عصر الرجال (الملوك الأقوياء) الذين اختارهم الرجال الأحرار المتساوون في الحقوق.

بناءً على ما ذكر يمكن القول أنّ اقتصار السيادة المقتدرة على الرجال في الحضارة الحديثة ربّما تضرب بجذورها في ميثولوجيا الاقتدار الإغريقية.

7) ليس من المستبعد أنّ المبادئ الأرستقراطية المطروحة في أسطورتي هوميروس الملحميتين، أي الإلياذة والأوديسة، هي البنية التحتية للاقتصاد الرأسمالي في الحياة المدنية الغربية الحديثة؛ كذلك من المحتمل أن تكون مبادئ العمل والدفاع عن حقوق الضعفاء في ملحمة هسيود الشعرية «الأعمال والأيام» أساساً ارتكازيّاً للنظام الاشتراكي في أوروبا المتجدّدة.

8) النظام المدني المتعارف في التراث الإغريقي القديم لم يكن جديداً من نوعه، وإنّما هو في الواقع مسبوقٌ بحضارة بلاد ما بين النهرين استناداً إلى الدراسات والبحوث التي أجريت من قبل علماء الميثولوجيا الغربيون.

هذا الرأي يتعارض بكلّ تأكيدٍ مع ما ذهب إليه الكتّاب المتعصّبون للقومية اليونانية من أمثال فيرنر جايجر، حيث ادّعى هؤلاء أنّ المدن الأولى التي استوطنها البشر تمّ تشييدها في بلاد الإغريق، وهو ادّعاءٌ باطلٌ بحسب الدراسات المذكورة. وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أنّ النظام المدني البريطاني في العصر الحديث مستوحًى من الحضارة المصرية القديمة، كما أنّ الحسابات الفلكية والنمط الحكومي في المجتمعات

المدنية في اليونان القديمة قد تأثّرت بالثقافة المدنية المتعارفة آنذاك في منطقة الشرق الأوسط، وهذه الثقافة في الواقع تقوّمت على كوزمولوجيا السومريين.

9) مسألة الحقّ الطبيعي تعتبر واحدةً من أهمّ مؤشّرات الحضارة الغربية وهي تضرب بجذورها في الأساطير الإغريقية التي جسّدت الطبيعة في شتّى الصور والحالات، حيث كان هذا الحقّ مختصّاً بالآلهة في العصر المنسوب لها، ومختصّاً بالأبطال في العصر المنسوب لهم، لذا كان سائر الناس آنذاك عبيداً لهؤلاء الأبطال ومطيعين لهم، وهذا هو السبب في إهمال حقوق عامّة الشعب لكونها تتعارض بطبيعة الحال مع حقوق الأبطال. وأمّا في عصر الرجال فقد اختصّ هذا الحقّ بهم، حيث كان يحدّد طبقاً لمبدأ سيادة الرجل في المجتمع والذي تقوّم على قواعد عقلية، فالرجال كانت لهم حقوق متكافئة وكانوا أحراراً في سيرتهم.

10) المؤشّر الآخر على الحضارة الغربية يتمثّل في الرفاهية العامّة الموازية لما تمتّعت به كائنات السايكلوب التي استوطنت الكهوف وكانت تختطف النساء وتتزوّجهنّ ليصبحن في ما بعد أمّهاتٍ، وهذه الظاهرة في الواقع تعتبر صورةً للرفاهية العامّة في تلك الحقبة التأريخية؛ حيث كان الآباء يتمتّعون بفضائلَ بطوليةٍ وسلكوا نهجاً دينيّاً في حياتهم لذلك كانوا يواجهون الأشرار الذين يتعرّضون لأُسَرِهم.

11) المفكّر الإيطالي جيامباتيستا فيكو اعتبر السياسة المتأثّرة باللاهوت الشعري الموروث من كتّاب الأساطير، منشئاً للمدن الأولى التي شيّدها البشر والتي تكاملت وارتقت لتبلغ درجةً غير مسبوقةٍ حين انطلاق عصر النهضة والحداثة في أوروبا الجديدة.

12) العقل الجمعي في الحضارة الحديثة ذو تأريخٍ ميثولوجيٍّ، حيث تجلّى في بادئ الأمر بعقول الآلهة ثمّ ورثه الأبطال الأسطوريون ومن بعدهم الرجال الذين تسيّدوا الساحة الاجتماعية في الحياة البشرية.

يمكن اعتبار هذه المسيرة العقلية بأنّها حالةٌ وسيطةٌ بين العقل الشهودي والعقل الذي يُعتبر شبهَ شهوديٍّ وحصوليٍّ في آنٍ واحدٍ، ثمّ تواصلت حتّى أصبح العقل حصوليّاً بالكامل.

ثاني عشر: السياسة

السياسة (politic) المشتقّة من كلمة (politikos) اليونانية التي تعني ابن المدينة والحضري، وهي تدلّ على نشاطٍ يتّخذ البشر على أساسه قراراتٍ مشتركةً، والسيادة المدنية شرطٌ لتحقّقها، حيث تنمّ عن آراءَ عامّةٍ وتفسح المجال لإيجاد علاقاتٍ اجتماعيةٍ بين المواطنين في أجواءَ مناسبةٍ؛ لذلك عادةً ما يُتّبع فيها أسلوبٌ واحدٌ لتنظيم مختلف شؤون الحياة الاجتماعية، وهذا هو السبب في اعتبارها ركيزةً أساسيةً في كلّ حضارةٍ بشريةٍ.

النظام السياسي الغربي الحديث يتناسب مع كافّة معالم الحداثة، حيث نشأت في رحابه أصولٌ وضوابطُ خاصّةٌ ضمن مسيرةٍ تكامليةٍ بعد عصر النهضة والحداثة، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الأصول متأثّرةٌ بطبيعتها وهويتها بالأساطير الإغريقية القديمة، ونظراً لأهميتها سوف نتطرّق إلى شرحها وتحليلها في المباحث التالية.

1) السياسة الداخلية في الأساطير الإغريقية

على ضوء ما ذكرنا في المباحث الآنفة من تفاصيل بخصوص الأصول العامّة للتمدّن والحضارة، نتطرّق في ما يلي إلى بيان عددٍ من الأصول الخاصّة بالسياسة الداخلية للحكومة المدنية في الأساطير الإغريقية والتي يتمّ تطبيقها بطبيعة الحال عن طريق السيادة السياسية؛ وهي تتلخّص بما يلي:

أ- تشريع القوانين المدنية.

ب- إقامة العدل في المجتمع.

ج- معاقبة الظلمة والخارجين عن القانون.

د- توفير الأمن والطمأنينة والرفاهية للمواطنين.

هـ- الاعتراف بالحقّ الطبيعي للمواطنين.

هذه الأصول طوت مسيرةً تكامليةً على مرّ التأريخ ابتداءً من عصر الآلهة مروراً بعصر الأبطال وصولاً إلى عصر الرجال، ومن أبرز خصائصها أنّ سيادة الرجال في الحكومات المدنية تتناسب مع سيادتهم في الحياة الأسرية البدائية التي ذكرت أوصافها في الأساطير القديمة؛ ومن هذا المنطلق اعتبرت السياسة بأنّها شأنٌ رجوليٌّ تابعٌ لأحكام العقل المتقوّمة على مبدأ سيادة الرجل في المجتمع في تلك الآونة، لأنّ المرأة لم يسمح لها بالولوج في الحياة السياسية العامّة نظراً لانهماكها في النشاطات الحياتية الخاصّة واهتمامها بأسرتها.

الموضوع الآخر الجدير بالذكر هنا هو وجود خطابين متباينين في الأدب الأسطوري الإغريقي القديم، وهما كما يلي:

أ- الخطاب المطروح من قبل هوميروس: محور هذا الخطاب هو أنّ الساسة والحكّام هم رجالٌ أقوياءُ في بنيتهم وينحدرون من الطبقة الأرستقراطية، لذلك يتسغلّون الطبقة الضعيفة في المجتمع.

إذاً، الحقوق التي أشرنا إليها في أصول السياسة الداخلية وفق خطاب هوميروس، مثل الحرّية والمساواة، تقتصر على الشريحة الاجتماعية التي تنحدر من الطبقة الأرستقراطية؛ وهذا التوجّه في الواقع يتناغم مع النظام الرأسمالي.

ب- الخطاب المطروح من قبل هسيود: يؤكّد هذا الخطاب بشكلٍ أساسيٍّ على الجدّ والجهد والنشاط لعامّة الناس، لذا فهو يعمّ جميع الشرائح الاجتماعية طبقاً لأصول السياسة الداخلية؛ وهذا التوجّه في الواقع يتناغم مع النظام الاشتراكي.

جيامباتسيتا فيكو ضمن نظريته الميثولوجية ذكر المراحل التالية بخصوص نشأة السيادة السياسية في بلاد الإغريق والتغييرات التي طرأت عليها وما تمخّض عنها من ظهورِ مراكزَ ومكوّناتٍ حكوميةٍ واجتماعيةٍ:

المرحلة الأولى: سيادة الآلهة «ثيوقراطيا» (Theocratic): في هذه المرحلة من التأريخ أشرف الكهنة على أوّل المراكز الثيوقراطية التي شهدتها البشرية في تأريخها، فقد كانت مكاشفاتهم وإلهاماتهم انعكاساً لأوامر الآلهة ونواهيها للرجال البدائيين.

المرحلة الثانية: سيادة الأبطال الأرستقراطيين: هذه السيادة تقتضي بطبيعة الحال تأسيس مراكزَ أرستقراطيةٍ لأنّ الأبطال الذين ينحدرون من نسل هرقل (Heraclites) الأسطوري هم أقوى الحكّام حينها. بعد ذلك أنيط الحكم إلى أبناء الطبقة النبيلة كالحكومة المدنية التي تأسّست في إسبرطة (Sparta)؛ كذلك نلاحظ هذه الظاهرة في إيطاليا القديمة وجزيرة كريت وبعض مناطق قارّة آسيا، فقد أولى الناس احتراماً كبيراً للأبطال والنبلاء لكونهم ينحدرون من نسل الآلهة في حين أنّ عامّة الناس ينحدرون من أصولٍ حيوانيةٍ لذلك لم يكن يحقّ لهم سوى الحياة في رحاب حرّيةٍ طبيعيةٍ والتمتّع بملذّاتها.

المرحلة الثالثة: سيادة الرجال: حظي العقل في هذه الفترة من تأريخ بلاد الإغريق بمكانةٍ رفيعةٍ، إذ كانت القوانين تشرّع على أساسه وسادت عقيدةٌ آنذاك فحواها أنّ هؤلاء الرجال ولدوا أحراراً، لذلك كانوا في مراكزهم المدنية التي أسّسوها آلهةً تمتلك إرادةً حرّةً؛ وأرسيت مرتكزات السيادة السياسية حينها على أساس أنّ الرجال متكافِئون أمام القانون، وكلّ مجتمعٍ كان له جيشه الذي يدافع عنه والمدنية هي الفيصل في الاختلاف بين مختلف المجتمعات.[1]

[1]- Vico, Giambattista (1990) "On the study Methods of our time". Trans. by Elio Gianturco. Ithaca: Cornell up, p. 289 - 290.

الباحث ستانلي ضمن المقدّمة التي دوّنها على سلسلة مقالات جورج سوريل «مقالات في الاشتراكية والفلسفة» (Essays in Socialism & Philosophy) نقل عن إرنست رينان رأيه الذي ادّعى فيه أنّ الإغريق والرومان القدماء امتلكوا حكوماتٍ وقوانينَ ونشاطاتٍ فلسفيةً وعلميةً، إلا أنّ أنظمة الحكم التي نشأت في مجتمعاتهم كانت تتّسم بالعنف المفرط إلى جانب مرونةٍ في التعامل مع الآخرين.[1]

وأمّا الباحث أنطوان فيفير فقد نوّه في دراساته وبحوثه الميثولوجية التي دوّنها حول الإله هرمس (ميركوري) على أنّ اسم هذا الإله في الأساطير الإغريقية ارتبط بعالم السياسة والحياة المادّية لكونه هبط إلى الأرض من قمّة جبل الأولمبيب بهدف تأسيس حكوماتٍ مدنيةٍ في بلادَي الإغريق والرومان تكون السيادة فيها على نسق حكمة الآلهة في جبل الأوليمب.

بعد أن تحدّثنا عن طبيعة السياسة الداخلية للحكومة المدنية في الأساطير الإغريقية، سوف نتطرّق في المبحث التالي إلى بيان طبيعة السياسة الخارجية في هذا المضمار.

2) السياسة الخارجية في الأساطير الإغريقية

لا شكّ في أنّ أسطورتَي ِالإلياذة والأوديسة تعتبران مصدرين مكتوبَيْن هامّين يمكن للعلماء والباحثين الاعتماد عليهما في إجراء دراساتٍ وبحوثٍ بخصوص مؤشّرات السياسة الخارجية وبيان طبيعة علاقات الشعب الإغريقي القديم مع سائر الشعوب والأمم في شتّى بقاع الأرض، والجدير بالذكر هنا أنّهم اعتبروا أبناء المجتمعات البشرية الأخرى غرباءَ وهمجاً وبرابرةً.

أشار هوميروس في أسطورة الإلياذة إلى الأحداث التي شهدتها مدينة طروادة التي

[1]- Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University press, p. 102.

يطلق عليها اسم إيليون وإيليوس أيضاً، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلمة إلياذة تعني نسبة الشيء إلى إيليون.

الإلياذة في اللغة التركية يطلق عليها اسم طروادة، وهي مدينة تابعة لدولة حكمت المنطقة المحاذية لمدينة إيليون.

آخيل (أخيليوس)[1] هو بطل ملحمة هوميروس -الإلياذة- حيث تبلورت شخصيته كبطلٍ محاربٍ إغريقيٍّ، وفحوى هذه القصّة أنّ أجاممنون القائد العسكري للجيش الإغريقي وهب جاريةً باسم بريسيس (Briseis) لأخيليوس إكراماً له على بطولاته في ساحة القتال، لكنّها لم تعجبه لذلك انتابه سخطٌ شديدٌ وترك المعركة الأمر الذي أسفر عن هزيمة جنوده؛ إلا أنّه عاد إلى ساحة القتال مرّةً أخرى بعد هذه الهزيمة، ولـمّا قتل صديقة باتروكلس (فطرقل) بيد الأمير الطروادي هيكتور (Hector) انتقم من أهل مدينة طروادة وارتكب مجازرَ بشعةً بحقّهم، وفي نهاية المطاف تمكّن من القضاء على هيكتور أيضاً وانتهك حرمة ابنه.

الجدير بالذكر هنا أنّ هوميروس ذكر الأحداث في هذه الملحمة بشكلٍ تفصيليٍّ ضمن مقاطعَ طويلةٍ لدرجة أنّه وضّح عمليات القتل والفتك البشعة بحذافيرها، وأشار إلى أنّ أوّل مرّة طغى الغضب المفرط على أخيليوس كانت حينما اجتمع رجال الحكومة مع الكاهن العرّاف كلكاس (Kalchas). ضمن هذه الأحداث تمكّن أجاممنون من سبي كروسس (Chryses) ابنة كاهن معبد أبولو في طروادة، حيث امتنع عن إعادتها وهتك حرمتها،[2] لذلك صلّت كروسس للإله أبولو وطلبت العون منه.[3]

---

[1]- كلمة أخيليوس في اللغة اليونانية تعني الإنسان الساخط.

[2]- Homer 1951, The Iliad, trans. by Richmond Lattimor, Chicago University of Chicago, Press 1, p. 13.

[3]- Ibid, p. 122.

أكّد هوميروس في ملحمته الأسطورية هذه على أنّ أثينا فقط كانت قادرةً على كبح جموح غضب أخيليوس، وضمن أحداثها قال أنّ هذا البطل الأسطوري أقنع إله الآلهة زيوس وهو فوق جبل الأوليمب بأن يأمر أجاممنون بمنحه حقوقه المسلوبة منه كي يتسنّى لليونانيين تحقيق النصر في المستقبل القريب.

وتشير الأسطورة إلى أنّ باتروكلس الصديق الحميم لأخيليوس أو ربّما معشوقه، عندما قتل بيد هيكتور، حاول أخيليوس الانتقام منه حتّى وإن جازف بحياته في هذا السبيل، فمقتل صديقه أثار سخطه الشديد وحفّزه على العودة إلى القتال مرّةً أخرى؛ وكما ذكرنا آنفاً فهو بعد أن ارتكب مجازرَ داميةً بحقّ الطرواديين، لحق بهيكتور في ضواحي مدينة طروادة وقتله.[1]

نستنتج ممّا ذكر أنّ غضب أخيليوس ومكانته الرفيعة هما العنصر المحوري في ملحمة الإلياذة الأسطورية الموروثة من تراث الشاعر الإغريقي هوميروس، وهذا هو السبب في كونها زاخرةً بتفاصيلَ وجزئياتٍ مسهبةٍ حول العنف والفتك وإرادقة الدماء لدرجة أنّ هذه الأمور باتت شاخصاً مميّزاً لها.

وأمّا أسطورة الأوديسة فهي الإبداع الأدبي الآخر الذي خلّفه هوميروس للتأريخ البشري، ومن فوائدها أنّها تتيح لنا استكشاف بعض العناصر الهامّة في السياسة الخارجية التي كانت متّبعةً في العصور الأسطورية.

يشار هنا إلى أنّ أوديسيوس ملك إيثاكا (Ithaca) هو أحد أهمّ الشخصيات البطولية المذكورة في ملاحم هوميروس الأسطورية، حيث تزوّج من بينيلوبيا وأنجب منها تليماخوس (Telemachus) وأنتكليا (Anticlea)، ولا أحد يعرف من هو والده لكن هناك من يرجّح بأنّه إمّا أيريتس (Aeretes) أو لايرتيس (Laertes) أو سيتي.[2]

---

[1]- Ibid, press 18, p. 111 - 116.

[2]- Kerengi 1959, The Heroes of the Greek, ec. Loc.

أوديسيوس عرف بمكره وخداعه طوال عشر سنواتٍ بعد حرب طروادة عندما قفل عائداً إلى دياره، وجدّه لأبيه كان لصّاً اسمه بوتوليكوس (Putolychus) ابن هرمس وكيوني (Chione).

كلمة أوديسة مشتقّة من الفعل اليوناني (Odussomai) الذي يعني الكراهية، لذا اتّصفت شخصية بطل هذه الملحمة بالغضب والكراهية؛ كما تدلّ هذه الكلمة في اللغة اليونانية على الشخص الملعون والمطرود،[1] وتدلّ أيضاً في أحد معانيها على الجور وقسوة القلب.

رغم المعنى الدلالي لهذه الكلمة، إلا أنّ هوميروس صوّر أوديسيوس في ملحمتَي الإلياذة والأوديسة على هيئة بطلٍ مغوارٍ، بينما اعتبره الرومان إنساناً مخادعاً ومكّاراً، لذلك وصفه كبير الشعراء اللاتينين فيرجيل في ملحمته الأسطورية "الإنياذة" بالماكر والقاسي الذي لا رحمة في قبله، إلا أنّ اليونانيين رغم ذلك مجّدوا مكره وقسوته في تراجيديا يوربيديس (يوربيدوس)، ومن الأمثلة على مواقفه المحتالة ما يلي: سافر ذات يومٍ مع عددٍ من جنود أجاممنون إلى مدينة سكايروس[2] (Scyros) لأجل أن يعيد البطل أخيليوس بعد أن تكهّن العرّافون بعدم إمكانية فتح مدينة طروادة بدونه، ولـمّا علمت ثيتس (Thetis) أمّ أخيليوس بالأمر ألبسته ثياباً نسائيةً وأخفته عن أنظار أوديسيوس، لكنّ هذا الداهية عرف ما حدث واكتشف حقيقة الأمر بدهاءٍ.

الجدير بالذكر هنا أنّ شخصية أوديسيوس في ملحمة الإلياذة اتّصفت بميزاتٍ تتعارض بالكامل مع ميزات شخصية أخيليوس، فالأخير كان متسرّعاً ومنفعلاً يتعامل بعصبيةٍ وحدّةٍ مع كلّ ما يحدث حوله، لذلك كان يفسد الأمور ويتلف قابلياته الفائقة بمسائلَ هامشيةٍ لا طائل منها؛ في حين أنّ الأوّل هادئٌ وغارقٌ في الفكر والتخطيط والتأنّي بحيث يتعامل مع الأمور بسياسةٍ ومكرٍ وأعصابٍ باردةٍ.

---

[1]- Definition in Liddell & Scott.

[2]- سكايروس هي أكبر جزيرة في الجزر الواقعة شمالي بحر إيجه.

الباحثة أديلي هافت[1] ذكرت في إحدى مقالاتها أنّ أوديسيوس وجنوده عندما وصلوا إلى جزيرة لوتس (Lotus) ووطئت أقدامهم اليابسة، طلب من بعض رجاله أن يطعموا سكنتها بعشب النسيان، ولـمّا تناولوها غطّوا أوّلاً في نومٍ عميقٍ ثمّ جعلهم في سفينةٍ ووجّه أشرعتها نحو مكانٍ ناءٍ عن جزيرتهم في عباب البحر؛ إلا أنّ إله الرياح أيوليس (Aeolus) لم يساعده في ذلك لكونه يعلم أنّه ملعون من قبل الآلهة؛ لذلك اضطرّ لأن يشدّ رحاله من مدينة أيونية متّجها نحو مدينة إيثاكا.

الشاعر الروماني فيرجيل اعتبر أوديسيوس أنموذجاً واقعيّاً للإنسان الإغريقي القديم، ووصفه بالماكر والمخادع والملحد، كما أكّد على انغماسه بالشهوات من رأسه إلى أخمص قدميه، وقال أنّ قلبه أسودُ مغمورٌ بالحقد والضغينة؛ وخلاصة الكلام أنّه كان -برأي فيرجيل- منحرفاً بكلّ ما للكلمة من معنًى.

كذلك الشاعر الروماني ببليوس أوفيديوس اعتبره واحداً من أكثر الشخصيات ولعاً بالنساء وأشدّهم لهثاً وراء النزوات الشهوانية، وادّعى أنّ نزعاته الجنسية بالعجيبة التي قلّما يتّصف بها إنسانٌ.

والشاعر الإيطالي دانتي أليجيري قال في مسرحيته الشهيرة «الكوميديا الإلهية» أو «الملهاة الإلهية» إنّ مصير أوديسيوس هو العذاب في الدرك الأسفل من النار جنباً إلى جنبٍ مع إله الحرب ديموس (Deimos) بسبب مؤامراته الخبيثة، كما أكّد على أنّه مع رجاله الذين انتصروا في حرب طروادة ليسوا سوى مقاتلين متوحّشين وهمجيين نصرتهم قسوتهم وبشاعة أفعالهم على أعدائهم، في حين أنّ الأبطال الحقيقيين لا بدّ وأن يسلكوا نهجاً عقليّاً ويعملوا بحكمةٍ وأخلاقٍ فاضلةٍ.[2]

[1]- Haft Adele J. (Dec. 1989 - Jan. 1990), Odysseus: Wrath and Grief in the Iliad, Agamemnon. The Ithacan King and the sack of Troy in books, 2, 4, and 14, The classical Journal, vol. 85, No. 2, pp. 97 - 114.

[2]- “Odysseus” return from Trojan war dated.

الجدير بالذكر هنا أنّ هوميروس اعتبر الخداع في أساطيره من الضرورات الحتمية في مواجهة الأعداء الأجانب، ومجّد في هذا الصعيد ما فعله اليونانيون في حرب طروادة حينما صنعوا الحصان الخشبي الشهير المعروف بحصان طروادة[1] (Horse Trojan) بمعونة أثينا، فأحد جواسيسهم كذب على الطرواديين مدّعياً أنّهم أهدوه لهم، لذلك خدعوا بهذه الحيلة رغم تحذير الأميرة كاساندرا (Cassandra) ابنة الملك بريام (Priam) لهم؛ كما أنّ الكاهن لاوكون (Laocoon) طلب منهم أن يحرقوه، لكنّه قُتل، وفي نهاية المطاف تمكّن المقاتلون اليونانيون من فتح أبواب طروادة واقتحامها واستباحة أهلها ونهب ممتلكاتهم، كما ارتكبوا مجازرَ بشعةً بحقّهم ودمّروا المدينة بالكامل وتمكّنوا من قتل الملك بريام وأبنائه.[2]

التقدير الغيبي له دورٌ مؤثّرٌ في شتّى الأحداث المروية في الأساطير الإغريقية، وذلك بداعي أنّ الآلهة تمتلك قدراتٍ فائقةً ولها القابلية على تغيير مصير كلّ شيءٍ، أي أنّها قادرةٌ على إيجاد تحوّلٍ في ما سيحلّ بالبشر وما ستؤول إليه الأحداث، بل حتّى أنّ من شأنها أن تغيّر مشيئتها مستقبلاً؛ لذلك كان التقدير الغيبي أقوى عاملٍ مؤثّرٍ في تغيير مجريات الأحداث بحيث ليست هناك أيُّ قدرةٍ أخرى تضاهيها.

هوميروس قال أنّ أولاد كرونوس (Cronos) الثلاثة تقاسموا زعامة العالم في باكورة نشأته، ولـمّا أزاحوه في ما بعد عن العرش أنيطت ملكية السماء بزيوس (Zeus) والمياه والبحار ببوسيدون (Poseidon) وباطن الأرض (العالم السفلي وعالم الموتى) بهاديس (hades)، وهؤلاء الثلاثة تقاسموا أيضاً ملكية الأرض لذلك كان

---

[1]- تروي الأسطورة أنّ حصار الإغريق لطروادة دام عشر سنواتٍ، فابتدعوا حيلةً جديدةً تمثّلت في حصانٍ خشبيٍّ ضخمٍ أجوفَ بناه إبيوس ومُلِئ بالمحاربين اليونانيين الأقوياء بقيادة أوديسيوس، أما بقية الجيش فقد تظاهر بأنّه رحل عن ساحة المعركة بينما في الواقع كان يختبئ وراء تينِدوس؛ فقبل أهالي طروادة الحصان على أنّه هدية أمنٍ وسلامٍ؛ وقام جاسوسٌ إغريقيٌّ اسمه سينون، بإقناع الطرواديين بأن الحصان هديةٌ، وبالرغم من تحذيرات لاكون وكاساندرا لكنّ الملك وافق على إدخاله إلى المدينة في احتفالٍ كبيرٍ بعد أن بادر كلٌّ من هيلين وديفوبوس بفحصه.

[2]- Trojan war, Encyclopedia the Helios (1952).

بوسيدون قادراً على إغراق الأرض بالسيول والفيضانات العارمة أو بتدميرها عن طريق الزلازل العنيفة، كما أنّ هاديس كان قادراً على جمع الموتى من البشر وإنزالهم في العالم السفلي؛ لكن على الرغم من أنّ هؤلاء كانوا من أقدم آلهة جبل الأوليمب إلا أنّهم عجزوا عن تغيير مصير الإلياذة، إذ لم تُجدِ معارضتُهم نفعاً حينما أقدم 188 شخصاً من اليونانيين على قتل 53 شخصاً من الطرواديين.[1]

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ قصّة حرب طروادة تتضمّن مواضيعَ متنوّعةً، لذلك أصبحت مصدراً ثريّاً يستوحي منها الفنّانون الأسطوريون المادّة الميثولوجية في آثارهم الفنّية، وهي كذلك مصدرٌ لاستلهام البطولات والخطط العسكرية والسياسية في العالم المعاصر؛ ولا شكّ في أنّ بعض التوجّهات السياسية الغربية الحديثة مستلهمةٌ في واقعها من سيرة البطلين الأسطوريين أخيليوس وأوديسيوس، وفي المبحث التالي سوف نسلّط الضوء على هذا الموضوع بتفصيلٍ أكثرَ.

3) الأساطير الإغريقية تفرض نفسها على سياسة العالم الحديث

الباحث جون جيرلنج (John Girling) دوّن تقسيماً جغرافيّاً لتوضيح مدى تأثّر السياسة الغربية الحديثة بالأساطير الإغريقية، وفحوى تحليله للموضوع كما يلي:

الأوّل: النظام الرأسمالي الأمريكي يدعم الرفاهية الاجتماعية بشكلٍ مباشرٍ عن طريق فرض سيادة الحكومة أو تدخّلها بأسلوبٍ آخرَ، لذا يتمّ في رحابه تسخير جميع القابليات المادّية وغيرها لأجل الاستحواذ على مصادر الطاقة حتّى وإن اقتضى الأمر تدنيس حقوق البلدان الأخرى ونهب خيراتها.

إضافةً إلى هذا النهج السياسي العامّ للولايات المتّحدة الأمريكية في توفير مصادر الطاقة، فقد شهدت البلاد ظهور نظامٍ اقتصاديٍّ ديمقراطيٍّ تركيبيٍّ منذ عقد

[1]- Homer. (1951) The Iliad, Trans. Richmond Baltimore, University of Chicago Press (in 1961), 20, 300 - 4.

الثلاثينيات في القرن المنصرم، ومنذ تلك الآونة بدأ هذا النظام يتنامى ويتكامل بشكلٍ متواصلٍ؛ لذلك لا تتدخّل الحكومة في النشاطات الاقتصادية لأصحاب الثروات في داخل البلاد لأنّ مؤسّسي المجتمع الأميركي الحديث الذين هم من مهاجرين وسكنة أصليين استلهموا البنية الأساسية لتوجّهاتهم الاجتماعية من الأسطورة البديعة والمفعمة بالأمل «المصير الواضح[1] (Manifest destiny)»، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأسطورة مستلهمةٌ من عصر الأبطال الإغريق.

الثاني: النظام السياسي الألماني يختلف بالكامل عن النظام السياسي الأمريكي، لكن مع ذلك تأثّر الألمان بالتراث الأسطوري الإغريقي، ففي أزمة الحداثة اتّبعوا سياسةً قوامها القهر والغلبة، وهذا النهج نلمسه جليّاً في الصراعات التي خاضتها العديد من البلدان ومن جملتها فرنسا، حيث اتّبعه نابليون في فتوحاته. على ضوء ما ذكر أنشات ألمانيا نظاماً وطنيّاً قوميّاً مقتدراً ومتعصّباً، لذلك دافعت عن النمسا، والواقع أنّ الألمان حاولوا التخلّص من الشعور بالهزيمة بالأسلوبين التاليين:

أ- من الأعلى: وذلك عن طريق تقوية النظام الحاكم وإيجاد اتّحادٍ وطنيٍّ، وهذا الهدف حتّى وإن اقتضى اللجوء إلى العنف والقهر فلا محيص منه.

ب- من الأسفل: عن طريق تحفيز القابليات الأسطورية لدى عامّة الشعب، ولا شكّ في أنّ الشعب كان بنيةً أساسيةً في اقتدار ألمانيا؛ ولكن من الناحية العملية زالت الدوافع الرومنطيقية في المواقف الرمزية التي كانت تتّخذها هذه الدولة باستثناء موقفها إزاء النمسا والذي تمّ اتّخاذه على ضوء النزعات العنصرية والسلطة

[1]- (Manifest destiny): القدر المتجلي، أو القدر الساطع، أو المصير الواضح: هو مصطلحٌ أو فكرٌ يعني الاعتقاد بأنّ الولايات المتحدة بلدٌ يسير بنحوٍ متسارعٍ نحو التوسّع من ساحل المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ، وتستخدم هذه الفكرة أيضاً من قبل أنصارها لتبرير الاستحواذات الإقليمية الأخرى؛ ويرى هؤلاء أنّ التوسعات ليست فكرةً جيدةً لكنّها مصيريةٌ وواقعٌ لا بدّ منه.

وقد تلخّصت هذه العقيدة في العبارة التالي: «أمريكا للأمريكيين». (المترجم)

المصدر: https://ar.wikipedia.org/wiki/المصير_الواضح

الاستبدادية للرئيس بسمارك[1] Bismarck إذ إنّ السبب الحقيقي في اتّخاذه يرجع إلى الشعور بوجود علاقاتٍ قوميةٍ بين البلدين، كما أنّ تطوّر هذا البلد صناعيّاً أدّى إلى توحيد صفوف مواطنيه حتّى القرن التاسع عشر، وهو في هذا المجال يشابه الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن تجاوز القدرة الصناعية الفائقة لبريطانيا العظمى؛ ومنذ تلك الآونة تحقّق اتّحادٌ تامٌّ بين الحكومة الألمانية ونشاطها الصناعي.

الجدير بالذكر هنا أنّ الفيلسوف فريدريك نيتشه تكهّن في أحد آثاره بولادة عملاقٍ ألمانيٍّ عظيمٍ، ومن جملة ما قاله في هذا الصعيد ما يلي: لا ينبغي لأحدٍ تصوّر أنّ الروح الألمانية قد افتقدت تراثها الأسطوري إلى الأبد. كما قال في كتابه «مولد التراجيديا»: عندما يولد هذا العملاق العظيم سوف يقتل الأفعوان ويقضي على الأقزام الأشرار، وفي ذلك حتّى رمح ووتان[2] (Wotan) لا يمكنه الوقوف بوجهه.

كما أنّ أدولف هتلر تصرّف وكأنّه البطل الأسطوري زيجفريد (Siegfried) حيث تزعّم الحركة النازية وتوعّد بهزيمة الأعداء وتحقيق النصر معتقداً أنّ النسل الألماني الراقي له القدرة على قيادة العالم بأسره.[3]

نلاحظ ممّا ذكر اختلافاً في المواقف بين الأمريكان والألمان، فالنهج الأمريكي متقوّم على الاعتقاد بالقدرة التي تتّصف بطابعٍ غيبيٍّ في رحاب نظرية المصير الواضح والحركة الإيجابية المرنة، في حين أنّ النهج الألماني قوامه العنف والحركة السلبية العسكرية والتمييز العنصري، وهذا الأمر لم يكن ليتحقّق بطبيعة الحال إلا على ضوء

[1]- 1815 - 1898.

[2]- ووتان إله الحرب ويسمّى أودين (Odin) أيضاً، وهو أكبر الآلهة التي اعتقد بها الألمان، حيث أطلق عليه فاجنر اسم ووتان وفريدريك نيتشه بدوره أيّده في هذه التسمية.

وتمّ تعريفه أيضاً بأنّه كبير الآلهة في الميثولوجيا النوردية، وزعيم آلهة الآسر؛ كما يُدعى بأبي الآلهة واسمه مشتقٌّ من كلمة تعني الحماسة، والغضب، والشعر. وكسائر الآلهة النوردية، فإنّ اختصاصات أودين متعدّدة ومعقدّة، فهو إله الحكمة والحرب والمعركة والموت، كما اتّفق الباحثون على كونه إلهاً للسحر، والتنبؤ، والشعر، والنصر، والصيد.

[3]- John Girling 1993, Myths and politics in western societies, political science, press 5, p. 6.

النزعة النازية وبفضل السعي البطولي الأسطوري الهادف إلى فرض الإرادة السياسية المرتكزة على الاقتدار.

الثالث: بريطانيا في العصر الفكتوري تزامن وجودها مع الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا، حيث تطوّرت بشكلٍ راسخٍ وجريءٍ، وقويت مكانةُ نظامها السياسي، وقد تجلّى هذا التطوّر بشكلٍ ملحوظٍ في الجانب الثقافي؛ وفي أواخر عصرها الفكتوري واجهت أزمة الحداثة وذلك حينما ظهر جيلٌ جديدٌ تحدّى الجيل القديم وتجاوز أسوار مبادئه الأمر الذي أسفر عن حدوث مشاكلَ عديدةٍ.

في تلك الآونة تمّ تهميش الأساطير في المجتمع البريطاني جرّاء الضغوطات التي واجهها من الهجمات العسكرية التي شنّتها جيوش نابليون بونابرت، لذلك تطوّرت العجلة الصناعية بشكلٍ متسارعٍ ومبالغٍ فيه دون أيِّ مبادئَ إيديولوجيةٍ، وتواصلت هذه الحركة حتّى نهاية القرن؛ ولـمّا فقدت بريطانيا قابلياتها الاقتصادية والصناعية وبلغت أدنى مستوياتها، شهد المجتمع تحدّياتٍ عنصريةً واجتماعيةً وشخصيةً في إطار حربٍ طبقيةٍ ومن ثمّ ظهرت بعض الحركات الحديثة مثل الدعوة إلى تحرّر المرأة ومنحها حقّ الإدلاء بصوتها في شتّى مجالات الحياة.[1]

الرابع: فرنسا حذت حذو الولايات المتحدة الأمريكية وادّعت أنّها تحمل راية الأخلاق والثقافة الإنسانيتين في العالم، وفي هذا السياق سعى روّاد نهضتها ومفكّروها إلى إحياء المفاهيم الأسطورية في رحاب التوجّهات التالية:

- الرأسمالية والديمقراطية على أساس نظرية جان جاك روسو التي طرحها حول اقتدار الإرادة العامّة والسيادة السياسية.

- التنمية السياسية شعبيّاً وسلطويّاً على أساس نزعةٍ وطنيةٍ (النصرة لفرنسا Francophile) وهي وجهةٌ تجسّدت في نشاطٍ شعبيٍّ ملؤه الغرور بعد أن عانى

[1]- Ibid, p. 7.

الفرنسيون من تحقيرٍ طوال الحرب العالمية الثانية لذلك حاولوا إثبات هويتهم التأريخية باعتبارهم قدرةً عالميةً تقارع سائر القوى.

الجدير بالذكر هنا أنّ النظرية الرأسمالية ليست وحدها التي تبنّت المفاهيم الأسطورية وحاولت إحياء بعض مفاهيمها، بل النظرية الماركسية هي الأخرى بادرت إلى ذلك، ويمكن تلخيص توجّهاتها في هذا الصدد ضمن الموارد الثلاثة التالية:

- المفهوم الأسطوري الاقتصادي تبلور فيها باعتبار أنّ المبادئ الأكسيولوجية هي القلب النابض لعملية الإنتاج، ومن ثمّ تحوّلت هذه الفكرة إلى دوغماتيةٍ مرتكزةٍ على اقتصادٍ موحّدٍ في كلّ زمانٍ.

- المفهوم الأسطوري السياسي تمّ إحياؤه باعتبار أنّ العهد البروليتاري هو زمن نجاة الإنسانية من آلامها ومعاناتها.

- أسطورة العولمة في رحاب الفكر الماركسي لها القابلية على التنظير في مجال القوانين العالمية بهدف الرقي بواقع المجتمع وتنميته.[1]

خلاصة الكلام أنّ الأساطير الإغريقية كان لها وقعٌ كبيرٌ على التوجّهات والنشاطات السياسية في العالم الغربي الحديث سواءً على صعيد مكافحة ما لا يتناغم مع مشارب روّاد الحداثة أو ما كان مرتكزاً للحركات التحرّرية، وهذا الأمر أسفر عن حدوث ظروفٍ خاصّةٍ تتناسب مع الخلفيات الاجتماعية في تلك الديار اقتصاديّاً وسياسيّاً، فمثاله على الصعيد الاقتصادي هو التحوّل المذهل الذي شهدته الولايات المتّحدة الأمريكية، وعلى الصعيد السياسي تجسّد في الرايخ الألماني (الإمبراطورية الألمانية) (Reich)؛ كما تحقّق في أحياناً بشكلٍ مشتركٍ وفي شتّى المجالات كما حدث في الحياة الثقافية البريطانية.

الأساطير الإغريقية الراسخة في اللاشعور الجمعي الغربي تجسّدت في أطرٍ عديدةٍ

[1]- Ibid, p. 8 - 9.

تمكّنت الشعوب وحكوماتها بفضلها من إيجاد أجواء تتيح إجراء تغييراتٍ على ضوء توجّهاتٍ نقديةٍ، فهذه الأساطير تسبّبت بتفعيل القابليات العامّة التي تمخّض عنها حدوث تحوّلاتٍ بطابعٍ عصريٍّ في رحاب عالمٍ زاخرٍ بالصراعات والأزمات فنتج عن ذلك ولادة إنسانٍ غربيٍّ ومن ثمّ إيجاد سلسلةٍ من المشاعر والأحاسيس المشتركة بين أبناء المجتمعات الغربية التي تأثّرت بالمفاهيم الأسطورية الإغريقية؛ وهذا التفاعل المشترك جعلهم مختلفين عن غيرهم من بني البشر.

حينما نمعن النظر في واقع الأوضاع السياسية في البلدان الغربية نلاحظ أنّها تمتاز في بعض جوانبها بطابعٍ أسطوريٍّ يتناغم مع فحوى الأساطير المتعارفة بين شعوبها، فالرغبة في الحياة المرفّهة مادّياً في العالم الغربي الحديث على سبيل المثال تضرب بجذورها في سيرة الأبطال الأسطوريين الذين كانوا يبحثون عن اللذّة والمتعة في حياتهم الدنيوية خلال العصر الأسطوري الذهبي ببلاد الإغريق؛ إذ إنّ الحداثة الغربية تعدّ ثمرةً للتحوّل المصيري الذي شهدته قارّة أوروبا بعد حركة النهضة وانتقالها من أجواء التديّن المسيحي والزهد بالحياة الدنيا وملذّاتها في حقبة القرون الوسطى إلى أجواء أخرى ملؤها النزوع إلى التلذّذ والمتعة بكلّ نعمةٍ من نِعم الحياة حذواً بالتراث الأسطوري القديم؛ وعلى هذا الأساس توحّدت التوجّهات الثقافية في العديد من الجهات رغم وجود اختلافاتٍ إيديولوجيةٍ، حيث أمسى التراث الأسطوري الإغريقي منطلقاً لتبنّي رؤًى ثقافيةٍ ذاتِ طابعٍ مشتركٍ، فالحداثة الغربية في البُعد السياسي كانت على غرار بُعدها الثقافي المشار إليه، حيث تأثّرت بسيرة الأبطال الأسطوريين ومواقفهم وعلى رأسهم أوديسيوس وأخيليوس، ووجه التشابه هنا هو السعي لبلوغ أعلى مستويات الرفعة والعظمة وبسط النفوذ في أوسع رقعةٍ، لذلك أصبح الهدف في الغرب المتجدّد ذا طابعٍ يتناسق مع رؤية أوديسيوس في تسخير أقصى مقدارٍ من الإمكانيات المادّية واستغلال ثروات البلدان الأخرى، كما أنّ مكر هذه الشخصية

الأسطورية المتمثّل بحيلة حصان طروادة يعدّ أنموذجاً عمليّاً في السياسة الخارجية التي تتبنّاها الحكومات الغربية لدى تعاملها مع سائر البلدان.

على الرغم من هذا النهج في السياسة الخارجية الغربية الحديثة والمتقوّم بالنفعية وخداع الشعوب الأخرى واستعمارها واستغلال خيراتها والاعتداء عليها ونهب مقدّراتها، إلا أنّ السياسة الداخلية ترتكز على الدعوة إلى الالتزام بتطبيق القانون في أجواءَ ديمقراطيةٍ حرّةٍ ومن منطلق احترام حقوق المواطن والتعامل مع الجميع بعدلٍ ومساواةٍ؛ وذلك لأنّ الفكر الغربي الحديث بعد عصر التنوير الفكري اعتبر الرجل الغربي الأبيض كإنسانٍ متكاملٍ خلافاً لأبناء سائر المجتمعات، حيث اعتُبر النساء وغير الغربيين والملوّنين كبشرٍ غير متكاملين وأدنى مستًوى من الرجال الغربيين لكونهم يفتقرون إلى المقوّمات التي تؤهّلهم لذلك؛ وهذا الأمر جعل الإنسان الغربي يتصوّر بأنّه قيّمٌ على البشرية وصاحب زمام أمورها ما أتاح الفرصة له في نهب خيرات سائر الشعوب وثرواتها لأجل تطوير نفسه وتنمية قابلياته المادّية وبناء مجتمعه الغربي على أكتاف الآخرين. لا شكّ في أنّ النهج الانتهازي المشار إليه هنا متأثّرٌ بالمفاهيم الأسطورية الإغريقية، فاليونانيون القدماء اعتبروا بلادهم مركزاً للعالم وزعموا أنّ سائر البشر من غير اليونانيين مجرّد همجٍ وبرابرةٍ، وبهذا التصوّر سوّغوا لأنفسهم التجاوز على مقدّراتهم والفتك بهم كما هو ملحوظٌ في أسطورة الأوديسة.

إذاً، السياستان الداخلية والخارجية للبلدان الغربية في عصر النهضة والحداثة انعكست فيهما المفاهيم الأسطورية الإغريقية، ويمكن تلخيص هذه الحقيقة في النقاط التالية:

أ- السياسة الخارجية التي تتبنّاها البلدان الغربية في العصر الحديث متأثّرةٌ بالعصر الأسطوري الثاني، أي عهد الأبطال الأسطوريين الذين تشبّثوا بكلّ ما أُتيح لهم بغية نيل القدرة والعظمة وتسخير ما استطاعوا من إمكانياتٍ مادّيةٍ حتّى وإن

اقتضى الأمر اللجوء إلى أفعالٍ غير إنسانيةٍ ومنافيةٍ للأخلاق الحميدة، حيث تجلّى هذا السلوك بوضوحٍ في سيرة أوديسيوس وأخيليوس.

ب- السياسة الداخلية في البلدان الغربية الحديثة متأثّرةٌ بالعصر الأسطوري الثالث، أي عهد سيادة إرادة الإنسان، وفي هذا السياق رفعت راية الحرّية والمساواة في الحقوق الطبيعية والمادّية وفق المفاهيم الديمقراطية الحديثة المنبثقة من مبدأ حرّية إرادة البشر.

عالم النفس المعاصر غوستاف جاهودا (Gustav Jahoda) تتبّع في بحوثه جذور الاستعمار الغربي الحديث ونسبه إلى السلوك الهمجي لإنسان عصر ما قبل التأريخ، ففي تلك الآونة كانت النزعة العنصرية الفردية هي التي تحرّكه في جميع أفعاله، وعلى هذا الأساس ورثت المجتمعات الغربية فكرة غربة الأجناس البشرية الأخرى، فهذا الاعتقاد يعتبر تراثاً مشتركاً في تلك الديار، إذ إنّ أبناء سائر الشعوب غير الغربية وفق هذه الرؤية لا يختلفون عن الشياطين والأشرار التي ذكرت حكاياتها في الأساطير الإغريقية؛ وتطرّق هذا المفكّر الغربي في كتابه الذي ألّفه حول المناشئ القديمة للتعصّب في الثقافة الغربية إلى البحث والتحليل حول واقع الكائنات العملاقة الشبيهة بالإنسان في الأساطير الإغريقية وتحدّث عن كيفية نشأتها ونمط حياة الرجال المتوحّشين الذين استوطنوا غابات أوروبا الوسطى بحسب ما ذكر في هذه الأساطير.

روّاد الفكر الغربي الحديث صوّروا أهالي المجتمعات النائية عنهم وكأنّهم همجٌ رعاعٌ أسطوريون وزعموا أنّ نمط حياتهم لا يختلف شيئاً عن حياة الحيوانات ولا يتقيّدون بأيِّ أصولٍ وضوابطَ في علاقاتهم الجنسية، فهم شهوانيون يشبعون نزواتهم كالحيوانات، والباحث غوستاف جاهودا سلّط الضوء على هذه الوجهة الفكرية واستنتج في دراساته أنّها منبثقةٌ من التراث الفكري الموروث من القرن الثامن عشر على صعيد العلاقة بين القرد والإنسان، فعلم الأحياء الحديث عبر تسليطه الضوء

على النزعة العنصرية التي سادت في المجتمعات الغربية إبّان القرن التاسع اعتبر السلوك الحيواني لدى الإنسان انعكاساً لمسيرةٍ تكامليةٍ، حيث توقّف هذا السلوك بعد أن تكامل الإنسان بنيويّاً باستثناء الجنس الأسود من البشر، لذلك قيل أنّ الإنسان الأسود كأنّه حالةٌ برزخيةٌ بين الإنسانية والحيوانية، أي أنّه كالوليد غير الناضج؛ ومن هذا المنطلق ادّعى الغربيون بأنّه بحاجةٍ إلى قيّمٍ يدير شؤونه، والقيّم هنا ليس سوى المواطن الغربي الأبيض الذي وصف بالأب الصالح لهذا الوليد الضعيف؛ إلا أنّ هذا الأب تحوّل إلى سيّدٍ يأمر وينهى كما يشاء.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الرؤية كان لها تأثيرٌ بالغٌ على العديد من النظريات السيكولوجية التي طرحها جاهودا، حيث ادّعى وجود ارتباطٍ تأريخيٍّ مثيرٍ للجدل بين أبناء الجنس البشري، ونظرياته هذه ما زالت مطروحةً للنقاش حتّى عصرنا الراهن.

هذا الباحث الغربي كسر قيود النزعات العنصرية التي سادت في عصر الحداثة وأفشى حقائق التوجّهات الفكرية الغربية المتقوّمة على الظلم والجور والتعدّي العنصري على سائر الشعوب والأمم، ومن جملة ذلك أنّه فضح ما ذهب إليه البعض بزعم أنّ الأفارقة كالقردة وعلاقاتهم الجنسية مع نسائهم مجرّد ارتباطات حيوانية عارية من العقلانية؛[1] وهذا التعصّب لم يقتصر على التعامل مع ذوي البشرة السوداء فحسب، بل عمّ التعامل مع جميع المجتمعات غير الأوروبية، حيث أكّد جاهودا على أنّ الإنسان غير الأوروبي على ضوء مبادئ الأنثروبولوجيا الغربية والأدب التأريخي الغربي ليس سوى كائنٍ بربريٍّ همجيٍّ وبدائيٍّ[2] ينتهج سلوكاً طفوليّاً جرّاء عدم نضوجه عقليّاً، لذلك عادةً ما يتمّ التطرّق لبيان واقع شخصيته في رحاب سيكولوجيا

[1]- Gustav Jahoda 1999, Images of savages: Ancient Roots of Modern Prejudice in Western Culture, Routledge, p. xi.

[2]- Ibid, p. xxi.

الطفل والتأكيد على ضرورة خضوعه للقوى الاستعمارية كي تدبّر شؤون حياته.

نستشفّ ممّا ذكر أنّ التغييرات التكاملية المتنامية في العالم الغربي أسفرت عن حدوث تضادٍّ متواصلٍ بين الثقافة الأوروبية وغير الأوروبية التي يزعم الغربيون بأنّها ثقافة شعوبٍ همجيةٍ بربريةٍ، فالغربيون على ضوء ثقافة العصرنة والحداثة تصوّروا أنّهم متحضّرون دون سواهم وسائر البشر مجرّد قردةٍ متطوّرةٍ، لذلك نجد العديد من المصطلحات التي تنمّ عن هذا التوجّه المتعصّب، حيث وصف الإنسان غير الغربي بعدّة ألفاظٍ، مثل الغير والمتوحّش والهمجي والأجنبي والكائن الغامض؛ ولا ريب في كون هذه الألفاظ تعدّ انعكاساً عملياً للنزعات العنصرية التي سادت في العالم الغربي إبّان عصر النهضة والحداثة،[1] ناهيك عن أنّه إنسانٌ مخيفٌ وحسودٌ وبغيضٌ، ولو تتبّعنا جذور معتقداتٍ كهذه وأمعنّا النظر في جينيالوجيتها سوف نلاحظها متغلغلةً في التراثين الإغريقي والروّماني، ومتأصّلةً في تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية.

إذاً، لا نبالغ لو قلنا أنّ الانطباع الأسطوري الإغريقي بالنسبة إلى الإنسان غير الإغريقي قد تبلور بوضوحٍ في النظريات السياسية المعاصرة التي تبنّتها المجتمعات الغربية الحديثة، حيث تجسّدت نظرياً في بادئ الأمر ضمن كتابات أبرز المفكّرين الغربيين؛ ثمّ تواصلت هذه الكتابات وتزايدت الدعوات إلى السير على النهج الأسطوري حتّى عصرنا الراهن ما يعني أنّ الفكر الغربي على صعيد ما ذُكر منبثقٌ من المفاهيم الأسطورية الأولى حينما وصفت المخلوقات بأنّها كائناتٌ عملاقةٌ أو بولينية (polinian) في الأساطير الإغريقية.[2]

الباحث جان بول سارتر اعتبر حرب طروادة بأنّها أوّلُ هجومٍ عسكريٍّ استعماريٍّ، وسبقه في هذا الرأي كلٌّ من ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر ضمن كتاب «جدل

[1]- Ibid, p. xviii.

[2]- Jahoda, Gustav (1999) Images of savages: Ancient Roots of Modern Prejudice in Western Culture, Rout ledge, p. 1 - 2.

التنوير» حيث أكّدا على أنّ سياسة السلطة والقمع التي شهدها العالم في العصر الحديث قد ظهرت بوادرها الأولى في شخصية أوليس (Ulisse) ضمن ملحمة هوميروس الشعرية.

في الكتاب الأوّل من تحوّلات الشاعر أوفيدوس (Metamorphoses) وُصف الإنسان بأنّه أرفع شأناً وأكثر قدسيةً من هذه الأذهان المنحطّة والهزيلة، فهو كائنٌ فطنٌ له القدرة على تسخير سائر الكائنات في خدمته؛ والغربيون بدورهم ادّعوا أنّ شخصية هذا الكائن الراقي تجسّدت في اليونانيين الأسطوريين الذين تطوّروا على مرّ التأريخ ضمن مسيرةٍ تكامليةٍ حتّى انطلاق عصر التنوير الفكري ليبلغوا حينها ذروة الوعي والإدراك.[1]

أدورنو وهوركهايمر سلّطا الضوء على واقع السياسة الاستعمارية الغربية وتتبّعا جذورها حتّى العصور الأسطورية، ومن جملة الآراء التي توصّلا إليها أنّ عجز أوديسيوس عن التصدّي للأمواج المتلاطمة التي أحاطت به يعدّ تبريراً موجّهاً لتسخيره الهمج من عامّة الناس، وهذا الموقف الأسطوري تجلّى أيضاً في عصر التنوير الفكري عندما امتلك الغربيون ثرواتٍ طائلةً جرّاء نهبهم خيرات الشعوب الأخرى، حيث برّروا تعدّيهم على الآخرين وتدنيس حقوقهم بذات الذرائع التي تمّ تبرير تصرّف أوديسيوس على أساسها؛ أضف إلى ذلك فالاقتصاد البرجوازي الغربي قام أيضاً على هذا المبدأ في إطار مفهوم "المجازفة"؛ لذلك تتّضح لنا أسباب إخفاق الأخلاق النفعية الغربية كما تتبيّن لنا المبرّرات التي قامت عليها، إذ إنّ روّاد السياسة الخارجية في العالم الغربي إبّان عصر التنوير الفكري قلّدوا سيرة بعض الأبطال الأسطوريين من أمثال أوديسيوس وكروزو، والفرق بين هاتين الشخصيتين أنّ أوديسيوس كان يقيّم الأحداث بينما كروزو كان يوجدها، والوجه المشترك بين سلوكياتهما أنّهما عملا على

[1]- بابك أحمدي، معماي مدرنيته (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «مركز»، 1998م، ص 88.

تحقيق أهدافٍ عامّةٍ في معزلٍ عن معونة الآخرين، حيث كان الأعداء والأصدقاء بالنسبة إليهما مجرّد وسائل يتمّ تسخيرها لبلوغ الطموحات المرجوّة.[1] يشار هنا إلى أنّ دهاء أوديسيوس ومكره قبال الكائن السايكلوبي بوليفيموس (Polyphemus) قد جسّد أسلوباً سوفسطائيّاً، فكلمة أوديسيوس في اللغة اليونانية تدلّ بشكلٍ عامٍّ على معنى «لا أحد»، وهي في ملحمة هوميروس استخدمت في معنى يدلّ على خداع العدوّ ضمن دلالتها العامّة المشار إليها.[2]

أدورنو وهوركهايمر تطرّقا في بحوثهما إلى الحديث عن استعمار الشعوب غير الغربية ونهب خيراتها من قبل القوى السلطوية الغربية في عصر التنوير الفكري، وفي هذا السياق عرّجا على سيرة أوديسيوس لتحليل الموضوع، ومن جملة كلامهما ما يلي: أوديسيوس حينما أراد الهروب من حوريات البحر[3] (Sirens) اختار طريقين، الأوّل دعا أتباعه لأن يسلكوه وأوصاهم بأن يملؤوا آذانهم بالشمع كي لا يسمعوا صوت غنائهنّ الجذّاب فيغويهم، كما طلب منهم أن يجذّفوا بكلّ ما أوتوا من قوّةٍ حتّى يتجاوزوا نطاق تواجدهنّ؛ وهذا الأمر الرمزي في واقع الحال نلمسه جليّاً في السياسة التي انتهجها الاستعمار الغربي الحديث وذلك من خلال تحفيز عمّال البلدان الأخرى التي تخضع لسلطته على العمل بكلّ وجودهم دون التفكير بأيّ شيءٍ آخر ودون

[1]- ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، ديالكتيك روشنگري (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية مراد فرهاد بور وأوميد مهرگان، إيران، طهران، منشورات «گام نو»، 2005م، ص 124 - 125.

[2]- المصدر السابق، ص 131 - 132.

[3]- حوريات البحر (Sirens) أو (Mermaids) هي كائناتٌ أسطوريةٌ ذُكرت قصصٌ وحكاياتٌ عنها في الأساطير الإغريقية، وكلُّ حوريةٍ على هيئة نصف امرأةٍ ونصف سمكةٍ، حيث كان جمالهنّ خلّاباً لا يوصف لذلك أولع بهنّ وبصوتهنّ العذب جميع البحّارة الذين كانوا يواجهوهنّ في عباب البحار فكانوا يفتنون بروعتهنّ ويغفلون عن توجيه سفنهم نحو الوجهة الصحيحة ومن ثمّ تصطدم بالصخور وتغرق.
وأمّا من الناحية الرمزية فحورية البحر كنايةٌ عن الخطر الكامن في باطن الجمال ولا سيّما جمال النساء، كما تدلّ على الارتباط الوطيد بين الحبّ والموت.
للاطّلاع أكثر، راجع: ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، ديالكتيك روشنگري (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية مراد فرهاد بور وأوميد مهرگان، إيران، طهران، منشورات «گام نو»، 2005م، هامش ص 76.

الاكتراث بما يجري حولهم، وترغيبهم في إشباع طموحاتهم عن طريق العمل الدؤوب والمتواصل فحسب. وأمّا الطريق الآخر فقد اختاره لنفسه، وهذا الطريق في الحقيقة يرمز إلى نهج الطبقة البرجوازية والنزعة الاستعمارية في تسخير الآخرين خدمةً لمآربَ خاصّةٍ، حيث ربط نفسه في سارية السفينة كي لا يتمكّن من تغيير وجهته لـمّا يسمع صوت غناء الحوريات الشجي العذب، والطريف أنّه ربط الحبل بشكلٍ يجعله أكثر استحكاماً كلّما حرّك نفسه، أي أنّه عندما يحرّك نفسه للاتّجاه نحو الحوريات فالحبل يلتفّ عليه بقوّةٍ أكثر؛ وهذه الحالة تناظر النهج الذي اتّبعه البرجوازيون في عصر التنوير، إذ كانوا يكفّون أنفسهم بعزمٍ راسخٍ عن بعض الملذّات تحقيقاً لطموحاتٍ أكثر نفعاً لهم، ألا وهي توسيع نطاق نفوذهم وسلطتهم والاقتراب أكثر من السعادة المنشودة واللذّة المرجوّة.

إذاً، القوى الاستعمارية المعاصرة سخّرت أبناء بعض المجتمعات تحقيقاً لمصالحها الخاصّة بحيث يمكن اعتبار جهدهم وكدّهم مجرّد عملٍ يراد منه الحفاظ على سلامة أربابهم المستعمرين الظلمة وتحقيق أكبر نفعٍ لهم، لأنّ المستعمر بات عاجزاً عن ترك دوره الاستغلالي في الحياة ومكانته الاجتماعية العليا؛ وكذا كان الحال بالنسبة إلى أصحاب أوديسيوس، فرغم قربهم من الملذّات إلا أنّهم عجزوا عن التمتّع بها كما لم ينالوا من أعمالهم أيَّ سعادةٍ تُذكر لكونهم خضعوا لضغوطاتٍ جمّةٍ وزاولوا أعمالهم بداعي اليأس من التحرّر فظلّوا يجهدون أنفسهم مضطرّين لذلك وهم يعلمون بأنّ الإنسان الذي يستغلّه الآخرون لا محيص له من إطاعة أربابه والانقياد لأوامرهم جسديّاً وروحيّاً.[1]

[1]- ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، ديالكتيك روشنگري (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية مراد فرهاد بور وأوميد مهرگان، إيران، طهران، منشورات «گام نو»، 2005م، ص 81 - 82.

*** نتيجة البحث:**

السياسة الغربية الحديثة تأثّرت بشكلٍ ملحوظٍ بالمواقف والمفاهيم السياسية المستوحاة من التراث الأسطوري الإغريقي، ويتلخّص ذلك بما يلي:

1) تقليد شخصية أخيليوس الساخطة وإحياء مشاهد العنف وإراقة الدماء في أسطورة الإلياذة، والارتكاز على اغتصاب حقوق الآخرين وخداعهم وفتح بلادهم حذواً لما أشارت إليه أسطورة الأوديسة؛ لذا يمكن اعتبار هذه التوجّهات أساساً للتصرّفات الفظّة والقسوة المفرطة التي انتهجتها القوى الاستعمارية الغربية الحديثة على ضوء فكرها التوسّعي.

2) الإنسان الغربي تأثّر بما استلهمه من التراث الأسطوري الإغريقي ليتصوّر أنّ الرجل الغربي الأبيض يمثّل جنساً بشريّاً متطوّراً ومتحضّراً، لذلك له الحقّ في سيادة العالم وإصدار الأوامر والنواهي لغيره وكأنّه قيّمٌ على سائر البشر من غير الغربيين لكونهم لا يمتلكون الحنكة والبراعة في الحياة وكأنّهم أطفالٌ لا يعقلون وهمجٌ رعاعٌ لا يفقهون شيئاً؛ فالإنسان غير اليوناني في الأساطير الإغريقية اعتُبر أجنبيّاً وغريباً وكأنّه كائنٌ متوحّشٌ غامض الشخصية، لذلك ليس هناك خيارٌ سوى القضاء عليه بالكامل أو تسخيره في خدمة أسياده اليونانيين.

3) السياسة الغربية الحديثة سلكت نهج الأبطال الأسطوريين وأقرّت مبادئها وفق طباعهم بحسب ما تناقلته الأساطير الإغريقية، وهذا النهج متقوّمٌ بأصولٍ مادّيةٍ وأرستقراطيةٍ بحتةٍ بحيث لا يتجاوز حدود الحياة الدنيا، ومن هذا المنطلق أصبح الهدف المنشود في عصر التنوير الفكري امتلاك أكبر قدرٍ من السلطة واللذّة والرفاهية المادّية.

4) المبادئ والأصول الاقتصادية في السياستين الداخلية والخارجية إبّان عصر التنوير الفكري، مستوحاةٌ في أساسها من المفاهيم التي شاعت في العصر الأسطوري الذهبي ببلاد الإغريق.

5) قوانين المواطنة والسياسة الخارجية في عصر النهضة والحداثة تقوّمت برغبات الرجال الغربيين، وهذه الحالة موروثةٌ في الواقع من الأحداث التي جرت في عصر سيادة الرجال العقلاء، أي العصر الأسطوري الثالث؛ ففي تلك الآونة اعتبرت المرأة مجرّد كائنٍ عاطفيٍّ ليس من شأنه سنّ القوانين من منطلق عدم امتلاكه عقلاً يؤهّله لهذه المهمّة الحسّاسة، وهذا الأمر تبلور أيضاً في عصر التنوير الفكري الغربي عندما تولّى الرجال مسؤولية تشريع القوانين.

6) مبدأ الحقّ الطبيعي الموروث من الأساطير الإغريقية أصبح في العصر الحديث منطلقاً أساسيّاً لحقوق المواطنة في العالم الغربي الحديث.

7) تهميش الربّ في السياستين اللتين تبنّاهما العالم الغربي داخليّاً وخارجيّاً، يضرب بجذوره في نهاية العصر الأسطوري الإغريقي الأوّل، أي عصر سيادة الآلهة، ففي نهايته أصبحت عصا السبق في ريادة العالم بيد الأبطال الأسطوريين الذين جعلوا قيمهم حاكمةً في الحياة؛ بينما القيم الإنسانية والإرادة المرتكزة على الذات الإنسانية في السياستين الداخلية والخارجية الغربي خلال العصر الحديث تعود في أساسها إلى ثالث عصرٍ أسطوريٍّ.

8) السياسة المتّبعة في العالم الغربي الحديث متقوّمة بوجهتين أساسَيْن، إحداهما رأسمالية والأخرى اشتراكية؛ فالفكر الرأسمالي متأثّرٌ بملاحم هوميروس الأسطورية، والفكر الاشتراكي متأثّرٌ بملاحم هسيود.

9) السياسة التي انتهجها النظام الحاكم في الولايات المتحدة الأمريكية إبّان العصر الحديث تأثّرت بأسطورة «المصير الواضح» المفعمة بالأمل والتي تعتبر ذاتَ مناشئَ أسطوريةٍ بطوليةٍ.

10) سياسة النظام الحاكم في ألمانيا متأثّرةٌ في واقعها بالنظرية الأسطورية التي فحواها أنّ الإرادة متقوّمةٌ بالاقتدار بحسب ما كان شائعاً في عصر الأبطال الأسطوريين والمنبثقة من أفكار عنصرية.

11) السياسة البريطانية الحديثة حتّى وإن نشأت في ظاهر الحال كردّة فعلٍ على الأفكار الأسطورية، إلا أنّ الحقائق تدلّ على انطباق نمط السيادة الملكية في هذا البلد مع المفاهيم الموروثة من الأساطير الهرمسية.

12) السياسة التي انتهجها النظام الفرنسي خلال عصر التنوير الفكري كانت تهدف إلى قيادة الإنسانية أخلاقيّاً وثقافيّاً، وأريد منها إحياء المفاهيم الأسطورية اليونانية.

13) السياسة المنبثقة من النظرية الاشتراكية الحديثة تعتبر امتداداً للنظرية الإغريقية التي قصد منها تأسيس مجتمعٍ اشتراكيٍّ آنذاك، وقانون العمل في تلك الآونة كان من شأنه إنقاذ الإنسان من قيوده بحسب أسطورة هسيود.

ثالث عشر: محورية أوروبا

في هذا المبحث سنسلّط الضوء على السرد الأسطوري المرتكز على شخصية أوروبا والبلدان التي انضوت تحت اسمها:

1) أسطورة أوروبا في بلاد الإغريق القديمة

كلمة أوروبا (Europa) ذكرت لأوّل مرّةٍ في التراث الأسطوري الإغريقي ضمن إلياذة هوميروس في عام 800 ق. م. وبعد ذلك ذكرها هسيود في ملحمته الأسطورية.[1]

الجدير بالذكر هنا أنّ أسطورة أوروبا الإغريقية قد تبلورت ضمن تصوّراتٍ لطيفةٍ وجميلةٍ وشاعريةٍ إبّان العصور الأسطورية، وزوجة الملك صيدون (Sidon) أنجبت فتاةً جميلةً اسمها أوروبا، وذات يومٍ كان إله الآلهة زيوس ينظر إلى الأرض فلمح جمالها الفاتن فأولع بها، وقبل ذلك انبهر بفتاةٍ جميلةٍ أخرى اسمها آسيا.

[1]- Pierre Vidal Naquet 2000, Le monde d'Homère, Perin, p. 19.

زيوس اكتنفته رغبةٌ عارمةٌ في وصال أوروبا التي كان جمالها يتلألأ في الأرض كإلهة جمالٍ بحيث لا تضاهيها أيُّ فتاةٍ أخرى، لذلك تمثّل لها على هيئة ثورٍ لكي يقترب منها ويداعبها؛ ولـمّا امتطته نفخ العازفون في مزاميرهم وسادت البهجة وعمّ السرور بين الناس، وحينها تعجّبت أوروبا وقالت في نفسها متسائلةً: كيف يمكن لثورٍ أن يؤثّر بهذا الشكل على الآخرين؟! لذلك عرفت بأنّه إلهٌ وليس حيواناً. ظنّها طبعاً كان صحيحاً لأنّ الثور في الواقع لم يكن إلهاً عاديّاً فحسب، وإنّما كان كبير الآلهة زيوس، فسار بها حتّى بلغ جزيرة كريت التي أخفته فيها والدته بعد ولادته كي لا يقضي عليه كرونوس.

حينما امتطت أوروبا ظهر زيوس ووصلت معه إلى جزيرة كريت، تزوّجا وأصبح أبناؤهما أشهر الرجال في العالم، ومن أبرزهم مينوس (Minos) ورادامانتوس (Rhadamanthus) اللذان أنيطت بهما مسؤولية محاسبة الموتى نظراً لعدالتهما وعدم انحرافهما؛ ولكن على الرغم من كلّ ذلك بقيت أوروبا أكثر شهرةً من أبنائها.[1]

كلمة أوروبا تعني الحذاقة وحرّية الفكر، لذلك كانت الأميرة أوروبا في هذا المجال مشابهةً للإلاهة أثينا التي عرّفتها الأساطير بأنّها إلاهة العقل.

الجدير بالذكر هنا أنّ أوروبا كانت أحبّ نساء زيوس إلى نفسه وعشيقته التي أولع بها بكلّ وجوده، لذلك خضع لها وتمثّل على هيئة ثورٍ كي تمتطيه ويصبح تحت قدميها، ثمّ قطع بها الديار حتّى وصل جزيرة كريت؛ فهو لم يفعل ذلك مع أيٍّ من زوجاته وعشيقاته الأخريات.[2]

---

[1]- Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid, p. 81 - 87.

[2]- Klein 1987, Etymological Dictionary of the English Language, 18, 71, August, p. 295.

2) أسطورة أوروبا تبسط نفوذها على أوروبا الحديثة

أسطورة أوروبا الإغريقية عيّنت الحدود الجغرافية للبلدان الأوروبية، فهي تشمل كلّ بلدٍ كان يقطنه شعبٌ يتحدّث بلغةٍ خاصّةٍ، مثل الرومانية والألمانية والسلافية والفلّندية والستونية والمجرية.

الشعوب الأوروبية أسّست الإمبراطورية الرومانية في نواحيها الغربية والإمبراطورية الإغريقية في نواحيها الشرقية، وفي القرن الثامن بعد الميلاد استولى أرباب الكنيسة على مقاليد الأمور في تلك الديار وعملوا على ترسيخ أُسس نظام الحكم الإفرنجي، وتحوّلت العبارات والألفاظ الكنسية في ما بعد إلى مصدرٍ لاشتقاق المصطلحات الجغرافية في العالم الغربي الحديث، وأوّل مرّةٍ أطلق على سكنة تلك الديار اسم «أوربيون» في عام 750 م عندما اندلعت حربٌ بين المسلمين وبين سكنة النواحي الغربية في قارّة أوروبا ومسيحيّ هذه القارّة.[1]

يؤكّد الباحثون على أنّ أوروبا الموحّدة مستوحاةٌ من مصطلح أوروبا الأسطوري باعتباره رمزاً للوحدة بين بلدان هذه القارّة، وكما ذكرنا فهذه الفتاة الفاتنة الساحرة في جمالها امتطت إله الآلهة وربّ الأرباب زيوس، لذلك تمّ تصوير هذه الحالة على المسكوكات النقدية القديمة المصُوغة من الذهب والفضّة في اليونان وبلجيكا. ولأوّل مرّة تمّ تدوين مصطلح أوروبا الموحّدة في عام 1956م على الطوابع البريدية مستلهمين ذلك من أوروبا الأسطورية كما وردت في حكايات الإغريق القديمة.[2]

في عام 1492م لـمّا كان كرستوفر كولومبوس يبحث عن الجنّة المفقودة، اكتشف قارّة أمريكا، وإثر ذلك انهمك الأوروبيون بالتخطيط لإدارة شؤون بلادٍ جديدةٍ مترامية

---

[1]- See: Lewis David Lavering 2008, God's Crucible: Islam and Making of Europe, 520 to 1215, New York, Norton.

[2]- See: http://en.Wikipedia.Org./ wiki / Europa - (mythology).

الأطراف ذات أراضٍ خصبةٍ شاسعةٍ؛ وهذه الديار تحوّلت إلى محرّكٍ يوجّه مسيرة النهضة والحداثة طوال فترة التجدّد والنزعات الإنسانية.

المفكّر الغربي جوزيف كامبل تحدّث عن النظام الأكسيولوجي الأمريكي المتّصف بطابعٍ أوروبيٍّ، وأكّد على أنّ القيم اليهودية والمسيحية لا تتناسب في حقيقتها مع القيم الغربية الأوروبية الأمريكية، لأنّ الأديان في منطقة الشرق الأوسط ولدت في تراثها القديم وتعاليمها تتناغم مع المعتقدات المطروحة في الكتب المقدّسة، في حين أنّ القيم الغربية الأوروبية الأمريكية منبثقةٌ من التراثين الإغريقي والروماني، لذا فهي تضرب بجذورها في العقل البشري وتصوّراته؛ ما يعني أنّ القيم والمبادئ الأوروبية ليست مستوحاةً من الكتب المقدّسة، وإنّما هي مستوحاةٌ من نزعةٍ إنسانيةٍ وقد أرسى دعائمها عددٌ من الرجال الذين امتلكوا خبرةً في هذا المضمار، لذلك نجدها تتعارض بطبيعة الحال مع القيم اليهودية والمسيحية، وهذه الحالة بكلّ تأكيدٍ تعدّ ضرباً من التضادّ بين القيم الدينية والإنسانية، ونمطاً من المواجهة المحتدمة بين النظام الأكسيولوجي الأمريكي الأوروبي والنظام الأكسيولوجي اليهودي المسيحي؛[1] وهذا الأمر تبلور بوضوحٍ في نظرية فريدريك نيتشه ضمن أطروحته التي قال فيها أنّ خضوع الإنسان للربّ الذي دعت إليه الأديان يتعارض في واقعه مع الطموح لنيل أعلى درجات القدرة والنفوذ، بينما الحداثة الغربية لم تنفكّ يوماً عن السعي لبلوغ أعلى مراتب الاقتدار والسلطة.

خلاصة الكلام أنّ مركزية أوروبا في العصر الحديث والتي تجلّت بشكلٍ بارزٍ في الولايات المتّحدة الأمريكية التي بلغت أرفع درجات الرقي والتطوّر، هي في الحقيقة صورةٌ أخرى للأسطورة التي صوّرت الفتاة الجميلة أوروبا وهي تمتطي ربّ الأرباب

---

[1]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press, p. 68 - 72.

وإله الآلهة زيوس، حيث سعى الأوروبيون إلى بسط سيادتهم الإمبريالية على العالم بأسره، وعلى ضوء فكرة «موت الإله» التي طرحها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه استحوذوا على مقدّرات الشعوب والأمم الأخرى واعتبروا أنفسهم سادةً على كلّ من في الأرض، وبالتالي روّجوا لأفكارهم المادّية مرجّحين النِّعَم الدنيوية الملموسة على النِّعَم السماوية التي اعتبروها خرافيةً؛ وفي هذا السياق سخّروا كلّ طاقاتهم المادّية والأرضية وفعّلوا كلّ ما لديهم من قابلياتٍ؛ وهكذا انطلق العصر الحديث كامتدادٍ للفكر الأسطوري القديم المتمثّل بحكاية أوروبا الفاتنة ليبسط نفوذه على الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً.

*** نتيجة البحث:**

أوروبا في الأساطير الإغريقية اصطلاحاً وفكراً تتلخّص في النقاط التالية:

1) أهمّ ميزة للحداثة التي اجتاحت العالم الغربي هي الرغبة الجامحة في فرض الثقافة الغربية على سائر المجتمعات، فالغربيون اعتبروا أنفسهم أصحاب عقولٍ سديدةٍ ومنحوا أنفسهم الحقّ في فعل ما يعتبرونه عقلانيّاً بينما سائر البشر مجرّد تابعين لأوامرهم، لذلك أصبحت شتّى المعايير في المجتمعات الأخرى ذات طابعٍ أوروبيٍّ بما في ذلك المدنية والعلم والثقافة والأخلاق والفكر والاقتصاد والسياسة، ومن ثمّ تمّ تقييم كلّ شيءٍ على هذا الأساس.

خلاصة الكلام أنّ التنمية على المستويين الفردي والجماعي بين جميع الشعوب والأمم لا تقيّم إلا وفق معاييرَ غربيةٍ، والحضارة هي الأخرى باتت تعني السير على النهج الأوروبي لدرجة أنّ الشعب الذي يلتزم بأعرافه وتقاليده الموروثة يوصف بالهمجي والمتخلّف فيما لو كانت هذه الأعراف والتقاليد لا تتناسق مع ما هو متعارفٌ لدى الشعوب الأوروبية والغربية بشكلٍ عامٍّ؛ وبهذا تحقّقت أسطورة أوروبا القديمة في العصر الحديث وهي تمتطي اليوم إله الآلهة زيوس دون منافسٍ.

2) أوروبا هي إلاهةٌ أسطوريةٌ فطنةٌ وحاذقةٌ حيث تبلور في شخصيتها عقل الإلاهة أثينا، وميزاتها تجسّدت في العقل الاستدلالي الأوروبي المعاصر؛ لذلك بادر الأوروبيون إلى نهب خيرات العالم وسلب حقوق سائر الشعوب والأمم.

3) أوروبا الأسطورية التي تسيّدت العالم واستحوذت على قلب إله آلهة جبل الأوليمب زيوس وأغرقته في عشقها، أصبحت رمزاً في العصر الحديث لاستعمار سائر البلدان ونهب ثرواتها واستغلال شعوبها بشكلٍ مبالغٍ فيه؛ فالأساطير الإغريقية ذكرت قصّة امتطائها ظهر هذا الإله الكبير الذي تحوّل لأجلها ثوراً، حيث أمسكت بقرنيه وجاب بها البحار الشاسعة شرقاً وغرباً ليوحي لها أنّها تمتلك العالم وكلّ ما فيه دون منازعٍ.

4) رمزية أوروبا في الأساطير الإغريقية أصبح في العصر الحديث عاملاً أساسيّاً لتوحيد بلدان القارّة التي وسمت باسمها.

5) الإنسان الغربي خلال حركة التنوير الفكري اعتبر نفسه صاحب الحقّ ورافع راية العدل في العالم، وهذا التوجّه ربّما يضرب بجذوره في التراث الأسطوري القديم الذي صوّر شخصيتَيْ مينوس ورادامانتوس ابنَيْ أوروبا بأنّهما رمزين لإقامة العدل وإحقاق الحقّ.

6) قصّة امتطاء أوروبا ظهر كبير الآلهة زيوس بصفته ثوراً، يمكن اعتبارها رمزاً لسيادة النزعة العقلية الأوروبية على الدين في العصر الحديث.

الفصل الرابع

الميثولوجيا المقارنة برؤيةٍ غربيةٍ

الميثولوجيا المقارنة تعدّ واحدةً من المباحث التي تحظى باهتمام العلماء والباحثين في العصر الحديث، ونظراً لارتباطها بمواضيع هذا الكتاب، لا نرى بأساً في تسليط الضوء عليها وبيان بعض جوانبها بشكلٍ إجماليٍّ بعد المباحث التي أثبتنا فيها تأثّر الحداثة الغربية بالمفاهيم والتوجّهات الأسطورية الإغريقية.

أوّلاً: لِمَ الميثولوجيا المقارنة؟

السبب في طرح مباحثَ أسطوريةٍ وفق نهجٍ مقارنٍ يرجع إلى أنّ الأساطير تُعتبر مصادرَ أساسيةً يمكن الاعتماد عليها للتعرّف على تراث مختلف الشعوب والأمم، ولا نبالغ لو قلنا أنّ الميثولوجيا المقارنة في عصر العولمة أصبحت وسيلة إعلامٍ تتيح لبني البشر التعرّف على بعضهم البعض؛ لذلك أعار العلماء والباحثون لها اهتماماً بالغاً، فهي بوّابةٌ للحوار والتعامل بين الأمم مهما تنوّعت ثقافاتها.

إذاً، الميثولوجيا المقارنة من شأنها أن تفي بدورٍ إيجابيٍّ في حياة البشر، حيث بإمكانها أن تصونهم من الخلافات والصراعات التي عادةً ما تنشأ من عدم التلاحم واختلاف اللغات، ولا شكّ في أنّ ترسيخ الأسس الثقافية القويمة يعدّ من جملة العوامل الهامّة التي تعيننا في استكشاف أوجه التشابه والتناسق بين مختلف الشعوب، ومن ثمّ إقرار الأمن والسلام والمودّة بين أبنائها. إضافةً إلى ما ذكر، فالباحث عندما يستكشف أوجه الاختلاف بين الرؤى التي اتّبعها الأسلاف في أساطيرهم، سيتعرّف حينها على الدواعي والضرورات الجغرافية والإقليمية التي أسفرت عن حدوث هذه الاختلافات، إذ كلّ أمّةٍ كانت تقيّم نفسها وتطرح مفاهيمها ومتبنّياتها الفكرية وفقاً لظروفها الخاصّة؛ ومن المؤكّد أنّ إدراك هذه الحقيقة قد يكون وازعاً لنبذ الكثير من الخلافات والإعراض عن الصراعات الناجمة من عدم فهم حقائق الأمور.

الباحث الفرنسي جورج دوميزيل[1] (George Dumezil) الذي تخصّص بعلم الأساطير والعلوم اللغوية المقارنة استنتج من دراساته الميثولوجية أنّ الشعوب الأوروبية والهندية لها تراثٌ مشتركٌ، ففي أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد ارتبطت هذه الشعوب مع بعضها ومع الحضارات المتطوّرة التي نشأت على ضفاف المحيط الأطلسي؛[2] لذا يمكن اعتبار أوجه التشابه بين أساطير مختلف الشعوب والأمم انعكاساً لما يجول في باطن الإنسان وما يجري حوله من وقائعَ مشتركةٍ، كما أنّ أوجه الاختلاف تُعدّ مؤشّراً على أنّ المبادئ الثقافية الذاتية والعامّة لها القابلية على أن تظهر بأشكالٍ متنوّعةٍ طبقاً للظروف البيئية والزمانية؛ لذلك باتت الأصول الأسطورية لمختلف الشعوب والأمم مقيّدةً بواقع مجتمعاتها، ومن هذا المنطلق بادر الباحثون إلى بيان تفاصيلها في إطارٍ مقارنٍ على ضوء شتّى جوانبها الكوزمولوجية والأنطولوجية.

الفيلسوف والعالم النفساني الألماني فيلهلم فونت[3] (Wilhelm Wundt) حذا حذو عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا السويسري يوهان ياكوب باخوفن[4] (Johan Jakob Bachofen) ليؤكّد على أنّ الأساطير عبارةٌ عن انعكاساتٍ رمزيةٍ للركائز الأولى التي تقوّمت عليها المجتمعات البشرية،[5] وتفتح للباحث أفقاً رحبةً لكسب معلوماتٍ جديدةٍ بخصوص البنية التحتية للنظام الاجتماعي ومعرفة مدى ارتباطها بمصاديقه الموجودة على أرض الواقع.

[1]- 1898 - 1986.

[2]- Lincoln Bruce 1991, Death, war, and sacrifice: studies in ideology and practice, University of Chicago Press, p. 137.

[3]- 1832 - 1920.

[4]- 1815 - 1887.

[5]- مهرداد بهار، پژوهشي در أساطير إيران (باللغة الفارسية)، تنظيم كتايون مزدا پور، إيران، طهران، منشورات «آگه»، 1996م"، ص 358 - 363.

2) منشأ الميثولوجيا المقارنة

بعد تطوّر علم اللغة المقارن (comparative philology) في القرن التاسع عشر واتّساع رقعة الاستكشافات الأنثروبولوجية في القرن العشرين، أُدرجت البحوث الأسطورية ضمن قائمة العلوم، وبعد ذلك بادر عددٌ من العلماء والباحثين إلى طرحها ضمن دراساتٍ ميثولوجيةٍ مقارنةٍ بهدف تصنيف المفاهيم المنضوية تحتها وتحديد نطاق دلالاتها، ومن أبرزهم الباحث الألماني فيلهلم مانهارت[1] (Wilhelm Mannhardt) وعالم الأنثروبولوجيا الأسكتلندي جيمس فريزر[2] (James Geotge Frazer) والباحث الأمريكي سميث تومسون[3] (Smith Thompson).[4]

في عام 1871 م عالم الأنثروبولوجيا البريطاني الشهير إدوارد بيرنت تايلور (Edward Burnett Taylor) ألّف كتاباً تحت عنوان الثقافة البدائية (Primitive culture)[5] واتّبع نهجاً ميثولوجيّاً مقارناً في مباحثه بهدف استكشاف مناشئ تطوّر الأديان في مختلف المجتمعات،[6] والجدول البياني المقارن الذي صاغه للمقارنة بين الثقافات المادّية والطقوس والأساطير الموروثة في شتّى الثقافات البشرية، متأثّرٌ في الواقع بنظريات المفكّر السويسري كارل غوستاف يونج (Jung Carl Gustav) .

المفكر البريطاني فريدريك ماكس مولر (Friedrich Max Müller) الألماني المولد هو الآخر تطرّق إلى دراسة وتحليل التراث الأسطوري في إطارٍ مقارنٍ، كما تناول الأساطير الآرية.

---

[1]- 1831 - 1880.

[2]- 1854 - 1941.

[3]- 1855 - 1976.

[4]- See: “myth”, encyclopedia Britannica 2002.

[5]- Taylor Edward Burnett 1871, Primitive culture, re - issued by Cambridge University Press, 2010.

[6]- Allen 1978, Structure and creativity in religion: Hermeneutic in Mircea Eliade’s phenomenology and New directions, Grunter, p. 9.

عالم الأنثروبولوجيا البولندي برونسيلاف كاسبر مالينوفسكي[1] (Bronislaw Kasper Malinowski) ضمن دراساته الميثولوجية المقارنة أثبت أنّ مختلف الدراسات التي تجرى حول الأساطير تنصبّ في بوتقةٍ واحدةٍ وذات نتائجَ متناغمةٍ مع بعضها.

وأمّا عالم الاجتماع الفرنسي كلود ليفي شتراوس (Claude Levi Strauss) وبعض علماء المدرسة البنيوية فقد أجروا دراساتٍ وبحوثاً علميةً مقارنةً حول طبيعة الارتباط بين النهج الأسطوري لمختلف الشعوب والأمم على مرّ تأريخ البشرية، وضمن بحوثه الميثولوجية التي دوّنها لبيان واقع الأدب الأسطوري في العالم بادر إلى المقارنة بين الصور الرمزية للأساطير وتوصّل إلى نتائجَ مذهلةٍ في هذا المضمار.[2]

الميثولوجيا المقارنة تتضمّن العديد من المواضيع التي يدور حولها نطاق البحث، ومن جملتها ما يلي:

- الأنثربولوجيا
- علم الاجتماع
- العلوم السياسية
- علم النفس
- الحضارة والمدنية
- العلوم اللغوية
- الفنون بشتّى أنواعها

بيان نمط هذه المواضيع وغيرها في رحاب الميثولوجيا المقارنة يقتضي بطبيعة

[1]- 1884 - 1942.

[2]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press, p. 14.

الحال بحثاً مسهباً، لذلك لا يسعنا المجال هنا لتسليط الضوء عليها، لذلك نكتفي بذكر مثالٍ عليها في إطار بيان بعض جوانبها بشكلٍ مقتضبٍ، واخترنا هنا ثلاثةً من أهمّ هذه المواضيع، وهي علم اللاهوت والإسخاتولوجيا (علم الأخرويات) والأنثروبولوجيا؛ حيث نطرحها وفقاً للرؤى التي تبنّاها العلماء والمفكّرون الغربيون.

3) المواضيع البنيوية في الميثولوجيا المقارنة

الموضوع الأوّل: الأساطير اللاهوتية

أثبت الباحثون أنّ دراسة الأساطير التي تتمحور مواضيعها حول علم اللاهوت في رحاب شتّى الثقافات ومختلف معتقدات الشعوب والأمم في العالم، نستنتج منها وجود وجوهٍ مشتركةٍ في ما بينها؛ وهذا ما أكّد عليه المفكّر ماكس مولر حينما قال أنّ معظم الأساطير القديمة تصوّر الآلهة كمظهرٍ للقوى الطبيعية، فالآلهة التي اعتقد بها الناس البدائيون على سبيل المثال تحكي عن عناصرَ وقوًى ومؤثّراتٍ سماويةٍ مثل الشمس والقمر والنجوم ورعود الصواعق وبريقها، كما أنّ الظواهر الأرضية كانت رموزاً للألوهية بحيث باتت كلّ ظاهرةٍ إلهاً يُقدّس، لذلك عبد الناس آلهة البحار والأنهار والأشجار والجبال والغابات، بل حتّى بعض الحيوانات كانت آلهةً تُعبد.

الشعوب القديمة قدّست آلهةً متعدّدةً باعتبارها رموزاً للعناصر الطبيعية، إذ كانوا يعتقدون بأنّ تنوّعها هو الذي يحكم العالم ويقرّر مصيره.

الباحث الفولكلوري الشهير ألكسندر هجرتي كراب تطرّق إلى بيان السرّ في المشتركات الميثولوجية رغم اختلاف الثقافات البشرية، واستدلّ في هذا الصعيد بالشخصية الأسطورية لإله الآلهة زيوس طبقاً لما أفادته الأساطير الإغريقية، وقال أنّ الأساطير الجرمانية القديمة هي الأخرى تضمّنت إلهاً عظيماً على غرار زيوس، ثمّ طرح الاحتمالين التاليين لبيان السبب في ذلك:

الاحتمال الأوّل: المفاهيم الأسطورية الإغريقية والجرمانية الأولى كانت مشتركةً من أساسها.

الاحتمال الثاني: هجرة بعض الناس من بلادهم إلى ديارٍ أخرى أسفرت عن انتقال المفاهيم الأسطورية اللاهوتية من منطقةٍ إلى أخرى.[1]

الباحث جوزيف كامبل هو الآخر تناول المشتركات الأسطورية بالبحث والتحليل ضمن دراساته الميثولوجية، وأكّد في هذا السياق على أنّ المجتمعات القديمة رغم تقديسها العديد من الآلهة، إلا أنّها كانت تؤمن بإلهٍ ذي مرتبةٍ رفيعةٍ بيده الأمر والنهي خلافاً لسائر الآلهة؛ وهذه الظاهرة انعكست أيضاً في الحكومات المدنية الأولى على ضوء الدور الذي يفيه الملك، ففي مصر القديمة على سبيل المثال كان فرعون رمزاً يتّصف بميزات إله الآلهة وسائر أعضاء بلاطه أيضاً تسيّدوا المجتمع وتمتّعوا بمقامٍ اجتماعيٍّ رمزيٍّ ما يعني أنّ هؤلاء لم يتصرّفوا وفقاً لرغباتهم، بل انصبّت جهودهم على التنسيق بين الظواهر الأرضية والأجرام السماوية بمحورية تمثيلٍ إيمائيٍّ (Pantomime) رمزيٍّ؛ لذا لم يكن للحياة الفردية أيّ دورٍ ملحوظٍ في مجتمعاتٍ كهذه، وإنّما كلّ شيءٍ كان خاضعاً لسيادة قانونٍ كوزمولوجيٍّ، وسم في كلّ ثقافةٍ باسمٍ محدّدٍ، حيث أطلق عليه المصريون عنوان ماعت (Ma'at) Maat)) والسومريون مي (Me) والصينيون طاو (Tao) والهنود أطلقوا عليه في لغتهم السنسكريتية اسم دارما (Dharm)، وطبق هذا القانون الكوزمولوجي لا توجد أيُّ إرادةٍ قويةٍ أو حرّةٍ في الكون لأنّ العقيدة التي سادت آنذاك هي انسجام سلوكيات البشر في حياتهم الأرضية مع سلوكيات آلهة السماء؛ لذلك لم يسوّغ لأحدٍ أن يسأل نفسه عن السبب في عدم قدرته على فعل كلّ ما يشاء والسرّ الكامن في ضرورة إذعانه لما يجري حوله بالكامل.[2]

---

[1]- ألكسندر هجرتي كراب، نقلًا عن: جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م، ج 1، ص 23.

[2]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton university press, p. 62 - 65.

الباحث ألكسندر هجرتي كراب ذكر في دراسته وجه شبهٍ آخر بين اللاهوت الذي تبنّاه قوم بلاد فارس والسلت (الكلت) (Celts) وقال في هذا الصعيد أنّ الفرس لم ينحتوا آلهةً لهم ولم ينصبوها أمام الملأ العام على غرار السلتيين الذين شجبوا تماثيل آلهة الرومان التي كانت على هيئة بشرٍ وحيواناتٍ وذلك قبل أن يتمكّن قيصر من فتح بلاد الغال (Gaule)؛[1] كما تطرّق إلى بيان أوجه الاختلاف بين الأساطير الإغريقية والرومانية من جهةٍ والأساطير الفارسية من جهةٍ أخرى، ومن جملتها أنّ الشعوب الإغريقية والرومانية كانت تعبد تماثيل وصور آلهتها خلافاً للفرس الذين لم يبادروا إلى هذا النهج في العبودية.

كما قارن كامبل بين إله الأديان الإبراهيمية وإله الأساطير الشرقية ليستنتج من ذلك وجود اختلافاتٍ أساسيةٍ بين المعتقدات المطروحة في هذين الخطابين، حيث وصف الإله الأسطوري لدى الشرقيين غير محدّدٍ كما هو الحال بالنسبة إلى إله الأديان الإبراهيمية، فهو مجرّد تصوّرٍ يكتنف ذهن الإنسان وشعورٌ باطنيٌّ يجول في خاطره لدرجة أنّ دوره يتغيّر باستمرارٍ مع تغيّر الحالات النفسية لمن يعتقد به؛ لذا يمكن اعتبار الأديان الأسطورية الشرقية بأنّها انطباعاتٌ نفسيةٌ أو أنّها تنمّ عن هوية الإنسان (أديان ذاتية) (Religions of Identity)، فالأسطوريون القدماء في بلاد الشرق سلّطوا الضوء على الألوهية الباطنية في مختلف طقوسهم وآرائهم الفلسفية وعلومهم والفنون التي تخصّصوا بها، لذلك قالوا أنّ الربّ يتجلّى في التنفّس حين حدوثه وفي الصوت حين الكلام وفي العين حين الرؤية وفي الأذن حين الاستماع وفي الذهن حين التفكير. هذه النشاطات التي تكتنف النفس الإنسانية جعلوا لها أسماء خاصّة واعتبروها أفعالاً للربّ ما يعني أنّه حاضرٌ في باطن كلّ إنسانٍ لكنّ حضوره ليس تامّاً، ومن ثمّ أوجبوا عليه أن يعبد ربّه وفقاً لفكره لكون النفس هي الموطن

[1]- جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م ، ج 1، ص 23.

الذي تكمن فيه هذه الفكرة. هذا الكلام يعني أنّ الإنسان قادرٌ على أن يعي فكرة الربّ الكلّية في مستقرّها الحقيقي، ألا وهي نفسه.[1]

الموضوع الثاني: أساطير عالم الآخرة

جوزيف كامبل ضمن دراساته الميثولوجية المقارنة أكّد على وجود اختلافاتٍ جذريةٍ في إسخاتولوجيا الأساطير الشرقية والغربية معتبراً عقيدة «التناسخ» في الأساطير التي سردها الشرقيون أصلاً مشتركاً، وطبق هذه العقيدة لا يوجد أيّ إلهٍ حاكمٍ في العالم يحاسب الإنسان في زمنٍ معيّنٍ على ما فعل بصفته شخصيةٍ فرديةٍ مستقلّةٍ، وإنّما هناك قواعدُ ثابتةٌ في الحياة يتشخّص على أساسها مصير كلّ إنسانٍ في بدنٍ يتناسب مع أعماله فينال في رحابه جزاء ما ارتكب؛ وهذا يعني أنّ النفس المذنبة بعد موت صاحبها تلج في بدنٍ يطاله العذاب والمعاناة لكي يتمّ بواسطته تطهيرها وتصفيتها من الأدران التي دنّستها، لذا إن أراد الإنسان النجاة من حلول نفسه في حياته الأخرى بوعاء بدنٍ لا يناسبها، ينبغي له الرجوع إلى التفاصيل المذكورة في كتاب قانون مانا (The law of Mana) حيث ذُكرت فيه جزئياتٌ كثيرةٌ بخصوص قواعد الحياة في شتّى المجالات مثل طريقة الدراسة وكمّيتها، ونوع الطعام، وصفات القرين المناسب لأن يكون شريكاً للحياة، الزمان الأمثل لأداء العبادات، الطريقة الصحيحة في التنفس أثناء العطاس، الطريقة الصائبة في التثاؤب، وما إلى ذلك من سلوكيات ومهارات وقرارات تحفّ حياة الإنسان من جوانبها كافّةً.

الملفت للنظر أنّ الأساطير الشائعة بين شعوب منطقة الشرق الأقصى تضمّنت تفاصيل أكثر ممّا ذكر في كتاب مانا، فقد أشارت مثلاً إلى المساحة المناسبة للغرفة التي يقطنها الإنسان، ونوع المادّة المصنوع منها النعل أو الحذاء، وحتّى عدد فناجين

[1]- Campbell, Joseph 1972, The flight of the wild gander explorations in the mythological dimension, Henry Re Gunnery company, Chicago, p. 198.

الشاي التي يتناولها الإنسان في كلّ يومٍ، حيث تمّ تعيين كلّ هذه الأمور وما شاكلها طبقاً لشأن الإنسان ومكانته الاجتماعية؛ لذا لا يحقّ للإنسان أن يسأل نفسه: ما الفعل الذي يروقني فعله؟[1]

وأمّا الأساطير الأخروية الإغريقية فهي لم تتحدّث عن التناسخ، بل اكتفت بالإشارة إلى عاقبة المذنبين في عالم الآخرة، ومثال ذلك ما روي في أسطورة يوربيديس (Euripides) التراجيدية بشأن مصير ملك طيبة (Thebes) ومجازاته من قبل ديونيزوس بسبب انتهاكه حرمة هذا الإله؛ والمعروف أنّ الأساطير الأوروبية بجميع أنواعها الملحمية والتراجيدية الكلاسيكية وحتّى الكوميدية كما في مسرحية دانتي، ترتكز في أساسها على كون شخصية الإنسان فرديةً محدّدةً بذاتها بحيث يولد مرّةً ويعيش مرّةً في ذاتٍ واحدةٍ، ومن هذا المنطلق يكون مختلفاً عن سائر أقرانه البشر؛ بينما نلاحظ في أساطير الشعوب الشرقية وثقافاتها عكس ذلك تماماً كما هو الحال في الهند والتبت والصين وكوريا واليابان، إذ إنّ هوية الإنسان في ثقافات هذه البلدان الموروثة من قصصها ورواياتها الأسطورية لا تنمّ عن شخصيةٍ واحدةٍ ولا تحكي عن الفردانية (egoism)، والسبب في ذلك يعود إلى الطابع الخطابي الغالب على الأساطير الشرقية، فالشخصية الفردية في هذا الخطاب رمزٌ للخداع؛ لذلك يمكن وصف العالم وفق هذه الوجهة الفكرية بأنّه وهميٌّ لا حقيقة له والنزعة الفردانية بدورها عدوّةٌ للإنسانية ولا بدّ من استئصالها كي ينجو الإنسان من مساوئ الأنانية وحبّ الذات ليبلغ السعادة المنشودة.

نلاحظ ممّا ذكر أنّ الخطاب المطروح في الأساطير الشرقية يؤكّد على ضرورة خلاص الإنسان من التعيّن والتشخّص كفردٍ حتّى تصبح عاقبته خيراً ويبلغ الدرجة المثلى في التكامل، فمن خلال انضوائه تحت مظلّة الهوية الجماعية وخروجه من نطاق الأنانية

[1]- Ibid, p. 71

الفردانية سوف يخرج من دوّامة التناسخ ويتخلّص من الولوج المتكرّر في أجساد عديدة.

الباحث جوزيف كامبل خلال دراسته الميثولوجية المقارنة التي دوّنها بخصوص إسخاتولوجيا الأساطير الشرقية والإغريقية، توصّل إلى نتيجةٍ فحواها أنّ الصراط القويم طبقاً لمفاهيم الأساطير الشرقية يتمثّل في اعتقاد الإنسان بانتمائه مع أقرانه البشر إلى جوهرٍ واحدٍ باعتباره وجوداً كلّيّاً ما يعني أنّ نفس كلّ إنسانٍ مجرّد انعكاسٍ لجانبٍ من ذلك الجوهر المشترك؛ وبناءً على هذه الوجهة الفكرية بات الهدف المنشود في أساطير شعوب الشرق أن يعيش الإنسان حياته ويلفي وجوده في هذا الكيان الكلّي الموحّد، في حين أنّ الأساطير الإغريقية يمكن تلخيصها كما ورد في حوار أفلاطون لأريستوفان، فالهدف الذي يسوق الإنسان نحوه متقوّمٌ بالسلوك المنبثق من الجذور الأصيلة للإنسان،[1] لذلك يخضع الإنسان بعد موته للجزاء والحساب طبقاً لأفعاله الفردية لأنّه ذو هويةٍ فرديةٍ محدّدةٍ وبدل أن يتهرّب من فردانيته لا بدّ له من التمركز حول هويته الذاتية.

الموضوع الثالث: الأساطير الأنثروبولوجية

جوزيف كامبل ضمن دراساته الميثولوجية المقارنة تطرّق أيضاً إلى بيان أوجه الشبه والاختلاف بين الأساطير الشرقية والإغريقية من الناحية الأنثروبولوجية، واستدلّ منها على أنّ الفردية ليست هي غاية الإنسان والمعنى الحقيقي لحياته بحسب التراث الأسطوري الشرقي، وإنّما النظام الاجتماعي الثابت الذي يحيط به هو الذي يعيّن نمط مسيرته في الحياة والجهة التي يجب وأن يسير نحوها، وهذا النظام في الحقيقة تقليدٌ للمنظومة الكوزمولوجية؛ لذلك اعتُبرت النزعة الأنانية مخالفةً

[1]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press, p. 69 - 70.

للمعايير الأكسيولوجية وتمّ التأكيد في هذا التراث الأسطوري على ضرورة تحقّق الوحدة على نسق الكيان الجماعي عبر تطهير الباطن من كلّ دافعٍ يدعو الإنسان لسلوك نهجٍ فردانيٍّ أنانيٍّ.

إذاً، المناهج التربوية في الأساطير الشرقية تهدف إلى غسْل الأدمغة، كما أنّ الهدف المنشود لكلّ براهما هو كونه براهما لا غير، لذلك ليس للإنسان هدفٌ في حياته سوى العمل وفق ما تمّ تحديده له من معايير، والشخص المثالي في مجتمعٍ كهذا يجب عليه تقبّل كلّ شيءٍ دون أن يناقش أو يستفسر عن السبب في ما أُملي عليه وذلك من منطلق إيمانه الكامل بما قدّر له، وبالتالي فهو يسعى لأن يتّبع ما تمّ تلقينه به من تعاليم كي يتحوّل مستقبلاً إلى شخصيةٍ مثاليةٍ ومقدّسةٍ طبقاً لما روي في الأساطير الشرقية؛ فالمجتمعات التي تعتقد بهذه الأساطير ليس لديها خيارٌ للنجاة في الحياة الآخرة سوى الامتثال لهذه الأوامر الموروثة من الأسلاف خلافاً لواقع الحال بالنسبة إلى الأساطير الإغريقية التي تعتبر هوية الإنسان الفردية متقوّمةً بالمعتقدات الشخصية ما يعني أنّ الأهداف والتوجّهات الفكرية الخاصّة به لم يتمّ تعيينها له مسبقاً، وإنّما يجب عليه أن يصوغها بنفسه؛ ففردية الإنسان الغربي على سبيل المثال تبلورت بجميع خصائصها وميزاتها ضمن مسرحية الكوميديا الإلهية لدانتي، حيث صوّره وكأنّه مسافرٌ في عالم الوهم والخيال يعلم بأنّ أسلافه الذين ارتحلوا من الدنيا موزّعون بين جهنّم والجنّة والبرزخ، وحينما يلتقي بهم فهو يتحدّث معهم ويسألهم عن طبيعة حياتهم الأخروية وما يجري عليهم هناك. هذه الفكرة طرحت أيضاً في أسطورتَي الأوديسة والإنيادة، فأوديسيوس وإينياس في هاتين الأسطورتين كانا يتحدّثان مع أشباح الموتى متى ما شاء، في حين أنّ الأساطير الشرقية لم تحدّد أيَّ علائمَ وميزاتٍ شخصيةٍ وخاصّةٍ بالنسبة إلى جنّة الهندوس وجهنّمهم على لسان أتباع البوذية والجاينية (الجاين دارما) (Jainism) لأنّ الإنسان عند الموت يخرج من قالبه المكوّن له ليحلّ في قالبٍ آخر.[1]

[1]- Ibid, p. 62 - 65.

جوزيف كامبل وصف الإنسان المثالي في الأساطير الشرقية بأنّه كائنٌ غيرُ متعيّنٍ ومنضوٍ بتمامه وكماله تحت مظلّة كيانٍ جماعيٍّ، بينما الإنسان المثالي في الأساطير الإغريقية على خلافه لكونه متعيّنٌ ومتقوّمٌ بهويةٍ فرديةٍ.

الموضوع الرابع: أوجه الاشتراك بين الميثولوجيا الإغريقية والميثولوجيا الشرقية

في عام 1856م ألّف المفكر البريطاني فريدريك ماكس مولر كتاباً هامّاً تحت عنوان الميثولوجيا المقارنة، حيث بادر إلى تفسير الأساطير طبقاً للمبادئ المستوحاة من الفلسفة ورأى أنّ جميع اللغات الأوروبية قد ولدت من رحم اللغة السنسكريتية لكونها تتضمّن كلماتٍ مشتقّةً من جذورٍ متشابهةٍ، مثل الشمس (sun) والسماء (sky) والسحب (clouds) والمطر (rain) والفجر (dawn)، وغيرها الكثير.

الجدير بالذكر هنا أنّ مولر في دراساته الأنثروبولوجية التي أجراها بخصوص الآلهة الأسطورية حذا حذو الباحثين عن الذهب في إمعانه ودقّته الفائقة لاستكشاف الحقائق الظريفة والدقيقة لجذور الكلمات من بين ذلك الكمّ الهائل من التراث المتراكم في مختلف اللغات التي ينطق بها البشر،[1] كما بذل جهوداً علميةً حثيثةً في تتبّع جذور الأساطير الهندية والأوروبية وصولاً إلى أصولها الآرية، وفي نهاية المطاف وفي عام 1891م بالتحديد طرح المعادلة التالية كنتيجةٍ لبعض بحوثه:

دياوس (Dyaus) - بيتار (Pitar) السنسكريتي = زيوس الإغريقي = جوبيتر اللاتيني = تير النوردي (الإسكندنافي) (Norse tyre).[2]

استناداً إلى ما ذكر ذهب بعض علماء الميثولوجيا إلى القول بوجود تراثٍ مشتركٍ بين مختلف الثقافات البشرية، ومن جملتهم المفكّر الغربي بولمان (poleman) الذي

---

[1]- Mac Intire 1972, “Myth”, Encyclopedia of philosophy, ed. Paul Edwards, Mac Millan, London, p. 435.

[2]- Allen Douglas 1978, Early mythological approaches, Walterd Gruyter, p. 12.

أكّد على أنّ أورانوس وفارونا (Varuna) في السنسكريتية هما ذات المويراي (إلاهات القدر) (Moirae) في الميثولوجيا الإغريقية والنورنس (Norns) في الميثولوجيا الإسكندنافية؛ ولكن ليس هناك دليلٌ يثبت هذا المدّعى.

وأمّا الباحث لوويل إدموندز (lowell Edmunds) فقد توصّل في دراساته وبحوثه العلمية إلى نتيجةٍ هامّةٍ فحواها أنّ علمَي الآثار والأساطير أثبتا تأثّر الإغريق القدماء ببعض حضارات آسيا الصغرى والشرق الأدنى، واستدلّ من هذه النتيجة أنّ أدونيس (Adonis) هو البديل الإغريقي لإله شعوب الشرق الأدنى ميراندا؛ وإله الجبال والحيوانات البرية في الأساطير الإغريقية سيبيل له جذورٌ في ثقافة الشعوب التي استوطنت بلاد الأناضول؛ والإلاهة أفروديت تنحدر من جذورٍ فكريةٍ ساميةٍ. إذاً، الدراسات الأنثروبولوجية المقارنة التي دوّنت من قبل مختلف العلماء والباحثين بشأن الآلهة الأسطورية في التراث الإغريقي والآلهة التي اعتقدت بها سائر الشعوب والأمم، فتحت لهم أفقاً جديداً في هذا المضمار وتوصّلوا إلى نتائجَ هامّةٍ قوامها وجود عددٍ من الآلهة المشتركة في شتّى الثقافات البشرية.[1]

المفكّر الأمريكي ميرير راينهولد (Reinhold Merer) تطرّق في بحوثه العلمية إلى بيان الأسباب التي أسفرت عن انتقال بعض الأساطير من قومٍ إلى آخرين، ومن جملة ما قاله في هذا السياق أنّ الحروب التي اندلعت بين الإغريق وسائر البلدان بهدف توسيع نطاق القدرة والسيطرة كانت سبباً في انتقال المفاهيم الأنثروبولوجية الشرقية إلى باطن الميثولوجيا الإغريقية.[2]

إضافة إلى ما أثبته بعض العلماء والباحثين بكون بعض المفاهيم الميثولوجيا الإغريقية تضرب بجذورها في التراث الأسطوري الهندو - أوروبي والشرقي، بادر عددٌ

[1]- Edmonds Lowell 1980, Comparative approaches, Johns Hopkins University Press, p. 184.

[2]- Reinhold Merer 20 October 1970, The Generation Gap in antiquity (http:// links. Jstor. Org / sici = 003)

آخر منهم إلى إثبات أنّ منها ما هو مستوحًى من التراث ما قبل الهيليني، ولا سيّما في جزيرة كريت والمناطق المحاذية للبحر الأبيض المتوسّط وبيلوس (Pylos) وطيبا وأوركومينوس (Orchomenus).[1]

مؤرّخو الأديان أيضاً نسبوا بعض أساطير الآلهة الإغريقية إلى الشعوب التي استوطنت جزيرة كريت، ومن جملتها أساطير الثور[2] (Bull) وزيوس وأوروبا وباسيفاي (Pasiphae).

الفيلسوف ومؤرّخ الأديان المعاصر مارتن نيلسون[3] (Martin P. Nelson) يرى أنّ الأساطير الإغريقية الشهيرة مسبوقةٌ بأساطيرَ مشابهةٍ سادت بين الشعوب التي قطنت ضفاف البحر الأبيض المتوسّط، فهذه الشعوب كانت قيّمةً على الإغريق القدماء في عصر ما قبل التأريخ.[4]

المفكّر الألماني فرانز فليكس كوهن[5] (Franz Felix A. Delbert Kuhn) صاحب الريادة في الميثولوجيا المقارنة، تحدّث أيضاً عن أوجه الاشتراك بين الأساطير الشرقية والغربية وتوصّل إلى نتيجةٍ فحواها أنّ جميع الأساطير السامية والهندوسية والجرمانية ذات منشأٍ واحدٍ، والدليل على ذلك تشابه الصور والرموز الفلكية وسائر المفاهيم الأسطورية والتصوّرات الغيبية في ثقافات هذه الشعوب؛ ومدينة بابل بصفتها مهد علم الفلك والتنجيم برأي كوهن، ولدت في أكنافها الكثير من الأساطير.[6]

---

[1]- Burket Walter 2003, Prehistory and the Minoan Mycenaean Era. Greek religion: Archaic and classical, Trans. By John Raffan Blackwell, p. 23.

[2]- الثور الذهبي هو أحد الآلهة المقدّسة في الأساطير القديمة.

[3]- 1874 - 1967.

[4]- Wood Juliette 1998, Defending middle earth, token: myth and modernity, p. 112.

[5]- 1812 - 1881.

[6]- أبراهام، نقلًا عن: جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م، ج 1، ص 142.

ألكسندر كراب بعد أن أثبت وجود جدورٍ مشتركةٍ للسرد الأسطوري المتعارف بين شتّى الشعوب والأمم، عزا السبب في ذلك إلى اعتقادها بامتلاك الظواهر الطبيعية روحاً على غرار سائر الكائنات الحية.[1]

عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي المعاصر إدوارد بي تايلور استدلّ في دراساته الميثولوجية على أهمّية الشمس في الأساطير القديمة، حيث قال أنّه بما أنّ جميع الكائنات بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الشمس لذلك أصبحت أهمّ إلهٍ أسطوريٍّ وأكثرَها شهرةً فوُصفت كموجودٍ طبيعيٍّ من جهةٍ، وماورائي من جهةٍ أخرى؛ ومن ثمّ أينما أشرقت في أرجاء المعمورة سردت أساطير حولها.[2] فضلًا عماّ ذُكر يبدو أنّ تعدّد الآلهة في الأساطير المصرية عبارةٌ عن مراتبَ متعدّدةٍ لإله الشمس "رع" (Ra)، وأمّا الباحث ماكس مولر فقد أكّد على أنّ المصريين القدماء كانوا يعبدون الشمس كي تمنحهم النور بعد الموت باعتبارها أعظم الآلهة في عالم الآخرة، وبلاد الروم تبنّى أهلها عقيدةً مشابهةً للعقيدة الأسطورية المصرية وصوّروا الشمس وكأنّها إله الآلهة.

الجدير بالذكر هنا أنّ غالبية عبدة الشمس الذين قدّسوها وفق توجّهاتٍ أسطوريةٍ، اعتبروها إلهاً عادلاً مطّلعاً على جميع أفعال الناس وخلجات أنفسهم، فأهل بابل على سبيل المثال تصوّروا في أساطيرهم التي سردوها قبل ألفي عامٍ من ميلاد المسيح (عليه السلام) أنّها مصدر القانون الذي أُلهم لملكهم حمورابي، وقد سلك الإغريق والرومان هذا النهج نفسَه ووصفوها بأنّها الإله الناظر إلى جميع أفعال البشر.[3]

المفكّر ميرتشا إلياده أوعز علوّ شأن إله السماء والإله المتمثّل بالشمس على سائر

[1]- ألكسندر هجرتي كراب، نقلًا عن: جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م، ج 1، ص 44.

[2]- Taylor Edward B. 1920, Primitive culture, New York: J. P. Putnam's sons, p. 198.

[3]- Max Muller 1856, Comparative mythology, ed. Smyth Palmer, Routledge, p. xxv - xxiii.

الآلهة في الأساطير الشرقية والغربية إلى علوّ السماء وارتفاعها بشكلٍ ملموسٍ لكلّ إنسانٍ، لذا حينما كان الإنسان البدائي يشاهد هذه الرفعة السامية تتبادر إلى ذهنه الصور المثالية للكائنات السامية في ماوراء عالم البشر؛ وهذا هو السبب في رواج أساطير الشمس وأساطير سائر آلهة السماء ما يرجّح احتمال أنّ آلهة السماء كانت في معتقدات الإنسان البدائي أعظم وأقوى الآلهة، بينما هناك شعوبٌ اعتقدت بكون إله السماء يحتل المرتبة الثانية من الألوهية بعد إله الشمس الذي يتفرّد بالمرتبة الأولى؛ وقد وصف إلياده هذه الظاهرة قائلاً أنّ نورانية الشمس تتجلّى للأعين في السماء قبل تجلّيها في أيِّ مكانٍ آخر، لذلك نالت المرتبة الأولى في الأساطير القديمة، وبهذا النمط أصبحت النار في أساطير بعض الأمم رمزاً بديلاً للشمس.[1]

الموضوع الخامس: أوجه الاختلاف بين الأساطير الشرقية والغربية

لا شكّ في وجود اختلافاتٍ بين الأساطير التي سردها أهل الشرق وأهل الغرب، ومن جملتها أنّ الأرض في الأساطير الغربية اعتبرت مؤنّثةً ووصفت بأنّها الإلاهة الأمّ الكبرى أي «الأرض الأمّ»، بينما الأساطير الشرقية اعتبرت السماء مؤنّثةً ووصفتها بالإلاهة الأمّ الكبرى أي «السماء الأمّ»؛ ما يعني أنّ الشرقيين اعتبروا في أساطيرهم الإله الخالق مؤنّثاً وصوّروا العالم وكأنّه هيكلاً له، وهذا يدلّ على اعتقادهم بوحدة الإله مع العالم،[2] وأمّا الأساطير الإغريقية فقد اعتقدوا بأنّ الإلاهة الأنثى تتجلىّ في الأرض.

الأساطير المصرية التي تمحورت مواضيعها ومفاهيمها الميثولوجية حول الزراعة وكلّ ما يرتبط بها، صوّرت النيل الذي هو مصدر الحياة في مصر من أقصاها إلى أقصاها بكونه إلهاً مؤنّثاً ذا سطوةٍ وسلطةٍ وأطلقت عليه اسم غانغا (Ganga)؛

---

[1]- كازنوفو نقلًا عن: جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م، ج 2، ص 104 - 110.

[2]- Campbell, Joseph & Bill Moyers 1988, The power of myth ed. Betty Sunflowers, Double day, p. 164.

والغربيون آمنوا بكبير الآلهة زيوس الذي اعتبروه مذكّراً ذا سطوةٍ وسلطةٍ على سائر الآلهة والعالم بأسره، فهو ربّ الأرباب، وتجسّدت في أساطيرهم بعض الحيوانات كرمزٍ لاقتدرا الرجال، ومن أمثلتها الثور والتيس والخنزير الذكر.

الجدير بالذكر هنا أنّ الإلاهات في العالم الشرقي تمّ تصويرهنّ وهنّ في غاية البراعة والإبداع ونفوذهنّ يعمّ الكون بأسره، ومن أمثلة ذلك تمثالٌ لإلاهة في أحد المعابد المصرية حيث تعكس النقوش الموجودة عليه ما أشرنا إليه وتدلّ على أنّ السماء باعتبارها الإلاهة الأمّ الكبرى تحيط بجميع أكناف الأرض دون استثناءٍ. كما أشارت الأساطير المصرية إلى هذه الإلاهة العظيمة تبتلع الشمس عند غروبها ثمّ تلدها مرّةً أخرى من ناحية الشرق، فالشمس وفقاً لهذه الرؤية الأسطورية تتحرّك مساءً في باطن هيكل السماء بصفتها الإلاهة الأمّ الكبرى.

وأمّا الأساطير الهندية فقد اعتبرت «مايا» بأنّها إلاهةٌ ذات قدرةٍ فائقةٍ، ووصفت الزمان والمكان بكونهما عنصرين مؤنّثين أيضاً فسادت عقيدةٌ بين الهنود بأنّهما إلاهتين عظيمتين وكلّ واحدٍ منهما على غرار الإلاهة الأمّ الكبرى في أساطير سائر الشعوب؛ والخصّيصة التي امتازت بها الميثولوجيا الهندية هي أنّ جميع مشاهدات الإنسان وأفكاره وليدةٌ من رحم الزمان والمكان.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ أساطير مصر القديمة نسبت خلقة جميع المظاهر الطبيعية إلى إلاهاتٍ إناثٍ.[1]

الفيلسوف والشاعر الألماني المعاصر فريجوف شوان (Frithjof Schuon) أجرى دراسةً مقارنةً بين مختلف الأساطير الموروثة من ثقافات الشعوب والأمم القديمة،

[1]- Ibid, p. 166 - 169.

ومن جملة النتائج التي توصّل إليها في هذا المضمار أنّ شخصية "شاكتي"[1] في الأساطير الهندية ربّما كانت سيّدةً أرضيةً ثمّ تحوّلت إلى إلاهةٍ سماويةٍ، كما أنّ الإلاهة "سيتا" التي كانت تجمع مع "راما" وأحياناً أخرى مع "كريشنا" جسّدت في شخصيتها الأسطورية عظمة وجود "مايا" وأنوثتها.

أساطير بلاد الهند القديمة تروي أنّ الأميرة "ساكيا" كان اسمها "مايا"، وقد أطلق عليها هذا الاسم للدلالة على خلوّ ذهنها من كلّ عقيدةٍ واتّصاف شخصيتها بالرفعة والعظمة والحشمة كالشمس العظيمة، حيث تحرّرت من ظلمات عالم المادّة بكافّة أنواعها فأصبحت بين سائر الملكات وكأنّها أمّ ترعى أبناءَها ومن هذا المنطلق اعتبرت أفضل إلاهةٍ في الكون، لكنّها عندما شاهدت عظمة ابنها "بوذا" وشوكته شعرت بالحسد ولم تستطع أن تطيقَ ذلك وكأنّ سرورها أفل وتكدّر صفوها، لذا حاولت أن تتجاوز هذه الحالة وأن تحافظ على سرورها بولدها، فغادرت الأرض وانطلقت نحو السماء. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ "مايا" أمّ "بوذا" قبل أن تغادر الأرض تركت للبشرية أمرين في غاية الأهمية كما فعلت أمّ المسيح عيسى (عليهما السلام)؛ وهما كالتالي:

1) فطرتها الفريدة من نوعها.

2) ولدها.

هذان الأمران اللّذان جسّدا إعجاز هذه الإلاهة الهندوسية هما في الواقع رمزان يدلان على قدرة روح الإنسان على العروج إلى السماء والخلاص من قيود المادّة، فالأوّل أنموذجٌ على اللطف اللامتناهي والرأفة والرحمة الشاملة والدائمة التي تتجاوز

[1]- شاكتي - شَكْتِ : تعني القوة أو الطاقة وهي في الهندوسية فكرة أو تجسد الجانب الأنثوي للآلهة ويشار إليها أحيانا بالأمّ الإلهية وتمثل القوة الإلهية المؤنثة الفعالة. (المترجم)

نقلاً عن: https://ar.wikipedia.org/wiki/شاكتي

نطاق الزمان، وأمّا الثاني فهو فريدٌ من نوعه ولا نظير له في الكون لكنّه محدودٌ بنطاق الزمان لأنّ الإلاهة "مايا" هي التي أنجبته.[1]

ومن جملة أوجه الاختلاف بين الأساطير الإغريقية والشرقية أنّ الأولى اعتبرت الآلهة مصدراً للاقتدار والعظمة والإعجاز في الكون، بينما الثانية اعتبرتها مصدراً لاقتدارٍ غير مقتصرٍ على شخصية الإله بحدّ ذاته.[2] الأساطير الهندية أكّدت على عدم قدرة أحدٍ على عبادة الإله سوى الإله نفسه، لذا لا حيلة للإنسان سوى أن يصهر شخصيته مع كلّ عنصرٍ روحانيٍّ يرمز إلى أحد الآلهة، ومن ثمّ فالتأمّل (meditation) يعني الولوج في مفاهيم العالم المتقدّم في وجوده على روح المتأمّل، وهذا يعني أنّ مفهوم الأنا في عبارة «أنا الإله» لا تدلّ على كون قائلها إلهاً فانياً، بل تدلّ على معنًى في غاية الدقّة والظرافة بخصوص الأنا، حيث تجتمع فيه دلالتها العميقة مع الوجود المتعالي.[3]

وأمّا الباحث إرنست كاسيرر فقد تطرّق في بحوثه إلى تحليل الأساطير الفارسية، وممّا قاله في هذا الصدد أنّ الأسطوريين القدماء في بلاد فارس جسّدوا مفهوم الخلقة في إطارٍ معيّنٍ، لذا صوّروا شخصية «أهورا مزدا» بطابعٍ روحيٍّ وأخلاقيٍّ خاصٍّ؛ وتدلّ هذه الأساطير على أنّ هذا الإله هو الذي خلق الكون وأوجد النظم والمقررات التي تحكم السماء والأرض على أساس مبادئ الروح المقدّسة والفكر الصالح لكن غايةٍ ما في الأمر أنّ هذه الخلقة في باكورتها محدودةٌ بقيود الفكر والروح، ومن ثمّ فالعالم المادّي وفق هذه الرؤية الدينية لم يخلق مباشرةً بواسطة أهورا مزدا، وإنّما الجنّة هي التي خلقها بشكلٍ مباشرٍ وقبل كلّ شيءٍ ما يعني أنّ الكائنات الأولى التي خلقها هذا

[1]- فريجوف شوان نقلًا عن: جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م، ج 2، ص 104 - 110.

[2]- Taylor, Edward Burnett (1920) Primitive culture, New York: J. P. Putnam’s sons, p. 208.

[3]- Ibid, p. 211.

الإله كانت ذات وجودٍ روحانيٍّ لكون أوّل عملية خلقةٍ تمثّلت في إيجاد عالم العقل لا عالم الحسّ.

رويت في الأساطير الفارسية أنّ العهد الأوّل للخلقة دام لفترةٍ طويلةٍ استغرقت ثلاثة آلاف عامٍ، والكون حينذاك كان على هيئة نورٍ وبصورة جنّةٍ ذات طابعٍ غيرِ ماديٍّ؛ وفي العهد الثاني تحوّلت هذه الخلقة العقلية إلى ماديّةٍ ليتجلّى الكون بصورٍ محسوسةٍ ماديّةٍ.[1]

جوزيف كامبل ذكر أوجه اختلافٍ أخرى بين الأساطير الشرقية والغربية إضافةً إلى التي أشرنا إليها، وقال في هذا الصددأنّ الفضيلة بحسب المفاهيم الأسطورية الشرقية تعني الطاعة والانقياد للتعاليم دون نقاشٍ، وهذا الاتّباع التامّ لا يندرج ضمن مسؤوليات الإنسان والتزاماته الخاصّة، بل هو مجرّد اتّباعٍ لا غير بحيث لا يستدلّ عليه بحسب توجّهاته الفكرية.

الأساطير الشرقية برأي كامبل لا تعيّن شخصية الفرد المطيع بكذا إنسانٍ، كما أنّها تعتبر مصدر الأمر بالطاعة غيرَ محدّدٍ وغير متعيّنٍ، لذا ليس من الممكن نسبة الأوامر إلى إلهٍ محدّدٍ يمتلك القدرة والإرادة على تشريع ما يشاء للخلق، وإنّما هي أوامرُ صادرةٌ من قوًى مطلقةٍ وغيرِ متشخّصةٍ موجودةٍ في ما وراء الفكر والوجود؛ وبحسب هذه الرؤية الدينية لا تُلقى المسؤولية على كاهل شخصٍ بالتحديد لأنّها مسؤوليةٌ تُلقى بشكلٍ جماعي، وكأنّ المسؤولية تدور في دوّامةٍ وهميةٍ تتراوح بين الظهور والخفاء.[2]

لأجل بيان تفاصيل الموضوع بوضوحٍ أكثر فلا بأس في مقارنة النظرية المطروحة

[1]- إرنست كاسيرر، فلسفه صورت هاي سمبليك (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية يد الله موقن، إيران، طهران، منشورات «هرمس»، الجزء الثاني (الفكر الأسطوري)، 1999م، الجزء الثاني (الفكر الأسطوري)، ص 319.

[2]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press, p. 74.

وفق هذه التوجّهات الفكرية مع النظرية التوحيدية المطروحة من قبل الأديان الإبراهيمية، فهذه الأديان تؤكّد على وحدانية الإله وتحدّده بميزاتٍ خاصّةٍ تجعل له شخصيةً معيّنةً لدرجة أنّه يفعل ما يشاء متى ما أراد، مثلاً يرسل الطوفان على قوم نوحٍ كي يعاقب أشرارهم؛ وكما هو معلومٌ فالله في الفكر التوحيدي الإبراهيمي -كما هو مطروحٌ في اليهودية والمسيحية والإسلام- هو المشرّع والقاضي والمنفّذ باعتباره إلهاً واحداً، في حين أنّ المفاهيم الأسطورية الشرقية تؤكّد على عدم تعيّن أيّ شيءٍ في الكون.[1]

ومن أوجه الاختلاف الأخرى التي أشار إليها جوزيف كامبل أنّ الأساطير الإغريقية ذات طابعٍ فينومينولوجيٍّ بشكلٍ عامٍّ، لذلك تسفر عن يقظة الذهن البشري ووعيه بواقعيةٍ، في حين أنّ الأساطير الشرقية تمتاز عموماً بطابعٍ تخيليٍّ وتأمّليٍّ نائيةً بذلك عن النزعة الواقعية.[2]

قصص الخلقة في السرد الأسطوري الشرقي والغربي هي الأخرى تتضمّن مواضيعَ هامّةً يمكن على أساسها استكشاف العديد من أوجه الاختلاف بين مختلف المفاهيم المطروحة فيها، لذلك حظيت باهتمام علماء الميثولوجيا المقارنة، وممّا قاله كامبل في هذا المضمار: عملية خلقة الإنسان في الأساطير الهندية تختلف بالكامل عمّا هو مذكورٌ في الأساطير الإغريقية، حيث تؤكّد على عدم وجود شيءٍ في الكون قبل حدوث الزمان سوى نفس رجلٍ واحدٍ. هذا الرجل ذات مرّةٍ نظر إلى ما حوله ولم يجد شيئاً مطلقاً، فقد كان وحيداً بالكامل فتساءَل مع نفسه قائلاً: «هذا أنا»، إلا أنّه فجأةً شعر بالخوف حينما قال ذلك؛ وبعد ذلك استدلّ في نفسه على عدم موضوعية خوفه، حيث استنتج أنّه لا يوجد شيءٌ آخرُ في الكون لكي يخاف منه.

[1]- Ibid, p. 78.

[2]- Campbell, Joseph 1972, The flight of the wild gander explorations in the mythological dimension, Henry Re Gunnery company, Chicago, p. 128

تمنّى هذا الرجل الوحيد أن يتحوّل إلى شيءٍ آخرَ، فانتفخ ثمّ انقسم إلى جزئين أحدهما رجلٌ والآخر امرأةٌ، فاحتضن الرجل هذه المرأة لينشأ النسل البشري منهما. بعد ذلك تأمّلت المرأة في نفسها وتساءَلت قائلةً: كيف يمكن للرجل أن يتّحد معي؟ هل أنا من جوهره؟ ثمّ جعلت نفسها على هيئة بقرةٍ، والرجل تحوّل إلى ثورٍ وأتى نحوها فأنجبا قطيعاً من البقر؛ وبهذا الشكل نشأت سائر الكائنات.

حينما خلق الإنسان تأمّل في نفسه واستنتج أنّ النفس «الأنا» هي مصدر الخلقة في الكون، لأنّها ذات الإنسان الأوّل الذي تسري نفسه في باطن جميع المخلوقات.[1]

عملية الخلقة في السرد الأسطوري الإغريقي تختلف بالكامل عمّا تبنّاه الهنود في أساطيرهم، حيث تصوّر اليونانيون القدماء أنّ البشر ينحدرون من ذراري التيتانيين والعمالقة الأسطوريين، وكلّ إنسانٍ كانت له شخصيته الخاصّة به وهويّته المميّزة التي تختلف عن هويّة الآلهة رغم وجود تشابهٍ كبيرٍ في ما بينهما بحيث يكمن الاختلاف في القوّة والخلود، فالإنسان فانٍ والإله خالدٌ، والأخير بطبيعة الحال أكثر قوّةً وجبروتاً من الأوّل؛ لذا لم تشر هذه الأساطير مطلقاً إلى وجود وحدةٍ وجوديةٍ بينهما.

جوزيف كامبل نوّه على أنّ الأساطير الإغريقية التي تضفي شخصيةً لكلّ موجودٍ، أكّدت على وجود ثلاثِ ذرارٍ بشريةٍ هي عبارةٌ عمّا يلي:

1) ذرّية من الرجال كانت الشمس مقاماً لهم.

2) ذرّية من النساء كانت الأرض مقاماً لهنّ.

3) ذرّية نشأت من اقتران الرجال والنساء وكان مقامها القمر.

الذرية الثالثة امتلكت أبداناً بحجم بدن الإنسان المعاصر، كما كانت لها يدان ورجلان، والآلهة بدورها خشيت منها نظراً لقدرتها الفائقة، لذلك شطرها ربّ الأرباب

---

[1]- Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton university press, p. 79.

زيوس إلى شقّين وبالتالي أصبح كلّ شقٍّ منهما يميل إلى الآخر فيحتضنه ويعانقه بغاية الولع والرغبة.

إذاً، الأساطير الإغريقية -برأي كامبل- تؤكّد على أنّ طبيعة الإنسان واحدةٌ سواءً كان ذكراً أو أنثى، فجميع البشر ينحدرون من أصلٍ واحدٍ، لذا إن أطاع الإنسان ربّه سوف يلفي معشوقه الحقيقي الذي هو في الواقع نصفه المفقود، إلا أنّ هذه الحالة نادراً ما تحدث في الحياة. وتفيد هذه الأساطير على أنّ البشر لم يخلقوا بواسطة الآلهة، وهذه العقيدة تختلف تماماً عمّا يعتقد به أتباع الأديان الإبراهيمية، فآلهة الإغريق كانت مخلوقةً حالها حال البشر لدرجة أنّ بعض الأساطير تضمّنت رواياتٍ تدلّ على قدرتهم في الاعتداء على الآلهة، ولولا امتلاكها الصواعق لما تمكّنت من قتالهم ولما عبدها أحدٌ.[1]

الموضوع السادس: تأثير الأساطير الشرقية على فلسفة أفلاطون

رغم تأكيد جوزيف كامبل على وجود اختلافاتٍ جذريةٍ بين الأساطير الشرقية والإغريقية، ولكن بما أنّ السرد الأسطوري الإغريقي متأخّرٌ عن السرد الأسطوري المصري والسومري والفارسي، فلا شكّ في أنّ اليونانيين القدماء تأثّروا بالشرقيين ميثولوجيّاً؛ ومن جملة الشواهد على ذلك أنّ أوروبا هي بنت ملك صيدون،[2] ناهيك عن أنّ السرد الأسطوري الإغريقي يرجع تأريخه إلى عام 800 ق. م.

الباحث ميرتشا إلياده عزا بعض نظريات أفلاطون وآرائه الفلسفية إلى المعتقدات الفارسية والبابلية القديمة،[3] كما أنّ أسطورة الجنّة الأولى التي طرحها هذا الفيلسوف الإغريقي الشهير قد طرحت في الحقيقة قبله في تراث الشعوب الهندية القديمة

[1]- Ibid, p. 81.

[2]- صيدون هو اسم مدينةٍ صيدا اللبنانية قديماً، حيث يرجع تأريخها إلى الألفية الرابعة قبل الميلاد وامتازت آنذاك بحضارتها الراقية ونظامها المدني المتطوّر.

[3]- Eliade 1958, Patterns in comparative religions, shed & ward, New York, p. 120.

وكانت متداولةً أيضاً بين العبريين والفرس وكذلك الإغريق والرومان القدماء؛ لذا يمكن القول أنّ ثمرة محاورات أفلاطون هي إحياء بعض المبادئ الأسطورية الشرقية وبما فيها المفاهيم الميثولوجية الهندوسية، حيث بادر فيها إلى وضع تصنيفٍ غير مسبوقٍ للروايات الأسطورية،[1] أي أنّه نظامُ ميثولوجيٌّ أفلاطونيٌّ ذو طابعٍ منسجمٍ ومنتظمٍ.

الجدير بالذكر هنا أنّ أفلاطون أُتيحت له معرفة جميع تفاصيل تأريخ العصر الذهبي الإغريقي في عهد كرونوس[2] (Cronus) لكنّه مع ذلك تأثّر بالثقافة البابلية وهذا الأمر تجلّى بوضوحٍ في كتابه "الجمهورية"، فعلى سبيل المثال عندما تطرّق إلى البحث والتحليل حول التأريخ الحافل لعلم الفلك والنجوم، اتّضحت معالم النظريات والاستنتاجات الفلكية البابلية في كتاباته، لذا هناك احتمالٌ قويٌّ بتأثّره بها وقد توفّرت لديه هذه المعلومات المقتبسة من العالم الشرقي عن طريق بابليات بيروسوس[3] (Berossus Babyloniaca) الذي أتاحها له وللحكماء الهيلينيون. وربّما اطّلاع أفلاطون على المفاهيم والروايات الأسطورية الفارسية جعله يتبنّى العقيدة ذاتَها التي تبنّاها الفرس بخصوص البلايا والكوارث الطبيعية مثل السيول المدمّرة، إذ يمكن القول بأنّه اعتقد بكونها عذاباً إلهيّاً يراد منه تطهير النسل البشري من أدران الذنوب وأرجاسها.[4]

---

[1]- Ibid, p. 121.

[2]- كرونوس في الميثولوجيا الإغريقية هو إله الزمن والابن الأصغر للإلاهة الكبرى جايا (الأرض)، حيث أنجبته من الإله الأكبر أورانوس (السماء)؛ كما كان قائداً للتيتانيين وأنجب ربّ الأرباب زيوس.

[3]- برحوشا - بيروسوس: كاهنٌ وفلكيٌّ ومؤرخٌ كلديٌّ من بابل ومن عبدة الإله مردوخ، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد؛ وقد ولد خلال أو ربّما بعد فترة حكم الإسكندر المقدوني لبابل وذلك بين عامي 330 إلى 323 ق. م. أو وعلى أقصى تقدير سنة 340 ق. م. هناك اعتقادٌ بأنّ اسمه في اللغة الأكدية كان «بعل رعي شو» ومعناها (بعل هو راعيًا). تعود شهرته إلى مصنفه عن تأريخ بلاد بابل المعروف باسم :«البابليّات» (Babyloniaca) وكذلك باسم «الكَلْديّات» (Kaldaica) حيث صنّفه باللغة اليونانية في مطلع عهد أنطيوخوس الأول الذي حكم بين الأعوام 179 - 272 ق. م. وأهداه إليه، فتأثر به وأحسن معاملته مع كهنة بابل كما اهتم بترميم المعابد في البلاد. (المترجم).

نقلاً عن: https://ar.wikipedia.org/wiki/بيروسوس

[4]- ثيماوس، أفلاطون، 22 d.

نستشفّ ممّا ذكر أنّ أفلاطون الذي يدرج اسمه ضمن أشهر الفلاسفة الإغريق والذي هو أكثرهم تأثيراً في الأوساط الفكرية، قد تأثّر بالأساطير التي سادت بين الشعوب الشرقية قبل رواج السرد الأسطوري في بلاد الإغريق، كما تأثّر أيضاً بالمفاهيم الأسطورية التي ورثها من أسلافه الإغريق؛ وقد أشرنا إلى جانبٍ من جزئيات هذا الموضوع بشكلٍ مقتضبٍ لأنّ تسليط الضوء عليه بشكلٍ مسهبٍ يتطلّب تدوين دراسةٍ مستقلّةٍ، لذا لا يسعنا المجال هنا لبيان جميع جوانب الفكر الأسطوري الشرقي الذي كان له وقعٌ على السرد الأسطوري الإغريقي.

*** نتيجة البحث:**

1) البشر الأوائل في عالَمَي الشرق والغرب قلّدوا النظام الحاكم على الكون في أساطيرهم وأسّسوا حضارةً أرضيةً؛ لذلك كانت جينيالوجيا الآلهة ذات دورٍ فاعلٍ في حياتهم على الصعيدين الفردي والاجتماعي؛ فالأساطير المصرية على سبيل المثال صوّرت الفراعنة كرموزٍ لاقتدار وشوكة إله الآلهة المستقرّ في السماء العليا، ومن هذا المنطلق اعتقد المصريون بأنّ فرعونهم ينوب عن الآلهة في الأرض ويفرض سيادته عليها مثلما تفرض سيادتها على السماء؛ وكذا هو الحال بالنسبة إلى المعتقدات التي تبنّاها اليونانيون القدماء، حيث تصوّروا أنّ الأبطال الأسطوريين جسّدوا قدرة ربّ الأرباب زيوس في الأرض.

الرجال الذين تسيّدوا الساحة في العصر الأسطوري الثالث أنشأوا حكومةً مدنيةً تجمع بين المفاهيم الكوزمولوجية والمعتقدات السماوية، وأمّا البابليون والمصريون فقد سبقوا الإغريق في تراثهم الحضاري ورقيهم المدني، لذلك قلّدهم الإغريق واقتبسوا بعض أصولهم الحضارية والمدنية حينما أسّسوا نظامهم المدني الأوّل وأنشأوا حكومتهم المدنية.

2) عالم الميثولوجيا الأمريكي جوزيف كامبل توصّل في دراساته التي أجراها حول أساطير بلاد ما بين النهرين إلى أنّ أهلها كانت لديهم عقيدةٌ راسخةٌ بالمفاهيم والتعاليم الأسطورية، وأسلافهم الأوائل لم يعملوا ميولهم ورغباتهم الشخصية في تشكيل نظامهم المدني، بل حاولوا تقليد النظام السماوي وإرساء دعائم حضارتهم وفقاً للمبادئ والحسابات الفلكية؛ بينما اليونانيون القدماء أكّدوا في أساطيرهم على أنّ الرجال الذين كانوا خاضعين لأوامر الملك قد أرسوا دعائم نظامهم المدني من منطلق ميولهم ورغباتهم الإنسانية.

الجدير بالذكر هنا أنّ التكهّنات التي شاعت بين اليونانيين القدماء من قبل العرّافين والتي تقوّمت على الظواهر والانعكاسات الطبيعية مثل التنبّؤ ببعض الأمور على أساس صوت حفيف ورق الأشجار، كذلك تنبّؤات كهنة معبد دلفي لمعرفة الإرادة الحقيقية للآلهة، قد أسهمت برمّتها في نشأة المجتمعات الأولى ببلاد الإغريق؛ وهذه الحقيقة التي أشار إليها هوميروس في ملحمتيه الأسطوريتين الإلياذة والأوديسة تتعارض مع آراء جوزيف كامبل.

3) جوزيف كامبل رأى أنّ تأثير الأساطير الشرقية على طباع شعوب بلاد الشرق وتوجّهاتها الروحية ما زال قائماً حتّى عصرنا الراهن، وهذا الأمر يتمثّل في انقياد أبناء هذه الشعوب وطاعتهم للأنظمة الأكسيولوجية التي تحكم مجتمعاتهم، حيث يتقبّلونها برحابة صدرٍ ويتفاعلون معها بكلّ وجودهم؛ في حين أنّ أبناء العالم الغربي الحديث عرفوا بمساعيهم الرامية إلى البحث والاستفسار وفرض الإرادة وإعمال مبدأ الحرية والإبداع لدى تعاملهم مع كلّ شيءٍ حولهم بهدف تغيير الأوضاع الحاكمة على مجتمعاتهم وبلوغ أرفع درجات الرقي الاجتماعي والثقافي والتطوّر حضارياً؛ وهذه التوجّهات موروثةٌ في الواقع من التراث الإغريقي القديم ولا سيّما تراث أساطير الأبطال من أمثال أوديسيوس وجيسون وأخيليوس.

ومن الحريّ بالباحثين والمفكّرين الشرقيين إجراء بحوثٍ ودراساتٍ ميثولوجيةٍ مقارنةٍ لبيان مدى تأثير أساطير أسلافهم على حضاراتهم المعاصرة لأجل إثبات صواب فرضية كامبل أو بطلانها.

4) تطرّق جوزيف كامبل في نظريته الميثولوجية المقارنة إلى بيان أوجه الاختلاف بين الإنسان الشرقي والإنسان الغربي، وممّا ذكره في هذا المضمار أنّ أبناء المجتمعات الشرقية اعتبروا هويّتهم جماعيةً تنتقل من جسمٍ إلى آخر ضمن عملية تناسخٍ متواصلةٍ، ومن هذا المنطلق اعتقدوا بأنّ معارضة الإنسان لأهوائه ورغباته الشخصية تعدّ وازعاً لصفاء الهوية الجماعية والكيان الاجتماعي بأسره؛ والطاقة السيكولوجية المترتّبة على هذه الرؤية تجري باستمرارٍ في حركةٍ تتراوح بين الشدّة والضعف في إطارٍ غير محدّدٍ وضمن دوّامةٍ لا تنتهي مطلقاً.

من جملة المعتقدات التي ترتّبت على الرؤية الشرقية المشار إليها أنّ المعاد بعد الممات يعني انتقال الروح من جسمٍ إلى آخر في الحياة الدنيا، بينما الأساطير الإغريقية اعتبرت كلّ إنسانٍ مالكاً لهويةٍ فرديةٍ تميّزه عن أقرانه البشر وسائر الكائنات بحيث ينال جزاءه بعد الممات من قبل الآلهة طبقاً لما فعل في حياته الدنيا، فإن كانت أفعاله حسنةً ينال خيراً وإن كانت سيّئةً سوف يطاله عذابٌ شديدٌ.

هذا الاختلاف البنيوي في إسخاتولوجيا أساطير الشعوب الشرقية واليونانيين القدماء، يمكن تبريره كما يلي: الوثائق التأريخية تؤكّد على أنّ الأساطير الشرقية الأولى سبقت ميلاد المسيح (عليه السلام) بخمسة آلاف عامٍ على أقلّ تقديرٍ، في حين أنّ الأساطير الإغريقية لم تسبق ميلاده إلا بأقلّ من ألف عامٍ؛ لذا حينما نبادر إلى نقض النزعات العنصرية التي تبنّاها بعض علماء الميثولوجيا الغربيين نقول أنّ الأساطير الإغريقية القديمة لم تسبق ظهور الأديان الإبراهيمية، لذا تأثّرت بإسخاتولوجيا هذه الأديان.

إذاً، لو تخلّى المفكّر عن توجّهاته العنصرية لتوصّل إلى نتيجةٍ فحواها أنّ

المجتمعات البشرية طوت مسيرةً تكامليةً بحيث انتقلت من مراحل ذات مشخّصاتٍ بسيطةٍ إلى مراحلَ متطوّرةٍ ومعقّدةٍ فتعيّنت هويّتها في رحاب هذه الحركة التكاملية، لذلك يمكن القول أنّها قبل سبعة آلاف عامٍ كانت في مرحلة الطفولة ثمّ تنامت شيئاً فشيئاً على مرّ التأريخ حتّى بلغت درجة النضوج والبلوغ، ولا فرق في ذلك بين الغرب والشرق، ولا بين حضارتَيْ بلاد مابين النهرين وبلاد الإغريق؛ فغاية ما في الأمر أنّ الأساطير التي سادت قبل سبعة آلاف عامٍ حول المبدأ والمعاد كانت أكثر بساطةً وبدائيةً من الأساطير التي سردت بعدها بثلاثة آلاف عامٍ؛ لذا من المؤكّد أنّ تطوّر الفكر الأسطوري الإغريقي مقارنةً مع الفكر الأسطوري الشرقي لا يدلّ مطلقاً على أفضلية الجنس اليوناني مقارنةً مع الشرقي، كما أنّ أسبقية أساطير الشرقيين لا تنمّ بتاتاً عن أفضلية الجنس الشرقي على غيره.

5) أساطير بلاد ما بين النهرين والأساطير الهندية سبقت الأساطير الإغريقية بزمنٍ سحيقٍ، ولربّما يمكن اعتبار المسيرة التكاملية التي طواها الإنسان الشرقي من مرحلة عدم التعيّن الماهوي إلى مرحلة تعيّن الهوية على الصعيدين الفردي والجماعي -بحسب ما أفادته الأساطير الشرقية- قد تبلورت أيضاً في الأساطير الإغريقية ودلّت على تنامي الفكر البشري منذ خمسة آلاف عامٍ قبل ميلاد المسيح (عليه السلام)، أي منذ عهد نشأة الأساطير الشرقية حتّى الألفية الأخيرة التي سبقت التأريخ الميلادي والتي شهدت نشأة الأساطير الإغريقية؛ وهذه النظرية تدحض بكلّ تأكيدٍ المواقف العنصرية التي تبنّاها بعض المفكّرين والباحثين من أمثال فيرنر جايجر وجوزيف كامبل اللذين أكّدا على رقي الأساطير الإغريقية من حيث تأكيدُها على هوية الإنسان وحرّية رأيه وسيادة القانون في المجتمع في مقابل ما طرح في رحاب أساطير الشعوب الشرقية على صعيد تجريد الإنسان من حرّيته وإرادته وإغراقه في أوهامٍ وتخيّلاتٍ لا واقع لها وإرغامه على أن يكون منقاداً محضاً لما يُملى عليه من أوامرَ ونَوَاهٍ.

6) آراء أفلاطون الفلسفية لم تتأثّر فقط بالمفاهيم والروايات الأسطورية التي ورثها عن أسلافه الإغريق، بل تأثّرت أيضاً بالسرد الأسطوري الشرقي والذي يعتبر أكثر عمراً من السرد الأسطوري الإغريقي.

7) أحد المباحث الهامّة المطروحة في الميثولوجيا المقارنة هو التعرّف على أوجه التشابه بين أساطير مختلف الشعوب والأمم عن طريق تتبّع جذور الأسماء والألفاظ في رواياتها، وهذا الأمر يكون أحياناً سبباً لاستكشاف بعض المشتركات فيها، وأحياناً يتمكّن الباحث على أساسه من إثبات أنّ بعض الأساطير المتداولة بين شتّى المجتمعات القديمة في شرقي الأرض وغربها منبثقةٌ من منشأٍ أسطوريٍّ واحدٍ تفرّع وتشعّب على مرّ الزمان وفي شتّى أرجاء المعمورة؛ ومن ثمّ تثمر هذه النتيجة عن إيجاد ألفةٍ وتلاحمٍ بين الثقافات البشرية بجميع مشاربها الفكرية.

8) سيادة الرجل في الميثولوجيا الإغريقية تعدّ واحدةً من الخصائص التي تميّز الأساطير الإغريقية والغربية عن غيرها، في حين أنّ جينيالوجيا الآلهة في الأساطير الشرقية والروايات الخاصّة بعملية الخلقة المنقولة فيها، صوّرت السماء والأنهار وكلّ مصدرٍ للإبداع والوجود بأنّه كائنٌ مؤنّثٌ، ناهيك عن أنّ رموزها الأسطورية تجسّدت في الغالب على هيئة وجه أنثى، بينما الصور الأسطورية والفلسفية الغربية كانت على هيئة ذكرٍ.

ربّما يكون السبب في طغيان الرجولة على الأساطير الغربية والأنوثة على الأساطر الشرقية، ولا سيّما في الهند ومصر، عائداً إلى الظروف الطبيعية والإقليمية الخاصّة بكلّ شعبٍ وأمّةٍ.

9) معظم علماء الميثولوجيا الغربيون اعتبروا الشعب الإغريقي القديم فريداً من نوعه ولا نظير له على وجه المعمورة، إلا أنّ الواقع خلاف ذلك، فلو أمعنّا النظر في أساطير سائر الشعوب والأمم برؤيةٍ مقارنةٍ سوف يتّضح لنا أنّ مبادئ الحضارة

الإغريقية في عصورها الأسطورية مقتبسةٌ في أساسها من الحضارات الشرقية السومرية والمصرية، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ حضارات بلاد ما بين النهرين هي الأكثر تأثيراً على الثقافة الإغريقية القديمة.

أضف إلى ما ذكر فالإيديولوجيا الشاملة التي تبنّاها اليونانيون القدماء ليست مختصّةً بهم فحسب، وإنّما يمكن لأيّ شعبٍ كان أن يتبنّاها وفقاً لأحكام العقل الثابتة، فكلّ إنسانٍ ينتزع من بيئته الاجتماعية أصولاً وقوانينَ كلّيةً ومن ثمّ يصوغ ضوابطَ الأمور الجزئية على ضوئها. هذه القابلية العقلية الإنسانية لا تقتصر بكلّ تأكيدٍ على الإغريق دون غيرهم، وهو ما تمّ إثباته في الدراسات والبحوث الميثولوجية المقارنة؛ لذا لا صواب لما تمخّض عن النظريات المنحازة التي طرحت من قبل أصحاب النزعات العنصرية وبعض المفكّرين والباحثين المتعصّبين لليونان القديمة من أمثال فيرنر جايجر، فأوروبا ليست صاحبة الريادة في بناء الحضارات البشرية وصياغة تأريخ العالم، وإنّما البلدان الآسيوية هي الأخرى ساهمت في ذلك وصنعت التأريخ والحضارة في العالم.

* مصادر الكتاب

- الكتب الإنجليزية

1) Allen, Douglas 1978, structure and creativity in religion: Hermeneutic in Mircea Eliade's phenomenology and New Direction, Gruyter.

2) Anderson, Pamela Sue 1998, A Feminist philosophy of religion, Blackwell.

3) Antoine, Faivre 1995, The eternal Hermes from Greek god to the alchemical magus with thirty nine plates, trans. By Jocelyn Godwin, Phanes press.

4) Armstrong, Karen 2005, A Short history of myth, Conon gate myth series.

5) Ashley, D. Orenstin D. M. 2005, Sociological theory classical statements (6th ed) Bostonm Massachusetts USA: Pearson education.

6) Barker, Chris 2005, Cultural studies: Theory and practice, London: Sage.

7) Bernard, A. 2000, History and theory in anthropology, Cambridge.

8) Berlin Isaiah, Georges Sorel 1997, In against the current: Essays in the history of ideas, London, Pimlico.

9) Berlin Isaiah, Georges Sorel 1976, Vico and Herder: Tow studies in history of ideas, London, Hogarth.

10) Bernreuter, Bertold 2003, The myth of reason, translation from german by Marlies Gabriele Pritn.

11) Bohannan, Paul 1969, Social anthropology, New York: Holt, Rinehart & Winston.

12) Bulfinch, Thomas 1968, Bulfinch's mythology, Hamlyn publishing group ltd.

13) Burke, Peter 1985, Vico, New York, Oxford University.

14) Burkett, Walter 1985, Greek religion, Harvard University Press.

15) Burkett, Walter 2003, Prehistory and the Minoan Mycenaean Era, Greek religion: Archaic and classical, Trans. By John Raffan, Blackwell.

16) Burn, Lucille 1990, Greek myths, University of Texas Press.

17) Campbell, Joseph 1973, Myth to live by, Bantam Books.

18) Campbell, Joseph 1989, Mythologies of primitive Planters, Harper & Row.

19) Campbell, Joseph 1973, The Hero with a thousand faces, Bollinger series, xvll, Princeton University Press.

20) Campbell, Joseph 1972, The flight of the wild gander explorations in the mythological dimension, Henry Re Gunnery Company, Chicago.

21) Campbell, Joseph 1970, Myths - Dreams and Religion, University of Chicago Press.

22) Campbell, Joseph & Bill Moyers 1988, The power of myth ed. Betty Sunflowers, Double Day.

23) Cash ford, Jules 2003, The Homeric Hymns, Penguin Classics.

24) Chamberlain, H. S. 1911, The foundation of the Nineteenth century, London, John Lane.

25) Childers, Joseph 1995, Columbia Dictionary of Modern Literary and Cultural Criticism, ed. Joseph Childers and Gary Hentzi, New York: Colombia University Press.

26) Comte, A. 1908, A General view of positivism, Rout ledge, London.

27) Copleston, Fredrick 1948, A History of Philosophy, Search Press, London.

28) Curry, Patrick 1997, Defending Middle Earth Tolkien: Myth and Modernity, Amazon Com.

29) D. Andrade, R. 1995, The Development of Cognitive Anthropology, Cambridge University Press, Publishing ltd.

30) Dieserude, Juul 1908, The Scope and Content of the Science of Anthropology,

London, Open Court Publishing.

31) Edelstein & Lerner 2007, Myth and Modernity, Yale University Press.

32) T. Edmunds, Lowell (1980) Comparative Approches, Johns Hopkins University Press.

33) Eliade, Mircea (1958) Patterns in Comparative Religions, sheed & ward, New York.

34) Eliade, Mircea (1959) Cosmos and History (the Myth of Eternal Return), trans. from the French by Willard R. Trask, Haper Torch Books, New York.

35) Eliade, Mircea (1960) Myth, Dreams and Mysteries.

36) Eliade, Mircea (1963) Myth and Reality (Trans. By Willard R. trask), Hurper & Row, New York.

37) Eliade, Mircea (1967) Myth, Dreams and Mysteries (Trans. By Philip Mairet) Harper & Rew, New York.

38) Eliade, Mircea (1969) Images & symbols, Trans, by Philip Mairet, A search Book: Sheed and Ward, New York.

39) Eliade, Mircea (1971) Myths & symbols Ed. By joseph M. Kitagawa & Charles H. Long with the collaboration of Jerald C. Brauer & Marshall G. S. Hdgson, the University of Chicago Press.

40) Eliade, Mircea (1971) The Myth of the Eternal Return: Cosmos and History (trans. Willard R. trask) Princeton University Press.

41) Eliade, Mircea (1975) Rites and Symbols of Initiation, Harper.

42) Eliade, Mircea (1976) Myths, Rites, Symbols: A Mircea Eliade Reader, vol. 2, Ed. Wendellc. Beane and William G. Doty, Harper Colophon, New York.

43) Eliade, Mircea (1978) A History of Religious Ideas, vol. 1 (trans. Willard R. Trask, University of Chicago Press. Chicago.

44) Eliade, Mircea (1991) Images and symbols, trans. Philip Maître, Princeton University Press.

45) Evans, Richard (2004) the Coming of the Third Reich. London: Penguin Books. 46) Freud, Sigmund (1913) The Interpretation of Dreams, chapter V. "The maternal and sources of Dreams", New York, Mac Millan Company.

47) Giddens, Anthony (1998) the Third Way: The Renewal of Social Democracy, Cambridge: Polity (Publisher).

48) Giddens, Anthony, Duneier, Mitchell, Richard Appiebaum (2007) Introduction to Sociology, sixth edition, New York: www.norton and company.

49) Girling, John (1993) Myths and Politics in Western Societies, Political Science Press.

50) Graf, F. (2002) Greek Mythology, Rout ledge.

51) Greil, Arthur L., Gorges Sorep and (1981) the sociology of Virtue, University Press of America.

52) Griffin, Jasperzl (1966) Greek Myth and Hesiod, Oxford University Press.

53) Halsey, A. H. (2004) A History of Sociology in Britain: Science, Literature and Society, University of Chicago Press.

54) Hamilton, Edith. (1969) Mythology, Doris fielding Reid.

55) Hard, R. (2007) The Rout ledge Handbook of Greek Mythology.

56) Harding. (1955) Women's Mysteries (ancient and Modern: A Psychological Interpretation of the Feminine Principle as Portrayed in Myth, Story and Dreams), Panthoon.

57) Harris, Roy. (2002) Languag Myth in Western Culture, Curzon Press.

58) Harvest, Roy. (2002) The Language Myth in Western Culture, Curzon press.

59) Hollwack, Thomas, (2006) Thomas Mann's work on Myth: the uses of the past.

60) Homer. (1951) The Iliad, Trans. Richmond Baltimore, University of Chicago Press (in 1961).

61) Jaeger, Werner (1960) "Humanistische Reden und Vorträge", walter De Gruyter & Corberlin.

62) Jahoda, Gustav (1999) Images of Savages: Ancient Roots of Modern Prejudice in Western Culture, Rout ledge.

63) Jung, Carl Gustav (1933) Modern Man in Search of a Soul, trans by Cary Banes, Rout ledge & Kegan.

64) Jung, Carl Gustav (1964) Man and his Symbols, DoubleDay.

65) Jung, Carl Gustav (1934 - 1954) The Archetypes and the Collective Unconscious, Princeton, N. J. : Bollinger.

66) Jung, Carl Gustav (1960) The Structure and Dynamics of Psyche, collected works, Princeton University Press.

67) Jung, Carl G. & L. Kernel (1973) Essays on a Science of Mythology, the Myth of the Divine Child and the Mysteries of Eleusis, Bollinger Series / Princeton University Press.

68) Carp, Fay Berger (1970) The psychology and psychotherapy of Otto Rank: A Historical and Comparative Introduction. Westport, Connecticut: Green Wood Press.

69) Klatt & Brazouski (1994) Ancient Greek and Roman Mythology, Greenwood Press, USA.

70) Klein, Emits (1987) Etymological Dictionary of the English Language.

71) Kris Teller, Paul Oskar (1950) The Renaissance Philosophy of Man, the University of Chicago Press.

72) Kuiper, A. (1988) The Invention of Primitive Society: Transformations of an Illusion. Landon: Rout ledge.

73) Lamont, Corliss (1997) The Philosophy of Humanism, Eight Edition, Humanist Press, Amherst New York.

74) Levi Strauss, Claude (2009) Biografia vol. Educacao Brasil.

75) Levi Strauss, Claude (1967) Structural Anthropology. Translated by Claire Jacobson and Brooke Grundfest Schoep f. New York: Doubleday Anchor Books.

76) Levi Strauss, Claude (1969) The Elementary Structures of Kinship. London: Eyre and Spottis - Wood.

77) Levi Strauss, Claude (1970) The Raw and the Cooked. John and Doreen Weiyhtman. New York: Harper & Row.

78) Levin, David (1967) History as Romantic Art. Bancroft, Press Cot and Parkman.

79) Lewis, David Levering (2008) God's Crucible: Islam and Making of Europe, 520 to 1215, New York, Norton.

80) Lieberman, E. James (1985) Acts of Will: the Life and Work of Otto Rank. Free Press.

81) Lincoln, Bruce (1991) Death, War, and Sacrifice: Studies in Ideology and Practice, University of Chicago Press.

82) MacIntyre, Alasdair(1958) The Unconscious, A Conceptual Analysis, Rout ledge & Kegan Paul, New York: Humanities Press.

83) Macy, Michael; Robb Willer (2002) "From Factors to Actors Computational Sociology and Agent - Based Modeling" Annual Review of Sociology 28.

84) Malinowski, Bronislow Kasper (1926) Myth in Primitive Psychology, London.

85) Menaker, Esther (1982) Otto Rank: A Rediscovered Legacy, Columbia University Press.

86) Miles, Geoffrey (1999) Classical Mythology in English Literature: A Critical

Anthology, University of Illinois, Press.

87) Miner, Robert C. (2002) Vico: Genealogist of Modernity. (Notre Dame: University of Notre Dame Press).

88) Morris, Ian (2000) Archaeology as Cultural History, Amazon.

89) Muller, Max (1856) Comparative Mythology, Ed. Smyth Palmer, Rout ledge.

90) Muller, Max & Smyth Palmer (2003) Comparative Mythology, Kissinger Publishing.

91) Nadler, Steven M. (2002) A companion to Early Modern Philosophy, London: Blackwell.

92) Nietzsche, Friedrich (1901) La généalogie de la morale, Paris: Société du Mercurede France, Genealogy of Morals.

93) O' Neill, Onora (1989) Constructions of Reason: Explorations of Kant's Practical Philosophy, Cambridge University Press.

94) Panikhar, Raimon (2001) Eldialog indispensable, Puzentre, Lasrelglones, Barcelona.

95) Pateman, Carole (1988) The Sexual Contract, Cambridge: Polity Press.

96) Percy, William Armstrong (1999) Pederasty and Pedagogy in Archaic Greece, Rout ledeg.

97) Pierre Vidal - Naquet (2000) Le Monde d' Homère, Perin.

98) Pompa, Leon (1975) Vico, A Study of the "New Science" Cambridge University Press.

99) Poplawski, Paul. (1996) D. H. Lawrence: A Reference Companion. Westport, Conn, and London: Greenwood Press.

100) Pottage, Alain (1993) The Modern Law Review, Black Well.

101) Ramadher Mall (2003), Essays Zurinter Kultarellen Philosophic Nordhausen.

102) Slip (1993) New Introductory Lectures on Psychoanalysis.

103) Sorel, Georges (1976) Essays in Socialism & Philosophy, Edited and translated by John and Charlotte Stanley with an Introduction by John Stanley, Oxford University Press.

104) Stanley, John and Charlotte (1969) The Illusions of Progress, with a forward by Robert A. Nesbit and an Introduction by John Stanley, University of California Press.

105) Taft, Jessie (1958) Otto Rank: A Biographical study Based on Notebooks, letters, collected writings, therapeutic Achievements and personal Associations. New York: the Juliann Press.

106) Toulmin, Stephen Eielson (1990) Cosmo polis. The Hidden agenda of Modernity, New York: Free Press.

107) Trobe, kala, (2002) Invore the Gods, Francis and John Riving ton.

108) Taylor, Edward Burnett (1920) Primitive culture, New York: J. P. Putnam's sons.

109) Taylor, Edward Burnett (1969) Anthropology, A bridged and with a forward by Leslie A. White, University of Michigan.

110) Vico, Giambattista (1993) On Humanistic Education, trans. by Giorgio A. Panton and Arthur. Shippee. Ithaca: Cornell up.

111) Vico, Giambattista (1908) The New Science, trans. by Thomas G. Bergin and Max H. fixch. Ithaca: Cornell up.

112) Vico, Giambattista (1990) "On the Study Methods of our Time". Trans. by Elio Gianturco. Ithaca: Cornell up.

113) Vico, Giambattista (1975) The Autobiography of Giambattista vico, trans. from the itallian by Max Harold Fisch & Thomas Goddard, Bergin, Cornell University Press, Ithaca and London.

114) Walsh, P. G (1972) The Nature of Gods (Introduction).

115) Walt, Kathleen (1988) The Calisto Myth from Ovid to Atwood: Initiation and Rape in Literature, Mc Gill - Queens University Press.

116) Wat, Ian (1996) Myth of Modern Individualism: Faust, Don Quixote, Don Juan, Robinson Crusoe (canto original series), Cambridge University Press.

117) Weaver, John B (2004) Plots of Epiphany, Christopher Schneider, Berlin.

118) Wiseman, Boris (1998) Introducing Levi - Strauss, Totem Books.

119) Wood, Juliette (1998) Defending Middle Earth, tolken: Myth and Modernity.

120) Wood, Michael (1998) The Coming of the Greeks, in Search of the Trojan War, University of California Press.

- المقالات الإنجليزية:

1) Abbagnano, Nicola (1976) "Humanism", Encyclopedia of Philosophy, Ed. Paul Edwards New York, Mc Millan.

2) Allen, Douglas (1978) "Early Mythological Approaches", Structure & Creativity in Religion: Hermeneutics in Mircea Eliade's Phenomenology and New Directions. Walter de Gruyter.

3) Armstrong, James I (1958) "The Arming Motif in the Iliad", The American Journal of Philology, vol. 70, vol. 4.

4) Bulfinch, Thomas (2003) "Greek Mythology and Homer". Bulfinch's Greek and Roman Mythology. Green Wood Press.

5) Burkett, Walter (2003) "Prehistory and the Minoon My cenaen Era", Greek Religion: Archaic and Classical (translated by John Raffan) Blackwell pub.

6) Griffin, Jasper (1989) "Greek Myth and Hesiod", The Oxford Illustrated History of Greece and the Hellenistic World, ed. by John Boardman, Jasper Griffin and Oswyn

Murray. Oxford University Press.

7) Haft, Adele (Dec. 1989 - Jan. 1990) "Odysseus', Wrath and Grief in the "Iliad": Agamemnon, the Ithacan king, and the Sack of Troy in Books 2, 4 and 14", The Classical Journal, vol. 85, No. 2.

8) Hard, Robin (2003) "Sources of Greek Myth", The Rout ledge Handbook of Greek Mythology. Based on H.J. Rose's "Hand book of Greek Mythology". Rout ledge.

9) "Homeric Hymn to Aphrodite": http://courses, doc harvard.edu / ~ class 116 / txt -Aphrodite. html.

10) http: // en.wikipedia.org / wiki / Europa - (mythology).

11) Rank, Otto. Journal of the Otto Rank Association, voles, 1 - 17, 31 issues, 1967 - 1983, diverse writers.

12) Jung, carl Gustav& Karl Kearney (2001 - Reprint edition) "Prolegomena", Essays on a Science of Mythology, Princeton University Press.

13) Klaeysen, Anne (January 2006) "Leader's Massage of Science, Mythology, and Travel", Klaeysen's Blog, www.ehsli,org / blogpag, php ? blogid - 70.

14) Kramer, Robert (2003) "Why Did ferenczi and Rank Conclude that Freud had No More Emotional Intelligence than a Pre - oedipal Child?", In Creative Dissent: Psychoanalysis in Evolution, Claude Barber, Barry Ulanova & Alan Roland, eds. Pager, Ch. 3. pp. 23 - 30.

15) Levine, Joseph (1991) "Giambattista Vico and the Quarrel Between the Ancients and the Moderns", Journal of the History of Ideas, 52, 1.

16) Levi - Strauss, C. (1972) "Structuralism and Ecology", Barnard Alumnae, Spring.

17) Liberman, E. J. (2003) "The Evolution of psychotherapy since Freud. In creative Dissenty", Claud Barbare, Barry Ulanov & Alan Roland (eds.) Psychoanalysis in

Evolution. Pager, Ch. 4, pp. 37 - 44.

18) Macintyre, Alasdair (1972) “Myth”, Encyclopedia of philosophy, Ed. Paul Edwards. Macmillan, London.

19) Macy, Michael, Robb Willer (2002) “From Factors to Actors Computational Sociology and Agent - Based Modeling”, Annual Review of Sociology 28.

20) Miles, Geoffrey (1999) “The Myth-kitty”, classical Mythology in English Literature: A Critical Anthology. Illinois University of Illinois Press.

21) Muller, Max & Smyth Palmer (2003) “Comparative Mythology”, Books. Google. com.

22) O’ Sullivan, Neil (1995) “Pericles and Protagoras”, Greece & Rome, vol. 42 (1).

23) Poleman, Horace (March 1943) “Review of Uranus - varuna: Etude de mythologie compareein indo europeenne, by Georges Dumezil”, http:\\links.jstor.org/sici=0003-0279.

24) Porter, John (2006, 8 May) “The Iliad as oral formulaic poetry”, University of Saskatchewan, Retrieved 26 November 2007. http: // en.wikipedia. org.

25) Powers, Willow Roberts (2000) “The Harvard study of values: Mirror for Postwar Anthropology”, Journal of the History of the Behavioral Sciences, 36 (1).

26) Reinhold, Mirer (20 October 1970) “The Generation Gap in Antiquity” (http: // links.jstor. org / sici ? sici = 003).

27) “Sacred texts, orphic Hymns” (http: // www. Sacred - texts. Phanespress Goscelyn Godwin).

28) Segal, Robert A. (1999) “Jung on Mythology”, Theorizing about Myth. Univ of Massachusetts Press.

29) Spyridakis, S. (1968) “Zeus is Dead: Euhemeris and Crete”, The Classical Journal.

30) Wood, Michael (1998) “The coming of the Greeks”. In search of the Trojan War. University of California Press.

- المواقع الإلكترونية:

1) Aeschylus, Prometheus Bound. See original text in Perseus program (http://www. perseus. tufts. Edu/cgi - bin/ptext? doc=perseus% 3Atext% A 1999. 01. 0009).

2) Aeschylus, The Persians. See original text in Persians program (http://www.perseus. tufts.edu/cgi - bin/ptext? Doc = perseus: Text: 1999.ol.co11: Line1 =).

3) Apollonius of Rhodes, Argonautica, Book 1. See original text in secred texts (http:// www.sacred-texts.com/cla/argo/argo 00.htm).

4) Blakency, Eh. The Hymn of Cleanthes: Greek text Tran. into English MacMillan company Download dable Google Books.

5) Cicero, De Divination (http://www.thelatin library.com cicero/divination 2.shtml).

6) Campbell, Joseph. Articles at the center for story and symbol (http://www.folkstory. com / cumpbell/).

7) Columbia Dictionary of Modern Literary and Cultural Criticism (1995), Ed Joseph Childers and Gray Hentzi. New York: Columbia University Press.

8) Encyclopedia Britannica, (2010) Romanticism” Britanica.com 2010

9) Gale, M.R. Mythology and Poetry in Lucretius.

10) “Greek Religion” (2002) Encyclopedia Britannica.

11) “Greek Mythology” (2002) Encyclopedia Britannica.

12) “Heracles (2002) “Encyclopedia Britannica.

13) Herodotus, the Histories (http://www.sacred.texts.com / cla/hh100.htm).

14) “Myth”, Encyclopedia Britannica (2002) Myth and Logos

(http://mythosandlogos.com / campbell.htm).

15) Ovid. Metamorphoses (http://www.thelatinlibrary.com / ovid/ovid.metl.shtml.)

16) Onja, Kathy (2008).

17) Pindar, pythianodes, pythian 4: for Arcesilas of cyrene chariot Race. 462 B. C. (http://www.perseus.tufts.edu / cgi-bin/ptext? look up=pind%2e+p%2e+42%e171ff2e).

18) Plato (http://www.perseus.tufts.edu / cgi-bin/ptext? doc=perseus% 3Atext% 3

A 1999.01723%Dtheat)

19) Pole man, Horace I (March 1943) "Review of Uranus - varuna. Étude mythologie comparée indo-europeenne by Georges Dumezil" (http://links. jstor.org / sici=0003-3%63 (194303) 0279Ag%3c783%A0EDMCI%3E2.0.co %3B2-T)". Journal of the American oriental society" 63 (No.1)

20) Reinhold, Meyer (October 20, 1970) the Generation Gap in Antiquity

(http://links.jstor.org / sici? sici=00033 114% (19701020)×049-A5% 3c34793 ATGGIA% 3B21-). proceedings of the American philosophical society 114 (No. 5)

21) Sacred texts, orphic Hymns (http://www.sacred - texts. Phanes Press Goscelyn

Godwin).

22) Segal, Robert A (April 4 1090) "The Romantic Appeal of Joseph Campbell (http://www.religion-online.org/ showarticle.asp?title - 766) Christian Century". Christian Century Foundation.

23) Stoll, h. W, Religion and Mythology of the Greeks.

22) the Joseph Campbell Foundation Website (http://www.jcf.org/)

23) "Trojan war" (1952) Encyclopedia the Helios.

24) "Troy" (2002) Encyclopedia Britannica.

25) Virgil, Aeneid, Iv. Kiering (1959) The Heroes of the Greek.

- الكتب الفارسية:

1) ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، ديالكتيك روشنگري (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية مراد فرهاد بور وأوميد مهرگان، إيران، طهران، منشورات «گام نو»، 2005م.

2) بابك أحمدي، معماي مدرنيته (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «مركز»، 1998م.

3) دسيدريوس إراسموس، در ستايش ديوانگي (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية حسن صفاري، إيران، طهران، منشورات «سپهر انديشه»، 1997م.

4) مهرداد بهار، پژوهشي در أساطير إيران (باللغة الفارسية)، تنظيم كتايون مزدا پور، إيران، طهران، منشورات «آگه»، 1996م.

5) رينيه ديكارت، تاملات در فلسفه أولي (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية أحمد أحمدي، إيران، طهران، منشورات «مركز نشر دانشگاهي»، 1990م.

6) برتراند راسل، تاريخ فلسفه غرب (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية نجف دريا بندري، إيران، طهران، منشورات «فرانكلين»، 1974م.

7) إتيان جيلسون، نقد تفكر فلسفي غرب (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية أحمد أحمدي، إيران، طهران، منشورات «حكمت»، 1994م.

8) جلال ستاري، أسطوره ورمز (سلسلة مقالات)، إيران، طهران، منشورات «سروش»، 1995م.

9) إيلين سيجال، چگونه إنسان غول شد (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية آذر آريان پور، الطبعة الخامسة، إيران، طهران، 1975م.

10) مريم صانع پور، نقدي بر مباني معرفت شناسي اومانيستي - دانش وانديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ وانديشه اسلامي»، 1999م.

11) مريم صانع پور، خدا ودين در رويكردي أومانيستي - دانش وانديشه معاصر (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «پژوهشگاه فرهنگ وانديشه إسلامي»، 2002م.

12) مريم صانع پور، فلسفه أخلاق ودين (باللغة الفارسية)، إيران، طهران، منشورات «آفتاب توسعه»، 2003م.

13) إرنست كاسيرر، فلسفه صورت هاي سمبليك (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية يد الله موقن، إيران، طهران، منشورات «هرمس»، الجزء الثاني (الفكر الأسطوري)، 1999م.

14) إرنست كاسيرر، فلسفه وفرهنگ (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية بزرگ نادر زاده، إيران، طهران، منشورات مؤسّسة الدراسات والبحوث الثقافية، 1981م.

15) إرنست كاسيرر، أفسانه دولت (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية نجف دريا بندري، إيران، طهران، منشورات «خوارزمي»، 1983م.

16) جيو ويدينغرين، جهان معنوي إيراني أز آغاز تا إسلام (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية محمود كندري، إيران، طهران، منشورات «ميترا»، 2002م.

17) كلود ليفي شتراوس، أسطوره ومعنا (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية شهرام خسروي، إيران، طهران، منشورات «مركز»، 2006م.

18) جمال موسوي، توين بي ونظريه پيدايش وسقوط تمدن ها (باللغة الفارسية)، مقالة نشرت في مجلة الإعلام الطلابي في فرع التأريخ بمدرسة الإمام الخميني العالية، العدد 2، ربيع 2008م.

19) فيرنر جايجر، پايديا (باللغة الفارسية)، ترجمه إلى الفارسية محمّد حسن لطفي، إيران، طهران، منشورات «خوارزمي»، الجزء الأوّل، 1997م. جاء هذا الكتاب ليلقي نظرةً على هذا الإنبناء الماضوي للحداثة والحضارة الغربيّة، ويوصل رسالةً واضحةً إلى دعاة التغريب والحداثة في العالم الإسلامي بأنّ الغرب علمانيٌّ في جذوره وأسسه وقد رجع إليها، كما أنّ العالم الإسلامي إيمانيٌّ وإسلاميٌّ في جذوره وأسسه فلا بد من الرجوع إليها. إنّ الماضي الإغريقي يشكل هويّة الغرب وقد تمسك به أشدّ تمسّك، كما أنّ الماضي الإسلامي والإيماني يشكّل هويّة العالم الإسلامي، فلا بد من الاهتمام والتمسك به.

هذا الكتاب

يهـدف هـذا الكتـاب إلى تظهـير البعـد الميثولوجـي لحداثـة الغـرب مـن خـلال الإضـاءة عـلى جذرهـا الممتـد مـن الإغريـق إلى أزمنتنـا المعـاصرة.

تبـيّن الباحثـة د. مريـم صانـع بـور عـلى مـدى فصـول دراسـتها التأسيسـات اليونانيـة للحداثـة في الغـرب، ولا سـيما لجهـة التركيز عـلى الجانـب الأسـطوري الـذي شـكل أحد أبـرز مكوِّنـات العقـل الحضـاري الغـربي.

الناشر

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com